إبراهيم عبد المجيد
طيور العنبر
رواية
دار الشروق
ALEXANDRIA
EGYPT.
JUNE. 1898.
PORT
PHAROS

طيور العنبر

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨
الطبعة الثانيـــة ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٢٢٩١١/٢٠٠٧
ISBN 978-977-09-2219-3

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

إبراهيم عبد المجيد

طيور العنبر

رواية

دار الشروق

إلى فـاطمـة

....

إبـراهيـم

«لى من الذكـريات أكثر ممـا لو كان عمرى ألف سنـة».

بودلير

«إنها أكثر مـن سكندريتنا، إنها سكندريتنا التى صنعناها، التى خلقناها مـن الروائح والأزهار والمحسـوسـات والخيـال والحب والتى هى باقـيـة، لأنه إذا افتـقـدتُ هذه الإسكندرية فماذا يتبقى لى..؟».

هارى تزالاس

القســـم الأول

(١)

لا أحد أمامه على امتداد البصر . ترعة المحمودية خالية من المراكب الكبيرة والصغيرة . ليس هناك ترام واحد يتحرك على الضفة الأخرى، وعلى يمينه ليس إلا طوب وأسمنت لبناء مدرسة جديدة تشغل جزءا من الخلاء الواسع الذى تحتله مخازن قسطنطين سلفاجو . مشهور سلفاجو اليونانى هذا فى الإسكندرية . مخازنه تشغل بقية الفضاء العريض من ترعة المحمودية حتى سور السكك الحديدية، وتمتلئ ببراميل الزيت والشحم وبالات الخيط ودوائر من الأسلاك والسيور الجلدية القديمة والحديدية وأشياء أخرى متنوعة وغريبة من معادن صدئة ومعادن تبرق فى ضوء الشمس . سلفاجو يمتلك حصصا كبيرة فى شركة الغزل الأهلية المصرية القريبة فى كرموز، والشركة المساهمة لتنظيف وكبس الأقطان التى تقع قريبا من مينا البصل فى الاتجاه المعاكس لكرموز، وفى شركة مصانع النحاس المصرية بسيدى جابر، وشركة الترام وغيرها، وهذه الأرض الفضاء الرحبة هى مخزن الخردة التى تلفظها كل هذه الشركات . يا الله، لا يوجد ناس الآن فى هذا الخلاء غيره هو . حتى عمال بناء المدرسة غير موجودين وليس اليوم عطلة، ولا الوقت مساء .

الوقت صباح، ضحى، وليس ثمة أحد غيره . هو وحده الموجود فى هذه الدنيا . هل هذا معقول؟ هذا الإحساس الغامض الذى قفز

فجأة في تجاويف رأسه، ثم وقف داخلها منتصبًا، ها هو يقفز ليقف أمامه بين عينيه، فوق أنفه مباشرة، ويبتسم له في سخرية. إنه يراه ويكاد يهشه بيده ليسقطه أمام قدميه لكنه لا يفعل. يتوقف وينظر خلفه فلا يجد غير امتداد الشارع الأسفلتي الذى حال سواده. لم يعد أحد يأتي يعتني بالشارع. قبل ذلك كان العام لا يدور إلا وقد جاء «وابور الظلط» يبلّط الشارع بالزفت الأسود والحصى الأسود البازلتي. هل لا تزال السماء مكانها؟. سؤالي حط عليه لا يعرف مصدره. ليرفع عينيه شيئًا فشيئًا. وجدها مكانها كما يجدها كل يوم. لو اختفت ماذا كان يمكن أن يحدث له؟ لا أقل من أن يموت في الحال. يرتعش جسمه ويتفتت وينهار لحمه حول قدميه ثم يتلاشى هيكله العظمي. يصير ترابًا أبيض. ابتسم. أين يمكن أن تختفي السماء يا عربي؟. حتى الحرب لم تقم بعد، قد لا تقوم بالمرة، - كانت قوات إسرائيل قد عبرت حدود سيناء أمس ولم يكن يعرف حتى الآن - ولاحظ أن السماء اليوم بعيدة بعض الشيء. بل بعيدة أكثر من كل يوم. يستطيع أن يراهن على ذلك. سحب رمادية وسوداء جاءت تجرى من الشمال والشمال الغربي معطلة ضوء الشمس للحظات فاتحة الباب لهبة ريح خفيفة باردة. لكن على عكس ما يحدث في مثل هذه الحالات، لم يشعر باتساع الدنيا. أحس أنها ضيقة مثل علبة باردة، مثل صندوق سمك زجاجي. هو إذن سمكة وإن كانت غير ملونة تتحرك في مساحة صغيرة وتصطدم «ببوزها» كل حين في الجدران الزجاجية. سمكة مسكينة لا تكف عن الحركة ولا تتفادى الاصطدام، والبرد يدخل إليه منعشا من الكم النصف للقميص الأزرق السماوى الواسع الذى يحرص على كي ياقته بالنشا كما يحرص على فرد شعره بالصابون وعمل «بوف» ينكسر فوق جبهته العريضةاللامعة تماما كما

ينكسر «بوف» جيمس دين. «الجيليه» الخفيف فوق القميص لا يكفى لصد البرد المفاجىء. ليس ذلك مهما على أى حال. لا يذكر يوما واحداً شعر فيه بالدفء. حتى عند «كاتينا»، فى اللحظات الجميلة التى ينفردان فيها معا، لم يكن يفارقه الصقيع. لا تحبه كما يحبها، ومصيرها الرحيل ذات يوم. تقول دائما.

ما يخيفه، الآن، بحق، هو هذا الإحساس بأنه وحيد فى الدنيا، وأن العالم صغير يبدأ وينتهى بعد خطوة، وأنه قد يسقط بعد هذه الخطوة فى حفرة.

ولم يسقط. انتبه إلى أن الأرض مستوية وجامدة. لقد انشقت فقط منذ قليل وأخرجته. إنه مخلوق فى التو، لا يذكر شيئًا من ماضيه ولا يعرف أين يقصد بالضبط. وإذا لم تكن الأرض هى التى انشقت وأخرجته، فإنه الله هو الذى قذفه من السماء. أجل. أمسكه من قفاه و«بنترة» صغيرة من إصبعه قذفه إلى الأرض فاخترق كل هذه الحجب والسموات الطباق، ولما رآه مسكينا حائرا فى الفضاء قال له انزل يا عربى إلى الأرض بسلام! هنا فى شارع قنال المحمودية حيث لا يوجد أحد غيرك الآن!. ليس خلفه إذن ثلاثون سنة من العمر، فهل أمامه شيء؟ لقد حمله الهواء العجيب إلى هذه الدنيا من حلم عميق، بئر، حلم كالبئر، بئر كالحلم، وصار موجوداً وإن لم يشعر أحد بوجوده. كيرك دوجلاس، الممثل القوى الرشيق ذو النونة العميقة فى ذقنه خدع الوحش الرهيب ذا العين الواحدة بعد أن كان حبسه وبحارته فى المغارة وراح يأكل واحداً منهم كل يوم. سقاه خمراً فأسكره ولما سأله عن اسمه قال له «لا أحد»، ثم فقأ عينه الوحيدة بعد أن غلبه السكر وفر من المغارة هاربًا ومعه رجاله. ملأ زئير الوحش الجبال وهو يبكى خلفهم حتى اجتمعت حوله الوحوش وسألته من الذى فعل بك

ذلك؟ فقال «لا أحد» فوقفت عاجزة ولحق كيرك دوجلاس وبحارته بالسفينة وعادوا إلى بلادهم. سليمان شاهد الفيلم وقال إن كيرك دوجلاس كان موجودًا، لكن الوحش لا يراه، فهو إذن غير موجود. وهكذا الواحد لا يكون حيًا إلا إذا رآه الناس وتعاملوا معه وإلا سيكون مثل «لا أحد». لكن العربى لا يقتنع بهذا الكلام الصعب لسليمان رغم أنه يشعر بأن هذا الكلام له قيمة كبيرة!. ما يضايقه الآن ليس أنه وحيد فى الشارع، لكن خوفًا غريبًا أن تنشق الأرض وتبتلعه إلى حيث كان، إلى الحلم أو البئر، أو يأخذه الله إلى السماء فى طرفة عين. بقسوة أو بلين فهو الله يفعل ما يشاء. بيد من نار أو بيد من ماء!. وقد يسمح له أن يراه مثل سيدنا موسى عليه السلام، أجل. يمكن أن يكافئه الله برؤيته، هو العربى المسكين التعيس الخائب.

كادت دموعه تطفر منه، وجاهد ليمنعها. صار رأسه فارغًا وراح فمه يبحث عن كلام. الصمت يكاد يخنقه، فليتكلم بأى شىء حتى ولو إلى لا أحد!.

وراح يحرك شفتيه لكن لا صوت يخرج منهما، وحين خرج الصوت وسمعه لم يفهم ماذا يقول. كان نصف الكلام قد مضى فى الصمت!. أجل. قال النصف الأخير من الجملة فلم يعرف لها معنى. سليمان قال إن كيرك دوجلاس قام بدور «أوليس». استقام للعربى الكلام، «أوليس» بطل يونانى مكار شديد الحيل كما قال سليمان، لكن كاتينا لم تحدثه أبدًا عن أوليس، واليونانيون فى الإسكندرية طيبون يعملون بجد ولا يبدو أحد منهم مكارًا شديد الحيل.

يا عربى! كيف تعرف؟ نعم كاتينا طيبة جدا وليست ماكرة أبدا كأوليس.

«لازم أرابى بعد ليل فيه نهار» تقول دائمًا. لا بد يا عربى من فرصة كبيرة لك يومًا ما. أنت شخص حلو. تقول وهو يعرف إنه وسيم لا ينافسه فى الرشاقة إلا رشاد الذى التحق بالقوات البحرية وراح يختال ببدلته البحرية البيضاء والشرائط الزرقاء، لكنه فى النهاية عسكرى تافه. لطفى السائح يحاول أن يكون وسيمًا مثله لكنه لا يستطيع، يبالغ فى كى ملابسه ووضع الفازلين على شعره لكن العربى يظل الأكثر أناقة دائمًا، لذلك لم يتطوع ليكون جنديًا فى البحرية كرشاد، وهو للأسف لا يستطيع أن يكون ضابطًا، فهو لا يحمل أى شهادات، ولا يستطيع رغم الأناقة أن يكون مدرسًا ابتدائيًا مثل لطفى. لطفى يتفوق بالعلم إذن، لكنه مسكين لم يمنع العلم أن تنكسر عظامه فى أى لحظة كلما اصطدم بشىء.

لقد توقف لطفى من زمان عن اللعب معهم بالكرة الشراب، لأنه فى كل ماتش كانت رجله تنكسر، وتوقف عن الهزار مع أى شخص لأن أى شخص يستطيع إذا لوى ذراعه أن يكسرها. اعتزل لطفى الجميع وانكب على المذاكرة فصار مدرسًا. منذ سنوات خرج فى مشوار غرامى مع إحدى زميلاته وجلسا بحدائق الشلالات قرب تمثال نوبار باشا. وهما يغادران المكان كانت هناك بقعة فى الأرض عارية من النجيل، وكانت زلقة بفعل الأمطار التى هطلت فى الصباح فانزلق لطفى وسقط على مقعدته فانكسر فخذه. توقف بعدها عن الحب والغرام!

لا لطفى ولا رشاد لديهما إمكانياته فى القوة والجمال. لكنه أمر محزن حقًا لو مات رشاد فى الحرب، منذ أيام قيل إنه ممنوع من العودة إلى البيت بسبب حالة الطوارئ العسكرية المعلنة فى البر والبحر والجو. محمود الملاح أيضًا تم استدعاؤه إلى الجيش. ظهر «المدّثر» شيخ الحارة

فهتف محمود الذى كان يجلس مع العربى، كلاكيت أخر مرة يا محمود. ثم قال ظهر الفساد فى البر وأبلغه المدّثر بضرورة تسليم نفسه لمنطقة التجنيد فى الحال.

لطفى لم يخدم فى الجيش بسبب هشاشة عظامه. هل كان ممكنا؟ كان التدريب يفجره عشرات القطع فى الفضاء. العربى أيضًا لم يخدم فى الجيش. بسبب أن فى قدميه «فلات فوت». الجيش كان سيحرمه كثيراً من كاتينا، الحرب كان من الممكن أن تحرمه منها إلى الأبد. أتيليه كاتينا جميل تعوَّد على العمل فيه منذ عشر سنوات الآن. يجلس بالباب يستقبل النساء الداخلات ويودع الخارجات، يفتح لهن الباب ويغلقه خلفهن. كثيراً ما يصحبهن إلى بيوتهن حاملا فساتينهن الجديدة. النساء باهرات الجمال كألوان القماش الذى يحملنه لهن رائحة جديدة مثل القماش دائمًا. كلهن يحببن أن يقدم العربى لهن القهوة بالحبّهان والشاى بالنعناع، وكلهن يأخذن رأى العربى فيما يرتدين عند البروفة وهو فى الحقيقة لا ينظر إلى القماش، بل إلى ما تحت القماش ويبدو أنهن يدركن ذلك من نظراتهن وابتساماتهن، أكثرهن أجنبيات فلا يجدن مشقة أن ينظر إليهن رجل كالعربى يتفحصهن ويمضى بقية اليوم صامتا. إنه لا يتكلم معهن أبدا، لكنه لا يكف عن توزيع ابتساماته عليهن وهن يتحركن أمامه كالفراشات.

يجمع آخر النهار ما تناثر على الأرض من قصاقيص، وينظف المكان، وتنصرف الخياطتان، جورجيت المسيحية، وأسمهان الإيطالية التى لا يستطيع أن يصدق أبدا أن اسمها أسمهان! . تبقى كاتينا وحدها. إنها تعيش فى الغرفة الصغيرة فى طرف الشقة الكبيرة بحيث لا يبدو من اتساع الأتيليه أن هناك هذه الغرفة وأن كاتينا تعيش فيها.

تجلس متعبة على الفوتيه والعربى يقعى تحت قدميها فوق الأرض يصب لها قدحا من النبيذ القبرصى الأحمر، ويشوى لها «أبو فروة» على الموقد الكحولى فى أماسى الشتاء، ويصب كأسا لنفسه ويتهيأ لسماع القصة التى لا تملها كاتينا.

« عارف عربى، ياناكيس كان حبيبى. زوجى لكن حبيبى أكثر. عارف عربى. ياناكيس كان يساريًا. أنت لا تعرف ماذا تعنى كلمة يسارى؟. يسارى عربى تعنى شيوعى، تضحك. أنت لا تعرف ماذا تعنى كلمة شيوعى، يعنى لا يحب الملك، ملك يونانى ملك مصرى ملك إنجليزى، ملك أى بلد. كان يحب العمال. يحب ستالين. يكره هتلر، يكره النازى. النازى دخل أتينا عربى ياناكيس سافر يحارب مع العصابات. عصابات يعنى جيش صغير مثل عصابة اللصوص لكن لا يسرق. يظهر ويختفى بسرعة بعد أن يضرب قوات النازى. هذا كان فى الحرب العالمية الأخيرة عربى. ياناكيس مات فى جبال اليونان.

زميله حضر هنا وأعطانى محفظة ياناكيس كان فيها صورته وصورتى وصورة بنتنا الصغيرة فيدرا. فيدرا الآن عربى فى أتينا مع زوجها سيفيريس. أنا هنا وحيدة عربى».

ـ وأنا أيضًا وحيد كاتينا.

قال لها ذلك بالأمس كما قاله مرات كثيرة سابقة. قالت:

ـ لا. هناك معجبة تريد أن تتزوجك عربى.

ـ من؟

ـ راشيل زهاف.

لم تقل ذلك من قبل. أمس فقط قالت ذلك. صدمته المفاجأة.

ـ راشيل. راشيل زهاف عندها خمسون سنة كاتينا!

ضحكت وقالت:

ـ لكنها تحبك عربى.

ـ أنا أحبك أنت كاتينا.

ـ أنا أيضًا عندى خمسون سنة عربى.

أنا أراك فى العشرين كاتينا.

ـ أنت واحد مجنون عربى. أنا لازم يأتى يوم أسافر أتينا.

ـ لكن لن أتزوج غيرك كاتينا.

ـ خلاص عربى أسافر أنا وتبقى أنت من غير زواج. أنا أيضًا لن أتزوج فى اليونان. أنا تزوجت مرة. كان ياناكيس حبيبى عربى. كان يسارى. أنت لا تعرف معنى يسارى. يعنى شيوعى عربى. أيضًا لا تعرف معنى شيوعى. كان يكره الملك. ملك مصر ملك يونان ملك إنجلترا، أى ملك فى أى مكان. كان يحب ستالين. كان مجنونًا، أنت أيضًا مجنون عربى.

وجذبته من شعره الناعم واضعة رأسه فى صدرها. كانت زجاجة النبيذ قد فرغت فنهض بصعوبة ليأتى بغيرها لكنها طلبت منه أن يضع فى البيك أب أسطوانة لأم كلثوم التى يحبها. وضع أسطوانة تحمل أغنية الآهات فقالت كاتينا:

ـ غيِّر الأسطوانة عربى. لا داعى للآهات الليلة. سمعنى على بلد المحبوب ودينى.

صدحت أم كلثوم فراحت كاتينا تتمايل طربًا، وابتهجت، وقالت:

ـ تعرف عربي لو حصل إني تركت مصر لازم أعطيك ساعتها خمسين جنيهًا تبدأ بها مشروعًا كبيرًا في حياتك.

لكنها سرعان ما استغرقتها الأغنية واندفعت في البكاء. ارتبك العربي لكنه استطاع أن يقف من جديد ويحملها إلى سريرها. أنامها وغطاها كما يفعل في معظم الليالي وقبلها فوق جبينها لكن يبدو أنها لم تعد تشعر به. تسلل خارجًا من الغرفة ثم من الأتيليه، حين لامست قدماه أرض شارع الكنيسة الإنجيلية، تطلع إلى الكنيسة القريبة من البيت، وإلى هدوء الشارع بالليل الذي لا يختلف كثيراً عن هدوئه بالنهار، وفكر لو أن كاتينا غادرت البلاد حقا في يوم ما وتركت له الخمسين جنيهًا لن يبدأ بها أي مشروع، سينفقها كلها في الملاهي على الكورنيش، المونسينور والأجلون والأكسلسيور وعطيات حسين وميرامار واللؤلؤة الزرقاء وذا شيب وغيرها، وسيخرج من آخر ملهى يسهر فيه صافقا الباب خلفه قاطعا الهواء ورذاذ الموج إلى سور الكورنيش، صاعدا فوق السور ثم يقف لحظات يأخذ فيها نفسا عميقًا، ويتأمل فيها البحر الهائج، ثم.. ثم.. يلقي بنفسه وسط ظلام الماء. أجل. الكثيرون يفعلون ذلك بالليل هذه الأيام!!

(٢)

بين أشجار الكافور والكازولين والسدر المحيطة بسور مستشفى الأمراض الصدرية يمشي إبراهيم مرسي الهويني مع نادية سلام. أمامهما مساحة من الخلاء الأسفلتي الرائق تنسكب عليه الأضواء

الواهنة للشمس الهاربة من بين السحب السوداء والرمادية تصنع خيالات تتراقص لأوراق الأشجار الصغيرة الصامدة للخريف.

مساكن عمال وموظفى البلدية ذات القرميد الأحمر والأصفر تبدو قوية نظيفة وعلى اليسار الحديقة الصغيرة التى سيجلسان بها بعد قليل. نادية فارعة الطول بالنسبة لفتاة فى سن السادسة عشرة، عالية الرقبة كالزرافة! رشيقة القد ترتدى فستانًا طويلاً، شانيل وإن لم تعرف ذلك، وفى يدها «بوك» نقود صغير أسود ومنديل أخضر به ورود بيضاء. لنادية وجه مستطيل وشعر أسود غزير تركته طويلا خلفها، عيناها سوداوان واسعتان وبشرتها خمرية رائقة وصدرها مرتفع تحت الفستان غير متسق بارتفاعه الزائد مع رشاقتها. لا يعرف أحد أن نادية تتعمد زيادةارتفاعه بما تضعه أسفل نهديها من قطن داخل السوتيان!.

تمشى نادية واسعة الخطى بسبب ساقيها وتبدو دائمًا جادة فى الطريق تعرف أن عيون الرجال تتعلق بالنساء وأن بين الرجال والشباب طائفة «وسخة» ليس لهم من شغل غير تلقيح الكلام على البنات والنسوان فى الطرقات. هكذا سمعت أمها تتحدث كثيراً ولم تعرف أبدا كيف عرفت أمها ذلك فلم يحدث أن رأتها تخرج من البيت!. الآن تمشى نادية الهوينى أيضًا مع إبراهيم الذى استحم اليوم بصابونة بريحة كان مرفقا معها صورة لمارلين مونرو تضحك ويكاد يسمع صوت ضحكتها فى الحمام. لقد وضع على يديه وشعره قطرات من كولونيا الياسمين التى يخبئها فى مكان لا تصل إليه أيدى أخواته البنات كما سمع لطفى السائح يتحدث مرة عن كولونيا الشبراويشى خمس خمسات التى اشتراها وكان أول من أدخلها إلى المكان بين الشباب. لإبراهيم مرسى

وجه مستدير منفوش وبشرة صفراء قليلا وباهتة وشعر أسود وعيناه عسليتان . قالت نادية بصوت هادئ .

ـ لماذا تأتى إلى هنا دائمًا يا إبراهيم؟

ـ أمان . هنا أمان يا نادية .

بدا لها الأمر مثل اللغز . ألا يوجد بالإسكندرية مكان آخر يتسم بالأمان؟ من قبل أخذها إلى نهاية ترعة المحمودية ، بعد كوبرى التاريخ حيث الخلاء الكبير ، لكنها خافت من المبانى ذات النوافذ الكبيرة المغلقة بشباك السلك الضيقة لا يظهر خلفها شىء من فرط ما علق بها من ندف القطن . قطن قديم أصفرّ لونه وقطن جديد شديد البياض وقطن أشد قدما سوّد من لونه الغبار المتراكم . من على شاطىء المحمودية المهجور هنا كان يمكن أن ترى أعالى السفن فى الميناء ، سفن بيضاء المداخن وسوداء بعضها ، صواريها تحمل أعلاما ملونة تحيط بها رءوس الأوناش العالية التى تبدو مثل حيوانات خرافية قديمة . قال إبراهيم ذلك اليوم إن المكان أمان ، فعمال مستودعات القطن الضخمة هذه لا يظهرون إلا فى ساعات محددة من اليوم ، السابعة صباحًا والثالثة بعد الظهر والحادية عشرة فى المساء ، مواعيد الورديات ، بين ذلك ليس غير الصمت وبعض طيور تسبح فى الفضاء . الساعة كانت حوالى السادسة والوقت كان صيفًا ، وبدا المكان الصامت متسعا بالخوف الواسع وسع الكون . قال إبراهيم لها ذلك اليوم إنه قد يأتى «عيال صيَّع» قطاع طرق من باب الكراسته أو سوق الجمعة أو كوم الناضورة فيضايقونهما ويأخذون ما معهما ، لكنه استعد لذلك بمطواة بسستة أخرجها أمامها وضغط على زرار عند رأسها فانفتح سلاحها الأبيض حادا أمامها فانكمشت من الرعب لكنها ابتسمت وقالت ساخرة . .

ـ وماذا معنا ليأخذوه؟

ارتاحت قليلا للهواء المنعش الودود المتحرك بتؤدة قادما من الميناء ساريا بين المباني الرطبة، لكن الهواء الوديع هذا وحده لا يكفي للمغامرة بالحضور إلى هنا دائما. لقد تركا خلفهما «مَرْسى» الفلائك، الملونة عند كوبرى التاريخ، تاقت نفس نادية لاستئجار إحداها، لكن إبراهيم خشى أن يراهما أحد يتنزهان فى الترعة. قال لها إذا أردنا أن نفعل ذلك فعلينا أن نذهب إلى المرسى البعيد هناك فى الناحية الأخرى عند حديقة الحيوان، لم يكن أمامهما إلا الإيغال فى الصمت، صمت المبانى وصمت الأزقة البازلتية الضيقة بين المستودعات وصمت الفضاء الكبير وصمتها معا.

فجأة برز شاب وفتاة أمامهما لكن على مسافة بعيدة. قبل أن تعلق نادية بكلمة أو إبراهيم رأيا الشاب يركن الفتاة على جدار أحد المستودعات ويضغط عليها بجسده كله ويقبلها وهذه الفتاة التى اختفت وراء جسده، هى بدورها أحاطته بذراعيها، ثم لاحظت نادية إنهما شيئا فشيئا ينزلان معا إلى الأرض. لقد أمسك إبراهيم بيدها وضغطها بقوة لكنها سحبتها منه بسرعة وطلبت أن يعودا على الفور. لم تنتظر رده، جفلت واستدارت عائدة وهو يلهث ليلحق بها. شعر أنها أقوى منه على المشى، حتى إذا ابتعدا كثيرا وقفت غاضبة تتسع عيناها بالشر وهو خائف حقيقة من غضبها، لكن صورة الفتاة والشاب وقد تمددا على الأرض لم تكن قد فارقتها بعد، وجدت نفسها تبتسم، واتسعت ابتسامتها شيئا فشيئا، حتى ضحكت وطلبت منه ألا يأتى بها إلى هنا بعد اليوم!.

اختار إبراهيم الحديقة الصغيرة أمام مستشفى الصدر. حديقة متسعة

بها أكثر من شجرة توت وسنديانة قديمة ضخمة وعدد من أشجار اللبخ.

قال لها إنه بالإسكندرية توجد حديقة الشلالات الجميلة لكنها فى العادة تمتلىء بالعشاق وقد يكون هناك من يتعرف عليهما، وتوجد حديقة الحيوان. أو النزهة كما يسميها الناس فى الإسكندرية، ولا يختلف أمرها عن الشلالات، أما حدائق المنتزه فهى بعيدة جدا وممنوعة حتى الآن على الشعب. ليس ثمة حديقة آمنة إذن إلا هنا حيث لا يأتى غير بعض الفلاحين يزورون مرضاهم، يجلسون بالحديقة، يأكلون، ويشرثرون، ثم يختفون بعد قليل ولا يظهر إلا رجل متعب جاء يستريح بعض الوقت قبل أن يستأنف سيره، وربما امرأة مجهدة، وعادة كلب وحيد لا يكف عن الدوران فى لا مبالاة، وغالبا قطة بائسة.

قالت نادية:

ـ كلما جلست هنا رأيت رجلا ينظر ناحيتى من نافذة الدور الأخير.

نظر إبراهيم ليرى الوجه الشاحب لرجل زائغ النظرات.

ـ إنه لا ينظر إليك يا نادية. انظرى إلى كل النوافذ ستجدين وراءها مرضى ينظرون فى الفضاء البعيد.

ـ مساكين.

قالت نادية ولم يرد إبراهيم فعادت تقول:

ـ أنا أعرف أن السلّ مرض قاتل وأن هذا مستشفى للسل.

وسكتت حتى قال إبراهيم.

ـ دعينا من الكلام فى الأمراض. حدثينى ماذا فعلت أمس؟

لكنها لم تتكلم. ظهرت قطة تمسك بفأر صغير بين أسنانها وتمشى على مهل تتلفت يمينًا ويسارًا ثم اختفت تحت الأشجار القصيرة لسور الحديقة رفعت نادية رأسها جافلة إلى الفضاء فوقعت عيناها من جديد على الرجل الذى لا يزال ينظر إليها من أعلى نافذة بالمستشفى. لقد تأكد لها الآن ذلك فهو يبتسم وترى ابتسامته، بل يلوِّح بمنديل أبيض. أغمضت عينيها وأطرقت.

ـ فى مثل هذه الحالة لا تتابعى المشهد.

كان يقصد القطة، وكانت تتشرب مشهد المريض فى حالة هى مزيج من الدهشة والغبطة ولم تشعر بإبراهيم وهو يضع ذراعه حول كتفيها حتى أن سخونة صعدت فى جسدها فجأة ولم تعرف سببها الحقيقى، صدمة مشهد القطة أم غرابة مشهد المريض أم ذراع إبراهيم. بينما إبراهيم نفسه راح يفكر على نحو مفاجئ أن نادية هذه قد تكون بنت عبيطة، فهى أطول من بقية البنات، وتمشى مسرعة، وإذا ضايقها أحد هزت كتفها، وقالت «سمّ» ثم مطت شفتيها، لكنه يحبها ولا يعرف السبب!

ـ هل تعرف ماذا يمكن أن يحدث يا إبراهيم لو رآنا أحد؟

ـ أعرف. قريبا سأجد عملا بالدبلوم وأتزوجك.

ـ أنا خائفة يا إبراهيم. أهلى صعايدة وأهلك فلاحين.

ـ لكنى متعلم ولن يرفض أهلك.

ضايقتها إجابته. لم تستمر فى التعليم. لم يوافق أبوها قط. فى المساكن كلها لا تجد بنتا قد استمرت فى التعليم غير مريم القبطية التى هى أصغر منهن جميعًا والتحقت بالمدرسة الإعدادية هذا العام، ونوال

التى تخرجت فى مدرسة التمريض وتعمل فى المستشفى الأميرى. كل البنات اللاتى التحقن بالمدارس تركنها وهن بالكاد فى السنة الثانية الابتدائية. كان هو قد أخرج صورة كارت بوستال من جيب قميصه، ووضعها أمام عينيها فهتفت.

ـ الله! عبد الحليم حافظ. الله. أنت أيضًا معه! كيف؟

ـ هذا سر.

تهدج صوت نادية وهى تقول.

ـ نفسى أشوف فيلم لعبد الحليم.

ـ تعالى معى غدا إلى سينما ركس. فيها فيلم «أيام وليالى».

ـ هل تريد أن يقتلنى أبى؟

سكتا قليلا بينما هى التى صارت الصورة معها الآن راحت تتأملها مندهشة من كون إبراهيم يحتل مربعا صغيرا عند كتف عبد الحليم حافظ، قال إبراهيم..

ـ عملية تكنولوجية معقدة.

ـ نعم!؟ ماذا تقصد؟

ـ لقد دفعت لكاكايان ربع جنيه كاملاً ليفعل ذلك.

ـ كاكايان. من هو كا.. كا.. يان.

ـ مصوراتى أرمنى ابن هرمة عند أبو الدرداء.

ـ اسمه كاكايان.

ـ أجل.

ـ يعيش كاكايان.

هتفت نادية واندفعت فجأة فقبلته بسرعة على شفتيه فأسكرته القبلة والدهشة معا ولم يستطع الكلام. جرت المتعة، البهيجة العجيبة الممزوجة باللذة، من شفتيه إلى جسمه كله. بهجة عارمة دارت بالجسد بحق فقد كانت هذه أول قبلة فى حياته. لقد انطبعت شفتاها على شفتيه وانتقل تيار من العسل إلى دمه فتشبعت روحه بالسُكْر والنشوة حتى لكاد يطير، هو نفسه، أمام عينيه! وظل واقفا متسع العينين فى ذهول كاملَ كانت قد اتجهت إلى شجرة السنديان الكبيرة ووقفت تحتها تنظر إليه فى خجل حقا فعلت ذلك. ؟ لقد كانت أول مرة أيضًا تقبل فيها رجلا.

لم تكن تعرف أن القُبلة تأتى بكل هذا الفرح الذى يكاد يشع من مسام جسدها، ولا أن القبلة تطلق كل هذه العصافير من صدرها. مشى هو كالتائه نحوها حتى إذا اقترب منها عاد يحيط كتفها بذراعه، فقالت بصوت خفيض وألم حقيقى:

ـ هل ستكرهنى يا إبراهيم. ستكرهنى. أليس كذلك؟

ولم يكن قد عاد من أرض النشوة بعد. قالت:

ـ هيا نعود.

ثم بهدوء أبعدت ذراعه عن كتفيها ومشيا لدقائق صامتين حتى سمعته يقول بصوت خفيض «الله». كانت تعرف أنه لا يزال منتشيًا من أثر القبلة، هى كذلك لا تزال، لكنها لا تستطيع أن تعلن هذا الانتشاء، لم تكن هى التى قبلته، قوة خفية دفعتها لذلك، وهى لن تغفر لنفسها أبدا هذا الضعف. سألته.

ـ أنت شفت فيلم أيام وليالى؟

ـ طبعا.

ـ من الممثلة؟

ـ آمال فريد.

ـ حلوة؟

ـ صوتها حلو مثل صوت الأطفال.

سأل نفسه لماذا سألته هذا السؤال ما دامت لا تعرف الممثلين ولا الممثلات ولا تذهب إلى السينما.

ـ أنا أقصد شكلها.

تردد وتلعثم. أدرك أنه لا يستطيع بحق أن يصف جمال امرأة. لم يسبق له أن فكر في ذلك. لا يستطيع أن يقول أكثر من حلوة أو وحشة!

وبدأ يتذكر كلمات المتنطعين الصيّع الجالسين على الدَرَج عند مدخل القبو المؤدى إلى الملاحة وهم يصوبون كلماتهم إلى النساء ويتغزلون فيهن. حديثهم دائما وقح عن الأرْجُلِ والبطن والسوّة والعيون والأرداف!.

إن أحدا لا يعرف من أين يأتى هؤلاء المتنطعون يترددون على المكان، يعرف الناس أسماءهم لكنهم لا يعرفون أين يختفون آخر النهار ولا إلى أين يذهبون، ويعودون دائما فى اليوم التالى. . أدرك فجأة على نحو غامض ومثير أن الممثلة آمال فريد هذه ذات الصوت الطفولى، ضئيلة الجسم ضيقة الخصر بارزة الصدر رغم اكتناز كتفيها والأكثر إثارة فيها حقا هما شفتاها الممتلئتان. ها. لقد صار خبيرا بالشفاه بعد القبلة الأولى بدقائق! كما أن لآمال فريد بشرة خمرية مريحة وأهدابًا طويلة ونظرة بريئة ثاقبة، لكن أجمل ما فى هذه

الـممثلة بحق هو الحذاء ذو الكعب العالى الذى يتيح لها الحركة كفراشة بفستانها الطويل واسع الذيل، الكلوش. لكنه تردد أن يقول لنادية ذلك. قال:

ـ شكلها معقول.

سمع أباه مرة زمان يصف قريبة له أمام أمه فسألته كيف حقا عرف ذلك كله إن لم يكن ينظر إليها بعينين شرهتين. ولمح نادية تبتسم فى سعادة، ربما زهو، لعلها أدركت أن الممثلة ليست جميلة، وكانت بالفعل تفكر فى ذلك، لكنها قالت لنفسها، ومن أنا حتى أقارن نفسى بها؟ وران على وجهها شىء من الكدر فتساءل إبراهيم:

ـ ماذا بك يا نادية؟

لم ترد. قالت لنفسها تريدين إبراهيم وها هو معك فلماذا تفكرين فى عبد الحليم حافظ وتريدين منافسة آمال فريد فيه؟ ثم إن عبد الحليم الحقيقى مريض وفى لندن يعالج كما يقولون والفيلم كله تمثيل فى تمثيل.

قالت بهدوء.

ـ إبراهيم. يظهر إنى جننت. تصور غرت على عبد الحليم حافظ من آمال فريد. خفت أن يتزوجها.

سكت إبراهيم ولم يعرف ماذا يقول ثم فجأة هتف:

ـ سأمنع هذه الزيجة بأى ثمن.

فانطلقا يضحكان فى الفضاء الواسع بين سور المستشفى الخلفى وورش ترام كرموز. لقد ابتعدا عن الحديقة فى طريق عودتهما.

جريا إلى جوار سور الورش العالى الذى تعلوه قطع من الزجاج تمنع اللصوص من الصعود فوقه والقفز داخل الورش. توقفا وقال إبراهيم:

ـ عبد الحليم يغنى فى الفيلم أغنية جميلة جداً.

لكن انفجارا دوى فجأة فى الفضاء. ظهرت عربة جيش عالية قادمة فى سرعة من ناحية المحمودية محملة بصناديق من الذخائر، وخلفها ثلاث عربات أخرى على كل منها مدفع طويل رفيع وعدد من الجنود، التفت إبراهيم ونادية ليريا إلى أين تذهب هذه العربات فوجدا أنهاراً من الأطفال تأتى من كل ناحية إلى الحديقة كأنهم سيول أمطار تجرى من فوق الجبال إلى الوديان تملأها هديرا. لقد امتلأ الفضاء بحق بهدير الأطفال وهم يصيحون:

«حنحارب. حنحارب كل الناس حتحارب» ارتعدت نادية، أمسكت بيديها فى ذراع إبراهيم.

ـ ماذا جرى يا إبراهيم؟

ـ يبدو أن الحرب قامت يا نادية.

ـ من أين جاء هؤلاء الأطفال؟

ـ من المدارس. لا بد أن الحكومة أغلقت المدارس اليوم بسبب الحرب.

ظلا يتابعان الحديقة التى تمتلىء بالأولاد والصياح، هو فى دهشة وهى فى ذعر.

ـ طيب وعساكر الجيش أين يذهبون؟

ـ لا أعرف يا نادية، العربات وقفت أمام الحديقة. ربما هى مدافع مضادة للطائرات سينصبونها فوق المستشفى.

ـ أنا خائفة يا إبراهيم .

ـ لا تخافي . هذه احتياطات مهمة . لا أظن أن إنجلترا تقدر ترجع مصر مرة ثانية .

ـ أنا أكره الإنجليز يا إبراهيم . هيا نسرع .

ـ وأنا أيضًا يا نادية .

قال ذلك وأسرعا في الطريق الذى عاد إليه الهدوء كلما ابتعدا حتى إذا صارا وحدهما في الكون الواسع من جديد قالت له فجأة وقد أمسكت بذراعه وتطلعت إلى عينيه :

ـ غنها لى يا إبراهيم . غن لى أغنية لعبد الحليم حافظ . الأغنية التى سمعتها فى الفيلم .

نظر حوله فلم يجد أحدًا فى هذه المساحة الكبيرة من الخلاء بين سور الورش وسور المستشفى ومساكن البلدية . دائرة واسعة من الفضاء البهى وخضرة الأشجار . أغمض عينيه وأتى صوته خفيضًا ناعما . .

«كفاية نورك علىّ»

«نور لى روحى وقلبى»

«خلاَّنى شفت بعنيى»

«اللى انكتب لى فى حبى»

ولأنها سمعت الأغنية كثيرا بالإذاعة اشتبك صوتها بصوته :

«قربت على ضيك»

«كلام جميل زيك»

«كفاية نورك علىّ»

وانطلقا ضاحكين، لكن ظهرت المحمودية قريبة جدا منهما فقال إبراهيم:

ـ لقد وصلنا إلى الحدود يا نادية.

كانت هذه آخر نقطة يمكن له أن يصحبها إليها. عليها الآن أن تكمل الطريق وحدها إلى المعدية تنقلها إلى البر الثانى حيث «المساكن»، أما هو فسيعود إلى حيث كان ثم يدخل كوم الشقافة مواصلا المشى فى شارع باب الملوك حتى تقاطعه مع شارع عامود السوارى فينحرف يمينًا إلى كوبرى كرموز حتى يعبره ثم ينحرف يمينا مرة أخرى ليقطع الكيلو متر الذى يفصل المساكن عن الكوبرى، تكون نادية قد عادت قبله بكثير إذ تستغرق دورته هذه أكثر من نصف الساعة. هذه هى الطريقة الوحيدة للتمويه على الآخرين!

وقف قليلا ينظر إليها كأنه لن يراها مرة ثانية. كانت هى أيضًا تفعل ذلك.

ـ إبراهيم. لا بد أن نتقابل فى مكان آخر بعيداً عن المستشفى.

ـ أنا أيضًا أفكر فى ذلك يا نادية.

تركته مسرعة وأخذت تخب المسافة القليلة الباقية من سور الورش ثم الفضاء الواقع بين الورشة والمعدية والذى يمكن فيه لأى شخص فى البر الثانى أن يراها. لكنها وحدها الآن. لا خوف إذن. وإن كانت تصل إلى المعدية دائمًا لاهثة الأنفاس فذلك من أثر السرعة والتوتر. لكنها سرعان ما تهدأ، حين تضع قدمها فى المعدية، وتقول لنفسها، كل شىء كما هو، الصبية يلعبون، وعمال شركة الملح والصودا يجلسون بدكانىّ العنيبسى والسيد خليل، ووردة فى المعدية

تأكل هريسة وتبتسم. لا تكف عن أكل الهريسة ولا تكف عن الابتسام. كل شيء صامت ولا أحد يدرى بأحد وإبراهيم المسكين لا يزال يسرع الخطى فى كوم الشقافة. لعله لم يدخل شارع باب الملوك بعد. لكنها مسافة ليست طويلة على رجل على أى حال، ثم إنها كلها تقع فى شوارع مأهولة يقول عنها إبراهيم إنها لا تخلو أبدا من رائحة الماء والصابون الذى تلقيه النساء فى الصياح على الأرض من الشرفات، وهى لا تعرف لماذا تلقى النساء في الأحياء الشعبية حقا ذلك الماء والصابون.

(٣)

ماذا يفعل عيد بالنظر في وجوه الفتيات؟. لا أحد يعرف، هذا سر. صار مشهده وهو يتابع النساء والفتيات فى الطرقات لا يدعو لغير الابتسام. يرى المرأة قادمة من بعيد متجهة إلى «الملاحة» لشراء السمك، أو خارجة من القبو المظلم الواصل بين الملاحة وطريق المحمودية بعد أن اشترت السمك، يراها فيتجه إليها لا يشغل نفسه بشيء غير عينيها. لا يتجه إلا إليهما، لا يهمه إذا كانت المرأة قد خرجت من القبو وقد تهدلت ملاءتها اللف، أو ظهرت ذراعاها عاريتين وكتفها أحمر، أو اتسعت قبة جلبابها حول عنقها فى جوف الظلام. لا تخطر هذه الأسئلة على بال عيد وإن خطرت على بال «الصيّاع» الجالسين جوار دكان العنيبسى إلى جانب السلالم المؤدية إلى القبو مجهولو الهوية الذين يأتون كل يوم يأتنسون بمحمود القزعة بائع الثلج وصبيانه وتاجر البهار، فلفل مطحون كما يسمى نفسه. عيد ينتظر حتى إذا اعتدلت الواحدة منهن وسوت

ملاءتها وثيابها، ثم ينطلق بسرعة إليها حتى إذا صار أمامها نظر فى عينيها وابتسم.

فى البداية ترتبك، بعضهن يصرخن أو يجرين من أمامه، بعضهن يشتمنه أو يوجهن إليه لكمة خفيفة على كتفه، لكنهن سرعان ما يتماسكن ويبتسمن أو يضحكن، وعيد يوليهن ظهره ثم يضرب كفا بكف، تماما مثل طفل صغير يقلد الكبار، وتتهلل عيناه بالسرور، ويضحك. لقد صار عيد معروفا للكثيرات من المترددات على الملاحة من نساء كرموز وغيط العنب وكفر عشرى وكوم الشقافة... عم يبحث الولد الأشقر الجميل حافى القدمين فى عيون النساء ووجوههن؟ لا أحد يعرف. ولما سأله «عربى» عن ذلك مرة تأمله طويلا ثم ابتسم وأعطاه ظهره وانصرف. وقف عربى حائرا ومندهشا ثم ابتسم بدوره ولم يعد بعد ذلك لهذا السؤال. أدرك عربى أنه لن يصل إلى شىء، كما أدرك ذلك والد عيد نفسه. لقد ضربه كثيرا حتى ينتظم فى الدراسة، لكنه كان إذا وصل إلى باب المدرسة، وقف يتأمل كروان وهو يدخل ثم يعود هو يبحث عن النساء. لا يزال عيد يفعل ذلك كل يوم ينهض فيه مبكراً. يصحب كروان لكنه لا يدخل معه المدرسة أبدا. يئس أبو عيد ويئست أمه، وركب كليهما الحزن.

ـ أخاف أن يعتدى أحد على عيد، شخص ما يكون مع امرأة.

ـ أخاف أكثر منك.

تنحدر دمعه على خد الأم، ويتمتم الأب «الله فى خلقه شؤون». ويتذكر شقرة عيد وعينيه الخضراوين، ويقول هذا ولد جميل غير جدير بهذه البهدلة!؟. لقد كف عن ضربه منذ تلك الليلة التى قفز فيها عيد

من داخل البيت إلى الخارج كما لو كان يقفز من فوق السطح إلى الأرض، ثم جرى فى الشارع الوسطانى الذى يتوسط المساكن، هاربا إلى الفضاء على المحمودية، ولم يجدوه إلا بعد ثلاثة أيام. لم يكن بعيدا أبدا كما تصوروا، كان قد صعد إلى السطح بالليل من خلف البيوت، تسلق الجدار المواجه لخطوط السكك الحديدية، جدار أملس تماما لكنه تسلقه، وتمدد فوق السطح بلا حركة. لم يأكل شيئًا ولم يشرب فلم يعد قادرا على الحركة. أوشك على الموت الحقيقى من العطش. لم يفكر فى النهوض، ولا العودة ولم يسمع له أحد صوتا، أنينا أو استغاثة، رغم أن أسطح كل عشرة منازل متصلة، والنساء والفتيات عادة يصعدن إليها لينشرن الغسيل. لم تلتفت واحدة منهن إلى ذلك الشيء الممدد جوار الجدران المهملة هل هو عيد أو كائن حى من أى نوع.

كان قد غطى نفسه بخرق قديمة وجدها فوق السطح واطمأن ونام حتى اليوم الثالث حين صعدت «ألجونى» وراحت تتمشى على السطح فى الأصيل وتعبث بالطوب الصغير والزلط الذى لا يعرف أحد مصدره، وتقذف بعضه فى استرخاء وهى تعرف أن خير الدين على السطح الآخر يتابعها بشغف. سقطت منها «زلطة» فوق عيد ولم ترتد، اقتربت ألجونى من هذا الشيء الطرى الذى اصطدمت به «الزلطة» فرأت كف عيد ظاهرة صفراء من تحت الهدوم فصرخت «قتيل قتيل» وجرت تصرخ من كل ناحية على السطح فى هستيرية حقيقية فصعد إليها الرجال والنساء وشباب وصبية المساكن جميعا وراح عيد ينظر إليهم بإعياء شديد. كان قد جلس ولم يستطع النهوض. ظلت أمه تضع له لحم الدجاج فى فمه، وتسقيه الشوربة الساخنة طول الليل، بينما لم ينقطع أبوه عن البكاء فى صمت.

يذهب عيد مع كروان إلى مدرسة القبارى الابتدائية، يقطعان الطريق بين قضبان السكك الحديدية، وفوق «رصيف الباشا» الذى تأتى إليه البضائع من داخل البلاد بالقطارات، وما يكادان يخرجان من البوابة، ويكون معهما مصطفى وعبده اللذان يسبقانهما فى التعليم، حتى يتخلف عيد عنهم. لكنه لا يعود من الطريق نفسه. يأخذ ناحية كفر عشرى ويعود من شارع قنال المحمودية بعد أن يمر من شارع التجارة الرطب ويشم رائحة الغلال، ويقرأ لافتة مدرسة الشيخ عبد الله النديم الابتدائية ويضحك. لقد ألحقه بها أبوه فى أول سنى الدراسة لمدة عام واحد قبل أن يحوله إلى مدرسة القبارى، ولقد حبسه أحد الشيوخ كثيراً فى حجرة الفئران لأنه كان كلما قرأ سورة الفاتحة قال «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ولا الضالين آمين صدق الله العظيم!». من هنا تأتى نساء كثيرات لشراء السمك، والنساء العاملات فى محالج القطن أمام كوبرى التاريخ يأتين زرافات فى الصباح الباكر من الجحور الفقيرة للقبارى وباب الكراستة وكوم الشقافة. عيد يحار من أين يبدأ وأين ينتهى بالنظر فى عيونهن وتحمله سعادة غريبة إلى سماوات عُلى وهو يرى وجوههن البيضاء المستديرة جلية وسط السواد السابغ الذى يلّون جلابيبهن والطرح فوق رؤوسهن، كما تلمع عيونهن بالضوء الباهر وسط بياض وجوههن المحاطة بالسواد! حوالى الحادية عشرة صباحا يكون هو قد انتهى من النظر فى وجوه النساء ويصل إلى البيت. يقول لأمه باسما.

ـ لو كنت فى المدرسة الآن كان زمانى فى الفسحة!.

تتألم صامتة وتعرف أنه بعد قليل سيخرج ولا يعود إلا فى المساء. لم يفلح الشيوخ فى علاج عيد وقالوا سينتهى وحده حين يكبر

ويتزوج، وأسف أبوه قائلا لنفسه، وما السبيل إلى ذلك يا خلق هوه، عيد لا يزال فى العاشرة ويحتاج ليكبر ويتزوج عشرة أخرى من الأعوام والأهوال!

عيد اليوم لم يترك كروان عند باب المدرسة. دخل معه إلى الفصل وكان منظره غريبًا وسط التلاميذ. رآه مدرس الحصة الأولى فابتسم:

ـ ما الذى فكرك بالمدرسة يا عيد؟

لكن عيد لم يرد. نظر حوله كأنما يبحث عن شخص آخر وجه إليه المدرس السؤال. تركه المدرس وراح يتحدث عن احتمالات الحرب التى بدأت بالليل أمس واحتمال دخول بريطانيا الحرب ضد مصر فى أى لحظة. لقد وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود بين عبد الناصر والدول المنتفعة بالقناة، كان يتحدث بجدية والتلاميذ يصغون إليه باهتمام. إنهم لم يروا حربا من قبل، وفوجىء المدرس بعيد يرفع إصبعه السبابة يطلب الكلام. وضع التلاميذ أيديهم على أفواههم يكتمون الضحك وتساءل المدرس:

ـ ماذا تريد يا عيد؟

ـ أنا أعرف جمال عبد الناصر.

وانفجر التلاميذ بالضحك. هدوء. سكوت. طلب المدرس.

ـ طيب يا عيد متشكرين.

لكن عيد لم يسكت. تساءل مبتسمًا.

ـ هل تعرف جمال عبد الناصر؟

كاد الأولاد يضحكون بقوة أكبر لولا أن أشار إليهم المدرس بالصمت، ثم تقدم من عيد وانحنى فوقه مقتربًا من وجهه وقال:

ـ يا عيد كلنا نعرف جمال عبد الناصر لأنه رئيس البلاد، رئيس مصر.

لكن عيد لم يسكت:

ـ لقد مر جمال عبد الناصر مرة فى القطار خلف بيوتنا، واسأل كروان صح يا كروان، صح أم لا؟

ـ صح يا أستاذ.

قال كروان. كان عبد الناصر عائدًا من يوغسلافيا عن طريق البحر وركب القطار من الميناء حتى القاهرة. لقد وقف يومها فى العربة المكشوفة فى القطار الملكى الذى كان مخصصا قبل الثورة للملك فاروق وصعدت النساء والرجال والأطفال فوق الأسطح يحيونه بالتصفيق والزغاريد والهتافات. لكن عيد أضاف:

ـ بعد ذلك جاء مرة إلينا فى البيت وتعشى معنا، أى والله. أكل كثيرًا جدًا.

هنا لم يستطع التلاميذ السكوت، انطلقوا فى الضحك، صفقوا، ودبدبوا بأرجلهم على الأرض، والمدرس ينظر إلى عيد مبتسمًا محاولا بكل جهده ألا ينفجر فى الضحك، لكن ضجة كبيرة سمعت فى الطرقة أمام الفصول، رأى التلاميذ زملاءهم يجرون بعد أن خرجوا من فصولهم ودخل أحد المدرسين إلى الفصل قائلا.

ـ انتهى الدرس. الحرب قامت يا أولاد. إسرائيل هاجمت قواتنا فى سينا والإنجليز والفرنسيين وجهوا إنذارًا لمصر!.

اندفع التلاميذ بقوة خارجين من المدرسة، انسكبوا فى الشارع الضيق أمامها فامتلأ عن آخره، قبل أن ينظموا أنفسهم فى مظاهرة كبيرة تندد بإيدن وبن جوريون ومولييه ويخرجون فيها إلى الشارع الكبير

المتجه إلى مينا البصل أو المكس، نظر عيد إلى كروان فى غاية السعادة وهو يقول:

ـ أول يوم أحضر إلى المدرسة قامت الحرب.

اختفى بعد ذلك بين الزحام. أخذ كروان ومصطفى وعبده طريقهم إلى المساكن عبر السكة الحديد. هى فرصة يصطاد فيها عبده ومصطفى العصافير «بالنبل» من تحت الأسقف العالية للأرصفة، وكروان لا يستطيع أن يفارقهم فهم الأكبر، وعادة ما يتركون كتبهم معه أثناء الصيد. لم يستمر التلاميذ طويلا فى شارع المكس وهم يندذون بإيدن ومولية وبن جوريون، بسرعة تفرقوا جماعات صغيرة ضاحكين ذاهبين إلى بيوتهم. مشى عيد مع جماعة منهم ناحية كوبرى التاريخ، طريقه المعتاد فى العودة، عند الكوبرى تركهم وانحرف إلى «كفر عشرى» يهتف فجأة وحده فى وجوه بعض المارة «طز فى بن جوريون». ولم يدخل عيد شارع التجارة اليوم. جذبته الفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين الواسعتين والوجه المستدير الأبيض الريان والابتسامة السحرية كمرآة من بللور. كان قد اقترب منها يتطلع فى عينيها. لم يبد أنها خافت أو ارتبكت. ابتسمت.

ـ وبعد ذلك ماذا ستفعل؟

وقف مبتسما بدوره. قالت: ـ

ـ ولد. كتير أشوفك فى الشارع ماشى تبص فى عيون النسوان.

لماذا؟

ظل مبتسمًا مثبتًا عينيه على عينيها، كادت الملاءة السوداء تنزلق من على كتفيها، فرفعتها وأحكمتها فوق رأسها وأمسكت بطرفها وهمست له:

ـ تحب تشوف عيون؟

اتسعت ابتسامته أكثر .

ـ تعال ورائى .

مشت وهو خلفها ، وكلما تقدمت التفتت تتأكد من وجوده فتراه مبتسما .

ـ لا تقترب منى . لا تفضحنى يا عبيط .

وهو يزداد سعادة وابتساما ، دخلت به شارع عبد النبى الضيق القصير لكنه بدا طويلا ملتويا لا ينتهى ، أكثر رطوبة من شارع التجارة ، لا تشم فيه رائحة الغلال المخزونة كشارع التجارة لكن تشم فيه رائحة الأنفاس المكتومة للبشر المنسيين ، ورائحة تزكم الأنوف من النفايات الملقاة طوال الطريق ، عند نهاية الشارع انحرفت الفتاة لتدخل فى زقاق ضيق ، فدخل خلفها ، فى وسطه لم يعد هناك غيرهما فوقفت وهو جوارها .

ـ هات يدك يا مضروب .

ترك لها يده . أحس بدفء أصابعها ، صار يضحك كأنما يدغدغه أحد ، ونزلت به درجا بدا له لا ينتهى أفضى بهما إلى باب خشبى عال وكبير راحت تدق عليه دقات خفيفة بالسقاطة القديمة التى على شكلٍ يد بشرية .

انفتح الباب فقالت «خطى برجلك اليمين يا عيد» ، لما نظر إليها مبتهجًا قالت «عارفة اسمك . كلنا هنا عارفين اسمك يا ولد» دخل عيد برجله اليمنى فوجد نفسه أمام ساحة مضاءة بنور لا يعرف مصدره ، وقف مبهوتًا يقول الله! منشرحًا من فرط البهاء المنسكب حوله ، فقالت «أنت لم تر شيئًا بعد يا عيد ، الجنة على بعد خطوتين

من هنا» وانفتح أمامهما باب آخر أقبلت منه روائح بخار الماء الممزوج بماء الورد، رأى خلف الباب فراغًا من سحب بيضاء مشوبة بزرقة خفيفة، قالت له أدخل ولا تخف ودخل ومشى بين البخار لا يعرف علامَ يدوس بقدميه، تراب ناعم أم مخمل أم نجيل طرى أم حرير، كانت هى تبتعد عند وسط البخار، ولولا الملاءة السوداء ما كان قد رآها وهى تبتعد، شيئًا فشيئًا غلب البياض السواد، وغلبته الروائح الجميلة العجيبة للمسك والعنبر والكافور والبلسم التى تجعل الدنيا واسعة كبيرة، سحابة ولا أقل تحمله وتطير به بين السحب وبين المطر أيضًا!!

ظل يمشى، يمشى لأنه غير قادر على الوقوف وبخار الماء يشف لكن غرفا على الجانبين تمتلىء بالبخار الكثيف وتهل منها الروائح العجيبة وأجساد بيضاء وحمراء تسبح بين البخار ويسمع ضحكاتها، نساء تضحكن ضحكات كسلانة ورجال يهمهمون، إخلع هدومك يا عيد، سمع الصوت وامتدت اليدان الطريتان النديتان تخلعان عنه قميصه وفانلته ثم تحمله الروائح العجيبة فيتعلق فى الفضاء، وتُنزل عنه اليدان الحانيتان بنطلونه وسراويله الداخلى بعد أن نزعت حذاءه الذى يلبسه دون جورب. لا يضع عيد جوربًا فى قدميه. تعوَّد أن يعود إلى البيت يخلع الحذاء ثم يخرج ماشيًا حافيًا فى الشوارع. تعال معى يا عيد، وسحبته اليد الحنون، خطّى العتبة، ورفع قدمه بخطوة نزل بعدها فى ماء تاركا اليدين الجميلتين تمشيان على جسده كله من عنقه حتى قدميه.

إنه يرى الوجه الجميل للفتاة، التى تفعل به ذلك، إنه يرى وجوها كثيرة لفتيات جميلات، وتمر على جسده الآن أياد كثيرة حانية.

ترى كم يدًا وكم وجهًا؟ لا يعرف. كأنما مرآة تعكس مئات الأيادى والوجوه، وعلى جسده مشت أياد باللوف الخشن والصابون وفعل الماء الساخن فعله فانتعش عيد وارتّخى جسده وأحس براحة سحرية وأوشك أن يضحك والأيدى الندية تمشى بين فخذيه، وضحك ولم يرتفع صوته واهتز جسده بالضحك والنشوة واقتربت شفتان من شفتيه وراحتا تسقيانه عسلا مصفى فبدأ يغيب عن الوعى. ما الذى شق صدره وأدخل فيه نورا وراحة وطمأنينة وحبا لأبيه وأمه وكروان والأولاد جميعًا فى المساكن. لقد رأى قبل أن يغيب عن الوعى وجوه بنات المساكن، ألجونى وشوقية وبدرية ومشيرة وحسنة ونوال ونادية وحكمت وفاطمة على أجساد البنات اللاتى يحطن بجسده. علم هذا أم حلم؟. لقد أحبهن جميعًا الآن، ويراهن وقد تحولن إلى فراشات بيضاء وصفراء وزرقاء ويطوف فى الحدائق التى لم يذهب إليها من قبل قط وحول جداول المياه الشفافة الرقراقة. إنه يركب الآن زورقا رقيقا تحمله مياه جدول دافق وهو يصرخ ويضحك ويقف ويجلس فوق الزورق الذى لا يتوقف حتى رأى نفسه وسط شارع عبد النبى، وعدد من الرجال ينظرون إليه فى دهشة. هو الآن يرتدى جلبابا أبيض نظيفًا فوق ملابس داخليه نظيفة وجسده كله نظيف تشع منه الروائح المبهجة، وعلى رقبته تعلقت مخلاة بها ثيابه التى خلعتها عنه الفتيات الجميلات. أخذ طريقه إلى البيت صامتا وطوال الطريق تجذب روائح المسك والبلسم والكافور والعنبر أنوف المارة من الرجال والنساء وتكاد تحركهم من أماكنهم، لم يفكر فى النظر إلى عيون النساء اليوم. وصل إلى البيت فهتفت أمه فى دهشة وفزع.

ـ أين كنت يا عيد؟

نظر إليها مبتسمًا وقال بصوت خفيض كأنه هسهسة الشجر:

ـ شفت الجنة!

سكتت أمه. خلع المخلاة المعلقة على رقبته وتركها تسقط على الأرض..

ـ هل تريد أن تأكل يا عيد؟

تأملها فى دهشة. لم يستطع أن يقول لها إنه لا حاجة به إلى الطعام بعد اليوم.

(٤)

كلاكيت آخر مرة يا محمود..

إلى أين تذهب به هذه العربة المحملة بالجنود؟. لقد نسى الجيش والسلاح فمن الذى وشى به؟ هى الحرب والنظام والقانون يا محمود. لدى الحكومة سجلات تعود إليها لجمع الجنود الاحتياط عند اللزوم ولقد تم استدعاء الاحتياط من طول البلاد وعرضها فلماذا يتركونك!؟. ضحك الضابط وهو يطلب منه أن يلحقه بقسم الإعلام. لماذا يا عسكرى؟ لأن لدّى فكرة ممتازة يا أفندم عن الإخراج السينمائى وأريد أن أصور الحرب. لكنك فى السجلات جندى مشاة عادى لا تحمل أى مؤهلات علمية أو فنية، عسكرى ميح يعنى والإخراج علم وفن وشهادات؟! يا أفندم إلى متى تظل مصر بلد شهادات، لابد من إعطاء فرصة للخبرة!.

تمعن فيه الضابط مندهشا من جرأته. للحظة شك فى سلامة قواه العقلية فطلب منه أن يقترب ثم يستدير دورة كاملة أمامه ثم راح الضابط يضحك عاليا ويقول:

ـ مخـرج سينمائى مرة واحدة. طيب، من أين حصلت على الخبرة يا عسكرى مشاة يا ميح؟

ـ اشتغلت يا أفندم مع حسن الإمام فى فيلم «لك يوم يا ظالم». .

ـ ومع من أيضًا؟

ـ مع يوسف شاهين فى فيلم «ابن النيل».

ـ وماذا فعلت فى الفيلمين؟

ـ يا أفندم أعطنى الفرصة وأنت ترى.

ـ طيب اركب يا عسكرى مع زملائك وسوف نرى!

ركب محمود مع الجنود الذين جىء بهم من البلاد. هل جمع المدثر كل هؤلاء الجنود؟ ياله من رجل هذا المدثر، أسود كأنه قطعة متحركة من الليل ويظهر دائمًا بالنهار! شيخ حارة كرموز الذى يظهر أمامك فجأة حاملا لك مصيبة من قسم البوليس، وفى الوقت نفسه يكون جالسا فى مقهى «سلامة الغلق» فتوة كرموز يكتب العرضحالات للناس. المدثر هو أول وآخر شخص يظهر فى مكانين فى وقت واحد!

وسلامة الغلق، صاحب المقهى، يجلس دائمًا صامتًا لكنه لا يُنزل بصره عن المدثر، ضئيل الحجم جدا الذى يقف أمامه هذا الطابور من طالبى الحاجات من قسم البوليس. لقد ولى زمن الفتونة الجميل. كان شيخ الحارة موجودا دائمًا، لكنه الفتوة هو الذى كان رجل الحى.

من يتخيل بحرى دون حميدو أو السيالة دون منصور أبو شجرة أو المنشية بدون أبو خطوة. من يتخيل كوم الشقافة القريب بدون أحمد

فايد، أو الباب الجديد بدون محمد النجرو، وأين ذهب صيت على الفلاح فى النزهة، وما أبأس النهاية التى انتهى إليها جابر النشار فتوة شارع فرنسا قبل الثورة. قطع ثدى المرأة المومس التى يحبها فى كوم بكير ليمنعها من الدعارة فقطع القوادون ساقه، وفى دكانه، دكان لحم الرأس والكوارع. ماتت المرأة بعد أسابيع ولحق هو بها بعد أيام. قصة حب مثل روميو وجولييت لكن أبطالها فتوات وعاهرات وقوادون فلابد أن تكون النهايات مفزعة. الموت وحده لا يفزع، لكنها الطريقة التى يموت بها الناس. قضت ثورة يولية على الفتونة والفتوات وأصبح «أجعص جعيص» يعلق فى قسم البوليس كالذبيحة وتوضع العصا فى مؤخرته، أو يُرَكَّب فى الفلقة ويُمد على قدميه. وهل ينسى الفتوات نهاية محروس أبو راس فتوة باكوس الذى جعلوه يمشى عاريا تماما فى شارع السوق وفى إليته رأس فجل تهتز فروعها الخضراء وعساكر البوليس تحوطه من الجانبين، وكلما وقعت رأس الفجل أعادوها مكانها وهويمشى والدموع تسح من عينيه والضابط الشاب والجنود يطردون الناس المتجمعين ليقفوا بعيدا على الرصيفين. لم يكن الناس متعاطفين مع البوليس، وكادت تحدث ثورة لولا أن محروس أبو راس جرى من وسط الجميع بسرعة مذهلة ليلقى بنفسه أمام القطار القادم من محطة باكوس فى طريقة إلى سيدى جابر. لقد سمع صوت صفارة القطار قبل أن يتحرك فأسرع قبل أن يمر عابرا المزلقان وانتهى النهاية التى تليق بالرجال.

هكذا قال الرجال، لقد انتهى عصر الفتوات، وأضافوا فى عجب!

لقد لاذ سلامة الغلق بمقهاه ولم يتوقف عن النظر بأسى إلى المدثر

الحاكم الأوحد الآن فى الحى، بقميصه الأبيض الوسخ دائمًا وفوقه الصديرى الأسود المزيت وببنطلونه الصوف الأزرق الواسع وبالمنديل المحلاوى يربط به رأسه صيفًا وشتاء. اسمه المدثر رغم أن أحدًا لم يضبطه أبدا متلبسا بالنوم. شيخ حارة عجيب يتكلم فلا تسمع صوته لكنك تعرف ماذا يريد، ويقبل الإكرامية من التعريفة حتى الخمسة قروش ولا يكرهه أحد فى كرموز. رآه محمود منذ أيام قادما من ناحية كوبرى كرموز يشق سواده اللامع بياض النهار فأدرك إنه إنما جاء من أجله هو ولا أحد آخر.

ـ مطلوب فى الجهادية يا سى محمود.

ـ عارف يا مدثر لكن هل قامت الحرب؟

ـ ستقوم غدا يا سى محمود. أسهل شيء على بنى آدم إنه يشعل الحرب!.

لو أن الأرض كانت انشقت وبلعت أحدهما ذلك اليوم. لكن لا بأس، خبرة جديدة ستضاف إلى حياته بعد أن يعود. يعود؟!. ألا يمكن ألا يعود!

يموت!. لا. إنه يشعر بالاطئنان. لم يحدث أن فكر فى الموت من قبل فلماذا يفكر فيه الآن؟ هناك مشروعات كبيرة فى الدنيا تنتظره، وهو منذور لأهداف عظمى لم تتحقق بعد، هو إذن مطمئن من ناحية الموت هذه!

الآن هم فى مدينة الإسماعيلية. كانوا ينتظرون الأوامر لعبور القناة إلى سيناء فصدرت الأوامر للقوات فى سيناء أن تنسحب إلى الغرب والغارات لا تتوقف على بور سعيد. وضحت المؤامرة لسحق الجيش المصرى. لماذا إذن يحتفظون به وزملائه؟ هل سيكون دورهم فقط

استقبال الجنود المنسحبين؟ الغارات الإنجليزية والفرنسية على بور سعيد تشى بأن إنزالا جويا سيحدث فوق المدينة. من هناك تتقدم القوات المعادية لاحتلال مدن القناة كلها، لذلك يسرع الجيش بالانسحاب قبل أن يُحاصر بالكماشة فى سيناء، الإنجليز والفرنسيون من الغرب، والإسرائيليون من الشرق. ربما يحتفظون بهم لصد أى قوات يمكن أن تتقدم فى القناة إذا حدث ونزل الإنجليز والفرنسيون فى بور سعيد.
الأخبار القادمة من بور سعيد لا تسر. حرائق وتفجير للبيوت ورحيل مروع إلى القرى المجاورة. لكن هل حقا سيعطيه هذا الضابط فرصة الإخراج السينمائى، فرصة صنع فيلم حى، لايف، عن الاحداث؟ لا يظن كلاكيت آخر مرة يا محمود. ستعود إلى الإسكندرية دون أن تصنع فيلما عالميا عن الحرب مثل الأفلام عن «طبرق» أو «العلمين».
سيناء أيضًا صحراء مثل الصحراء الغربية التى جرت فيها وقائع الفيلمين العالميين أثناء الحرب العالمية الماضية، ممكن جدا أن يعانى الجنود فى الخنادق من الفئران كما عانى جنود فيلم «طبرق» وممكن جدا أن تهاجمهم دبابات الأعداء فيصوبون إليها قذائفهم الخارقة للدروع فتتعطل وتحترق فى اللحظة التى يبدو فيها أنها ستهدم الخندق على من فيه، يطل الجنود من فوهة الدبابات يحاولون الهرب أو الاستسلام فتحصدهم الرشاشات ويتدلون قتلى على فوهة الدبابات منكسى الرؤوس تتهاوى خوذاتهم معلقة حول رقابهم وينسكب الدم من صدورهم وأكتافهم على الدبابات الصفراء. ينصب بسرعة مستشفى ميدان كبير فى الخطوط الخلفية تأتى إليها ممرضات جميلات مسلمات من الهلال الأحمر وقبطيات من الصليب الأحمر. سيعشق الجنود الممرضات وتعشق الممرضات الضباط المصابين ولا يصل الجنود للممرضات ولا تصل الممرضات إلى الضباط ويحمل الجميع مناديل

الوداع يلوحون بها والحزن على وجوههم والدموع فى عيونهم وصوت المذيع الجهورى القوى يعلق على المشهد «هذه هى الحياة لقاء وفراق، حب وألم، وتقدرون فتسخر الأقدار! . ينتقل الفيلم بعد ذلك من حروب المشاة والمدرعات إلى حروب البحرية. رشاد على ظهر المدمرة «نصر» التى تطلق قذائفها على مدمرة للعدو. غواصة إسرائيلية تظهر من بعيد قادمة فى خبث تحت الماء. تغوص أكثر مثل حوت يضمر الشر. تطلق طوربيدها الذى يجرى يشق الماء الأزرق فيجعله أبيض على الجانبين، «يلبس» الطوربيد للأسف فى المدمرة التى يقفز جنودها إلى الماء فى رعب. رشاد يقفز أيضًا مصابًا فى فخده والدم يلون الماء الأزرق كنافورة. لا يعود رشاد المسكين إلى فاطمة. يأخذ هو فاطمة إلى المقبرة الرخامية وسط المقابر التى يعلوها نبات الصبار الأخضر والبنفسجى.

تضع فاطمة باقة من القرنفل الأحمر متشحة بالسواد وعلى وجهها بيشه سوداء شفافة وترف أهدابها قليلا وتنزل على خدها دمعة هادئة. موقف جليل حقا، والمقابر الرخامية لامعة وسط الشتاء، على شاهدها نقش يقول: هنا يرقد زهرة شباب الوطن رشاد الذى كان يحب فاطمة، الجليد يغطى الأرض والثلج الطائر ينزل من السماء خطوطا بيضاء هشة فيزداد ارتفاع الجليد، وأشجار البلوط والكستناء العالية سقطت أوراقها واحترقت من البرد فوقفت سوداء عارية يتعلق بها الجليد الأبيض حول المقابر. لا إله إلا الله هل تآكل عقله؟ من أين سيأتى الجليد فى مصر؟ ليعد بسرعة إلى فيلمه عن المشاة فى الصحراء. ليترك تصوير المعارك الحربية إلى مخرج كبير مثل صلاح أبو سيف ولمصورر بارع مثل وحيد فريد. الأفضل أن تكون مقبرة رشاد فى الصحراء وسط الرمال والشمس اللاهبة وفاطمة فى زى الحداد

الأسود الخفيف. تضع على رأسها برنيطة فرنسية مائلة وعلى وجهها خمار خفيف. لا حول ولا قوة إلا بالله. رشاد فى البحرية فكيف يموت فى الصحراء؟ رشاد هذا سيفسد الفيلم كله. ثم لماذا يصر على استشهاد رشاد مع إنه لا ينافسه فى شيء؟ الأفضل أن يعود رشاد بعد الحرب إلى المساكن ويجلس معه على الرصيف الممتد خلف البيوت أمام شارع قنال المحمودية وأمامهما الصبيان والبنات يلعبون وتمر النساء الجميلات بالملاءات اللف والفتيات الأجمل قادمات من كرموز وكوم الشقافة وكفر عشرى لشراء السمك ولا مانع أن يشاركهما سليمان الجلوس ويحدثهما كالمعتاد عن أزمة الإنسان المعاصر التى لم يفهماها منه أبدا، كما يشاركهم نسيم ويحدثهم عن حلم حياته فى السفر إلى كندا بعد أن ينتهى من التعليم ويتفرجون على محمود القزعة وهو يتفرج على النسوان مبحلقًا فى سيقانهن وأردافهن التى تتحرك بسرعة لا تقل عن سرعة أفواههن وهن يمضغن اللبان! عادة يجلس محمود القزعة بين صناديق السمك الفارغة والسيجارة «المعدن» الرفيعة لا تفارق إصبعيه ولا يكف خلال متابعته للنساء عن تحريك فكه الأسفل كأنه يحولهن إلى شيء يمضغه. أجل، كثيراً ما تأتى نساء إلى الملاحة ولا تعود. يختفى أصلهن وخيالهن. أين يمكن أن تذهبن؟ لا بد أنه هو محمود القزعة قد مضغهن ولابد أنه ابتلع كثيراً جداً من النساء على مر السنين.

كلاكيت آخر مرة محمود. . .

لقطة كبيرة للجنود فوق العربات المصفحة يعبرون شوارع المدينة. حنحارب، كل الناس حتحارب. الشوارع ممتلئة بالزينات تدعو للنصر. الناس من البلكونات وعلى الأسطح والأرصفة يصفقون ويزغردون. الفتيات يقبِّلن الجنود. جمال عبد الناصر يتقدم الجنود

رافعا ذراعيه ملوحا للجماهير بعلامة النصر التى اخترعها تشرشل ملك الإنجليز!! يعبر جمال عبد الناصر قوس النصر فى شارع الشانزليزيه، وتنطلق الصواريخ الملونة والورود ويطير الملح والأرز فوق الرؤوس وتتقاطر الفتيات من كل ناحية لتقبيل الجنود ويلقين بأنفسهن فى أحضانهن.. ما هذا.. هذا فيلم عن دخول باريس. المشهد كله مسروق من عودة ديجول إلى فرنسا بعد غزو نورماندى. فرنسا تحاربنا الآن. فرنسا إذن غير جديرة بأن أستعير منها شيئا. أريد فيلما مصريا مائة بالمائة. قال لنفسه. فلنعد إذن إلى الصحراء. طائرات المستير الفرنسية والكانبيرا البريطانية تغير على الجنود الذين ينبطحون على الأرض فى مساحات شاسعة. اللهب يمسك فى الخيام والأكشاك. النار ترتفع إلى السماء. انفجارات هائلة. ودخان يملأ الفضاء. الانفجارات تتوالى. إنه مخزن الذخيرة نفسه الذى انفجر. العربات المجنزرة والعربات النقل تحترق وتنفجر وتطير شظايا أمام عينيه. اللهم ارحمنا. لم ير حربا من قبل. حين أدى الخدمة العسكرية الإجبارية كان ذلك بعد حرب فلسطين بعامين. من الذى قال إنه يريد أن يصنع فيلما؟. لكن الطائرات تبتعد ولا يبقى فى الفضاء غير الصمت ورائحة البارود والدخان. يقفز جنود الخنادق، والذين انبطحوا أرضا ولم يصابوا بأذى لإنقاذ زملائهم. يحملونهم ويجرون بهم إلى الخلف لتحملهم السيارات إلى المستشفى داخل المدينة. ترتفع الأصوات وتتداخل. يا إلهى. لقد كانت غارة حقيقية. لم يكن ذلك فيلما يا محمود. مات الكثيرون والجرحى أيضًا كثيرون يصرخون ويئنون حوله. كلاكيت آخر مرة يا محمود. رأى الضابط يقترب أغبر الثياب مصفر الوجه. لقد كان هو نفسه كذلك وأكثر.

ـ تعال ورائى ياعسكرى.

كان يريد أن يجلس فى مكان بعيد، وحده، وينفجر فى البكاء. أجل، لم يحتج للبكاء حاجته إليه اليوم. يا للضابط ذى القلب الحديد القاسى. رأى الضابط يمشى حتى ينزل إلى خندق تحت الأرض، مقر القيادة، لا يزال سليما لم تهدمه الغارات. وجد خمسة جنود وضابطًا أصغر رتبة.

ـ استعدوا للسفر غدا إلى بور سعيد.

ـ . . . . .

ـ الضرب شديد على بور سعيد وهناك توقع لإنزال جوى بالمدينة.

ـ . . . . . .

ـ سيكون عليكم المساهمة فى تنظيم المقاومة الشعبية.

ـ . . . . .

ـ سيكون قائدكم الملازم نجاتى.

وأشار إلى الضابط الذى يقف معهم واستمر يتحدث.

ـ من الآن حتى الغد تجهزون الذخائر والأسلحة التى ستأخذونها معكم. ستركبون السيارات حتى المطرية. هناك سيقابلكم شخص اسمه «الخميسى» طويل كأنه باب، يتحدث كثيرا بمناسبة وبدون مناسبة، لكنه وطنى وسيسهل لكم الاختباء بالمدينة حال حدوث إنزال جوى.

ثم نظر إلى محمود نظرة طويلة وقال.

ـ سيحضر الإنجليز والفرنسيون معهم كاميرات كثيرة، تستطيع إذا استوليت عليها أن تصنع الفيلم الذى تريده . . .

لكن ذلك لم يعد الفيلم الذى يريده محمود. طيران إلى

الإسكندرية . أين هى الآن وما السبيل إليها . كلاكيت آخر مرة ياإسكندرية . لقطة عامة كبيرة للمدينة من البحر تستعرض القوس الكبير الذى يحتضن البحر والعمارات الكلاسيكية وأشجار النخيل من قلعة قايتباى حتى قصر المنتزه . الكاميرا تقترب من وسط المدينة . ترتفع وتتجاوزه إلى ميدان الشهداء ، ميدان الجمهورية ، أمام محطة مصر ، تصور البيوت القديمة المتساندة على بعضها ، تمشى الكاميرا فوق المدينة . يستطيع أن يمر على جميع الأحياء والشوارع . إنه يحفظها لكن يريد بسرعة أن يعود إلى البيت . هواء الإسكندرية الجميل يحمله طائرا مع الكاميرا بسرعة عابرا فوق شارع عمر بن الخطاب داخلا فى شارع مسجد السلطان إلى البياصة إلى باب سدرة إلى شارع عمود السوارى إلى كوبرى كرموز طائرا فوق المحمودية إلى منتصف المسافة بين كرموز وكفر عشرى وينزل الأرض حاملا الكاميرا . هنا مساكن السكة الحديد ، أمامها ترعة المحمودية والمعدية التى تنقل الناس إلى محطة الترام وإلى كوم الشقافة وخلفها خطوط السكك الحديدية بالقبارى ، أكثر من خمسة وثلاثين خطا تدخل وتخرج من الجمارك . السكك الحديد التى فوقها القطارات التى كم حملت من معدات الحرب الإنجليزية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكم حملت من الأسرى الألمان والطليان ، السكك الحديدية التى يعمل فيها أبوه وكل الآباء هنا ، والتى يعمل الديب فوق قطاراتها مقضيًا أكثر عمره فى الفضاء ، وإلى اليمين الدكاكين الثلاثة للعنيبسى والسيد خليل والسيد الأعرج . الأولان يبيعان كل شىء من البقالة إلى العلافة ، الأخير يبيع الخضر والفاكهة ولا يشترى منه أحد والكاميرا تقترب من تصوير غلام يخرج هاربًا من تحته وهو يحاول النزول به إلى الأرض ! على المحمودية يقف حبشى عاريًا يصرخ صرخة طرزان وحوله أطفاله الحقيقيون واللقطاء ، ثم

يتقدمهم قافزاً إلى الماء. على جدران المساكن كتابات بخط ركيك. حج مبرور وذنب مغفور. لم يذهب أحد منهم أبدا إلى الحج. فقراء لا يستطيعون إليه سبيلا!.

لو ترك الكاميرا تستعرض المكان والناس لا حتاج إلى عشرة أفلام. لا يريد فيلما الآن. يريد أن يأخذ طريقه إلى البيت لينام بعد أن نزل الأرض بسلام. يشم رائحة البيوت المكتومة، والشوارع المخنوقة بالعشش التى أقاموها أمام البيوت وملأوها بالمعز والدجاج. إنه يفتح صدره يتنشق فى سعادة الروائح القديمة المقبضة للمكان الذى صار بعيداً جداً الآن. لقد تقرر ذهابه إلى بور سعيد ولا جدال فى الجيش، يبقى الأمر فى يد إنجلترا وفرنسا فهل تبغيان؟ أغلب الظن إنهما ستهاجمان المدينة. إذن ليس أمامه إلا النصر.. سيحارب بشجاعة ولن يفكر مرة أخرى فى الأفلام.!

(٥)

وضع سليمان كل الصحف والمجلات التى اشتراها أمس من محطة الرمل أمامه فوق المنضدة القديمة، وجلس على المقعد الخشب القديم، فوق السطح فى الصباح يقرأ ويقلب فيها. لقد دفع فيها مبلغا محترما هو حصيلة الضفادع التى باعها للطلاب طوال الأسبوع. إنه يصطاد الضفادع فى الأماسى من البحيرة ويبيعها لطلاب القسم العلمى بالمدرسة يقيمون عليها تجاربهم فى التشريح. الأهرام، الأخبار، المصور، روز اليوسف، والإيجيبشيان جازيت وكلها تقريبا تتحدث بأسلوب واحد عن تطورات الهجوم العسكرى على مصر. كل ذلك حتى لا يرى جين بانكروفت!؟ يا الله؟ كان يمكن أن

ينقطع عن اللقاء معها دون حاجة إلى كل هذا العدوان على البلاد. لقد وقع الاعتداء الإسرائيلى فى مساء الاثنين تسعة وعشرين من أكتوبر، وكان يجلس معها فى كافيتريا على كيفك مساء الأحد ثمانية وعشرين من أكتوبر.

كانت تنظر إلى المارة أمامها فى محطة الرمل، كأنها تملأ عينيها من المكان والناس قبل أن ترحل. ترحل!؟. وهل رحلت حقًا؟ قالت له ألا يحاول الاتصال بها إذا وقعت الحرب، وإنها سوف تجد طريقة للاتصال به. كيف صدَّقها؟. كان عليه أن يحاول الاتصال. قال لها إنه لا يتوقع حربًا، وإن الأمم المتحدة ستجد مخرجا للأزمة فقالت له إنها تعرف بلدها جيدًا. وتعرف أن إيدن يريد عملا يدخل به التاريخ، تلميذ لتشرشل، لكنه تلميذ خائب، أخرق، وأن جمال عبد الناصر أيضًا يريد أن يدخل التاريخ، بل لعله قد دخله بالفعل بقرار تأميم القناة هذا. قرار تأميم القناة أخطر من قرار الثورة نفسه، جمال عبد الناصر متهور، وإذا التقى أخرق ومتهور فماذا تنتظر غير الحرب. قال لها إنه يكره السياسة والسياسيين، قالت هى كذلك تكرهم لكن للأسف هم الذين يحركون العالم. انظر كم هو عالم تعيس هذا الذى نعيشه. ولم يكن هو فى حاجة إلى من يقنعه بتعاسة العالم، لكنه كان يرى أسبابًا أكثر عمقًا، أسبابا تتعلق بالوجود الإنسانى. بسوء الفهم الذى يكتنف الوجود الإنسانى ويؤدى إلى كل هذه الصراعات. لقد قرأ فى الفلسفة الوجودية، أحب على وجه الخصوص ألبير كامى. وكان مبتسمًا وسعيدًا كمن لا يعنيه شيء فسألته وهى فى غاية الدهشة..

ـ ألا تعرف حقا ماذا يمكن أن يحدث لو قامت الحرب بين مصر وبريطانيا؟

ـ ربما تحتل بريطانيا مصر لكن الشعب المصرى سيقاوم بشدة.

ـ مع بدء الهجوم سيقوم عبد الناصر بطرد كل الإنجليز من مصر، وإذا اشتركت أى دولة فى الهجوم مع إنجلترا سيلاقى رعاياها المصير نفسه.

انتبه فى تلك اللحظة إلى ما يؤدى إليه هذا الكلام. قال:

ـ تقصدين أننى لن أراك؟

ـ أجل. لن تستطيع حتى أن ترسل خطابا لى، لأن كل الخطابات التى ستذهب إلى إنجلترا أو ربما أوربا كلها، أو تأتى منها، ستخضع للمراقبة أنت لا تعرف بلدك يا سليمان!

لم يضايقه ذلك. هو لا يعرف إلا هذه البقعة الهامشية من الإسكندرية، وجين هى التى أخذته إلى الإسكندرية كما يجب أن تكون. لكن ما يضايقه هو أنه لم يفكر فيها من قبل كأجنبية أبدا. دائما كان يراها مصرية، وبعد كل لقاء معها وسط الأجانب كان بعد أن يتركها ويعود لا يفكر فيها إلا كمصرية يعرفها من زمن قديم وتعرفه، رغم اسمها الصعب، بانكروفت، الذى قال لها إنه يصلح ماركة سيارة أو كرافتة فلم تتوقف عن الضحك لأيام عديدة بعد ذلك. مدّ يده أمسك بيديها وراح يتأملها كمن يتأمل شيئًا يوشك أن يفقده.

ـ لن نعود معا بالترام هذه الليلة. لا داعى أن توصلنى إلى البيت. الشارع والناس كلها ضد الأجانب. انظر، حتى الجالسين فى «على كيفك» وأكثرهم يونانيون وإيطاليون ينظرون إلىّ.

كان قد تعود بعد كل لقاء أن يركب معها الترام حتى القصر الذى تسكنه مع عائلتها فى بولكلى.

ـ لا أحب أن أودعك سليمان، لكن . . .

نهضا، لم يتركها إلا عند السيارة الرولزرويس التى تنتظرها أمام أتينيوس فى الزقاق المؤدى إلى الكورنيش. لم يكن يعرف إنها تحبه أبدا. لم يتصور نفسه أكثر من نزوة إنجليزية. قليل من الشطة فى الطعام البارد. لكنه اكتشف ذلك المساء أن الأمر مختلف.

لقد تطورت الأمور بسرعة بعد الهجوم الإسرائيلى على مصر، وبدا واضحا أن إسرائيل تستهدف سيناء كلها، جرت معارك باسلة فى الكونتيلا ونخل وأبو عجيلة وكانت القوات الإسرائيلية، على طريقة روميل فى الحرب العالمية الثانية، تترك المواقع المصرية خلفها وتتقدم مسنودة من البحر بقذائف البارجات الإنجليزية والفرنسية. لقد وجهت إنجلترا وفرنسا إلى إسرائيل ومصر إنذاراً بوقف القتال والانسحاب عشرة أميال على جانبى خط القتال، كان واضحًا منه أن تحتل إسرائيل سيناء وهى المعتدية، كما احتوى الإنذار ضرورة قبول مصر قوات إنجليزية وفرنسية فى مدن القناة، بورسعيد والإسماعيلية والسويس، وأن تتلقى الدولتان إجابة خلال اثنتى عشرة ساعة.

لقد صرخ «أرمان دو شايلا» سفير فرنسا السابق فى مصر بأن ما نسجته فرنسا فى مصر طوال قرن ونصف القرن، بهدوء وعلى مهل، أضاعته ساعة واحدة من يوم ٣١ من أكتوبر. وهو اليوم الذى بدأ فيه العدوان بعد أن رفضت مصر الإنذار واعتبرته موجها لصالح إسرائيل.

تقرر سحب الجيش المصرى من سيناء على عجل حتى لا يتم تدميره من الغرب بإنجلترا وفرنسا ومن الشرق بإسرائيل، وتم سد

منفذ القناة من ناحية بورسعيد حتى لا يتكرر خطأ عرابى عام ١٨٨٢ حين خشى من غضبة الدول الأجنبية فترك القناة مفتوحة للقوات البريطانية، وخطب عبد الناصر طالبا الصمود من الشعب، وأن الحياة الذليلة هى العبودية والموت خير من الذل، وقررت وزارة الصناعة الاستيلاء على شركات البترول الإنجليزية والفرنسية وممتلكاتها وأموالها، شل والانجلو إيجيبشيان وسب، واستقال أنتونى ناتنج وزير الدولة البريطانى من الوزارة احتجاجًا على الهجوم وعرض داج همرشلد استقالته من سكرتارية الأمم المتحدة احتجاجًا أيضًا. قال فى أسف «لقد ضاعت كل الجهود الضخمة التى بذلناها للوصول إلى تسوية» وهاجمت الطائرات البريطانية القاهرة فى غارات متتالية فأصابت مبنى الكلية الحربية ومطار ألماظة الدولى. وبعض الأماكن فى شبرا، ونددت روسيا بالعدوان، وكذلك أميركا، والهند، والدول العربية، وفتح باب التطوع فى البلاد للقتال، لكن المحلات أعلنت عن الأوكازيون الشتوى الكبير الذى بلغ فيه سعر متر الكستور أربعة عشر قرشًا وتقاطر الناس لمشاهدة فيلم «كوفاديس» بسينما مترو بالإسكندرية ولم يخشوا الغارات. لقد تحصنوا ضدها بغارات الحرب العالمية الثانية التى لا تزال فى الذاكرة، ولا يظن أحد أن غارات هذه المرة ستكون بتلك الكثافة التى كان يأتى بها الألمان والطليان. تلك كانت غارات دول فتية قوية، الآن غارات دول جار عليها الزمان، انتصرت فى الحرب الثانية حقًا، لكنها فقدت كل نفوذها فى المستعمرات. أما إسرائيل فليست بالدولة التى تصل طائراتها بعد إلى أعماق البلاد. لكن أميركا بدأت في ترحيل رعاياها من مصر، ووصف شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفييتى الهجوم بأنه عمل من أعمال العصابات، وقبض رجال البوليس فى

المعـادى على يهـودى يرسل إشـارات ضـوئيـة للطائرات الإنجليـزية ، وقـررت مـحكمـة مصر حـصر إيراد حـفلات أم كلثـوم فى القـضـيـة الـمرفوعة من الفنان زكريا أحـمد ضدها وضد الإذاعة المصرية . وفى سيـدى بشـر أوقف شـاب جالس فى سيـارة جندى بوليس وطلب منه مشاركته فى تدخين سيـجارة حشيش فقبض عليه الجندى فى الحـال ، وثار جدل حـار بين الجالسين على جانب ، دكان أحـمد العنيبسى على يسـار السلم المؤدى إلى القبـو الذى يفـضى إلى الملاحـات ، ويـزداد النقـاش ويحتدم أكثر إذا وقعت غارة نهارية للطائرات طاردتها المدافع المضادة المنصوبة فوق المساكن ومن كل مكان فى المدينة حتى تبتعد أو تسقط بعيداً .

ـ إنجلترا لا تريد أن تعترف بأنها شاخت .

ـ الإمبراطورية التى كانت لا تغيب عنها الشمس تريد العودة إلى مصر .

ـ إلى الشمس .

ـ ها . ها . هيهات .

ـ المثل الفرنسى يقول «شيرشيه لا فام» ، فتش عن المرأة عند وقوع أى جريمة ، وأنا أقول فتش عن إنجلترا إذا وقعت أى حرب .

قال ذلك تاجر البهار «فلفل مطحون» كما يسمى نفسه والذى لا يعـرف أحـد كيف لا يجـد لنفسـه عـمـلا فى أى من دكـاكين العطارة بالمدينة ، ولا من أين جاء أو أين يمضى كل مسـاء . ومـحـمـود القزعـة يتـابـع الـحوار متأففـاً ، فهـو غـير قـادر علـى هضـم أن رجـلا مثـل جمـال عبد الناصر يقف ضد الإنجليز . تضايقه هذه الـمسألـة ويشعـر بـأنـه ، عبد الناصر ، يعطى لنفسه ما هو أكبر من حـجمـه ، وأحيـانًا

يتخـيل أنه يـريد أن يغيظه هو شـخصيًا بطوله الفارع وسلوكه الجرىء. لكنه لا يستطيع أن يكذب على نفسه، فهو معجب بوطنيته وشجاعته وإن لم يصرح بذلك.

وقال واحد:

ـ كل هذه الحرب من أجل تأميم القناة. ماذا كانت ستفعل إنجلترا لو كنا أخذنا منها شيئًا فى بلادها هى؟

وقف تاجر البهار يقول بجدية شديدة..

ـ لا تندهشوا من هذه الحرب. لقد حاربت إنجلترا، إنجلترا وليس دولة أخرى، العالم كله من أجل البهارات.

ـ نعم!؟. بهارات. يقول بهارات. أى بهارات يا رجل يا مطحون الرأس أنت؟

ـ أنتم جهلة. جهلة حقيقيون. إن أى تلميذ فى المدرسة يعرف أن إنجلترا احتلت الهند للحصول على البهار.

بدت عيناه حمراوين وسط وجهه الأسود. وبدا شكله مضحكا فى ثيابه الشتوية القديمة، خاصة بنطلونه شديد الضيق عند الحذاء. لكنه كان نظيف الوجه واليدين حريصًا على ألا يفتح الطريق لأى شعرة بيضاء، فدائمًا يوالى شعره بالصبغة السوداء التى يقوم بتصنيعها بنفسه. استمر يتكلم وقد أمسك نظارته ذهبية الإطار بين أصابعه.

ـ لقد وصلت البرتغال أولا إلى الهند أيها الجهلة منذ أكثر من أربعمائة سنة، لكن إنجلترا ظلت تحلم بطرد البرتغال..

كانوا مندهشين جدا من حديثه بمن فيهم محمود القزعة وسليمان حتى إن أحدا لم يعد ينتبه لمرور النساء من أمامهم.

ـ لقد بدأ العصر الحديث كله فى اللحظة التى اكتشفت فيها بلاد التوابل. فى البدء حاولت إسبانيا والبرتغال. البرتغال هى التى نجحت ووصلت سفنها إلى سواحل الهند، إسبانيا تعثرت فى أميركا وانشغلت فى اكتشافها وتقتيل الهنود الحمر. أليس كذلك يا أستاذ سليمان؟

كان سليمان معجبًا بحق من ثقافة الرجل العجيبة، فهز رأسه بالموافقة والإعجاب.

ـ كانت التوابل تصل قديمًا قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عن طريق البر عبر إيران والشام، والبحر حتى سواحل عدن ومنها إلى السويس ثم برًا إلى الإسكندرية ودمياط ثم البندقية، فينيسيا التى غنى لها عبد الوهاب قصيدة الجندول، وجنوا وغيرها من بلاد الطليان. ماذا أقول لكم أكثر من ذلك يا بهائم. إنها تجارة «الكارم» التى احتلت مكانا كبيرا فى التاريخ. هل تعرفون معنى هذه الكلمة. ليس ذلك مهما. المغاربة يعرفونها إذ لا يقدّر قيمة البهار أحد مثل المغاربة أهل الأسرار، والعطارة أسرار فيها من نفحات الرحمن الكثير فلا تسخروا من الفلفل مطحونًا أو غير مطحون ففيه فوائد جمة، والفلفل، ولا تقاطعونى، إما أسود وهو ما تعرفونه، وإما أبيض وهو ما لا تعرفونه. الأسود الذى يجفف دون أن ينزع جلده والأبيض ينزع جلده، والأبيض أقل لذعًا وأخف على المعدة لكن نحن شعوب الشرق نحب الأسود الحامى، وغيطان الفلفل تكثر فيها الأفاعى فيحرقونها فيسوّد الفلفل!. ما رأيكم؟! كانوا ينظرون إليه جميعًا بإعجاب ويشعرون أن ما يقوله شيء حقيقى فاستمر يتحدث. هذا ما كان يعتقده الناس زمان لكن ابن بطوطة جاء من المغرب ووصل إلى

الصين وفى الطريق مر بساحل ملبار بالهند ورأى كيف يضعون بذور الفلفل على الحصير تحت الشمس فيسود ويتكرمش، وكذلك فعل ماركوبولو الإيطالى الذى جاء أيضًا ليزور الصين.

أى نوع من الناس كانوا فى زمن لم تكن فيه قطارات ولا طائرات! ثم وصل البرتغاليون إلى ساحل ملبار كما قلت لكم ونقلوا الفلفل بكميات كبيرة إلى أوربا، لقد وصلت قيمته يوما ما إلى أن اليهود اندفعوا يتاجرون فيه وأنتم تعرفون أن اليهود لا يتاجرون فى شىء خاسر. لقد صار الفلفل مثل العملة يدفع منه التجار الجمارك كما يدفعون الفضة، وأحيانًا كانوا يدفعون الفلفل فقط. أصبحت تجارة الفلفل كبيرة وأصبح كل بيت فى العالم فيه فلفل يا فلفل، قال الكلمة الأخيرة بصوت خاص لامرأتين سمينتين تمران أمامهم ثم اتجه إلى الجالسين وقال، فهل تسكت إنجلترا؟ جاءت وراء البرتغال وحاربت جيوشها على ساحل ملبار بالهند وطردتها وأخذت مكانها، بل أخذت الهند كلها فأصبحت درة التاج البريطانى، وكل ذلك من أجل السيطرة على مزارع وأسواق الفلفل فكيف بالله لا تريدونها أن تعلن علينا الحرب لاستعادة قناة السويس التى هى ليست أقل من الفلفل!.

ظلوا ينظرون إليه غير مصدقين أن لديه كل هذه القدرة على الحديث، بدا أنهم مستسلمون تماما لقدراته فى الوقت الذى كان فيه الأولاد يحيطون بمجنون الغناء الذى صار يظهر كل يوم منذ بدأت الحرب وكانت العادة أن يظهر مرة كل أسبوع أو عشرة أيام. أصاب المجنون ذعر شديد يصيبه كلما أحاطوا به. انكمش وتراجع إلى الحائط. بدا جلبابه نظيفًا رغم كثرة الرقع التى خلفه. هذا يعنى أن أحدا لا يزال يعتنى به.

لقد ظهر كالعادة قادما من ناحية كفر عشرى متجها إلى كرموز. لم يره أحد عائداً فى الطريق المعاكس أبدا. يمشى بضعة أمتار ثم يقف يحك ظهره فى الحائط بقوة، يظهر الألم واللذة فى عينيه وعلى وجهه وهو يفتح فمه ويكز على أسنانه ويبدأ يغنى «يا ريتنى طير وأنا طير حواليك» لا يتقدم عن هذه الشطرة أبدا. يعود للمشى من جديد عدة خطوات ثم يقف يحك ظهره ويغنى. أسنده مصطفى إلى الحائط كما يفعل كل مرة ولم يعطه فرصة لهرش وحَكٍّ ظهره فظهر الضيق شديداً على وجهه والألم حتى بدا أن روحه سوف تهرب منه، فأطلقه مصطفى فى اللحظة المناسبة ليبتسم ويعود يحك ظهره ويغنى بصوت رفيع فاتحًا شفتيه ضاغطًا على أسنانه فيخرج الغناء وكأنه أنين عجيب. ياريتنى طير وأنا أطير حواليك. ياريتنى طير وأنا أطير حواليك.

ـ هل تعرف أن الحرب قامت يا روح أمك؟

لم يرد. لم يزد على الابتسام.

ـ طيب. هل تحب أن تتطوع فى الجيش؟

يبتسم.

ـ تعرف يا فريد، أنت الوحيد القادر على هزيمة أولاد القحبة..

ضحكوا. لم يكن اسمه فريد، لكن الأغنية فى الأصل يغنيها فريد الأطرش. تركوه يمضى لحال سبيله وعادوا إلى جلستهم المعتادة عند سلالم الماكينة الحمراء، وهى حمراء للون الطوب المستخدم فى بنائها، وهى ماكينة رفع المياه من المحمودية لا يعرف أحد إلى أين، يديرها الخواجة «بطسو» اليونانى الذى يغلقها الساعة الثالثة بعد الظهر ويمضى إلى بيته. علاقة

الخواجة بَطْسو بالجميع محدودة هنا. لا يثيرهم فيه إلا وجهه شديد الاحمرار. نادراً ما يتكلم مع الكبار، وإذا تكلم مع الصغار فهو يطلب من أحدهم أن يشترى له بيضتين أو ثلاثًا من أحد بيوت المساكن. لا يشترى أبدا من الدكاكين، وأهل المساكن لا يبيعون إلا له فهو غريب. بدءا من العصر يتجمع الأولاد على الدرجات الثلاث التى تؤدى إلى باب الماكينة وأمامها، بعضهم يجلس على الدرجات نفسها والبعض على الأرض، وإذا اشترك سليمان أو غيره من الكبار يحضر كل منهم كرسيًا من الخيزران معه من البيت. لقد فاجأ محمود القزعة سليمان بعد حديث تاجر البهار قائلا . . .

ـ ألم تجد لى طريقه بعد يا أستاذ سليمان فى استرجاع اليوم الذى ضاع؟ دهش سليمان، ذلك موضوع قديم كان قد نسيه . . . فى شهر رمضان الماضى سأله محمود القزعة . .

ـ الإنسان إذا أفطر فى رمضان غير قاصد لذلك يستطيع بعد رمضان أن يعوض أيام الإفطار بصوم مثلها. أليس كذلك يا أستاذ سليمان؟

ـ أجل يا معلم محمود. الدين يسر.

ـ طيب ماذا يفعل الإنسان إذا صام يومًا وأراد أن يعوضه بالإفطار؟ .

ـ لا أُفهم ماذا تقصد بالضبط.

ـ كيف تفهم الأولى ولا تفهم الثانية؟

ـ صدقنى أنا غير قادر على فهم قصدك. على أى حال تستطيع أن تفطر أى يوم.

ـ يا أستاذ كيف أفطر وأنا طبيعى فاطر؟ شف لى طريقة لاسترجاع اليوم الذى صمته الله يخليك.

ازداد اندهاش سليمان وقال . .

ـ ولماذا ترهق نفسك وترهقني هكذا، ألست مسلمًا يا رجل؟

هنا اندفع محمود القزعة قائلاً.

ـ مسلم. واسمى محمود على محمود لكنى ابن ديك كلب جبان لا ينفع معى دين ولا إسلام وأريد أن يعذبنى الله أبشع تعذيب لما ارتكبت من آثام. لقد صمت يومًا أريد أن أستعيده ولا أستطيع. لقد هرب منى فى قلب الزمن يا سليمان أفندى يا متعلم . .

وقف سليمان ذلك اليوم فى غاية الحيرة، وها هو محمود القزعة يعيد السؤال بعد حديث تاجر البهار فتعود إليه الحيرة القديمة، زائدة هذه المرة بسبب ما يجرى فى البلاد، وبسبب افتقاده جين بانكروفت أكثر. ترك المكان ومشى ناحية الأولاد عند الماكينة الحمراء وارتفع صوت محمود القزعة خلفه «عليه العوض فى التعليم والمتعلمين».

لكن ذلك لم يكن كل ما جرى منذ بدأت الحرب. لقد عاد الديب من رحلته فوق قطار البضاعة فى اليوم الثالث للمعركة، رأى الأولاد جالسين أمام الماكينة الحمراء فأراد ألا ينتبهوا إليه ومشى على الرصيف لا ينظر ناحيتهم. رأوه فنادوه، كان بينهم سليمان مشغولا بتلميع حذائه. عادة يفعل سليمان ذلك كل يوم. وإذا لم ير أحد معه حذاء يلمعه يكون معه كتاب يقرؤه. قال لهم الديب:

ـ حكاية اليوم لن تصدقوها أبدا . .

الديب يعمل «مُسَفّرا» على قطارات البضاعة الخارجة من ميناء الإسكندرية إلى طول البلاد وعرضها. والمسفر هو حارس ليلى ونهارى يجلس دائمًا فوق العربة الأولى أو الأخيرة يمنع السطو على القطارات. والمسفّر لقب أطلقوه عليه من كثرة الأسفار.

ـ كيف تكون غير قابلة للتصديق؟

ـ لأنكم لن تصدقوا أن القطار خرج عن القضبان.

ـ لماذا لا نصدق؟ القطارات كثيراً ما تخرج عن القضبان.

ـ أنا لا أقصد ما تعنيه أنت. أنا أقصد أنه خرج عن الكرة الأرضية ذاتها. نظروا إلى بعضهم البعض فى وجوم بينما استمر سليمان يلمع حذاءه مبتسمًا فى خبث وعاد الديب إلى الكلام:

ـ كان القطار يمشى فوق الأرض بهدوء حتى بدأت الحرب وطاردتنا طائرات الأعداء فأسرع السائق بالقطار لا يقف أبدا حتى انتهت الأرض من تحته. لا يقاطعنى أحد، قال ذلك حين لمح الضحك يكاد ينطلق من بين شفاههم واستمر يتحدث، لقد صار القطار مثل الطائرة وأنا فوقها أنظر إلى الناحيتين، فلا أرى إلا فضاء يموج فيه الضباب والسحب والبخار وعمق سحيق. قال مصطفى:

ـ وطبعًا قفزت تاركًا القطار.

نظر إليه ساخراً ومتململا. قال:

ـ أقفز إلى أين؟ تريد أن تقتلنى، قلت هذا قضاء الله وانتظرت النهاية صابراً حتى لمحت قطاراً آخر قادمًا من الناحية الأخرى.

ضربوا أكفهم بعضها ببعض وانطلقوا ضاحكين، انطلق الولد الأسود «بَلَكْ» فى الكلام..

ـ طبعًا قفزت إلى القطار الآخر الذى عاد بك إلى الأرض .

قال الديب مبتهجًا .

ـ رغم أنك أسود واسمك بَلَكْ وأبوك ولا مؤاخذة لا يفهم أى شىء فى شغل السكة الحديد إلا أنك ولد شاطر . .

عادوا يضحكون لكن مما قاله عن أبى بلك هذه المرة . عاد سليمان مبتسمًا إلى تلميع الحذاء وظل مصطفى يتأمل الديب بدهشة بالغة ثم قال :

ـ طيب ، صدقناك ، أين إذن ذهب قطارك؟ وكيف لم تسأل عنه المصلحة ، والسائق هل عاد مثلك أم اختفى؟

ـ القطار لم يعد ، والسائق طبعًا ، والمصلحة لم تسألنى عن أى منهما وهذا هو ما يغيظنى فى هذا البلد ، ليس للإنسان أى قيمة حتى لو كان سائق قطار!

وقف مصطفى بعيدًا عنهم بخطوات ورفع يديه إلى السماء هاتفًا :

ـ يا رب أنت شاهد وشايف ، إنجلترا وفرنسا وإسرائيل من ناحية ، والديب من ناحية ، عليه العوض فى ثورة يولية!

نهض الديب ثائرًا وانصرف عنهم غاضبًا . وبعد عده خطوات توقف ينظر إليهم وهتف قائلاً :

ـ لو كان الشعب كله مثلكم غاوى كلام على الفاضى وفاكر نفسه هو وحده الذى يفهم كل شىء فالله يكون فى عون ربنا على الشعب!!

كان اليوم هو الجمعة وكان مقررًا أن يخطب جمال عبد الناصر بعد الصلاة فى الجامع الأزهر . تجمع الرجال والشباب والأولاد فى دكان

العنيبسى وأمامها يستمعون إلى الصلاة المذاعة. صلوا جماعة بسرعة. أمَّهم تاجر البهار! . كانوا يريدون أن يسمعوا صوت عبد الناصر، وحتى يأتيهم صوته راحوا يتحدثون فيما جرى، كيف أغارت المدمرة «إبراهيم» على ميناء حيفا أول أمس بالليل وأشعلت الحرائق فى أكثر من مكان وكيف إنها فى طريق العودة اشتبكت معها ثلاث مدمرات فرنسية فأصابتها وأسرتها، وكيف رفضت المدمرة دمياط الاستسلام للمدمرات البريطانية فى خليج العقبة وقاتلت بشرف حتى الغرق وعليها قائدها الصاغ محمد شاكر حسين واليوزباشى مدحت الزيات، لكن المدمرة رشيد نجحت فى الإفلات من حصار المدمرات الإنجليزية فى شرم الشيخ وعادت سالمة، وقطعت مصر تمامًا علاقاتها السياسية مع إنجلترا وفرنسا، كذلك فعلت سوريا، وتم تعطيل البنوك الإنجليزية والفرنسية حتى يتم توقيع الحراسة عليها، وهدد نهرو بالإنسحاب من دول الكومنولث، وقام العمال العرب فى سوريا بتدمير أنابيب البترول التى تنقل البترول من العراق إلى البحر المتوسط إلى أوربا، حدث ذلك فى البحرين أيضًا، خسارة فادحة تلقتها شركات البترول الإنجليزية، وكان واضحًا من الكلام أن العالم كله مع مصر، اليونان منعت دخول سفن الأعداء إلى مياهها الإقليمية، والجمعية العامة ستنعقد بناء على طلب أميركا ومصر بعد أن أوقفت إنجلترا وفرنسا قرار وقف إطلاق النار بمجلس الأمن، وسكتوا جميعًا فى خشوع وأرهفوا السمع، ها هو صوت عبد الناصر يأتى إليهم.

فى اللحظة التى تهدج فيها صوته، قائلاً سنقاتل إلى آخر قطرة من دمائنا، سنقاتل ولن نستسلم أبدا، انفجروا بالهتاف، الله أكبر، يسقط إيدن، يسقط موليه، يسقط بن جوريون، نموت وتحيا مصر، وأخذوا طريقهم ناحية كوبرى كرموز، رجالاً وشبابًا وأطفالاً، من المساكن

وغرباء ومارة بالصدفة، وعلى الشاطىء الآخر تجاوب معهم عمال وكمسارية ورش الترام، ولم ينقطع هتافهم طوال الطريق إلى الكوبرى وكان واضحًا أن أبناء المدينة كلهم قد خرجوا فى مظاهرات حماسية تطلب الموت فداء للوطن وكان واضحًا أيضًا أنهم سيلتقون بهم عند الكوبرى ولن يعودوا إلا بالليل، الكبار، والصغار معًا. كانوا مستعدين بالفعل أن يموتوا فداء الوطن، لكنهم كانوا بعيدين جداً هنا على هامش الإسكندرية لا يسمعهم أحد ذلك اليوم الذى لن ينسوه أبدا بعد ذلك.

(٦)

ما الذى جعل العالم كبيراً هكذا فجأة؟ الحرب وليس غيرها هى التى جعلته جلبابًا واسعًا خشنًا يتعثر فيه صاحبه، عالم بايخ حقًا وغير جميل..!

كن يجلسن حول أبلة نرجس، الست الطيبة مستديرة الوجه والجسد تخر النعمة من وجهها البسيم! التى إذا تكلمت حطت الألفة على المكان. السيدة القصيرة الممتلئة للزوج الطويل الفارع مفتول العضلات. هى إسكندرانية أصيلة وهو صعيدى من نوع خاص، ترك لها عالمها الصغير، خياطة الثياب للجيران وتعليم الفتيات. وتركت له عالمه الكبير، العمل بالسكة الحديد نهاراً والتجارة ليلا فى السمن والأحرمة الصوف والجزارة. هو تاجر شاطر وهى خياطة ماهرة، وعمل كل منهما لا يترك لهما فرصة للكلام إلا قليلاً لذلك تمضى الحياة لينة سهلة، وبسلام!.

فى المساء، كل ليلة..، تتحلق البنات حول «أبلة نرجس» ويدخل

«عم على» إذا كان موجوداً، إلى الغرفة الداخلية لينام. يطلب أن يلحق به كروان، الذى يحب أن يتلكأ ويجلس بين البنات، لكن بعد قليل تقول أمه:

ـ قم نم يا كروان عندك مدرسة فى الصباح.

تحسده البنات لأنهن لا يذهبن إلى المدرسة، مريم فقط هى التى تذهب ولا تأتى لتتعلم الخياطة هنا، تذهب إلى مدارس فيرا بالمنشية.

أمه تقول إن القبط شاطرين، ومدارس فيرا تعلم الخياطة على أصولها، على الباترون.

تشتغل أبلة نرجس على الماكينة السنجر قليلاً ثم تتركها للبنات وتنشغل بالتفصيل والقص. البنات دائمًا مفتونات بألوان القماش ورائحته الجديدة مثل ملمسه الناعم. الزفير خشن والبوبلين طرى والباتستا مفرح والشانتونج بيكب كده ألوان! . الله الله على الكريب، الواحدة عايزة تحطه على خدها وتنام! وأبلة نرجس تجلس فلا تنهض من مكانها إلا بعد أن ينصرفن جميعًا، تقف وتنفض بيديها القصاقيص الكثيرة التى لصقت بجلبابها والخيط وتندهش كيف تركت كل هذا يلصق بها وتنظر إلى ما أنجزته مع «بناتها» وتشعر بالسعادة ليس لما يعود عليها من مال، فهو بسيط، لكن لما يعود عليها من بهجة الأنس بالبنات الجميلات الطيبات، والإشباع العظيم الذى يمكن أن تفوز به معلمة لتلميذات مطيعات. الراديو دائمًا جوارها مطفأ حتى العاشرة حيث تمتد أكثر من يد لتشغيله. بعد العاشرة تبث المحطات دائمًا أغنيات جميلة، لكن أفضل الليالى هى الليلة، موعد برنامج ما يطلبه المستمعون، الذى يذاع مرة واحدة فى الأسبوع وتدخر الإذاعة فيه باقة من أجمل الأغنيات كما تقول المذيعة ذات الصوت الحلو الناعم. مطر خفيف

الليلة يتساقط يسمعن صوت التقاء حباته بالسطح، بالذات بسطح العشة الخارجية الصفيح. إنه الخريف فى الإسكندرية والأمطار تأتى مبكرة عن موعدها دائمًا لكن برقة واعتدال.

العالم حتى أمس كان هذه الحجرة الصغيرة التى تساقطت قشور طلائها الجيرى الذى كان أزرق فصار أبيض! الحجرة التى ليس فيها غير كنبتين صغيرتين نظيفتين، وكليم صوف ناعم مرسوم عليه قوافل جمال بنية على أرضية «بيج» وتكاد الجمال تخرج تمشى على الأرض من دقة الرسم وطزاجة الألوان.

بين الكنبتين ماكينة سنجر برجْل!. وكرسيان من الخيزران وفى الركن منضدة صغيرة لا يزيد طولَ ضلع سطحها على نصف متر فوقها الراديو الوحيد فى المساكن والموصل بالكهرباء. الراديو هو الذى يربط هذه الغرفة بالدنيا، والدنيا أغنيات حب وهجر وعذاب ينتظرنها أكثر الليالى ويعولن عليها كثيراً فى التفاؤل بما ستأتى به الأيام...

ـ الأغانى ستتغير الليلة يا بنات.

قالت ذلك أبلة نرجس فى شبه أسف. كانت حُسْنة الطويلة الهشة مشغولة بصورة عم على زين العابدين بملابس الإحرام أمام الحجر الأسود فى الكعبة المشرفة والموضوعة فى برواز أنيق ومعلقة أمامها على الحائط. كانت تسأل نفسها عن المصور الذى يستطيع أن يفعل ذلك فى الحج وأمام الكعبة وهى تعرف أن التصوير حرام!.

لكنها سمعت أبلة نرجس فقالت:

ـ كيف يا أبلة؟

ـ لن يكون هناك أغانى حب الليلة. الأغانى كلها وطنية.

قالت حسنة:

- ألا يكفى طول النهار؟

وقالت حكمت ذات العينين الزرقاوين، الشقراء، الجميلة، التى لا تحضر إلا قليلاً:

- لم يكن ينقصنا غير هذه الحرب. أيام العلمين هاجرنا من الإسكندرية إلى طنطا. كنت صغيرة لكن فاكرة. كانت بهدلة.

قالت أبلة نرجس:

- كانت حربا صعبة الله لا يعيدها، وربنا يستر علينا فى هذه الحرب. ظهرت غيمة على وجه مشيرة فقالت لها شوقية:

- لا تزعلى يا مشيرة، الحرب مصيرها تنتهى والأفراح تعود..

سكتن جميعًا للحظات ينظرن إلى مشيرة وأيديهن لا تكف عن العمل، واحدة تقيس وأخرى فى السراجة وثالثة تسند القماش أمام الماكينة ورابعة ترص ما انتهين منه وتفرزه، فتعزل الرجالى عن الحريمى، وما يخص الكبار عن الصغار، قالت مشيرة:

- كامل سافر مع الجيش. ودعنى من أسبوع وقال لى إنه مسافر إلى سينا،. قال لى ادعى لى يا مشيرة أعود..

لم تستطع أن تكمل. اختنق صوتها لكن حسنة الطويلة الهشة الضحوك هتفت قائلة:

- هل رأيتن عم حمزة؟ تطوع فى الحرس الوطنى. يلبس شورت كاكى وقميص وعلى كتفه بندقية أطول منه.

ضحكت الفتيات ولم تفلح جدية أبلة نرجس التى كتمت ضحكها فى أن تجعلهن يتوقفن عن الضحك بسرعة. زوجها مسافر إلى الصعيد

منذ يومين للاتفاق على صفقة سمن بلدى، ويمكن لها أن تضحك بشدة، لكنها لا تريد أن تُعَوِّد البنات على السخرية من الرجال! قالت بدرية الحمراء مثل دجاجة:

- الجزمة التى فى قدميه أثقل منه.

فقالت حكمت:

- لكنه رجل طيب، ويكفى أنه أبو نوال.

قالت أبلة نرجس:

- عم حمزة هذا له قصة عجيبة فى الحرب الماضية. سنة كاملة ضاع فيها بين الإنجليز والألمان والطليان وشاف الموت بعينيه ألف مرة.

كانت الأغنيات الوطنية قد بدأت تنهمر من الراديو الذى أشعله كروان.

تكررت أغنيات دع سمائى فسمائى محرقة، دع قناتى فمياهى مغرقة. والله أكبر، وأنا النيل مقبرة للغزاة، من كل المحطات التى كان كروان يبحث فيها عن أغنيات عاطفية، والبنات ينظرن إلى بعضهن فى يأس. لم يكد يمر أسبوع واحد على الحرب ولم تعد الدنيا هى الدنيا. كانت كل منهن تنتظر برنامج ما يطلبه المستمعون طوال الأسبوع حتى ترى حظها فجاءت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل معًا من أقصى الدنيا لتحرمهن من ذلك رغم أن أيّا منهن لم تسىء إلى أى دولة منها بل لا تعرف واحدة منهن أين تقع هذه البلاد!. كن يسمعن فى طفولتهن شيئًا من القصص عن الإنجليز المخمورين على الكورنيش لكن أيًا منهن لم تلتق بعسكرى إنجليزى وجهًا لوجه. إنهن، ببساطة، لم يكن يذهبن إلى الكورنيش ولازلن، إلا مرات قليلة فى الصباح الباكر فى صحبة أمهاتهن لشرب دماء الترسة فى

حلقة السمك بالأنفوشي. كل منهن كانت مشغولة دائمًا بالبحث عن عبد الحليم حافظ في البرنامج، والهرب من فريد الأطرش الذى لا يحببن نواحه، ويرضين بشادية ونجاة وفايزة أحمد ومحمد قنديل وعبد الغنى السيد وكارم محمود، ويتركن الأغنية الأخيرة التى تكون دائمًا لأم كلثوم، يتركنها لأبلة نرجس. حكمت كانت أكثرهن حظًا مع عبد الحليم. يندهشن من حظها والحقيقة أنها كانت تعمل ذهنها قليلا. لقد أدركت من التكرار أن البرنامج لا يثبّت إلا فريد الأطرش وعبد الوهاب ثم أم كلثوم. هم دائمًا آخر الأغنيات. قبل ذلك خمس أغنيات أو أربع تتغير فيها مواقع المطربين، لذلك كانت تمارس نظرية الاحتمالات دون أن تعرف أن هناك نظرية للاحتمالات، فإذا طلبت أن تكون الأغنية الثالثة فى أحد الأسابيع لها وكانت لعبد الحليم حافظ تأتى الأسبوع التالى لتطلب الأغنية الأولى فتكون لعبد الحليم حافظ أيضًا أو فى أكثر الأحيان. ثم تأتى الأسبوع الثالث وتختار الأغنية الخامسة فتنجح فى اصطياد عبد الحليم وتتصاعد آهات وزفرات البنات وإعجاب أبلة نرجس. فى النهاية صار معروفًا أن لكل واحدة تقريبًا حظًا شبه ثابت. شوقية يأتى حظّها غالبًا مع أحلام وأغنية «يا عطارين دلونى الصبر فين أراضيه» أو مع عبده السروجى وأغنية «غريب الدار علىّ دار زمانى قاسى وظلمنى» وتمصمص شفتيها حسرة على حظها مع اليأس والبؤس هذا. أحيانًا يسعدها الحظ فتكون أغنية نجاة على «فاكراك ومش ح أنساك» ومرة فوجئت بدويتو راقية إبراهيم وعبد الوهاب. صرخت راقية إبراهيم «آى سنتى» فضحك الجميع وابتهجت هى وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى ظهرت لها أغنية غير بائسة فى البخت!

فى الأسبوع الماضى ابتعدت عن جميع الأماكن الأولى واختارت

الأغنية السادسة راضية بصوت عبد الوهاب الرخيم فغنى لها عبد الوهاب أغنية «طول عمرى عايش لوحدى غريب وراضى بحالى» فبكت شوقية بحق ولم يستطعن إيقافها عن البكاء إلا بعد وقت طويل أطفأن فيه الراديو ورحن يواسينها ويذكرنها أن هذا كله لعب وهزار ولم تتوقف عن البكاء حتى نهرتها أمها، أبلة نرجس، محتجة على هذا الدلع الزائد! مشيرة حظها فى الغالب يكون مع ليلى مراد أو فايزة أحمد. كثيراً ما تغنى ليلى «الحب جميل» أو تغنى فايزة «أنا قلبى إليك ميال».

يتورد وجه مشيرة السمراء بالفرح والرضا. إنها تعيش قصة حب حقيقية مع كامل الذى لم تعرفه قبل الخطوبة لكنها الآن كمن تعرفه منذ عشرات السنين. البنات لهن رأى آخر فى كامل ويندهشن من هذا الحب فهن لا يرين كامل مغريًا فى شىء، هو أبيض الوجه مائل إلى الحمرة، أشقر، عسلى العينين، له شارب رفيع محفوف بعناية يقول عنه إنه مثل شارب كلارك جيبيل، وهن لا يعرفن من هو كلارك جيبيل هذا، وما إذا كان وسيمًا أم لا؟ كامل أيضًا يعمل «مزين»، صحيح فى محل كبير بالمنشية لكنه فى النهاية «مزين». ثم إن رجلا شديد البياض والحمرة والنظافة وبارد أيضًا أمر يغيظ! . لا يعرفن كيف يكون الرجل أبيض. ماذا تكون المرأة إذن؟ . الرجل أسمر والمرأة بيضاء، هكذا خلق الله الدنيا أو هكذا رأين فى حياتهن. . لكنهن قط لم يقلن شيئًا من ذلك لمشيرة، ويتمنين لها السعادة التى ترجوها ويستمررن فى ذلك الرجاء! .

توقفت الأغنيات، وانطلقت المارشات العسكرية ثم أعلن المذيع فى أسى عن بدء الإنزال الجوى البريطانى الفرنسى على بور سعيد بعد أن تم ضربها بالنهار بالمدافع من البحر والجو، ثم صرخ المذيع بأننا أبدا لن

نركع ولن نستسلم وطالب شعب بور سعيد بالصمود ومن الشعب المصرى التطوع للدفاع عن الوطن ومن الشعوب العربية المؤازرة والاستمرار فى تدمير الممتلكات الإنجليزية والفرنسية وانطلق بعده نشيد الله أكبر يزلزل أركان الفضاء.

ـ الحرب صارت بجد يا بنات..

قالت أبلة نرجس بينما كان البنات ينظرن إلى بعضهن غير قادرات على فهم هذا الإنزال الجوى بالمظلات، فشرحت لهن معنى المظلات، وكيف كان للألمان فى الحرب الماضية جيش من المظلات يبهدل فى الدنيا كلها، وزاد الرعب على وجه مشيرة خوفًا على خطيبها كامل وازداد توتر بدرية الحمراء كدجاجة فلقد تم استدعاء خطيبها أيضًا إلى المعركة منذ أيام وإن بدت من قبل متماسكة ولم تعلن لهن ذلك إلا الآن. ابتسمت حسنة وقالت.

ـ لذلك لم تأت إلينا بالهريسة معك.

خطيب بدرية حلوانى يعمل فى محل عند محطة الساعة بالورديان لا يزورهم إلا وعلبة الهريسة بالبندق فى يده. وقالت حكمت:

ـ أخذوا الحلاقين والحلوانية وتركوا باعة السمك. هل باعة السمك لا يصلحون للحرب؟

لم يرد أحد. يعرفون أنها تقصد خطيبها صفوت الجعفرى، تاجر السمك العايق أبو سنة دهب. الصعيدى الشاب الذى دفع فيها مهراً مقداره مائتا جنيه لكنها، ولدهشتهم الدائمة، لا تحبه. إنهن يحسدنها على هذا التاجر الشاب الأنيق الوسيم وهى لا تحبه. تعلق قلبها به فى أحد مشاويرها مع أمها إلى حلقة السمك بالملاحة. أعجبها هندامه العصرى، فهو لا يرتدى زى الصيادين الإسكندرانى، اللباس الواسع

أبو حجر، الطويل، والصديرى الأسود تحته الفانلة البيضاء ذات الأكمام الطويلة. يرتدى بنطلونًا وقميصًا على طريقة جيمس دين ونظارة الشمس ريبان، وفى معظم أصابعه خواتم ذهبية.

خطف عينيها وهز قلبها ذلك اليوم، وهى أيضًا استغرقته عيناها الزرقاوان وبشرتها البيضاء لامعة النضرة وشقرة شعرها. أدمنت شراء السمك مع أمها، وأدمن هو البيع لهما بأسعار رخيصة وأسماك طازجة، ولم يستمر طويلاً فى ذلك. تقدم لخطبتها ففقدت وعيها من الفرحة. لم تمض أسابيع حتى كرهته بنفس القوة. لم تستطع أن تعلن رغبتها فى فسخ الخطوبة. كيف حقًا ترفض عريسًا شابًا أنيقًا غنيًا. لن يصدقها أحد إذا روت القصص عن مغامراته العاطفية وغرامياته مع الأخريات. أدركت إنها ليست أكثر من نزوة، قصة عابرة قد تستمر بعض الوقت، لكنها لن تدوم، لكن لا قدرة على التراجع، هو غنى وأهلها فقراء، دفع المهر كاملاً أكثر مما يتوقع واشترى لها شبكة بعشرين جنيهًا كاملة ويصحبها لتشترى أجمل الفساتين من هانو وعمر أفندى وعلمها الجلوس فى ديليس وتريانون وكيف تشرب الشاى مع الكيك، دخلت معه السينما وتركت يده تحوطها بهدوء وتركته يقبلها بهدوء ولم يلاحظ إنها لا تنفعل معه. قالت لنفسها إنه طالب متعة أنانى لا أكثر. أخذها إلى محلات الأحذية الشهيرة بشارع الفلكى وصحبها إلى الشلالات فجلست معه بين العشاق فى كازينو الشجرة، ولم تحبه، شربا معا الخروب البارد اللذيذ فى الصيف من العربة البيضاء الجميلة التى تشيع البرد حولها عند الأصيل وفى المساء جوار نقطة باب شرق ولم تحبه. كان انجذابها الأول مثل ومضة كهربية سرعان ما انتهت. سيتزوجها ليضعها فى البيت دمية جميلة بينما ينطلق هو فى الهواء يلبى نداء نزواته، ولن

تستطيع الاحتجاج. ستذوى إذن على يديه؛ هذا السَّجَّان الجميل الذى قطع طريق حياتها. وبدأت تفقد كثيراً من وزنها ورونق بشرتها وبريق عينيها ولم تتزوج بعد. . فجأة انطلقت فى البكاء بين صمت الجميع. هتفت أبلة نرجس:

ـ كوب ماء يا كروان.

راحت تسقيها الماء بهدوء. كانت تعرف أن البنت الجميلة لم تتحمل فكرة أن تتمنى الموت لخطيبها فى الحرب. لا شك أن البنت الرقيقة أحست كما لو كانت قتلته بالفعل.

شربت حكمت الماء والدموع معا. وقالت أبلة نرجس:

ـ اسمعوا يا بنات. الحب الحقيقى لا يأتى إلا بعد الزواج. والزوجة الشاطرة هى التى تقدر على ترويض زوجها. وكل الرجال فيهم عيوب، لكن كل الرجال فيهم مميزات كذلك. وإيا كن تصدقن الأغانى.

سكتن جميعًا. كن يعرفن أنها تخفف عن حكمت. قالت حسنة:

ـ ما دامت الحرب قامت، والإذاعة منعت الأغانى العاطفية، ما رأيكم أُغنى أنا، الغناء ضاغط على قلبى، منهم لله الإنجليز.

ضحكن، ضحكت حكمت بلا صوت، ومسحت آثار دموعها براحتيها. قالت مشيرة فى حزن:

ـ قلبى على أهالى بور سعيد.

فقالت بدرية.

ـ ربنا إن شاء الله ينصرهم وينصرنا. .

لم يكن يدركن حجم المعركة، وحتى أبلة نرجس التى عاشت فى

الإسكندرية أثناء الحرب العالمية الماضية لم تكن تدرك حجم الهجوم، كان الأمر بالنسبة لهن معركة لبضعة أيام وتنتهى، وبدا أنهن ذاهلات عن الراديو الذى يبث نداءات النصر والقوة لأهل بور سعيد وللشعب المصرى. قالت حسنة:

ـ إذا كان صوتى لا يعجبكم تختار كل واحدة أغنية وتغنيها.

قالت أبلة نرجس:

ـ اقتراح جميل يا بنات. هيا.

سكتن جميعًا للحظات، كل منهن تنتظر أن تعلن الأخرى البداية، ففاجأتهن حكمت

ـ سأبدأ أنا..

تركزت عيونهن على وجهها، كانت هى قد أغمضت عينيها وتنهدت.

قالت أبلة نرجس.

ـ صوتك يا حكمت جميل من قبل أن أسمعه.

وإذا بصوت دافىء شجى ناعم عذب معذّب يسرى هادئًا من بين شفتيها معبأ بالعتاب والشجن.

مالك ومالى يا أبو قلب خالى

ريّحت بالك وشغلت بالى

يا أبو قلب خالى

أشارت لهن أن يعدن «الكوبليه» وظلت صامتة حتى انتهين ثم واصلت الغناء. كان فى إعادتهن شىء من المرح الخفيف.

أيام بتبعد، وأيام بتوعد
ولا بعد يغنى، ولا وعد يسعد
قلبك غَدَرْ بى قلبك
وأنا قلبى حبك قلبى
ليه بس قلبى مش زى قلبك
ما لوهش غالى
يا بو قلب خالى
يا بو قلب خاااالى..

أعدن «المذهب» من جديد، لكن شيئًا من الحزن الحقيقى تسلل إلى أرواحهن، وتوقفت حكمت عن الغناء لأن صوت صفارة الإنذار انطلق فى سماء المدينة

تشبثن بأماكنهن من الذعر، اندفع كروان يطفىء النور وسمعن خطواته فى الظلام وهو يقفز إلى الخارج. هتفت شوقية: كروان! لكن أمها، أبلة نرجس، طلبت أن تتركه. الوقوف فى الفضاء أفضل من البقاء فى البيت. . . الحقيقة إنه كان قد تعود عند وقوع الغارة أن يقف عند المحمودية مع أصحابه يتابعون القذائف المضادة وهى تنطلق نحو الطائرة. راحت أبلة نرجس تحكى لهن عن الغارات الحقيقية فى الحرب الماضية. غارة الست ساعات، أشهر الغارات على المدينة، التى بدأت فى المساء وانتهت فى منتصف الليل بعد أن دمرت حى باب سدرة كله وجزءًا كبيرًا من كرموز.

مات خلق كثيرون فى الإسكندرية فى تلك الحرب وهاجر الباقون حتى كادت المدينة تفرغ من السكان، لكنها رفضت الهجرة إلى الصعيد حيث أهل زوجها، أو إلى محافظة البحيرة التى بنت فيها الحكومة أكبر

المعسكرات للمهاجرين «لن أترك الإسكندرية أبدا. قلت لزوجى، وهذه المرة لن أتركها أيضًا. العمر واحد والرب واحد يا بنات وكما انتهت الحرب السابقة ستنتهى هذه الحرب» وانطلقت أصوات المدافع فى الفضاء، منها مدفع موجود فوق السطح مباشرة هز البيت فالتصقت البنات ببعضهن، ولسوء الحظ كان اليوم هو الرابع من ربيع الأول فلم يكن هناك قمر ولا هلال فى السماء يمكن أن يضىء لهن شيئًا. قالت أبلة نرجس، إنه من حسن الحظ لا لسوئه لأن الطائرات أيضًا لا ترانا، لكن فجأة امتلأ الفضاء بالضوء. صواريخ صواريخ!

استمعن إلى صوت الرجال الذين تجمعوا فى الأزقة بين البيوت.

كانت الطائرات تلقى شرائط الفوسفور فوق المدينة لتضىء فضاءها المعتم، ازداد انطلاق المدافع وخوف البنات وسمعن صوت «ألجونى» بالباب. أدخلى على مهلك. قالت أبلة نرجس وكانت «ألجونى» قد دخلت بالفعل ووقفت قريبًا جداً منهن فى الظلام لا يرينها وإن كُنَّ يسمعن صوتها المميز ذا البحة الجميلة. قالت:

- كنت نائمة وحلمت حلمًا فظيعًا. حلمت برجل يحملنى على رأسه يصعد بى إلى جبل عال ثم يلقى بى على الأرض. قمت من الكابوس مفزوعة على صوتٍ صفارة الإنذار. كانت أمى توقظنى بفزع وسمعت أبى يصلى. .

مدت حسنة يدها أمسكت بها فى الظلام. . وسحبتها جوارها:

- تعالى هنا لا تخافى يا حبيبتى. .

تسكن «ألجونى» مع أسرتها فى البيت المجاور لأبلة نرجس، وهى أيضًا شقراء مثل حكمت إلا أن عينيها خضراوان، ورغم أنها أصغر،

بالكاد فى الخامسة عشرة فقد أطلقوا عليها لقب « الجونى »، كما كانوا يطلقونه على الإنجليز.

سمعن بالباب صوت نوال يطلب الدخول، فضحكن ولم يعدن يسمعن صوت المدافع وأزيز الطائرات رغم إنه لم ينقطع. هتفت شوقية لا ينقصنا الآن غير نادية فقالت نوال «إنها قادمة خلفى»، سمعن بالفعل صوت نادية يطلب الدخول فى الظلام. قالت حسنة:

- هل تصدقين يا نوال أننا كنا نغنى؟. أى والله. وجدنا منافسًا خطيراً لك. حكمت.

قالت نوال:

- حكمت صوتها جميل فى الغناء أو فى الكلام.

قالت مشيرة:

- صحيح يا نوال أنك تغنين فى المستشفى؟

قالت نوال:

- صحيح عندنا دكتور جرّاح مجنون كل عملية يطلب منى أدخل معاه غرفة العمليات ولا يكلفنى بأى عمل. يقول لى أن أجلس على الكرسى فى ركن من الحجرة وأغنى. يقوم هو بالعملية تساعده الممرضات والأطباء الشبان وأنا أغنى، وإذا توقفت لحظة ينظر لى فى غيظ من خلف القناع فيرعبنى فأغنى.

قالت أبلة نرجس:

- أول مرة أسمع شيئًا كهذا.

وقالت حسنة:

- هذا بدل أن يساعدك فى التقدم إلى الإذاعة. عشنا وشفنا.

قالت نوال بطفولة :

ـ اسمى فى المستشفى مطربة العمليات ، لم يعد حتى أحد يقول لى سستر نوال ولا الحكيمة نوال . .

هتفت شوقية فى الظلام :

ـ فشر . أنت ولا كوكب الشرق أم كلثوم وبكرة تشوفى بس يا ريت تغنى لنا حاجة لغاية الليلة دى ما تعدى !

ضحكن وقالت نوال :

ـ طيب اسمعوا .

حط عليهم الصمت ، حتى المدافع بدا أنها صمتت أيضًا وربما كانت الطائرات قد ابتعدت عن المدينة . لم يعدن يسمعن شيئًا خارج المكان .

بدأ صوت نوال القوى الرنان يسرى فى الظلام بهدوء وعلى مهل وبعذوبة فائقة .

يا حلاوة الدنيا يا حلاوة
يا حلولو يا حلاوة

فاجأتهن الأغنية لكنها ألهبتهن كثيراً من البهجة والحماس فرحن يرددن خلفها كلما توقفت .

حلاوتها لما تصفى لى
أنا وأنتم واللى فى بالى
يصفى لى كل مطلوبى
وكفاية وجه محبوبى
والباقى كله يتساوى
يا حلاوة الدنيا يا حلاوة

كان الرجال والنساء والأطفال المتجمعون فى الزقاق القريب قد بدأوا يسمعون الغناء غير مصدقين. اقتربت النساء والأطفال من البيت بينما قال أحد الرجال: «مسخرة البنات حتى فى الغارة».

وأتى صوت نوال القوى العذب الرنان:

ومــا دام الـدنيـا مــاهش دايمة
وقــيـامــة على العـــالم قــايمة
حلّوها وافــرحــوا بيــــهــا
والطـيب اعــملوه فــيــهــا.

وراحت البنات تُعدن معها الغناء، بدأ بعض الأطفال ممن اقتربوا من البيت يرددون معهن، ثم بدأت بعض النساء، ازداد الصوت الجماعى قوة فى الداخل والخارج ووصل إلى الرجال الواقفين فى الأزقة والرجال المتجمعين فى المسجد الصغير وسط البيوت ولم يعلق هذه المرة أحد. أرهفوا السمع الآن. كل على حدة. بل لم يعد أحد يتكلم مع أحد. ملأ صوت البنات داخل بيت أبلة نرجس، والنساء والأطفال فى الخارج، فضاء الليل الأسود حتى كاد يضيؤه بعد أن كفت الطائرات عن إلقاء شرائطها الفوسفورية.

(٧)

كانت الحركة بالنهار اليوم غير عادية فى الأتيليه. كثيرات جئن يطلبن من ماريانا الانتهاء بسرعة من حياكة ثيابهن. لم تظهر زبونة جديدة. أمضت جورجيت القبطية اليوم تتحرك وتعمل وتضحك بلا سبب بينما أمضت «أسمهان» الإيطالية اليوم صامتة، اقترب منها العربى قبل أن تنصرف بقليل:

ـ مالك مدموازيل أسمهان اليوم كله حزينة؟

ـ الحرب قامت عربى .

ـ أعرف أسمهان . الحرب مع المصريين والحرب أيضًا بعيد فى بورسعيد . هنا غارات بسيطة ، ليست كالغارات التى كان يقوم بها الإيطاليون على الإسكندرية فى الحرب العالمية .

ـ عربى ، غارات الحرب العالمية كانت بسبب الدوتشى ، موسيلينى . نحن شنقنا موسيلينى . أنا لا أخاف الغارات . المشكلة فى أنطونيو .

ـ البوى فريند؟ !

ـ أخى عربى ، يريد أن يتطوع للدفاع عن مصر .

ـ بطل . رجل محترم .

قالت جورجيت التى كانت تسمع وتبتسم . .

ـ حقا يا عربى لماذا لا تتطوع؟

ـ ذهبت . قالوا إنهم أخذوا العدد المطلوب ، تركت لهم اسمى وعنوانى لوقت الحاجة . .

كانت كاتينا قد اقتربت منهم أيضًا . قالت :

ـ عربى لا تتطوع ، من يبقى معى؟ . أنا أخاف من الغارات . ممكن أموت .

ثم نظرت إلى أسمهان وقالت . . .

ـ اليونان أيضًا تطوعوا . . أكتر من مائتى يونانى من الإسكندرية تطوعوا للدفاع عن بور سعيد . .

قالت أسمهان :

ـ أنطونيو يقول إن الشيوعيين الإيطاليين واليونانيين اتفقوا على التطوع من أجل مصر ضد الإمبريالية .

قالت جورجيت :

ـ فى الكنيسة أيضًا طلب البابا من الشباب القبطى التطوع .

قالت كاتينا :

ـ أمس فى كنيسة سان سابا كان زحام فظيع . هتاف ضد إنجلترا وفرنسا من كل اليونانيين .

جلس العربى وسطهم مندهشًا مما يسمع . لم يفهم ما قالته أسمهان عن الشيوعيين والإمبريالية . قالت كاتينا :

ـ الشيوعيون دائمًا يا أسمهان ، ذكرتنى ياناكيس . ياناكيس كان يسارى ـ أغمض العربى عينيه متوقعًا الحديث الذى لا تمله ومنتظرًا أن ينتهى فى ملل !

ـ أنت لا تعرف عربى ماذا يعنى يسارى ، يعنى شيوعى . شيوعى يعنى لا يحب الملك . ملك إنجلترا ملك اليونان . ملك مصر . ياناكيس تطوع ليحارب النازى عندما احتل اليونان . يا ناكيس مات فى جبال اليونان عربى .

أدرك العربى حجم الكارثة فى أن يجلس رجل وسط ثلاث نساء لديهن مشاكل غامضة وفى زمن الحرب ! لكن ماذا يفعل . هنا عمله ، وهنا المرأة التى يحبها برغم أنها لا تحبه .

بدت له أسمهان فى حيرتها أكثر جمالاً . هى فى الأصل جميلة ، شعرها الأصفر دائمًا منكوش مجعد وتقول إنها هى التى تجعله كذلك شفتاها مكتنزتان عليهما دائمًا روج ثقيل وسط وجهها

الأبيض، وطولها غير عادى بالنسبة لامرأة لكنها دقيقة الخصر بشكل مثير. قابل أبواها المطربة الشهيرة أسمهان عام ١٩٣٨ فى رأس البر، وتحدثت معهما، أبدى أبوها إعجابه لأسمهان بصوتها الرنان فقبلته وقبَّلت زوجته أيضًا وأهدته أسطوانة عليها أغنيات لها وعليها توقيعها. لا يزال أبوها يحتفظ بالأسطوانة فى فخر، لقد وعد أسمهان إذا أنجب فتاة يعطيها اسمها. عارضت الأم بعض الوقت ثم استسلمت. هى أيضًا تحب صوت أسمهان. ولقد جاءت تحمل شامة صغيرة على ذقنها مثل أسمهان أيضًا. لكن مأزق أسمهان ليس كمأزق راشيل اليهودية التى قالت كاتينا عنها إنها تريد أن تتزوجه. العواطف متأججة ضد اليهود بسبب اشتراك إسرائيل فى العدوان على مصر.

لم يجد العربى شيئًا يقوله لأسمهان غير الأمل فى عودة أخيها سالما، وفكر فجأة فى هذه البهجة التى تشعر بها المرأة جورجيت طول اليوم وقال هذه امرأة ظل زوجها طول الليل ينكحها بلا هوادة..

انصرفت أسمهان وجورجيت فى الخامسة ولم يبق غيره لتنظيف المكان، ما كاد يفرغ من ذلك، ومن إعداد المكان لاستقبال اليوم التالى حتى دق الجرس. فتح الباب فرأى راشيل أمامه وجهها شديد الاحمرار حتى يكاد يحترق، كانت ترتدى معطفًا أسود خفيفًا فوق بلوز أسود وجوب أشد سوادًا أيضًا.. كانت شبه منهارة. الإيشارب الأخضر متهدل حول عنقها وتكاد تقع مغشيًا عليها.

- إلحقنى عربى.

ألقت نفسها على صدره فتلقاها بثبات وتراجع بها بهدوء إلى الخلف حتى أجلسها على أقرب فوتيل. أقبلت كاتينا فى هلع:

ـ مالك راشيل .

وضعت يدها على جبينها فوجدتها باردة، بينما كان عرق كثير يتفصد من مسام وجهها وجبينها ورقبتها، أسرعت كاتينا وأحضرت كأس نبيذ أحمر دلقته فى جوف راشيل على مهل وهى تمسك بفكها ثم جلست أمامها على مقعد خيزران تتأملها والعربى يتأملها واقفًا. فتحت راشيل عينيها وهى تقول فى ألم :

ـ خلاص كاتينا كل شىء انتهى في مصر .

كانت تكلم كاتينا وتنظر إلى العربى فى حزن واضح، واستمرت تتكلم :

ـ اليوم قال لى حاييم إنه لم يعد لنا بقاء هنا .

حاييم هو أخوها. العربى يعرف ذلك ويعرف محل الدخان الذى يملكه فى العطارين .

ـ حاييم فتح الدكان ساعة واحدة. كل زبون يأتى يشترى دخانًا يقول له خلاص حاييم أنتم ظهرتم على حقيقتكم .

قالت كاتينا :

ـ مشكلة. مشكلة كبيرة راشيل. إسرائيل سببت لكم مشكلة كبيرة للأسف .

ـ لكن أنا لست إسرائيل. حاييم كذلك. كثير من اليهود. ربما كلنا هنا فى إسكندرية رافضين الحرب. الحاخام فى المعبد استنكر العدوان . .

قالت كاتينا فى أسف . .

ـ حكاية حزينة حبيبتى .

عاد الصمت من جديد. كانت راشيل قد استعادت شيئًا من قوتها فاعتدلت فى جلستها. كانت لا تزال تنظر إلى العربى الذى بدوره رآها جميلة جمالاً يليق بامرأة فى الثلاثين وليس فى الخمسين. اندهش لهذا الإدراك المفاجىء. لكن راشيل لم تكن تعنيه أبدًا فى أى يوم. لم يشعر حتى إنها تميل إليه. قالت كاتينا:

ـ هل سيهاجر حاييم؟

ـ طبعًا. وسيأخذنى معه.

ـ إلى إسرائيل.

ـ لا. لا كاتينا. إلى البرازيل.

انكمش العربى للحظة. البرازيل دولة بعيدة جدًا. كان يظن أنها صاحبة محل البن البرازيلى فى شارع سعد زغلول حتى قالت له كاتينا ذات يوم «عربى أنت دائمًا معلوماتك غلط. البن البرازيلى محل ملك واحد يونانى فتحه من خمسين سنة..»

تنفس مرتاحا. ها هى الحرب ستحمل راشيل بعيدًا عنه آلاف الأميال.

لكن ما ذنب الناس فى بور سعيد حتى يتعرضوا لهذا الموت من أجل أن ترحل راشيل! إذا كان زواجه منها يمنع الحرب فلديه الاستعداد لذلك. لكن.. لا الحرب قامت لتمنع هذا الزواج؟ ولا الزواج سيمنع الحرب يا عربى، إنما هى الحياة وألاعيبها التى لا يفهمها أحد.

قالت راشيل:

ـ تعال عربى، اجلس جوارى.

تردد للحظة ثم تذكر أنها ذاهبة إلى نهاية العالم فجلس جوارها فاستدارت تتكلم:

ـ أنت عارف عربى أنى أحبك من زمان. أنت رجل ممتاز عربى وجميل لكن مسكين غير متعلم. أنت لا يمكن أن تجد عملاً بسهولة عربى. أنا الآن سأرحل عن مصر كلها. حاييم وجد مشتريًا لمحل الدخان. مشتريًا سوريًا. حاييم سيبيع المحل برخص التراب، وأنا أحب أعطيك هذا المبلغ البسيط كتذكار منى. سوفنير صغير عربى.

قالت ذلك وهى تخرج من حقيبة يدها ظرفا صغيراً.

ـ بهذا المبلغ، خمسون جنيهًا عربى يمكن أن تبدأ حياتك. تتاجر فى أى شىء.

كانت لا تزال تمد يدها بالظرف بينما هو يفكر فى أمر هاته النسوة اللاتى يعرضن عليه الأموال بدلا من الحب. ابتسم وقال فى نفسه هذا سبب ثانٍ للانتحار فى البحر يا عربى. تساءل:

ـ ولماذا تهاجرين راشيل؟ يمكن أن تبقى.

ـ مستحيل عربى. اليهود لم يعد لهم مقام فى مصر. الثورة مع فلسطين، وإسرائيل مع الإنجليز ونحن اليهود ندفع الثمن.

سكتا قليلاً ثم تساءلت:

ـ لماذا لا تقبل هديتى عربى. أنا يهودية لكن غير بخيلة. أنا أحبك.

اندهش هو من هذه الصراحة وظل غير قادر على أن يمد يده. لاحظ شيئًا من الامتعاض على وجه كاتينا. إنها لا تسمح لأحد من زبائنها بزيارتها بعد الساعة الخامسة شتاء. لكن ليس هذا هو السبب. لابد أنها خافت أن يبدأ بالخمسين جنيها مشروعا تجاريا ويتركها. أنها بالنسبة للعربى كتاب مفتوح رغم أنها لا تبادله الحب. قالت كاتينا:

ـ ما رأيك راشيل أن تنامى عندى الليلة. أخاف أن تخرجى تحدث غارة. لم تكن هذه غير دعوة للانصراف، لكن راشيل المرتبكة لم تفهمها فيما يبدو إذ طلبت كأسًا آخر من النبيذ وقالت وهى تنظر إلى العربى . .

ـ سأترك الفلوس هنا، وأنت حر، أنا لن أعود بها.

وضعت الظرف على منضدة مستديرة صغيرة جوارها. ثم عادت للحديث.

ـ هتلر فى الحرب الماضية خلانا نترك إسكندرية إلى جنوب إفريقيا إسكندرية هى بلدنا تمامًا مثل المسلمين والمسيحيين. تأتى إسرائيل تجعل الناس يكرهوننا. أيضًا لا بد أن يقول أحد لعبد الناصر ألا يسمح لأخد أن يشتمنا. نحن مصريون عربى. من هنا وليس من إسرائيل.

بدا العربى مرتبكا لا يعرف بماذا يجيب. طبعا هم مصريون لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا، المشاعر متأججة ضد اليهود بسبب هذه الحرب، كل حين يتم القبض على جاسوس يهودى يرسل إشارات للإنجليز فيزداد عداء الناس. هو يعرف إنه ليس كل اليهود جواسيس وليس كل الناس ضد اليهود لكن المشكلة فيما يبدو ليس لها حل، أو على الأقل أكبر من قدرته على الإدراك.

طال سكوته حتى وقفت راشيل تتأمله وهو يقف يودعها. قبّلت كاتينا بسرعة، ثم أخذت العربى فى حضنها بقوة. بدت له أقوى منه. أدهشه ذلك جدا وهو يترك لها نفسه تضمه إلى صدرها كطفل. انفجرت بالبكاء وخرجت جارية ولم يتحرك ليغلق الباب خلفها. وقف حائرًا. وسط الصالة أكثر من مانيكان من الجبس الملون عارية

من الثياب بدت له كائنات حية مبتورة السيقان لم يبق منها غير النصف العلوى فقط. كانت كذلك فعلاً ومرفوعة على مواسير حديدية كالخوازيق. بدت له كائنات شديدة البشاعة. رأى المظروف فى مكانه على المنضدة فبدا له شيئًا غريبًا يحاول جاهدًا أن يتذكر أين رآه من قبل.

ألقى بنفسه فى ركن من الصالة على مقعد قديم وأشعل سيجارة وراح يدخنها بهدوء. هل حقا هناك دنيا خارج هذا الأتيليه؟. لماذا حقا كلما جاء هنا لا يشعر أن ثمة شيئًا فى الخارج. لمح كاتينا وهى تغلق الباب بالمفتاح من الداخل. لن تتركه يعود إلى البيت اليوم أيضًا. تركته فى مكانه ودخلت إلى غرفتها البعيدة وتمددت على كنبة عريضة مواجهة للسرير النحاس ذى الناموسية البيضاء وقالت بصوت واهن:

ـ عربى. عربى.

سمعها فنهض متلكئًا إليها..

فى حوالى الساعة العاشرة كانا قد انتهيا من شرب زجاجتين من «الميتاكسا» ذى السبع نجوم، ذلك البراندى اليونانى الفاخر الذى تقول كاتينا عنه إنه لا يوجد إلا عند الدبلوماسيين ونجوم الفن اليونانيين. قال العربى وقد لعبت الخمر برأسه.

ـ تعرفى كاتينا أنا نفسى فى إيه!؟

ـ لا.

ـ اسمع أغنية ليت للبرّاق عينا.

ـ هذه أغنية عربى؟

ـ قصيدة تغنيها أسمهان.

ـ هذه أغنية صعبة هل تفهمها؟

ـ لا .

ـ عجيب أنت عربى . لا تفهم الأغنية وتريد أن تسمعها .

ـ بالضبط كاتينا ، مثلما أحبك أنت وأنت لا تحبينى ولا أفهم لماذا أحبك . ، ومثلما تحبنى راشيل ولا أحبهَا ولا أفهم لماذا لا أحبها مع أنها جميلة .

سكتنا طويلاً حتى قالت كاتينا :

ـ اسمع عربى . الآن أبواب السماء مفتوحة للمظلومين . أنت مظلوم كتير عربى . أهلك لم يعلموك . تحبك النسوان العواجيز وأنت تحب أيضًا امرأة عجوز . إدعى إلى ربنا أنه يوقف هذه الحرب حتى يظل كل واحد فى مكانه فى إسكندرية . إدعى عربى ربنا لازم يسمع منك . صدقنى عربى . أنا أعرف ربنا تمامًا برغم أنى عملت أشياء كثيرة غلط .

(٨)

على شاطئ ترعة المحمودية ، على السطح وقرب الماء ، داخل الكشك الصفيح ، جلس «حبشى» و «بدرة» يحتسيان الشاى ويدخنان «الجوزة » . الأولاد والبنات ناموا بلا نظام متفرقين على الحصير حولهما . بعضهم تعرى جسده ، وبعضهم انقلب على الآخر . لحم أبيض لحم أسمر ولحم بين بين . رائحة بخر ماء المحمودية لا تفارق المكان . رائحة بخر ماء مغلى رغم برودة الخريف . حبشى يدخن الجوزة باستغراق ، ويفكر فى أنه سيحتاج قريبًا إلى توسيع هذا الكشك ، لقد كثر الأولاد والبنات ، ورائحة المعسل العنتبلى تنعشه . بدرة تقاسمه

التدخين فى الجوزة وتخرج الدخان من منخاريها وفجأة ضحكت بلا سبب. كان هو قد أخذ يتأملها وقد تكومت مثل قطعة واحدة صغيرة من الثياب القديمة. يتعجب كيف كان له هو الطويل من دون الرجال أن يتزوج هذه المرأة القصيرة من دون النساء. هو ذو الوجه القوى المشرق والشعر الناعم الذى يرسله خلفه تمامًا مثل طرزان وهى ذات الوجه الخشن البشرة المليء بآثار حب شباب غزير والشعر الخشن الأكرت!. هو ذو العينين الواسعتين وهى ذات العينين الصغيرتين، الأصغر من عيون اليابانيين الذين يراهم فى أفلام الحروب. لكنه يحبها ولا يقدر على فراقها. خمس سنوات وهى تعيش معه هنا على الشاطئ فى هذا الكشك وهو رجل بلا عمل ولا أهل ولا أقارب. هو ليس لقيطًا، يذكر جيداً أباه وأمه. كانا يعيشان بالكشك نفسه حين كان أقل من ذلك مساحة بكثير. نشأ بينهما وبين الترعة والسفن العابرة واللصوص ومطاردات البوليس والمعدية التى يمارس فيها المعداوى الجنس مع نساء لا يعرف من أين يأتى بهن بالليل بعد أن ينقطع مرور البشر. لا ينسى كيف استيقظ وهو فى الخامسة عشرة من عمره ليجد أمه وأباه ميتين متعانقين. شيء لا يحدث إلا فى الأفلام للعشاق. حبشى يهيم بأفلام طرزان، وقبل أن يسبح فى المحمودية يصرخ صرخة طرزان الطويلة رغم إنه لا غابة حوله ولا حيوانات.

انتشر خبر موت أبيه وأمه متعانقين بين عمال السكة الحديد على الشاطئ وعمال ورش الترام على الشاطئ الآخر وعابرى المعدية والجالسين بدكانيّ أحمد العنيبسى والسيد خليل، وكذلك دكان السيد الأعرج الذى لا يجلس عنده أحد. تحدثت الإسكندرية كلها عن هذا الموت العجيب. بكت نساء كثيرات، لا يعرفهن حبشى ولا يعرفنه. امتلأت جنازة أبيه وأمه بخلق كثير. ولا ينسى المقبرة التى

دفنا فيها بين مقابر الصدقة في مدافن عامود السواري. هو إذن على يقين بأنه ليس لقيطًا رغم إنه كان يسمع أباه كثيراً وهو يضرب أمه يعيرها بأنها عاقر، وكان يسمعها كثيراً تصرخ فيه بأنه ليس رجلا كالرجال! . ربما لذلك لم يبك ساعة موتهما. بعد أسبوع كامل، بالليل وهو يجلس على شاطئ المحمودية بكى بكاء له عويل، ونزل الترعة بجلبابه يسبح كالمجنون مرة ناحية الميناء ومرة ناحية كرموز ويفكر أن يظل سابحًا حتى يدخل في فرع النيل ثم يستمر حتى يقطع البلاد كلها واصلا إلى أسوان ويتجاوزها إلى السودان يصارع التماسيح كما يفعل طرزان في الأفلام. لكنه تعب وعاد مهدود الحيل إلى الكشك، نام ليصبح الصباح فيجد الدنيا قد تغيرت، وأن هناك حربًا قد اشتعلت فيها وأن الميناء صار باب المدينة الذي تأتي منه الدبابات والمدافع. لقد تحارب الإنجليز والألمان. وها هي حرب جديدة، فيها الإنجليز ومصر هذه المرة. يبدو أن الإنجليز يحبون الحرب في مصر حتى ولو مع المصريين!

ـ مالك يا حبشي؟

ـ لا شيء. تذكرت الحرب الماضية.

ـ فقط؟

ـ وماذا عندي لأتذكره يا بدرة؟

سكتت. هي أيضًا مثله لا أهل ولا أصحاب وهذا الذي يجعلها تبقى. أين تذهب؟ خمس سنوات مضت على اليوم الذي رآها فيه أول مرة مع رجل كهل ينتظران وصول المعدية ليعبرا إلى البر الثاني.

تكرر حضورهما كل يوم في الموعد نفسه. في يوم كانت المعدية متوقفة بسبب مرور عدد من «الصنادل» القادمة من الميناء. رأى التعب

على وجه الرجل الضرير الذى تسحبه بدرة كل يوم. دعاه إلى الجلوس فى الكشك ليستريح، خاصة أن مطراً خفيفًا بدأ يهطل.

ما إن جلس الرجل داخل الكشك حتى قال «شكراً يا حبشى» يعرف اسمه. إنه يأتى كل يوم منذ عدة أيام ولابد أنه سمع أحدا يناديه. انتهى عبور الصنادل وعادت المعدية للعمل. لم ينقطع الرجل الضرير وبدرة عن الحضور. فى كل مرة يلقى التحية على حبشى، وإذا تعطلت المعدية بعض الوقت، جلس وبدرة معه فى الكشك أو أمامه، حتى أتى يومًا وبدرة معه كالعادة، لكنها كانت تحمل كيسًا من القماش به طعام، وطلب الرجل من حبشى أن يشاركهم فى الغداء.

داخل الكشك أخرجت بدرة من الكيس دجاجتين مطهوتين وأرزًا معمراً وخبزاً وبرتقالاً. أكلوا وجلسوا يشربون الشاى الإنجليزى الذى اختفى من البلاد منذ قامت الثورة ولا تجده إلا عند حبشى الذى يأخذه من نوتية السفن النيلية الذين يأخذونه بدورهم من بحارة السفن البحرية فى الميناء.

يتاجر حبشى سراً فى الشاى الأصلى، ويمسك بالعلبة منه ويقول فى نفسه هل يعرف الناس طول المسافة التى قطعها هذا الباكو البروك بوند ليصل إلى حبشى؟. تاجر البهار فلفل مطحون قال لى إن موطن هذا الشاى الهند وسيلان. كنت أعرف ذلك من أيام الحرب. كان الجنود الهنود كثيرين فى المدينة. تاجر البهار فلفل مطحون قال إن الذى اكتشف نبات الشاى نبى استغفر الله. نبى هندى كان يمشى فى الغابات ويأكل منه فلا ينام فعرف أن هذا النبات يساعد على السهر. وقال إن الإنجليز حين عرفوا بذلك تركوا بلادهم الباردة وأخذوا سفنهم وجيوشهم واحتلوا بلاد الشاى. تصور يا محترم أن إنجلترا احتلت

الهند حتى يستيقظ الإنجليز من نوم القيلولة فيجدوا شايا يشربونه . شاى العصارى يا محترم . دنيا كبيرة وكلها أسرار . هكذا قال تاجر البهار الذى يتكلم عن الفلفل هذه الأيام! .

ـ هذا شاى معتبر يا حبشى لم يعد موجوداً فى البلاد .

ـ كل ما هو غير موجود عندى يا والدى .

ـ هؤلاء الأولاد الذين يتحركون حولنا أولادك يا حبشى .

ـ طبعًا .

ـ كلهم صبيان .

ـ ثلاثة صبيان وثلاث بنات . الولد الكبير والبنت الكبيرة أبنائى .

زام الرجل ولم يتكلم . أدرك حبشى أنه أخطأ فى الكلام . لابد أن الرجل الآن يسأل نفسه عن الأربعة الآخرين ، ربما يسأل نفسه أيضًا عن أم الولد والبنت .

ـ لكنهم صغار يا حبشى . واضح من حركتهم وأصواتهم .

ـ الولد خمس سنوات والبنت أربع والآخرون أربعة وثلاثة لا أذكر بالضبط .

نام الرجل بعد الغداء قليلا . ترك حبشى الكشك وراحت بدرة تلعب مع الأولاد أقبل المساء ولم ينصرف الرجل ولا بدرة . طلب منهما حبشى أن يمضيا الليل عنده فوافق الرجل ، ولم يندهش حبشى . قال فى نفسه كلانا يعرف الآخر . كما توقع حبشى بالضبط أصبح الصباح فوجد بدرة ولم يجد الرجل . كيف انصرف وحده وهو ضرير؟

سأل بدرة :

ـ أين أبوك؟

ـ لم يكن أبى .

ـ أين ذهب؟ من أين كان يأتى؟

ـ لا أعرف .

ـ طيب إلى أين كنت تمشين معه؟

سكتت .

ـ لقد كان ضريرا . . .

ـ لم يكن كذلك .

سكت . طال سكوته .

ـ أين تذهبين إذن الآن؟

ـ لا أعرف .

سكت لمدة أطول .

ـ تودين البقاء معى؟

ـ أجل .

قالت ذلك وهزت رأسها فى سعادة .

نظر حبشى إلى الدجاجة الثانية . قام وأخذ بدرة فى يده إلى مأذون كرموز الذى أيقظه فى الصباح الباكر . أخذ معه شاهدين من أمام سينما النيل حيث يعرفه باعة الحلوى ولاعبو الثلاث ورقات . صارت له زوجة جديدة ظل ينكحها طول الليل ويضحك مما تفعله به الأيام . لما استغربت ضحكاته سألته .

ـ لماذا تضحك هكذا طول الليل؟

قال :

ـ منذ خمس سنوات أتت هنا امرأة ضريرة ومعها فتاة جميلة كان اسمها مهجة. تركت لى مهجة واختفت. ولما سألتها قالت لى إن المرأة لم تكن ضريرة ولم تكن أمها.

ابتسمت بدرة.

ـ هى أم الولد والبنت؟

ـ بالضبط لكنها للأسف اختفت بعد خمس سنوات من الزواج. كما استيقظت من النوم فلم أجد أمها، استيقظت فلم أجدها.

نظرت إليه بألم، قالت:

ـ مسكين أنت يا حبشى.

قال:

ـ ممكن ألا تكون المرأة أمها، لكنها، مهجة، كانت أم الولد والبنت فكيف تتركهما؟.

سلّطت عليه عينيها بشدة أدهشته. قالت:

ـ هل أنت تعرف كل شىء فى الدنيا؟

ظلت تنظر إليه فوجد أن معاودة النكاح أفضل. عوَّدها على الاستحمام معه فى الترعة بالليل بعد أن ينقطع مرور البشر. لا ينسى اليوم التالى للزواج كيف وقف فى الصباح الباكر ليرى شيئا أمامه أبيض، والبياض يمتد بين السماء والأرض. لقد سمع ذلك الصباح صوت الماء وأنه قد خلع ثيابه وصار يسبح بين السماء والأرض.

كانت بدرة ذلك الصباح نائمة مستغرقة فى الهناء. فكر أن يذهب إلى سوق سيدى كريِّم بغيط العنب أو الساعة بكرموز أو باب عمر باشا أو محطة مصر أو إلى أى سوق قريب تجتمع فيه النساء ليستأجر امرأة

تأتى معه فتدخل على بدرة الكشك حاملة صينية عليها طيور مشوية وأرز معمر وبرتقال وموز وتفاح وتجلس جوار بدرة تسألها كيف مرت الليلة وتترك لها جنيها كاملا كما تفعل الأمهات فى صباحات الزواج مع بناتهن. أدرك أنه لا يملك فى جيبه غير خمسة قروش. لم ييتئس. أسرع إلى حلوانى جزر فى غيط العنب واشترى بها كلها هريسة وعاد قبل أن تستيقظ بدرة. لما استيقظت راحت تأكل الهريسة كالحالمة، كانت لا تزال بين اليقظة والنوم. كان الأطفال جميعا، الكبار والصغار، يلهون فى الماء. جميعا علمهم حبشى السباحة. لكنها لمحت شيئا ملفوفا فى خرَق على الأرض. إنه طفل حديث الولادة. نظرت إلى حبشى فى دهشة. قال:

ـ وأنا عائد بالهريسة وجدته على الشاطئ.

ـ . . .

ـ لقيط مسكين أحضرته معى. سأربيه مع إخوته وضحك. . هكذا صرت أما قبل أن تحملى! رزق من الله!.

سألته وهى لا تزال غائبة فى الدهشة. .

ـ هل بقية الأولاد لقطاء؟

ـ بالضبط. أجدهم دائما على الشاطئ. إنها خطايا المدينة يا بدرة يقذفونها علينا.

ـ لماذا لا تتركهم فيأخذهم شخص آخر؟

ـ ما دمت رأيتهم فهذا يعنى أن الله وضعهم فى طريقى. ثم من يضمن أن يراهم أحد. من يضمن لى ألا يموتوا؟

ـ طيب لماذا لا تأخذهم إلى قسم البوليس أو الملاجئ؟

ـ فى هذه الحالة سيموتون لا محالة .

سكتت بعد قليل انصرفت إلى اللقيط . ها هو الآن فى الخامسة من عمره . هو النائم بعيدا فى الركن . وجد حبشى بعده اثنين آخرين، أبناؤها الآن عشرة لأنها أنجبت بنتين! . ضحكت فسألها وهو يشد نفسا من الجوزة .

ـ ماذا يضحكك الآن؟

ظلت تضحك وتقول :

ـ هل أنا ضحكت فعلا؟

ـ ماذا جرى يا امرأة تستغفلينني؟

ـ لا والله ياطرزان .

كان لا يحب منها أن تقول له ذلك بالذات لأنه كان يتذكر على الفور أنها تشبه القردة شيئا وهو يريد أن ينسى شكلها الذى لم يتعود عليه رغم مرور خمس سنوات . لكنها اقتربت منه ودفست نفسها فى صدره .

ـ دفينى يا حبشى .

مد ذراعه وأحاطها وراح يضغط عليها فى صدره ويقول :

ـ بدرة أكثر من مرة قلت لك الضحك من غير سبب قلة أدب .

لكنها عادت تضحك وتهتز فى صدره وهو بدوره استجاب لضحكها وراح يهتز معها . قالت :

ـ أنت حاطط حشيش فى الجوزة يا حبشى؟

ـ هل تشمين رائحة حشيش؟

ـ لا .

ـ إذن أنا لم أضع حشيشا .

ضحكا معا واهتزا معا، هو بدوره فكر فى هذه الحالة من الانسجام هل سببها المعسل فقط؟ قال :

ـ تكون شركة المعسل وضعت حشيشا للشعب؟

لكنها لم ترد . سكتت لحظات، ابتعدت عنه قليلا وقالت :

ـ أنا محتارة فى الدنيا يا حبشى .

ـ نعم؟ !

فوجىء بالكلام . لكنها استمرت :

ـ كل يوم بعد أن ينام الأولاد والبنات وتنام أنت بعد أن تقوم بعملك المجنون معى، وينقطع من الدنيا النفس، أسأل نفسى إحنا فين ومين اللى حاططنا هنا؟

أمسكها من كتفيها وراح يحملق فى وجهها وسط الضوء الهادىء للمبة الكيروسين نمرة (١٠) الموضوعة فى ركن بعيد .

ـ بدرة! جرى شىء لعقلك؟ . ربنا هو اللى حاططنا هنا!

ـ أعرف لكن كان ممكن يحطنا فى مكان تانى .

لم يرد . سكت غير مصدق ما تقول .

ـ أنت زعلت؟

ـ أزعل ليه . هل أنا ربنا؟ ! . . ربنا هو اللى حيزعل منك .

سكتا طويلا بعد ذلك، كانت تفكر فى هذا الإحساس الذى باحت به الليلة وكيف يداهمها كل ليلة بعنف، وكيف يسرى إليها بالخوف بأن الليل لن ينتهى إلا ويحملها معه إلى الآخرة مع أول

خيوط الصباح. كان حبشى قد أدرك كلامها فى رأسها وأعجبه ذكاؤها. هو أيضا كلما تقدم الليل وأطبق عليه الظلام من كل ناحية ووجد نفسه وحده جوار الترعة فكر أنه يمكن جدا ألا يطلع عليه نهار جديد، وأن هذه الظلام الكثيف يمكن أن تعجز الدنيا عن زحزحته، بل يمكن لهذا الظلام أن يبلعه فى جوفه ولا يتبقى منه أى أثر، لكنه لا يعطى لعقله فرصته فى الاستمرار فى الأفكار، ذلك يفتح الطريق للجنون. هو يعرف سكة الأسئلة. هكذا علمته الوحدة وشذّاذ الآفاق الذين عبروا أمامه عبر السنين. وسمعا خروشة خارج الكشك وصوت شىء يسقط فى الماء.

ـ فأر.

قالت بدرة بهدوء ودخلت فى صدره من جديد. قال:

ـ غرق. مسكين. حاول أن يمسك فى الشاطىء وفشل. خدينى فى حضنك يا بدرة!

صار كل منهما فى حضن الآخر. لم تكن هذه أول مرة يسمعان خروشة الفئران ولا سقوطها غرقى. لقد تعودا على ذلك، وعلى الثعابين التى كثيرا ما تظهر على الشاطئ بالنهار وعلى القطط الضالة والكلاب وعلى جثث الحيوانات النافقة وهى تعبر فى سلام فوق الماء! وعلى القتلى المرسلين من الريف إلى الإسكندرية فى الأجولة مقطوعى الأطراف مشوهى الوجوه، وعلى نقيق الضفادع وصرير الجنادب وقفزات القراميط فوق الماء وهمسات الأسماك بالليل، ودوَّت صفارات الإنذار فارتعبت بدرة ودخلت فى صدره أكثر.

ـ أطفىء اللمبة يا حبشى.

ـ أتركيها. لا أظن أنهم يضربوننا. ماذا فعلنا لهم؟

لكنها انتفضت وقفزت إلى اللمبة ونفخت فيها فانطفأت وعادت إليه دون أن تتعثر فى الأطفال. كان هو قد فتح الباب وخرج إلى الشاطئ فخرجت تقف جواره. قال:

- أيام هتلر حصلت غارات كثيرة على المحمودية عند كوبرى كرموز. كانت القنبلة تنزل هناك تهزنا هنا.

- أنت خائف يا حبشى؟

- أنا عمرى ما خفت لكن الإنجليز أبالسة عارفين كل مكان فى مصر، وأنا تاريخى معهم لايسر. كنت أذهب إلى المنشية أيام الحرب أسرقهم. أخطف عصا، برنيطة، كاب، لفة ورق أو شنطة مع واحد منهم وأجرى ولا يلحق بى أحد، وإذا قابلت بالليل واحد سكران آخذ كل ما في جيبه حتى ساعة يده.

- ما هذا النور!

تساءلت بدرة فى فزع.

- لا تخافى. لا تخافى. صواريخ.

كانت الطائرات البريطانية والفرنسية قد ألقت فوق المدينة الشرائط الفوسفورية الملونة، وكانت القذائف تطارد الطائرات من كل مكان على الشاطئين، من فوق المساكن وفوق ورش الترام وفوق مصانع الزيوت والصابون وفوق جبل كوم الشقافة. أتى إليهما صوت الأولاد الذين خرجوا من المساكن وتجمعوا على الشاطىء أمام الماكينة الحمراء يتابعون الطائرات ومطاردتها. أحس حبشى بالفخر وأحست هى بالاطمئنان وهى تسمع صوت الأولاد، كان أبناؤهما قد استيقظوا من أثر صوت المدافع وخرجوا يبحثون عنهما.

ـ تعالوا . تعالوا هنا تفرجوا على خيبة الإنجليز .

كانت طائرة تحترق فى السماء وتهوى بعيدا مشتعلة وسط الظلام .

(٩)

ـ أنا فاكر فى الحرب أيام هتلر أن أبو الدرداء كان يوقف القنابل فى الجو . فى هذه الحرب أبو الدرداء زعلان .

قال عيد ذلك فنظر الأولاد إليه مندهشين . كروان وبَلَكْ ومصطفى وعبده وغيرهم من الذين تجمعوا خارج المساكن فى منتصف هذه الليلة يشاهدون مطاردات المدافع المضادة للطائرات المغيرة على المدينة .

اندهشوا من كلامه ، خاصة أن عيد مثل معظمهم وُلد بعد الحرب العالمية الثانية أو على الأكثر بعد معركة العلمين . كانوا ما بين جالس على سلالم الماكينة الحمراء أو أمام الكوخين اللذين صنعهما بلك وكروان والصبية من أفرع الأشجار . لقد أشعلوا أخشابًا بعد انتهاء الغارة والنار الآن تلتهب فى الظلام وتلقى بالنور على وجوه بعضهم .

قال مصطفى :

ـ أنت شفت الحرب أيام هتلر يا عيد؟

ـ طبعًا وشفت أبو الدرداء وهو رافع يديه إلى السماء تحملان الطوربيد الذى ألقت به الطائرة لحجزه عن المدينة . .

بعد ذلك دار الحديث عن تلك المعجزة التى حدثت حقا بالإسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية . كانت ليلة ألقت فيها الطائرات الألمانية قنابل كثيرة حتى ضج الناس فى كل مكان ورفعوا أيديهم إلى

السماء طالبين العون من الله، وجاءت طائرة كبيرة ضخمة تئز أزيزاً متواصلاً ثقيلاً عميقًا وعريضًا يملأ الفضاء، كان واضحًا إنها ستهدم المدينة على من بقى فيها، ألقت طوربيداً ضخمًا ثقيلاً بعد أن اقتربت كثيراً من الأرض فإذا بذراعين من ضوء يخرجان بسرعة من مسجد أبى الدرداء الصغير ويرتفعان حتى يصلا إلى الطوربيد الهابط فيتلقيانه ويمنعانه من السقوط فوق المدينة.

توقف الطوربيد فى منتصف المسافة إلى الأرض، وظل ذراعا النور ينبعثان من المسجد. رآهما الناس الذين خرجوا من بيوتهم فتنادوا وهتفوا فى الظلام الله أكبر الله أكبر وجرى النبأ من «العمرى» إلى كرموز وكوم الشقافة من جهة، ومحطة مصر وباب عمر باشا وراغب من جهة أخرى، ومينا البصل والقبارى والمكس من جهة ثالثة والمنشية الصغيرة والميدان وشارع التتويج وبحرى والأنفوشى من جهة رابعة، هرع الناس من كل فج عميق ليروا هذه المعجزة الإلهية لأبى الدرداء، لم يهتموا بعودة الطائرات الألمانية وتزاحموا رجالاً ونساءً وشبابًا وفتيات وشيوخًا وأطفالاً. كان النور المنبعث ذراعين من أبى الدرداء يضىء ظلام الليل ببهجة سحرية والطوربيد الأعمى الأسود ممدداً فوق ذراعى النور، لم ينقطع تهليل الناس وتكبيرهم الذى راح يزداد والضوء يتراجع شيئًا فشيئًا والطوربيد يقترب من الأرض وكلما اقترب من الأرض ازداد الهياج: الله أكبر الله أكبر وصار الصوت من القوة حتى هز أركان الفضاء، جاءت فرق الإنقاذ تبعد الناس الذين لا يريدون الابتعاد حتى نزل الطوربيد إلى الأرض بسلام فعلا الصياح والتهليل والتكبير وارتفعت الأصوات من مكبرات الصوت تطلب من الجماهير الابتعاد حتى لا ينفجر الطوربيد، وأفسح الناس طريقًا لرجال الإنقاذ الذين تقدموا من

الطوربيد الممدد على الأرض مثل حوت ميت ووصلوا إلى جهاز التفجير الخاص به ونزعوه فصار مثل الجثة لا يخيف أحدًا. رفعوه على إحدى العربات الكارو ومشوا به بعيدًا والناس وراءهم يهتفون الله أكبر ويضحكون وبعضهم يتقدم ويضرب الطوربيد بيده أو يبصق عليه والأطفال تهتف خلف العربة بكرة من ده بمليمين، ثم بدأوا يعودون إلى بيوتهم مطمئنين إلى أن حياتهم منذ هذه الليلة ستكون في حمى أبى الدرداء الذى سيشاركه بالتأكيد القطب الأكبر أبو العباس المرسى وسيدى ياقوت وسيدى على تمراز وسيدى العدوى، فلن تسقط قنابل أبدا على بحرى أو الأنفوشى أو منطقة الميناء، وكذلك سيشاركه سيدى العجمى وسيدى القبارى فلن تسقط القنابل غربا، أما شرقًا فسيتكفل سيدى جابر وسيدى بشر بالدفاع عن المدينة ضد الأعداء.

دوّت صفّارة الإنذار مرة ثانية. بسرعة أهالوا التراب فوق النار. سمعوا صوت أزيز الطائرات يقترب من المدينة قادمًا من ناحية الغرب. انطفأت الأنوار على الشاطىء الآخر. ازداد اقتراب أزيز الطائرات فامتلأت السماء بالجحيم الصادر من المدافع المضادة من كل مكان فى الإسكندرية وسمعوا صوت انفجار قوى.

ـ فشنك.

هتف مصطفى ضاحكًا ثم أضاف:

ـ هناك فى الملاحة سقطت القنبلة.

ودوى صوت انفجار آخر. هذه المرة وسط المدينة. لكنهم بعيدون فلن يسمعوا صوت عربات الإنقاذ أو الإسعاف، والوقت الآن بعد منتصف الليل. قال مصطفى:

ـ ولد يا عيد . أنت فيك شيء لله . قل يا رب الطيارات تقع .

سكت عيد لحظات وأشار إلى السماء .

ـ هذه الطياره ستقع .

كانت أضواء خافتة متقلبة تظهر فى السماء ، هى أضواء الطائرات التى لم تلق بشرائط الفوسفور الليلة . ومضت الطائرة ومضة كبيرة واشتعلت فيها النار . إنها تقع بعيداً أمام أعينهم .

هتف الولد بلك .

ـ الولد عيد فيه شيء لله بصحيح .

ضحك عيد وضرب كفًا بكف وقال . .

ـ وهذه أيضًا ستقع . .

ما هى إلا لحظة وانفجرت الطائرة البعيدة أمامهم فى الظلام السحيق . .

هتف عيد وهو يضحك .

ـ أبو الدرداء لم يعد زعلان .

أحاطه الأولاد .

ـ هيا يا عيد قل إنها ستقع ، قل عن الطيارات إنها ستقع يا عيد .

لكن عيد ظل واقفًا سعيداً غير مصدق ، كانت الطائرات قد ابتعدت عن المدينة ، توقف صوت المدافع المضادة فقال عيد :

ـ أنا عائد إلى البيت ، الطائرات لن تعود .

تركهم ومشى لا يلتفت كأنما كان عليه مهمة وأنجزها . عاد الأولاد لإشعال النيران فى الحطب . انصرف مصطفى وعبده عائدين إلى بيتيهما معتبرين ما يفعله الأولاد شيئًا لا يليق إلا بالأطفال . كان كروان

وبلك قد قررا من أيام أن يديرا حربًا كالتى تحدث فى البلاد. أخذا عددًا من الصبية إلى «المرعى» وقطعوا عددًا كافيًا من أغصان أشجار الكافور والخروع والجوافة والتوت والكازورين والسدر تكفى لبناء كوخين على الشاطىء. الدخول إلى المرعى، أو الحديقة الصغيرة المهملة وسط فضاء السكة الحديدية، يحتاج لعبور البوابة التى تفصل المساكن عن السكة الحديد، وهذا سهل، والعودة كذلك سهلة فلن يمنعهما الشرطى الجالس بالبوابة لا فى الذهاب ولا فى الإياب. ثم إن هذه الحديقة المهملة يذهب إليها كل صباح قطيع المعز الذى يربيه أهاليهم ويمضى القطيع يومه هناك حتى المساء فى أمان ولا يعود إلا مع أصحابه العائدين من العمل. أخذوا طريقهم منذ أيام ومعهم عدد من الأولاد وسط قضبان السكة الحديدية، فوقهم فضاء رائق وحولهم ضوء أبيض غامر باهر عجيب شفاف يرون بعضهم من خلاله! . أما السماء فكانت شديدة الزرقة لا سحب تحتها كأننا لسنا فى الخريف ونقترب من الشتاء. فى المرعى، أو منطقة الأشجار الشيطانية الكثيفة، راحوا يقطعون الأغصان التى أسقط عنها الخريف أوراقها كالتوت والجوافة والتى تصمد طوال العام كالكافور والكازورين. قال بلك وهو يرى قطيع المعز يرعى ويأكل من كلأ الأرض ويقترب من أوراق الأغصان القريبة ليأكلها.

ـ كيف يأمن أهالينا ويتركون المعز هكذا وحدها، أكثر من مائة معز وجَدْى.

لكن أحدًا لم يرد. انشغلوا بجمع الأغصان وربطها فى حزم صغيرة بالدوبار.

فور عودتهم إلى الشاطىء راح بلك وكروان يعلمان الصبية كيف يقيمون الكوخ كما شاهدوا فى السينما فى أفلام طرزان.

قبل الظهيرة كانوا قد أتموا إقامة كوخين صغيرين. قسموا الأولاد فريقين. فريق الإنجليز وفريق المصريين، استقل كل فريق بكوخ. «ملك أم كتابة» ألقى كروان بقرش الصاغ، فظهرت الكتابة وهذا يعنى إنه سيكون قائداً لفريق المصريين، أما بلك الذى أطلقوا عليه هذا اللقب لسواد لونه فسيكون قائداً للإنجليز!

إنهم لا يقصدون الكلمة الإنجليزية «بلاك» بل الزفت الذى يستخدم فى سفلتة الأرض والذى يطلقون عليه كلمة بَلَكْ. والتى لا تعنى غير الكلمة الإنجليزية بلاك! وقال بلك:

ـ الإنجليزى لازم يكون أبيض.

قال كروان.

ـ أجرينا قرعة وانتهى الأمر.

كانت الأسلحة التى أعدوها هى الحجارة والمقاليع والإبر ذات الريش، تلك التى رأوها فى الأفلام تنطلق من قطع البوص الصغيرة بعد أن ينفخ فيها الزنجى من ناحية فتصيب هدفها وتقتله فى الحال، ليس لقوتها، لكن لأنها مسمومة. إنهم من عشاق أفلام طرزان و«نايوكا» ومغامرات الأدغال. أعجبهم انطلاق الإبر فى الأفلام من أعالى الأشجار وبين الآكام على الأعداء. لكن المكان هنا مفتوح فكان على حامل البوصة أن يخفيها بسرعة. لقد جربوا سلاحهم على الخيل والحمير والبغال التى تمر جارة عربات الكارو قادمة من كفر عشرى إلى كرموز. يقترب الواحد من الحيوان ثم ينفخ فيه الإبرة فيرتعش الحيوان للحظة ثم ينهق أو يصهل والعربجى المسكين يتوقف بعد أن يضربه كثيراً بالكرباج، ثم يأخذ فى مسح جسده بيده بهدوء فيصطدم بالإبرة ذات الريشة فى الخلف فيتلفت حوله فى غيظ فلا يجد أحداً.

لم تكن البغال تهتز أو تصدر صوتًا من أى نوع. كانت تمشى فى طريقها والإبرة مغروزة فى جلدها.

كيف سيطعمون الجنود من الصبية والأطفال. قال كروان:

ـ يأتون بطعامهم من بيوتهم.

قال بلك:

ـ هذا لا يكوِّن جيشًا. الحكومة تطعم الجيش ونحن الحكومة الآن.

بدا الأمر صعبًا. كيف سيطعمون عشرين طفلا. قال كروان:

ـ نشترى من عند العنيبسى شكك!

ـ سيعرف أهلك وأهلى آخر الشهر، إنهم يشترون فى حدود معلومة لا يزيدون عليها.

وقفا حائرين حتى لمعت عينا بلك السوداوان. قال..

ـ عندى فكرة بمائة جنيه، نذهب نشترى ما نريد للجنود من عم أحمد العنيبسى فى الوقت الذى لا يكون فيه بالدكان ابنه أنور، سيعطينا دفتر الشكك الذى فيه صفحة لكل شخص. نكتب ما نشترى فى صفحة عم أبو الحسن.

ـ أبو الحسن. لماذا؟

قال كروان مندهشًا فقال بلك:

ـ لأنه يشترى كل يوم زجاجة سينالكو بقرش صاغ وقطعة «معمولة» بقرش تعريفة فقط. هكذا سمعت أبى يقول.

ـ لكن هذا حرام يا بلك.

ـ هل يموت الجنود من الجوع يا كروان؟

ـ طيب وإذا طالت الحرب .

ـ يكون أبو الحسن حظه سيئًا .

ـ ياللا بينا!

قالا ذلك وهما يضحكان، يقلدان أنور وجدى حين يكون مقبلاً على عمل من أعمال الشهامة . اشتريا جبنًا وحلاوة طحينية وخبزاً وقطع حلوى وأقراص طعمية ووزعوها على الجنود الصغار .

عند العصر بدأت المعركة . جرى الإنجليز أمام المصريين الذين حملوا عليهم بالحجارة الكثيفة . كان الإنجليز قد بدأوا من قبل بهجوم قوى بالحجارة أيضًا . انتهت المعركة بعد نصف ساعة لا أكثر حين اكتشفوا أن الإصابات لم تترك منهم أحداً . لقد تشابكوا أيضًا بالأيدى حين لحق المصريون بالإنجليز الذين كانوا قد فروا أمامهم، كل ذلك والناس فى دكان العنيبسى وجوارها يتفرجون ولا يتدخلون . أصيبوا إصابات متنوعة فى الوجوه والرؤوس والأذرع والسيقان وجلسوا معًا على شاطىء الترعة غير مصدقين ما فعلوه إذ رأى كل منهم الإصابات فى وجوه الآخرين فانطلقوا ضاحكين . وقال بلك :

ـ الحرب صعبة بحق .

قال كروان :

ـ هذه بالحجارة، ماذا لو كانت بالمدافع؟

قال بلك :

ـ الإنجليز نزلوا بور سعيد بالمظلات .

ـ أعرف .

ـ ما رأيك أن نعلم الجنود الهبوط بالمظلات؟

تأمله كروان مندهشًا واستمر بلك يتحدث :

ـ أنا أعرف كيف تصنع المظلة . لقد صنعت واحدة وقفزت بها اليوم في الصباح .

ودخل الكوخ وأخرج شنطة زوزو الورقية وأخرج منها ملاءة سرير موصلاً بها دوبار كثير من أطرافها وأماكن على محيطها ومتصلة نهاياته كلها في عقدة كبيرة .

ـ هذه هي المظلة ، يمسك الواحد في الدوبار ويقفز ، أو يربطه في وسطه فترتفع الملاءة فوقه ويملأها الهواء وينزل بسلام .

تأمله كروان غير مصدق وسأله :

ـ أنت قفزت بالمظلة؟

ـ أجل ، من فوق السطح . في الصباح حيث يوجد هواء .

سكت كروان الذي تشكك في الأمر كله بعض الوقت ثم سأل :

ـ من الذي نزل بالمظلات في بور سعيد؟

ـ الإنجليز والفرنسيون .

ـ إذن لماذا تريد من جنودي المصريين الهبوط بالمظلات؟

وافق بلك أن ينزل جنوده في اليوم الأول ، ويزيد من عددهم ويقلل من عدد المصريين الذين سيقاومونهم . كان الموعد هو صباح الغد . أحضر الأطفال ، سرقوا في الحقيقة ، ملاءات سرير من بيوتهم ، وأمضوا الليل مع بلك يصنعون المظلات ، كان أهاليهم قد تعودوا على غيابهم في الخارج منذ بدأت الحرب ، فهم يسمعون صراخهم ولهوهم

فى أى وقت يصل إليهم من النوافذ المطلة على المحمودية. فى الصباح الباكر، قبل أن يبدأ الرجال فى الخروج إلى العمل دافعين المعز أمامهم كان الأولاد، الإنجليز، يقفون فوق السطح المطل على شارع القنال يتوسطهم بلك وقد أمسكوا بالملاءات، بينما وقف كروان وسط العدد القليل من جنود المصريين فى أيديهم العصي والأحجار. هوب واحد اثنين ثلاثة وصرخ بلك صرخة الموت وقفز الأطفال معه رافعين المظلات التى لم تنفتح ولم يملأها الهواء. لحظة وكانوا جميعًا قد ارتطموا بالأرض. سلط عليهم المصريون الأحجار والإبر ثم انهالوا عليهم ضربًا بالعصي. صرخات بلك والأطفال كانت عالية وحقيقية فتوقف كروان وجيشه ونظروا إلى زملائهم ليشاهدوا الألم الفظيع على وجوههم والعرق الذى يتفصد من بشرتهم، وبعضهم الذى فقد الوعى. وصل صراخهم إلى النوافذ فخرج الأهل فى فزع ليروا أبناءهم ممددين على الأرض مهشمين كسرت أقدامهم جميعًا، وبلغت الإصابة أشدها فى بلك واثنين آخرين حيث أصيبوا بكسر فى الحوض، كان بلك ينظر إلى كروان نظرة مليئة بالغيظ والاتهام بالغدر والخيانة بينما أدرك كروان أن الحرب ليست لعبة أبدًا ولن تكون. .

(١٠)

وقف تاجر البهار «فلفل مطحون» يخطب فى الجالسين على جانب السلالم المؤدية إلى القبو قائلاً:

ـ أنا حفيد أكبر تجار الكارم فى التاريخ، الحاج عمر بن محمد بن سليمان نجم الدين القاضى الدمامينى، من دمامين بالصعيد، الذى توفى عام ٧٠٧ هجرية، أى منذ سبعة قرون تقريبًا. وكانت

له قيسارية، يعنى وكالة يا إخوانى تشغل نصف شارع فرنسا قبل أن يكون هناك شارع فرنسا، وكانت مليئة بالعنبر والعصفر والبهار ولها ستة أبواب أربعة منها ناحية الجهات الأربع واثنان منها مفتوحان على السماء، كان له بالإسكندرية فنادق الدماميني في مواجهة الميناء ينزل بها الجنويون من جنوا، والبيزيون من بيزا والفلورنسيون من فلورنسا، والفرنسيون من مارسيليا، والقبارصة من قبرص والأتراك والشوام والمغاربة يتفقون معه على حصصهم من الكارم التى ستحملها السفن إلى كل الدنيا. هذا تاريخ أجدادى منذ الدولة الفاطمية وأنتم تجهلونه ياإخوان وأحب لكم أن تعرفوه قبل أن يأتى اليوم الذى تندمون فيه على ذلك!

كان محمود القزعة ينظر بدهشة ممزوجة بالإعجاب إلى هذا الذى يتحدث جاداً فى أمر هزل!، فى الوقت الذى يلعن فى سره الحرب التى قللت من حضور النساء إلى حلقة السمك بالملاحة خاصة فى اللحظات الأخيرة للنهار، تلك التى كان فيها ضوء الشمس الواهن يسقط وهو ينسحب على ربلات سيقان النساء من الخلف فتتألق برقة وتهمس بالأسرار. كان سليمان قد تأكد من أن جين بانكروفت قد غادرت البلاد. كل الصحف تحدثت عن طرد رعايا الدولة البريطانية والفرنسية، لكنه لم يستيقن حتى ذهب بنفسه إلى بولكلى، ورأى القصر الجميل مغلقة بوابة حديقته بسلسلة سميكة من الحديد وقفل ضخم وأمامه أكثر من جندى حراسة شاكى السلاح. عاد حزينًا، لم يشعر حتى بصوت أمواج البحر الهائجة وهو يمشى على الكورنيش فاتحا صدره لعل الهواء البارد الذى فى الدنيا يثلج روحه التى تكاد تنفجر بين الحين والحين كان يفطن لأصوات الموسيقى التى تنبعث من خلف أبواب الملاهى الليلية لكنه لا يتوقف.

يشير إليه رجل ضخم أن يدخل، وأحيانًا امرأة، لكنه لا يكلف نفسه حتى بالابتسام ويظل ماضيًا فى طريقه وعلى مهل حتى وصل إلى المنشية. مشى مسافة طويلة حقًا ذلك اليوم. من المنشية قرر أن يركب الترام إلى كرموز، نهاية الترام أمام المعدية مباشرة ولن يحتاج الأمر إلا إلى عبور المعدية ليصل فى ثوان بعد ذلك إلى البيت. لكنه مشى قليلاً فى ميدان المنشية. النوافذ مغلقة، يبدو أنها لم تفتح منذ أيام، غبار كثير على النوافذ، يبدو أن أحدًا لم يعد يعتنى بها، حتى نوافذ البورصة العالية مغلقة، والمحلات فى الأدوار الأرضية مغلقة فى معظمها، وعليها أقفال ضخمة تشى بأن أصحابها لن يفتحوها فى القريب العاجل، وعلى الأرصفة ليس ثمة صيارفة، واحد أو اثنان قرب قهوة إسكندرية، منزويين فى الممر كأنهما لا يريدان أن يراهما أحد ربما لأننا ندخل فى المساء. هنا الإسكندرية يا سليمان. ميدان المنشية هو الإسكندرية. أنشأه محمد على باشا، وبدأت فيه قنصليات الدول فى الظهور وقامت حوله العمارات الباذخة، المسرفة فى الحليات والكرانيش والزخرفة، وسكنها الصفوة من التجار ورجال الأعمال، فى أوائل هذا القرن أنشأت القنصلية الفرنسية الحديقة الفرنسية تفتح الميدان على البحر، حمل الميدان اسم محمد على باشا، مؤسسه، والذى وضع فيه الخديوى إسماعيل تمثاله الذى صممه المعمارى الفرنسى آمبرواز بودرى بين عامى ١٨٧١ ـ ١٨٧٣ وتكلف مليونين من الفرنكات بحساب ذلك الزمان. قيل إن حكومة الثورة كادت تصهره لتصنع منه نقودًا معدنية بسبب الأزمة الكبيرة فى العملات الصغيرة التى واجهتها العام الماضى، لكن الحكومة كانت أكثر تعقلاً، تركته مكانه، لم تصهره، وإن رفعت تمثال إسماعيل باشا الذى كان يطل على البحر أمام الحديقة الفرنسية ولا يعرف أحد إلى أين ذهبوا به. لا يمكن أن

يكونوا قد صهروه أبدًا. ربما فعلوا ذلك حقًا، مسكين إسماعيل باشا، جنت عليه النقود فى حياته وجنت على تمثاله بعد ذلك. لكن يظل هذا أمرًا بعيد الاحتمال. لقد احتاج وضع تمثال محمد على فى ميدانه إلى فتوى من الإمام محمد عبده. كانت هذه أول مرة يوضع فيها تمثال فى مدينة عربية. كان جريئًا ذلك الشيخ. المنشية الكابية الآن التى يكاد يصرخ فيها الهواء هى التى شهدت صعود عائلات البورجوازية الأجنبية اليونانية واليهودية والإيطالية وغيرها من الملل والأديان. كل شيء كان يبدأ من المنشية وفيها ينتهى يا إسكندرية. منشَّة. سورسول، كرم، ساويرس، رولو، نوبار، امبروزو، سلفاجو، بيانكى، بسترودس، روسيتى، إيفيرينو.

الإيطاليون تركوا أثرهم فى العمارة.. ثراء ما قبل عصر النهضة فى الواجهات شديدة الزخرفة، والأوكالات okale، العمارات الراسخة الكبيرة التى يشغل فيها كل طابق أسرة واحدة.

تاريخ المنشية هو تاريخ الإسكندرية يا سليمان. انظر إلى أين انتهت. هجرها صفوة التجارة والرأسمالية الأوروبية مرة من قبل إلى الرمل ومحرم بك، والآن لا أحد يعرف إلى أين يذهبون. أصاب المنشية طائر النحس منذ أطلقت فيها النيران على جمال عبد الناصر، لم يفلح تأميمه للقناة من فوق شرفة البورصة فى أن تستمر حيويتها. لم يعد أحد فيما يبدو يحبها من الأجانب. وربما من المصريين أيضًا، فلم تعد البلدية تعتنى بنظافتها، وليست الحرب أبدا سببًا كافيًا لذلك.

أين هى المنشية التى مشى فيها، حتى أيام قليلة فقط، مع جين، يتحدثان أحيانًا بالإنجليزية، وأحيانًا بالفرنسية وتغلبه جين فى معرفة اللغات فكانت تتحدث نيابة عنه بالإيطالية واليونانية وكل ذلك فى

ثلاث ساعات هى التى يقابلها فيها. كثيراً ما كان يسأل نفسه لماذا حقًا تختفى اللغة العربية، ولا يستطيع أن يستخدمها إلا مع الشحاذين والمتسولين والأطفال الحفاة العراة جامعى أعقاب السجائر، إنهم كثيرون بدرجة مدهشة حتى ليخيل إليك إنهم تركوا الإسكندرية كلها وتركزوا هنا فى الميدان الجميل. أحيانًا يشعر بالضيق ثم يقول لنفسه إن جين تعرف ذلك عن المصريين وأكثر فلماذا يتضايق، ثم يقول لنفسه من المؤكد أن الثراء الذى يرفل فيه أولئك الأجانب هو سبب الفقر الذى يغرق فيه هؤلاء المصريون ويشعر بالضيق من جين ذاتها، لكنها تبتسم أمامه فينسى كل شىء وتأخذه إلى شريف باشا وهو مسحوب الروح معها، مسحور، كأنما ندهته النداهة، فتدخل محل «أولد إنجلاند» الكبير الفخم فيشعر كما لو كان فى فيلم سينمائى. خيال كل ما حوله خيال، بشر مضيئون والمكان يكاد يرقص من الإضاءة ولغات أجنبية فى كل ركن وباعة يتقنون كل لغات الأرض. هذا المحل يذكرنى بمحلات بيكاديللى فى لندن. تقول جين. لم يذهب إلى لندن ولم ير بيكاديللى. تدور على الأقمشة الجميلة، التويد والفيلا، يقابلها الموظفون بحفاوة، لا تشترى فى الغالب، تطوف على أقسام الروائح وأدوات المطبخ، شوك وسكاكين من شيفلد وأوانى ودجود وهو مأخوذ ومطيع، تخرج فيخرج خلفها ويظل يمشى فى الشارع المسحور، لاميزون فرانسيه، ويكاد يغمى عليه فى إيتام للملابس الداخلية والجوارب، وينكس رأسه وهى تشعر به وتراه، ايجيبشيان!، وتبتسم ويستمر معها فى التجوال فيرى محلات هو روفيتش وزيف فرير وجراند مجازين وشالون وأوريكو حتى يصل إلى صيدناوى على ناحية سيدى المتولى فيشعر أنه اقترب من دنياه، وأنه كان غارقًا فى دنيا فرنسية وإنجليزية من المجوهرات والبارفان

والثياب والأثاث والحلوى وتعود به إلى هانو فى نهاية شارع توفيق فى المنشية الصغيرة فيتناولان الحلويات ولاتنسى فى النهاية أن تدخل قليلاً فى فيكتوريا ستيشنرى آند بوكس ستور لكن أسعار الكتب غالية، لقد تعود على الاستعارة من المكتبة المدرسية، أو شراء الكتب القديمة من مكتبات مثل الاستنارة وإخوان الصفا بالعطارين ومحطة مصر، تشترى هى عادة مجلة لايف الأمريكية ومجلة الموضة الفرنسية جاردان دى مود، وطوال الطريق دائمًا يطاردهما الشحاذون الأطفال الذين يقل عددهم مع دخول الليل، يركب معها الترام حتى بولكلى، أحيانًا يعود، وأحيانًا تدعوه للدخول، يمشى مأخوذًا فى حديقة القصر ذى الشرفات اليونانية، الأبيض وسط الخضرة والزهور، بالحديقة ملعب للتنس أجبرته يوما أن يلعب معها فيه ولم يشأ أبدا أن يخلع ثيابه ويرتدى اليونيفورم الذى قدمته إليه. أحواض صبار من أنواع غريبة ملونة ومصابيح زيتية على أعمدة يونانية ورومانية قصيرة والأشجار داخل السور القرميدى الأحمر عالية وقصيرة بونسيانا وارفة الظل ذات زهور حمراء وأشجار استوائية تتجه جذورها الخارجة من الأغصان إلى الأرض وأحواض من البانسيه والبنفسج والبتونيا والجلوكسينيا واليسم المنتشر على الأرض بين النخيل بألوانه، الأبيض، والمائل إلى البنفسجى. هو لا يعرف أسماء النباتات. لا يعرف إلا الورد البلدى والفل والريحان والتمر حنة والياسمين، وكل هذا موجود وأسماء أخرى. يكتشف قدرة جين المذهلة على حفظها والتحدث فى خصائصها، رغم أنها مدرسة لغة إنجليزية صغيرة لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها فى الكلية الإنجليزية للبنات حيث بنات الجاليات الأجنبية. قالت له مرة أن فى المدرسة حمام سباحة فلم يصدق، وطلبت منه أن يزورها، لكنه كان قد اكتفى باللقاءات الباهرة التى

جعلت الأشهر الثلاثة التى مضت حلما. فوق الجسر شاهدها مع رجل متوسط العمر عرف فيما بعد أنه والدها الذى يعمل فى القنصلية البريطانية، وصبى مصرى يتجهون إلى فلوكة صغيرة مربوطة فى الجسر. رآهما ينزلان من عربة جيب يقودها سائق زنجى تعود بعد ذلك وتتركهما.

كانا فى ملابس الصيف، على رأسها قبعة كبيرة وكذلك كان والدها الذى يحمل مثلها على ظهره مخلاة كاكى بها ما يحتاجه الصيادون من مؤن وعلى كتف كليهما بندقية صيد طويلة. ستقلهما الفلوكة إلى جزيرة كبيرة وسط البحيرة حيث يتجمع الصيادون ينتظرون مرور أسراب البط فى وسط الهيش والبوص الذى يملأ أرض الجزيرة.

كان الوقت مبكراً، نسمة منعشة تهب على الجسر من مياه البحيرة التى تتحرك فى كسل، كان هو واقفًا يمد شصه إلى الماء فأحس كما لو أن شخصًا ينظر إليه. التفت ليجدها تتأمله باسمة.. ابتسامتها وشعرها الأصفر وعيناها الخضراوان ووجهها الصغير دقيق الملامح وأهدابها الطويلة، وسط هذا الفضاء من البياض والزرقة المائية شىء لم يستطع نسيانه أبداً.

هل تصطاد جيداً؟ سألته. فقال على الفور: أجل ـ بصوت عال ـ.

ـ حظ سعيد.

قالت وقفزت إلى الفلوكة خلف أبيها وراح الولد الصياد يدفع الفلوكة بالزانة التى كانت أطول وأثقل منه.

لم يبرح سليمان المكان فى الظهيرة كما تعوَّد. لقد التفتت تنظر إليه وتبتسم فى اللحظة التى علقت فيها بالشص سمكة ملونة. رأى

ابتسامتها تملأ الفضاء وارتبك وهو يحاول الإمساك بالسمكة وضحكت هي ضحكة صغيرة لم يسمعها، لكنه رأى تياراً من البهجة يسرى فى الكون حوله. لقد جلس حتى آخر النهار، لا ليصطاد، ولكن ليراها عند العودة.

لم تعد ذلك اليوم. أخذت فى العودة طريقًا آخر، يؤدى إلى محرم بك.. هكذا قال له الولد الصغير العائد وحده فى المساء. سليمان لا يخرج للصيد كثيراً، عرف أنها تأتى أيام الآحاد. فى الأحد التالى ذهب مبكراً. أتت وألقت عليه تحية الصباح. تجرأ وسألها هل ستعود من المكان نفسه. اندهشت وابتسمت وأجابت بالإيجاب. عادت مع والدها مبكرة ذلك اليوم. وجد أنه من الشهامة أن يقف يمسك بيد الأب وهو يقفز إلى الشاطىء ثم بيدها. كان الوالد يحمل مخلاة مليئة بالبط المذبوح. سألته:

هل اصطدت جيداً. رفع «المشكاك» المغروس فى المياه، تلك الإبرة الطويلة، المسلة، المتصل بها دوبارة طولها يزيد على المتر، والتى يدخلها فى خيشوم الأسماك ثم يتركها فى الماء حتى لا تفسد بعد أن يغرس المسلة فى الطين تحت الماء. أوهووندر فول. قالت. وسألته ما إذا كان يحب أن يأخذ بطة مما اصطادوه اليوم فقال لا. قد لا يناسب الطريقة الإسلامية، البط يهبط فاقد الحياة. تأملته مندهشة، بدا أنها تتذكر شيئًا نسيته. قالت: «أيام سورى، وات إذ يور نيم. سليمان، سليمان عبد الباسط. ثانك يو سليمان، ماى نيم إذ جين. جين بانكروفت». قال مبتسمًا بانكروفت اسم غريب يصلح ماركة لسيارة. ضحكت وأقبل أبوها يشارك فى الحديث. كان سليمان يتحدث على استحياء خجلا من أبيها وهى تتحدث بجرأة. تأخرت العربة الجيب التى ستقلهما فكانت هناك فرصة أن تسأله عن عمله، أدهشها إنه

طالب توجيهية يدرس العلوم ويقرأ الأدب العالمى بنهم. حدثها كثيراً عن توماس هاردى وروايته الجميلة تس سليلة الدر برفيل. سألته هل يقرأ بالإنجليزية قال نعم لكن هذه الرواية بالذات قرأها بالعربية. اندهشت من كون الرواية مترجمة للعربية فحدثها عن المترجم فخرى أبو السعود، الشاعر السكندرى الذى انتحر فى حديقة بيته بعد أن ماتت زوجته الإنجليزية وابنه فى إنجلترا تحت غارات الألمان. كان اندهاش والدها أكبر. قال فى النهاية إن العالم صغير. حدثهما سليمان عن عمه الذى كان مشروع روائى كبير، لكنه أخفق، وسافر إلى أواسط إفريقيا. لماذا أواسط إفريقيا؟ قال إن المصريين أقاموا هناك إمبراطورية عند منابع النيل ولقد ذهب يبحث عن آثار هذه الإمبراطورية ليكتب رواية غير عادية. سألته هل كتب الرواية. قال إنه لم يعد ولقد مر على ذلك أكثر من عشر سنوات. قال لها إنه أيضًا صار يهوى كتابة القصص، لكنه لا يتعجل النشر ولا الشهرة مثل عمه. صارا يلتقيان بعد ذلك فى كافيتريات محطة الرمل، «على كيفك» أو حديقة تريانون الصغير بشارع سعد زغلول. إنها تحب هذين المكانين أكثر من غيرهما. قالت له إنها يمكن أن تساعده كثيراً فى السفر إلى إنجلترا بعد حصوله على التوجيهية والالتحاق بإحدى جامعاتها، فلوالدها نفوذ كبير فى الخارجية وهناك منح لا يعرفها الكثيرون تعطى لأشخاص من الدول الإفريقية والآسيوية للدراسة فى إنجلترا. هؤلاء هم الذين ينهضون ببلادهم بعد ذلك.. لم يكن يفكر فى النهوض بالبلاد فذلك شيء أكبر من طاقته. فقط يريد دراسة الأدب الإنجليزى والأدب العالمى. قامت الحرب وأظلمت الإسكندرية التى لم تظلم من زمان. منذ طاردت قوات الحلفاء قوات روميل فى الصحراء بعد معركة العلمين. كان انتصار الفيلد مارشال مونتوجمرى

فى ذلك الوقت سبب عودة النور إلى الإسكندرية. أضيئت بعد ثلاث سنوات من الظلام. الآن القوات البريطانية ذاتها تتسبب فى إظلام المدينة، ومعها القوات الفرنسية التى فتحت الإسكندرية ذراعيها لفيالق الأحرار منها حين استسلمت حكومة فيشى للألمان فى الحرب الماضية. أصدقاء الأمس أعداء اليوم. السياسة لا تعرف الصداقة، لقد وجد شعب الإسكندرية أمامه قضايا كبيرة لم تخطر بباله من قبل. مساعدات مصر العسكرية لثوار الجزائر، مصر تعقد صفقة أسلحة مع المعسكر الشيوعى، البنك الدولى يمتنع عن تمويل مشروع السد العالى، عبد الناصر يؤمم شركة قنال السويس من شرفة البورصة هنا فى الإسكندرية. عبد الناصر يخطب من هنا كل عام فى السادس والعشرين من يولية، العيد القومى للإسكندرية، واليوم الذى غادرها فيه الملك فاروق. تفجيرات فى سينمات الإسكندرية يقوم بها جواسيس إسرائيليون. التوتر بين مصر والدول المنتفعة بالقنال. الحرب. أعمال المقاومة لم تنته من بور سعيد رغم وقف إطلاق النار. سيأتى يومًا محمود الملاح ويخبرنا، وربما يصنع فيلمًا، يقول تاجر البهار للجالسين. يتحدثون عن أمجاد كتيبة المشاة التى كانت مسؤولة عن ستر انسحاب القوات العسكرية من العريش ورفح وكيف ظلت فى مواقعها تؤدى واجبها حتى تم الانسحاب، ثم نجح أفرادها فى العودة مشيًا على الأقدام، مسافة لا تقل عن مائة وخمسين كيلو مترًا يحملون أسلحتهم الخفيفة بعد أن دمروا خلفهم كل الأسلحة الثقيلة. ولا تخلو الدنيا من عجب، ففى كرموز، فى شهر نوفمبر هذا تزوجت سيدة فى الثامنة عشرة من عمرها من رجلين فى وقت واحد. تركت البيت بعد زواجها من الأول لعدة أيام وتزوجت بآخر ولما سألها الضابط قالت:

ـ لم أكن أعرف أن ذلك ممنوع أو حرام، لم يعجبنى زوجى الأول، يشتمنى ويضربنى، هو حضرتك لما تشترى شيء ويطلع وحش مش بترجعه وتشترى غيره؟. أنا عملت كده. . .

ونزلت أفلام جديدة فى السينمات، القلب له أحكام لفاتن حمامة، المتمرد لجيمس دين للكبار فقط، ودخل البوليس الدولى إلى بورسعيد، وتنحى إيدن عن الوزارة مؤقتًا لاحتياجه إلى راحة نفسية وعصبية ليتولى الوزارة خلال ذلك زعيم الأغلبية بمجلس العموم، وبدأ انسحاب القوات الإسرائيلية والإنجليزية والفرنسية، وعرضت سينما مترو بالإسكندرية فيلم أمهر الرماة لجلين فورد، وخصص الموسيقار فريد الأطرش إيراد فيلمه الجديد مع شادية «ودعت حبك» لأسر شهداء بور سعيد فتقاطر الناس فى زحام منقطع النظير على الفيلم بسينما ريتس بالإسكندرية وديانا بالقاهرة، وتبارت المحلات فى الأوكازيونات الشتوية مبكرًا فوصل سعر البالطو الفرو الفاخر ٧٥٠ قرشًا وقميص النوم الفاخر ٨٥ قرشًا والسوتيان الساتان ١١ قرشًا والكيلوت ٧ قروش والكيلوت الأنترلوك ٩ قروش وشراب الموسيلين ١٥ قرشًا وشراب النايلون ٤٥ قرشًا أما الجوارب الفيليه الأميركى فيتراوح سعرها ما بين ٨٥، ٥٥ قرشًا بمحلات القاضى وحسين، وأعلنت مديرية الصحة أن عدد المواليد فى المدينة هذا العام بلغ ألفًا وخمسمائة مولود بينهم خمسون من الأجانب، وأن تعداد المدينة بلغ أربعمائة وخمسين ألفًا من المصريين وخمسة وستين ألف أجنبى يحتل اليونانيون فيهم المرتبة الأولى ثم اليهود فالإيطاليون وجاليات صغيرة من الأرمن والقبارصة والشوام ودول أوروبية أخرى، وأن أحدًا لم يغادر المدينة عن طريق البحر بسبب توقف الملاحة فلم تسجل إدارة الموانى أى رحلة بحرية منذ العدوان وغاب الديب فى

رحلة طويلة وعاد فى يوم جمعة . كانت المدارس قد عادت إلى الدراسة، واحتفلت بعيد النصر فى الثالث والعشرين من ديسمبر، وامتلأت الإسكندرية بالزينات، ولم يعد محمود الملاح ولا رشاد من الحرب بعد، لكن الديب عاد من رحلته ليناديه الجالسون حول الماكينة الحمراء . يجلس هذه المرة مع الأولاد خير الدين ونسيم وسليمان، خير الدين كثيراً ما يأتى مبكراً ليجلس منفرداً ينتظر صعود ألجونى على السطح ليغمض عينيه ويزداد حبه للدنيا وفرحه بها . يحبها خير الدين ألجونى . . فى صمت أفسحوا للديب مكاناً بينهم، قال وهو يجلس :

ـ دائماً تصطادوننى قبل أن أدخل البيت .

قال سليمان ضاحكاً :

ـ نحن نحس بك يا ديب ولو فى أبعد جحر !

ضحكوا . فى الحقيقة هم يحبون الديب، رغم إنه أكبر منهم وفى عمر آبائهم، إلا أنهم يشعرون به واحدا منهم . سأله مصطفى :

ـ إيه يا ديب القطار رجع أم لا . ؟

ـ أى قطار؟

ـ الذى خرج عن الكرة الأرضية . هل نسيت؟

ـ آه . هذا قطار قديم انتهت أخباره من الدنيا .

ضحكوا وصفق بعضهم بيديه . قال :

ـ هذه المرة كنت فى مهمة غير عادية . هذه المرة لم يخرج القطار عن القضيب إنما انحرف فقط عن الطريق . كان القطار عائداً من الصعيد محملا بالقصب، عند مدينة دمنهور أخطأ موظف البلوك وفتح له طريقاً آخر لا يصل إلى الإسكندرية . ظل القطار يمشى

ثلاثة أيام فى أرض خلاء لا طير فيها ولا زرع ولا إنس ولا جن. كنت نائمًا فوق القطار، نزلت علىّ حالة من الرضا والسعادة أنستنى الدنيا، كنت مثل السكران فلم أنتبه إلى ما يجرى، إذا جعت نزل إلىَّ أكل من السماء، أى والله، وإذا عطشت مصصت أعواد القصب. لكنى بعد ثلاثة أيام انتبهت فزحفت فوق العربات حتى وصلت إلى «العفريتة» ونزلت من السقف إلى السائق والعطشجى الذى كان أسود فى لون الفحم. كان يضع الفحم فى النار بجنون حتى لا يتوقف القطار. سألتهما هل تعرفان نهاية لهذا الطريق؟ قالا: لا.

إذن لماذا لا تتوقفون؟. لا نستطيع. القطار لا يتوقف. قلت للعطشجى هل أنت حمار؟ توقف عن تغذية القطار بالفحم يتوقف القطار. بعد ساعة توقف القطار فى خلاء من الأرض البور. نزلنا نحن الثلاثة فى خوف ننظر حولنا نترقب مصيبة تنزل علينا وحدثت المصيبة. انشقت الأرض وخرج منها رجال كثيرون طوال ضخام يتقدمون ناحيتنا فى بطء من كل جانب كأنهم يحملون صخوراً على ظهورهم. اقتربوا فرأينا الحقيقة. كل رجل هو اثنان، رجل وامرأة التصقت بظهره..

انطلقوا يضحكون بشراسة. صوت خير الدين أجش خشن رغم نحافته. قال ساخراً:

ـ أنت كنت تحشش فوق القطار ياديب، ها ها!.

تأمله الديب فى طيبة ثم قال:

ـ السينما لحست عقلك يا خير الدين. يا ابنى الحياة فيها عجائب أكتر من السينما.

قال نسيم برزانة مصطنعة . .

ـ اسكت يا خير الدين، دعنا نسمع القصة العجيبة المؤلمة للديب رحلات الديب، مثل رحلات جاليفر . ديبز ترافيلز .

كانت رحلات جاليفر هى القصة المقررة على طلبة التوجيهية مثل نسيم وسليمان، وكانت معروفة أيضًا لطلبة التجارة مثل خير الدين . قال الديب :

ـ تقاطعوننى دائمًا ولا تعطوننى فرصة . أنتم لا تفهمون . موقف مثل هذا يحتاج إلى صبر . هناك عبرة وعظة يريدها الله من هذه المخلوقات التى وضعها فى محافظة البحيرة بالذات ـ ضحكوا بشدة ـ اسمعنى ياسليمان، أنت دائمًا مشغول بتلميع حذاءيك . فلسفة أو تلميع أحذية . لا تؤاخذنى يعنى . أنت المفروض مثقف وتفهمنى .

كانوا لا يزالون يضحكون إلا أنهم سكتوا وقال سليمان :

ـ عندك حق يا ديب . استمر فى القصة .

ـ القصة! لقد انتهت . رجال فى ظهورهم تلتحق نساء فلا يستطيع الرجال أن يروهن ولا النساء يستطعن ذلك أيضًا .

قال نسيم ساخرًا .

ـ كان حقك فصلتهم عن بعض يا ديب .

عادوا إلى الضحك وهو يتأملهم صامتًا ثم قال بهدوء :

ـ حاولت . فشلت . جلسوا يبكون وجلست أنا والسائق والعطشجى نبكى معهم .

هتف خير الدين :

ـ كيف يجلسون فى هذا الوضع يا ديب؟

قال الديب :

ـ سيأتى اليوم الذى تقعون فيه فى هذه البلاد وتتذكروننى . لقد هربنا حين شعرنا بأن شيئًا ثقيلاً يحاول الخروج من ظهر كل منا ، أنا والسائق والعطشجى ، جرينا بأقصى سرعة وتركنا القطار .

ـ هذا ثانى قطار يا ديب تتركه يضيع .

ـ وثالث ورابع . كلها أخطاء عمل . الحمد لله أننا هربنا قبل أن تنبت لنا نساء فى ظهرنا ، الواحد غير قادر على امرأة واحدة يراها أمامه فى البيت فهل سيقدر على امرأة لا يراها أبدًا؟

توالت ضحكاتهم ، وما إن اختفى الديب حتى ظهر مجنون الغناء قادمًا من بعيد فهتف مصطفى : الله يكون فى عون ثورة يولية . سمعه الديب فالتفت وهتف «الله يكون فى عون ربنا على الشعب الذى يضم أمثالكم من المتعلمين الفالصو !» لكن أسرع الأولاد إلى مجنون الغناء المسكين الذى تلبَّسه الرعب ، وشوهد تاكسى يقف أمام المساكن فتأملوه بدهشة ، نزل منه لطفى السائح على عكازين وقد وضع إحدى ساقيه فى الجبس . كتموا ضحكاتهم .

سمعوا صوت تاجر البهار يهتف فى محمود القزعة فاقتربوا ، نسيم وخير الدين وسليمان .

ـ كان حقك تشكرنى يا معلم محمود .

ـ أشكرك ! أجل . لكن المشكلة إنه لا ينام منذ أمس يا رجل .

ـ وهل هذا يضايقك؟ . أنا عملت لك وصفة لا توجد إلا فى جبال الهيمالايا .

ـ لكن أنا غير قادر على الحركة. أنا خملان يا رجل.

ـ خلاص. أعمل لك وصفة تانية ينام فيها طوال العمر.

ـ الله يخـــرب بيت أمك. من أى مكان أتيت إلينا يا فلفل يا مطحون؟

ـ أنا جئت من السماء، من الإنس والجن، أنا ستعرفون قيمتى يومًا. أهلى تجار الكارم الكبار فى الشرق دار عليهم الزمن لكن تاريخم محفوظ، علموا أوربا معنى العطور فامتلأت صدور النساء برائحة البلسم. كانت الفرسان تمشى فى العصور الوسطى تشم رائحة البلسم فتقف تحت شرفات البيوت، يلقون إلى النساء بالورد وتلقى النساء إليهم بزجاجات البلسم الصغيرة. كم من حصن منيع لامرأة فتحته زجاجة بلسم أخذها الفارس من امرأة أخرى كانت أخذتها من فارس آخر كان قد اشتراها من جنوا أو بيزا أو مارسيليا أو نابولى أو اسطنبول وكلها اشترتها من الإسكندرية، من قيسارية الدمامينى فى شارع فرنسا قبل أن يكون هناك شارع فرنسا، أو حتى فرنسا الحرة نفسها..

......

القسم الثانى

(١)

انتهت الحرب. امتلأت البلاد بالزينات لخروج الإنجليز والفرنسيين من بور سعيد وإتمام انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء. .

انتهت الحرب ولم يعد محمود الملاح، لكنه لم يمت، يرسل خطابات لأهله يقول إنه سيتأخر تسريحه من الجيش قليلا لأمر غير مفهوم. لم يعد كامل خطيب مشيرة. لم يمت ولم يعثر عليه حيا. قيل إنه فى قوائم المفقودين.

انتهت الحرب ولم يعد رشاد. لم يمت ولم يفقد. أصيب برصاصة طاشت من سلاح زميل له فوق ظهر المدمرة البحرية. هو الآن يرقد فى المستشفى العسكرى لذلك سيتأخر زواجه من فاطمة كثيرا.

انتهت الحرب وانشغلت الإسكندرية بالخروج الجماعى للجالية الإنجليزية والجالية الفرنسية واليهود.

لم يكن رحيل الفرنسيين يعنى أحدا فى مساكن السكة الحديد وأيضًا ولا رحيل الإنجليز، لكنه سليمان وحده قد أيقن أنه لا سبيل إلى عودة چين بانكروفت. حتى لو تحسنت السياسة، وهى غالبا تتحسن بين الدول بعد فترة، فسيكون والد چين يخدم فى موقع آخر فى بلد آخر، وستكون چين نفسها قد تغيرت حياتها. سافرت چين بلا رجعة وعليه أن يتأقلم مع ذلك العالم الذى صار شبه فارغ حوله لابد أن يملأه شىء.

قرر أن يكتب رواية كبيرة عن الإسكندرية هو الذى كان يتردد فى ذلك كثيرا.

انتهت الحرب وامتلأت الإسكندرية بالقصص التى تنفجر فى فضائها كل يوم عن الفزع الذى أصاب اليهود، وخروجهم المتسارع، رغم أن الدولة لم تطرد إلا من رأت تورطه فى نشاط معادٍ لها.

حمل الهواء إشاعات عن نية الحكومة فى مصادرة أملاك اليهود، وأن المعتقلات ستفتح لهم جزاء ما ارتكبته إسرائيل.

لم يقل أحد إنهم مصريون لهم هنا مئات السنين. حدث الخروج شبه الجماعى الأكثر كثافة مما حدث حين اقتربت القوات النازية من الإسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية. تلك المرة خرج أثرياء اليهود. الآن يخرج الجميع، كل حسب قدرته على إنهاء أعماله، تاريخ طويل من العيش بسلام فى مدينة تتنفس التسامح مع الهواء، وها هو قد تبخر فى أيام، كأنما لم يتاجر اليهود مع بقية الشعب مسلمين ومسيحيين، وكأنما لم يعمل المسلمون والمسيحيون فى متاجرهم، ولم يصاحبوهم سهراتهم فى النادى الإسرائيلى أو يترددوا للعلاج فى المستشفى الإسرائيلى، كأنما لم يتسكع الشباب أمام مدارس البنات اليهوديات، وكأنما لم يعرف الكثير منهم طعم الهوى لأول مرة على أيدى هاته الفتيات المتحررات.

تحولت المدينة عن اليهود، بدأ ذلك بسيطا مع التفجيرات التى قامت بها عناصر يهودية تابعة للموساد الإسرائيلى قبل الحرب، وازداد مع اشتراك إسرائيل فى العدوان على مصر. اتسعت مساحة الشك فى اليهود بعد أن كانت نوعا من الفلولكلور لا يتجاوز حدود النكتة. رغم ذلك لم يصل الأمر أبدا إلى اعتبار يهود الإسكندرية من رعايا دولة

إسرائيل! . لكنه الهلع الذى استبد باليهود. صار أكثر اليهود تفاؤلا يؤمن بأنه إذا لم يخرج اليوم سيخرج غدا وإذا لم يخرج هذا الأسبوع سيخرج الأسبوع القادم. لم يفكر أحدهم أبدا فى العام! . لم ينتظروا مرور العام.

انكمش عدد الصيارفة فى المنشية قليلا، تدهورت أسعار الأسهم فى البورصة من جراء البيع السريع لها من قبل أصحابها اليهود، أغلقت جميع محلات «الرهن» التى لم يكن يديرها غير اليهود، حتى إذا أدارها مسلم مثل «أحمد حسن» صاحب محل الرهونات فى كرموز كان يتكلم كاليهود من أنفه ويمشى ببطء فى الدكان منحنيا مع إنه ليس عجوزا ويتطلع بريبة إلى القادم ليرهن ما يملكه. . يدعى فى البداية أنه لا حاجة له بما يحمله الزبون، ثم بعد أن يتأكد من ارتباكه يقدم له أقل مبلغ فيوافق. يمشى الزبون يشتم فى أحمد حسن اليهودى وهو فى الحقيقة مسلم! .

ظهرت علامات ثراء فاحش على مصريين كانوا يعملون عند اليهود. الخواجة شالوم ترك كل ثروته فى الإسكندرية للسائق الخاص به، خميس الصايع الشهير بمحطة مصر الذى يعمل حمالا بالمحطة بالنهار وبالليل قاطع طريق صار صاحب مقهى كان فى الأصل باراً لسمعان اليهودى، مرسى القهوجى صار صاحب وكالة ملابس قديمة فى العطارين لأنه كان يقدم أحسن شيشة لأصلان اليهودى صاحب الوكالة الذى سافر مع عائلته إلى كندا. بشر حمزة الجزمجى الذى أسس مصنعا للأحذية الشعبية مساهمة مع خمسة من كبار التجار اليهود وجد نفسه فجأة المالك الوحيد لأسهم المصنع كلها وللمصنع بعد أن غادر التجار الخمسة البلاد على عجل إلى إيطاليا ليفتتحا هناك مصنعا لدباغة الجلود. وكذلك الشبان الثلاثة من بحرى الذين سافروا

مع البنات اليهوديات الجميلات الثلاث من عائلة ليڤى التى سافرت كاملة إلى توليدو بأسبانيا . . ترددت أسماء دول كثيرة، الأرچنتين . البرازيل، جنوب إفريقيا، الحبشة، المغرب، أميركا، كندا .

اندهش الناس من هؤلاء اليهود الذين عاشوا مئات السنين فى الإسكندرية يخرجون إلى كل هذه الدول ببساطة كأنما هناك من ينتظرهم ويعرفهم . قالوا إنها قوة المال، واستراحوا لأن اسم إسرائيل لم يتردد كثيرا . إذا كان ممكنا للبعض من الذين خرجوا أن يجعل اليونان أو إيطاليا أو المغرب محطة فى الطريق إلى إسرائيل، فالأغلبية سافرت إلى أميركا شمالا وجنوبًا، وجنوب إفريقيا، ولا يظن أحد أن هذه البلاد يمكن أن تكون محطات فى الطريق إلى إسرائيل . . لكن لم يكن السكندريون أو بعضهم هم الذين استفادوا فقط من خروج اليهود، فلقد اشترى عدد كبير من اليونانيين والإيطاليين محلات وورشا من اليهود، بل لعلهم اشتروا أكثر مما اشترى السكندريون . . لقد ساعدوهم على تهريب أموالهم خاصة تجار القطن من اليونانيين الذين كانوا يضعون أموال اليهود داخل بالات القطن المصدرة خارج البلاد . لقد حول أغنياء اليهود أموالهم إلى عملات ورقية فئة المائة جنيه تم تهريبها بسهولة داخل هذه البالات إلى أوروبا، كذلك حدث تهريب كبير للعملات الأجنبية داخل علب الشاى المعبأ فى مصر والمصدر إلى المغرب العربى . الحكومة كانت تعرف ذلك وتتركه يتم لتسهل لليهود طريق الخروج وكل هذا يعرفه الناس ويتحدثون فيه . .

رحيل اليهود كان يعنى العربى . يذكره دائما بالخمسين جنيهًا التى تركتها له راشيل .

قالت له كاتينا اليوم :

ـ لو كنت عربى تزوجت راشيل كان زمانك غنى!

لم يكن العربى قد أخذ الخمسين جنيهًا بعد. تركها فى مكانها فاحتفظت له بها كاتينا وقالت «تستطيع أن تأخذها فى اليوم الذى تقرر فيه ذلك». عادت تقول:

ـ راشيل كانت غنية.

تأملها العربى مبتسما ثم قال ببساطة:

ـ لم أحبها كاتينا.

قالت:

ـ كان ممكن يكون أقصر زواج فى العالم. أسبوع أو اثنين بعدها تغادر راشيل البلاد.

ظل مبتسما وقال:

ـ كان ممكن جداً ألا تغادر راشيل البلاد بعد الزواج. كيف أعيش معها وهى عمرها خمسون سنة؟

سكتت كاتينا لحظة ثم قالت:

ـ أنت مجنون عربى. أنا سبق قلت لك ذلك. تترك واحدة غنية عندها خمسين سنة، وتحب واحدة فقيرة عندها خمسين سنة. الغنية كانت تحبك والفقيرة تعتبرك أخوها. أليس كذلك عربى؟

كان قد فتح عينه بشدة على معنى الأخوة الغريب هذا واستمرت هى:

ـ أنت إذن مجنون. تماما مثل ياناكيس زوجى. . ياناكيس عربى كان شيوعى كان. .

واندفع العربى قائلا:

ـ خلاص كاتينا أنا أعرف كل شيء عن ياناكيس وأحبه مثلك تماما، الله يرحم ياناكيس كاتينا.

اتسعت عيناها تتأمله بدهشة بالغة ثم ابتسمت ومشت من أمامه داخلة حجرتها لتعود ومعها بالطو أسود ثقيل قدمته إليه.

ـ بالطو ياناكيس عربى. ممكن تقبله هدية. مركون فى الدولاب لأكثر من عشر سنين..

ارتاح قلب العربى لكاتينا كما يرتاح دائمًا حين تبدو ضعيفة أمامه، وضع البالطو على كتفيه وسأل نفسه ماذا يمكن أن يفعل الآن؟ هذه المرأة تربكه جداً. ليس عشيقا لها، ولا توافق على الزواج منه، وهو يعرف أنها تطفىء غلتها الجنسية مع شباب يونانيين كثيرا ما يأتون الأتيليه آخر اليوم. يراهم، بل يفتح لهم الباب قبل أن يغادر المكان. كلهم أقارب لها كما تقول دائمًا. رغم ذلك فلقد تركت نفسها له فى بعض الليالى، خاصة ليالى الغارات فى الحرب الأخيرة. لكنه حين حاول أن يفعل ذلك بعد الحرب، منعته وبدا كأنها لم تفعل ذلك معه من قبل. اليوم تعطيه بالطو ياناكيس الشيوعى فهل ستتركه يقوم بدور ياناكيس الزوج؟ لا يظن. يجب أن يفهم طبيعة هذه المرأة. ما فائدة أن يفهم؟. لن يتغير شيء. فليظل قانعا كما هو راضيا كما هو! من أين اكتسب كل هذه القناعة وكل هذا الرضا؟ من والده عامل السكة الحديد الغلبان الذى يتكلم مرة واحدة فى الشهر حين يأتى براتبه يضعه بين يدى زوجته، أم العربى، من أمه هذه التى تظل تتلفت بعينيها فى البيت طول النهار بحثا عن شيء لا تعرفه، من أخته حسنة الجميلة فارعة الطول الصابرة على العنوسة، من حسنة حقا رغم أنها الأصغر سنا!!

نظر إلى المرآة فرأى نفسه داخل البالطو مثل رجال العصابات

الأميركية، المخبرين السريين أيضًا. خلفه كانت كاتينا تقف تنعكس صورة وجهها من فوق كتفه. لقطة بديعة فى المرآة لو رآها محمود الملاح لقال إنها تصلح إعلانا لأحد الأفلام. منحه البالطو شعورا بالفخر والاعتزاز. هذا هو الوقت الذى ينفق فيه الخمسين جنيها. إنه ملك ولا أقل، حتى رغم أن البالطو لشيوعى ميت، والنقود ليهودية ضائعة.

تطلع إلى كاتينا وابتسم ثم قال:

ـ أفضل شىء أفعله بالبالطو الآن هو أن أخرج أتمشى على الكورنيش.

تساءلت:

ـ الليلة؟

أجاب وهو يشير إلى البالطو:

ـ إنها ليلة مناسبة جدا لاستعماله، مطر ونوَّة. إنها نوة «عَوَّة» آخر نوة كاتينا، الريح تعوى كالذئاب.

قالت ضاحكة:

ـ تعرف عربى، كأس كونياك وبالطو، ممكن بعدها تمشى فوق جبال الألب.

ـ فى اليونان؟

ـ فى إيطاليا عربى.

ـ أنا أريد أن أمشى فى جبال اليونان ولو عريان.

ضحكت كاتينا ببهجة طفلة ثم قبلته على فمه. دقائق بعد ذلك

وكان العربى قد غادر شارع الكنيسة الإنجيليكية الصامت يقفز قفزات صغيرة قاطعا شارع الشيخ على الليثى المغلقة محلاته على الأنتيكات الفخمة داخل شارع العطارين فخرجت عليه رائحة شواء الطيور من ميدان السوريين الذى تصعد منه بالنهار عادة رائحة كل ما هو قديم من أثاث وبطاطين وعدد وأجهزة لا يعرف من يشتريها لكنه سرعان ما قطع شارع العطارين الذى أغلقت محلاته مبكراً بسبب المطر ودخل فى شارع المحطة لتصعد إليه رائحة فلافل محل البغدادى الشهير، لما صار قريبا من المحل على الرصيف صعدت إليه حرارة القلى ذاتها، ورأى داخل المحل عددا قليلا من الرجال يأكلون فى صمت مهيب، «عيونهم زائغة وأفواههم تتحرك على مهل ويبدون لا يدركون أنهم بعد قليل سيضطرون للرحيل من هنا». بسرعة عبر شارع فؤاد ليدخل شارع شريف المغلقة محلاته أيضًا ليصل بعد قليل أمام البورصة فى المنشية.

الميدان الواسع لا يزال كما هو، يتوسطه محمد على باشا فوق فرسه، لكن إحساس العربى بالمكان يبدو كما لو كان يراه لأول مرة. محلاته مغلقة، والأضواء من خلف نوافذ العمارات قليلة. لا صرافون للعملات ولا بورصة بالليل. الجالسون «بمقهى الإسكندرية» لاذوا بالداخل ولم يجلسوا فى الممر المحصور بين العمارتين. أضواء الميدان صارت أقل. ربما. وربما لم يعد أحد يعتنى بواجهات العمارات فلم تعد تعكس الأضواء بالقدرة القديمة. لم تكف مياه الأمطار لغسلها. لعلها مياه الأمطار جعلتها ندية رطبة لا تعكس الأضواء. الأضواء قليلة على أى حال. لكن التمثال لا يزال يبدو قويا تحت المطر الخفيف الساقط تظهر خيوطه فى الضوء. صوت البحر يقطع المسافة بطول الحديقة الفرنسية ويصل إليه. صوت الريح عارم. ورق كثير يطير فى الطرقات وعلى الأرصفة يخشخش فى الأرض.

لكن البرد لا ينفذ إليه. بالطو ياناكيس ثقيل ودافىء. عربة بنز يجرها حصان أسود قوى تأتى مسرعة من خلفه وفوقها شاب على رأسه طربوش لا يعرف كيف ثبته وسط هذا الجو ومع هذه السرعة، الشاب يلهب الحصان بالكرباج فيقطع الحصان الميدان فى ثانية داخلا شارع فرنسا الصامت وصوت ضربات أقدام الحصان تظل تتردد فى الميدان الفارغ. لكنه لم يأخذ طريقه إلى الكورنيش. أخذته قدماه إلى شارع المغاربة. ساكن مصمت فارغ، مغلقة محلاته أيضًا، لا صوت فيه. انعطف إلى زنقة الستات. واجهات المحلات الخشبية الملونة وقليل من المصابيح أمام المحلات الصغيرة وهو يمشى بحرية كيف حقا يتحمل هذا الزقاق زحام النساء بالنهار؟. كيف يبدو الآن وكأنه لا أحد يمشى فى الإسكندرية غيره هو. لكن لماذا يسرع عابرا الميدان، وإلى أين يذهب. روائح الجبنة والزيتون تصعد إليه من نهاية الميدان بعد «الحقانية». محلات البقالة المغلقة تنفذ من بين جدرانها هذه الروائح، مختلطة برائحة الرنجة والأسماك المدخنة. إنها الروائح التى بعد أن أغلقت المحلات ظلت راكدة فى الفضاء أمامها.

يكاد ينزلق على الأرض الزلقة وهو يتقدم مسرعا دون هدف، يبطىء فروائح أخرى تهل عليه، روائح مكتومة لجدران مهملة، بيوت مهملة، وقمامة بدأت تظهر على الجانبين. أضواء خافتة مخنوقة تطل من بيوت لا تزيد على ثلاثة طوابق، قديمة، متساندة، وأرضية مبلطة ببلاط عريض من البازلت ركنت المياه بينه ولم يكنسه أحد فصار زلقا، إنه يمشى على رصيف ضيق لا يزيد على نصف متر. لكن الحارة تقريبا مظلمة والأبواب كلها تقريبا مغلقة عليها أقفال فوقها شحم مما يعنى أنها ستغلق كثيرا. على الأقل عامًا كما يفعلون مع أبواب الكبائن على البلاچ. قطط وكلاب نائمة فى الأركان. حوائط كالحة. كل هذا حدث

فى عدة أشهر. كيف كان اليهود يعيشون هنا؟ لابد أنهم كانوا يعتنون بحارتهم. لقد دخل حارة اليهود إذن وهو لا يدرى، لا يقصد. لكن محلا مضيئا على يمينه الآن. . علبة سجائر هوليود من فضلك. ناوله العلبة وأخذ الفلوس فى صمت. لا يبدو يهوديا. بالحارة عدد قليل من المسلمين والمسيحيين يعدون على الأصابع. لعلهم لم يهجروها أيضًا. النوافذ معظمها مفتوحة الشيش مغلقة الزجاج، مما يعنى إنه لا أحد فى الداخل، وأن أصحابها تركوها على عجل أو فى إهمال. الزجاج كله مطلى بالأزرق. لم يفكر أحد فى إزالة اللون بعد الحرب. لعله ظل كذلك منذ الحرب العالمية الأخيرة. لكنه يشم رائحة شواء عند نهاية الحارة. إنه محل تقديم السمان والعصافير الشهير الذى يملكه الخواجة إيزاك. لطالما سمع عنه ولم يأكل فيه. الآن سيأكل. جائع من البرد، ومعه خمسون جنيها. لكن الرجل الذى فى المحل يحمل وجها مصريا. ليس بالمحل غير متر واحد للجلوس.

ـ هل لا يزال يأتى السمان؟

ـ آخر الأفواج. السمان الذى تخلف فى الطريق، أو بعض ما يحتفظ به الصيادون.

كان يأكل وهو واقف وجهه على الحائط وأمامه على رخامة طويلة مثبتة فى الحائط عرضها لا يزيد على ثلاثين سنتيمترا وضع طبق السمان وطبق الطحينة وطبق السلطة والمخلل والخبز.

ـ سمعت إنه يأتى من الصحراء، من مرسى مطروح.

ابتسم الرجل الذى كان يشوى عددا آخر من السمان ولا ينظر ناحية العربى، قال الرجل:

ـ أكثر السمان يتم صيده فى مرسى مطروح، وفى العريش أيضًا، لكنه فى الحقيقة يأتى من بلاد بعيدة.

وسكت قليلا ثم قال وهو يضع واحدة أخرى أمام العربى .

ـ إنى يأتى من أوربا . من البرد باحثا عن الدفء .

قال العربى :

ـ لكن هنا برد أيضًا .

ـ هناك جليد يا أستاذ . .

كان صوت أسنان العربى وهو يأكل السمان ، لحمه بعظمه بدهنه ، واضحا أكثر مما ينبغى وسط هذا الصمت . هز العربى رأسه وقال :

ـ مسكين هذا السمان يسافر كل هذه المسافات وفى النهاية يأكله العربى ! .

قال الرجل :

ـ من هو العربى . هل تعرفه؟

قال :

ـ أنا العربى .

ـ آه . ظننتك تتحدث عن شخص آخر اسمه العربى كان هنا يعمل فى المحل وسافر مع الخواجة إيزاك .

ترك العربى الأكل وتأمل الرجل الذى فى حوالى الخمسين ، أحمر الوجه بشكل غير عادى من أثر النار . سأله العربى :

ـ هل أنت قديم هنا !

ـ أكثر من ربع قرن .

ـ تعرف واحدة اسمها راشيل .

سأله العربى مترددا فقال الرجل :

ـ أى راشيل؟ راشيل ليفى، راشيل إيزاك، ولا راشيل شمعون. راشيل التى سافرت إيطاليا أم التى سافرت إلى البرازيل أم التى لا يعرف أحد أين سافرت؟

قال العربى:

ـ راشيل البرازيل.

ـ هذه سافرت مع أخيها حاييم وأبيها الخواجة إيزاك صاحب هذا المحل الذى تأكل الآن فيه. راشيل كانت تسكن هنا فى الدور الذى فوق رأسك.

اندهش العربى من المصادفة وتساءل الرجل:

ـ هل كنت تعرفها؟

ـ كنت سأتزوجها.

تأمله بدهشة. لابد أنه يقارن بين عمريهما. قال بعد تردد:

ـ ليتك فعلت ذلك؛ كان معها فلوس تشترى إسكندرية. أخوها حاييم كان تاجر دخان كبير فى العطارين. كان يسافر تركيا يحضر الدخان بنفسه ـ وسكت قليلا ـ والله الواحد زعلان. الشارع كله تقريبا سافر خارج مصر. إرادة ربنا.

وسكت قليلا ثم عاد للحديث:

ـ هذا البيت كله صار خاليا، حتى القبطى الوحيد الذى كان يسكن فيه وجد نفسه وحيدا مع أسرته فترك البيت وراح سكن فى غربال. قبط كثير فى غربال كما تعرف.

أشار إليه العربى أن يضع أمامه سمَّانة رابعة ففعل.

ـ ألا يوجد بيرة أو نبيذ؟

تساءل العربى . فقال الرجل :

ـ لا . أنا منعت هذه المشروبات . لدينا بيبسى كولا وسباتس .

سكت العربى . لم يطلب شيئا . قال الرجل :

ـ لقد سمعت أيضًا أن الطلاينة قد يتركون الإسكندرية .

ـ لماذا؟

ـ السياسة الجديدة ، هذا الذى يسمونه التمصير . الدولة تشترى أسهم كثير من الشركات والبنوك الأجنبية . تعرف لو مشوا الطلاينة أزعل جدًا ، أنا ابنى تزوج من راقصة باليه إيطالية تعمل فى كازينو الشاطبى .

قال العربى فى نفسه «إذن سترحل أسمهان عاجلا أو آجلا» وتساءل .

ـ هذه كلها إشاعات وإلا كان اليونانيون أيضا يرحلون ، إنهم أكثر من الطلاينة هنا ويملكون شركات كثيرة .

ـ لو ترك اليونانيون الإسكندرية تخرب يا أستاذ . نصف التجارة فى أيديهم . ثم . ثم . إنهم هم الذين بنوا المدينة . االله الإسكندر كان رجلا يونانيا . . الحق حق . .

عقَّب العربى لنفسه «ونصف حياتى عندهم» .

سكتا . طلب العربى زجاجة سباتس وراح يشرب فيها على مهل مقلبا كلام الرجل فى ذهنه . عاد الرجل للحديث :

ـ أنا اشتريت البيت من الخواجة إيزاك بخمسين جنيها . أى والله .

إيزاك كان بخيلا. قلت له جالك اليوم يا إيزاك أشوف الدموع فى عينيك. قلت لنفسى أزيده خمسة جنيهات لكنه رفض. قال إن عنده فلوس كتير. العجيب أن رغم فلوسه الكثير أخذ الخمسين جنيها يا أستاذ.. لكن هل معقول كان يبكى لأنه سيترك مصر؟

ـ جائز.

ـ حقًا كل شىء جائز. إيزاك مولود هنا وأهله مدفونين هنا وأنا اشتغلت عنده ربع قرن لم أزعل منه، لكن لماذا لم يبق؟ لم يطرده أحد.

لم يكن عند العربى رغبة فى سماع شىء آخر. أعطى الرجل جنيهين كاملين مما دفع بالفرحة إلى عينى الرجل المندهش فاقترب منه وقال:

ـ بالهناء والشفاء. تحب قطعة حشيش. الدار أمان.

ـ لا شكرًا.

أجاب العربى فى ارتباك وأسرع تاركا المكان كله. لكن الرجل أمسك بذراعه لحظة وقال:

ـ أحسن إنك لم تتزوج راشيل. غير معقول تدفن شبابك..

أسرع العربى يخب فوق البلاط وبقايا الماء المتجمع فى الشقوق ووصل إلى شارع التتويج فلمع شريطا الترام وسط الظلام وسمع صوتا يشق الفضاء لا يعرف مصدره بالضبط ولا من أى عمارة سقط فوقه يصرخ «السياسة وسخة يا جدعان فرّقت الأحبة». لا يدرى لماذا كان يمشى فى طريقه إلى الأنفوشى. ماذا يريد من هناك؟ عند منعطف شارع إسماعيل صبرى انحرف إلى مقهى «فاروق». كان المطر قد بدأ يعود

قويا وكثيفا ويسمع صوت ارتطام قطراته بالأرض في زخات متتابعة فدخل المقهى بسرعة ليقابل بالدفء الذى كان كمن يبحث عنه منذ عشرات السنين. كان المقهى غاصًا بالرواد رغم البرد والمطر، وصوت الراديو، يملأ الفضاء مع دخان الشيشة والسجائر، بالألفة والونس.

ـ أهلا وسهلا.. طلبات سعادتك؟

كان الجرسون قد وقف أمامه وهو لا يدرى. صوت عبد الوهاب القادم من الراديو الفيليبس الكبير الموضوع على الرف العالى تصاحبه موسيقى أقرب إلى الموسيقى التى يرى اليونانيون يرقصون عليها فى الحفلات الصغيرة التى تقيمها كاتينا فى رأس السنة وبعض الأعياد فى بيتها. فى لحظة واحدة لم يعد العربى يشعر بالمقهى ولا بالرواد ولا بالجرسون الواقف أمامه.

طول عمرى عليك مشغول
وقساوتك مهما تطول
يغلبنى حنانى وأقول

مايهونش

هل معقول سيترك الإيطاليون المدينة بعد اليهود؟ هل صحيح سيتركها اليونانيون؟ إن كاتينا الآن بين ذراعيه ويمشى راقصا بها بين المقاعد.

ـ طلباتك يا أستاذ؟

كل ما أفرح يوم فى حبى
التقى أيام عذاب
وأنت يا ساكن فى قلبى
تعمل إيه لو قلبى داب.

لم يزل الجرسون واقفا لا يدرى به، ولم يزل، هو يرقص بكاتينا بين المقاعد، ورواد المقهى الذين انتبهوا إلى الجرسون الواقف طويلا أمام العربى بدأوا ينظرون إليهما. لكن العربى انتبه.

ـ سحلب.

ـ سلامتك يا أستاذ، أنت مازلت صغيرا على التوهان..

لم يرد العربى وإن أحسَّ ببعض الضيق. التفت الجرسون موليا ظهره مبتسما لرواد المقهى. فكر العربى كيف حقا كان يرقص مع كاتينا منذ قليل. حضوره إلى حارة اليهود الليلة فأل سيىء.

ستخلو شوارع كثيرة من الأجانب فى الإسكندرية فى الأيام القادمة. هذا ما يشعر به، ويكاد يراه بعد حديث بائع السمان التعس. نهض واقفا فى ضيق، وضع على المنضدة ربع جنيه كاملاً، لم ينتظر عودة الجرسون ولا السحلب وخرج يواجه المطر والريح على الكورنيش وصوت الموج الغاضب. البالطو والسمان لا يزالان يشيعان الدفء فى جسده لكن لا سبيل لتفادى المطر. ليس معه مظلة. فليقف تحت شرفات العمارة ساكنا حتى يلتقطه تاكسى، كان وشيش النخيل السلطانى يملأ الفضاء فوق الشارع وهو يهتز بفعل الرياح. الموج أمامه يرتفع بهاماته البيضاء ثم يتراجع مخلفا صوتا هادرا، ولنشات متفرقة ترتفع مع الموج ثم تهبط فيبدو أنها غرقت ثم تعود إلى الارتفاع والظهور من جديد. إنها قوارب الصيد الصغيرة التى يتركها أصحابها فى الماء قرب الشاطىء مثبتة فى الرمال «بالهلب» الموصل بكل منها بحبل طويل. لحظات وتوقف تاكسى عريض ماركة ستروين الفرنسية. اندفع داخلا فيه.

ما كاد يجلس حتى جاءه صوت السائق الذى يضع حول عنقه كوفية حمراء.

ـ إلى أين إن شاء الله؟

لم يكن قد فكر بحق إلى أين يذهب. لا يمكن أن يعود إلى كاتينا فهى لا تسمح له بالمبيت عندها الآن. وهو لا يريد العودة إلى البيت. البيت الذى إذا خرج منه فى الصباح نسيه ولا يتذكره إلا عندما يراه بعد عودته فى المساء.. سأل السائق..

ـ ما هو أحسن مكان يسهر حتى الصباح؟

ـ بلدى أم أفرنجى؟

ـ بلدى.

ـ ملهى عطيات حسين. ملهى ليلى ولا ملهى السفينة. أكيد حضرتك عارفه، الذى شكله بالضبط كالسفينة، واسمه الحقيقى «كوت دازور» ناس قليلة هى التى تعرف الأسماء الحقيقية للملاهى فى إسكندرية. هذه فائدة السواقة يا أستاذ. السفينة فى سوتر وعطيات حسين فى المزاريطة تعرف إن جمال عبد الناصر شخصيا يأتى ويسهر عند عطيات حسين.

كان العربى يجلس جواره يتأمل المطر الساقط على زجاج التاكسى الأمامى والمساحتين النشيطتين فى طرده. قال فى سخرية:

ـ عبد الناصر بنفسه؟

ـ بالضبط. كما كان الملك فاروق يسهر فى السفينة.

سكت العربى تماما. أدرك أن طرق الحوار مسدودة مع السائق، أو على الأقل غير مفهومة. لكن السائق لم يسكت.

ـ الملك فاروق كان لا يحب يسهر فى إسكندرية إلا فى السفينة أو فى الأوبيرج الأزرق. والاثنين فى «سوتر» ما أكثر ما رأيته هناك.

في إحـدى المرات شـاهدت الأمـيـرة فـايزة مع واحـد مـهم جـداً خارجين من السـفينة ، سـألت هل هو أخوها قالوا لى إنه سكرتير كبير فى السفارة الأميركية بالقاهرة ، بعد ذلك كنت أراها كثيرا مع هذا السكرتير هناك .

وجد العربى نفسه يقول :

ـ وأكيد طبعا شفت عبد الناصر بنفسك عند عطيات حسين .

اندفع السائق يتكلم من جديد :

ـ طبعا . أنت لا تصدقنى . طيب . ألم تفعل الثورة كل شىء عكس الملك . كان فيه ملك صار فيه رئيس جمهورية ، كان فيه إقطاع صار فيه إصلاح زراعى ، كان فيه رأسمالية أجنبية صار فيه تمصير ، كان الملك يسهر فى السفينة إذن عبد الناصر يسهر عند عطيات حسين ، السفينة أفرنجى وعطيات بلدى ، صح يا أستاذ؟ اقتنعت؟

كان العربى يفكر على نحو مجنون أن السائق وهو يتكلم قد تغير وجهه وصار يحمل وجها غريبا ، وجه سعيد إسكندر سفاح كرموز الذى تم إعدامه فى سجن الحضرة منذ عشر سنوات .

لماذا فكر على هذا النحو؟ لا يعرف .

(٢)

أقيمت الأفراح فى المساكن . اليوم زواج رشاد من فاطمة . مضى وقت طويل حتى شفى رشاد من أثر الرصاصة . لقد نجا من الموت المحقق وأمضى وقتًا طويلاً فى النقاهة . لم يعد بعد كامل خطيب

مشيرة، لا يزال مفقودا. ولم يعد محمود الملاح الذى تم تسريحه بعد وقت طويل من الجيش لكنه سافر إلى القاهرة يبحث عن ممول لفيلم كبير قال إنه يريد أن يصنعه عن بور سعيد.

اليوم سيتزوج رشاد ابن المفتش الوسيم فاطمة الرشيقة كعصفور، بنت موظف قسم الحركة القديم الذى لم ينجب غير فتاتين، تزوجت الأولى وانقطعت أخبارها وتأتى على مسافات زمنية متباعدة فى عربة ملاكى فورد بيضاء. تزوجت شخصا عظيما على حد قول الناس. عشقت فاطمة رشاد فلم يشأ أبوها المثقف الذى لا يشاهد إلا والجرنال فى يده أن يكسر بخاطرها. وافق على زواجها من عسكرى البحرية الذى فتنت البنت ببدلته البيضاء وطوله الفارع. قال فى النهاية إن الولد طموح وفيه شهامة وهذا يعوض عن المال والمركز!

اختير للفرح مسرح شهرزاد بمحطة الرمل. استعدت معظم النساء للذهاب. ظهر إنه يمكن للنساء أن يخرجن ويذهبن بعيدا، أن يرتدين فساتين ملونة ضيقة الخصر واسعة الذيل ذات كرانيش، أن يضعن عطرا رخيصا، لكنه عطر، وأن يحملن حقائب من الجلد الصناعى! ساعدت أم الضابط الماشطة النساء على الزينة بالبودرة والأحمر الغزير والكحل الثقيل. لم تتضايق من رفض فاطمة أن تقوم هى «بتجهيزها» وذهابها من ثم إلى الكوافير فى محرم بك فكانت بذلك أول فتاة تفعل ذلك هنا.

«فاطمة طول عمرها عايقة وأنا بأحبها من قلبى» قالت ذلك أم الضابط لمن حولها. الحقيقة أن كل الناس هنا تحب فاطمة ولا يرون ضرورة لأن تكون لذلك ثمة أسباب. هى ليست فى جمال حكمت أو ألچونى. سمراء رشيقة القد شعرها أسود غزير عيناها واسعتان وفمها

صغير. هى إذن جميلة أيضًا لكنها ليست شقراء مثلهما! كروان كان الرسول السرى بينها وبين رشاد. لا تتركه إلا وقد احمر وجهه. طعم قبلاتها الدافئة على خده لا يزال. فى البداية كانت تعطيه البونبونى، صارت تعطيه البونبونى مشفوعا بقبلة على الخد. كروان فرحان مثل كل الناس، زعلان وحده حين يفكر فى هذا الزواج لأنه لن يرى فاطمة بعد اليوم! البنات خلقهن االله ليخطفهن الرجال. يسمع أمه تقول ذلك دائمًا. أمه لم تذهب إلى الفرح لثقل حركتها. أخذته شوقية معها. ذهب أبوه مع الرجال. .

لم تخرج البنات بشكل جماعى من زمان. ذلك اليوم الذى خرجن فيه معا وذهبن يتفرجن على جمال عبد الناصر وهو يخطب فى المنشية بمناسبة جلاء الإنجليز عن البلاد فكان «يوم أسود!». أطلق شخص الرصاص على جمال وساد هرج شديد فكدن يقعن تحت الأقدام لولا أن جمال نفسه راح يصرخ فى الناس أن يقفوا صامدين «فإذا مات جمال فكلكم جمال». . لكنهن فى النهاية، وبعد أن ابتعدن كثيرا عن المنشية فى طريق عودتهن، شملتهن البهجة بنجاة البطل الوسيم ذى الصوت الجهورى الرنان وإن لم يزايل الفزع وجوههن بعد. .

عبرن هذا المساء المعدية ليركبن الترام إلى المنشية، رآهن حبشى فوق المعدية ورأى الفضاء يتلألأ بضحكاتهن وثيابهن الملونة. نظر إلى بدرة وقال:

ـ شفت البنات يا بدرة؟!

ـ مالهم!؟

لم يرد. فقالت بعد أن فهمت ما يقصد:

ـ بناتك أجمل ألف مرة.

كان اللقطاء من البنات أجمل من بنتى بدرة . قال :

ـ طبعا . ليس هناك أجمل من خلقتك وخلقة بناتك!

وخلع جلبابه ثم قفز فى الماء باللباس وراح يسبح كتمساح . نظرت البنات إلى الترعة حين سمعن صوت ارتطام جسمه بالماء . أشحن بوجوههن وصعدن يركبن الترام مبتسمات .

الجو ربيعى اختفت منه سخونة الخماسين منذ أمس . فى ميدان المنشية نزلن يمشين المسافة الباقية . حكمت تعرف الطريق إلى المسرح . فى ميدان المنشية الواسع ذى العمارات العريضة الرابضة فى جلال بنوافذها العالية وحلياتها الباذخة ، وقفن يتفرجن على تمثال محمد على باشا . كان ثمة محلات مغلقة ، وعدد من النساء اليونانيات العجائز يمشين على الأرصفة وكثير من الشحاذين وعدد من الصبية يجمعون أعقاب السجائر وآخرون يبيعون الفل والياسمين . قال كروان الذى انتبهن إلى وجوده معهن :

ـ محمد على باشا هو جد الملك فاروق .

قالت حسنة :

ـ الملك فاروق هايص فى بلاد بره .

هتفت شوقية :

ـ هايص!؟ لقد طردته الثورة يا عبيطة . زمانه لايص ودايخ دوخة البلچيكى . .

لا تعرف أى منهن معنى دوخة البلچيكى ، والحقيقة أنها مقولة أطلقها أحد الظرفاء على الترام الذى يتحرك فى الإسكندرية فى خط دائرى فلا تعرف له بداية من نهاية ، والترام تملكه شركة بلچيكية . .

جرين للحظات بعد أن تطلعن طويلا إلى التمثال الذى يكاد يقفز من فوق قاعدته. حصان قوى فوقه رجل جبار! وأخذتهن حكمت إلى الكورنيش فاستقبلن هواء البحر المنعش. مكان تمثال إسماعيل باشا لا يزال خاليا. يقال إن الثورة سترفع كل تماثيل أفراد أسرة محمد على من البلاد. البعض قال إنه شاهد تمثال إسماعيل باشا ملقى فى إهمال بحدائق أنطونيادس. ستضع الثورة مكانه نصبا للجندى المجهول.

بدت ألچونى فى الفضاء الواسع مثل عروس البحر التى خرجت للتو تتلألأ من الماء. ازدادت طولا وارتفعت فى الفضاء كالإلاهة سحرية. طالت رقبتها ولمع شعرها الكهرمانى وسطع النور من وجهها. بانت التقاسيم الدقيقة لوجه حسنة السمراء. لعلعت ضحكة البنت شوقية ولمعت عيناها العسليتان. لم يكن الضوء والهواء فى جانب بدرية. بانت بحق مثل دجاجة بللها المطر، أحمر وجهها وكادت أرنبة أنفها تشتعل. زواج فاطمة فأل حسن يفتح الطريق لزواجهن. قريبا جدا ستتزوج شوقية وبدرية. خطيب بدرية، الحلوانى، عاد من الحرب سليما وسيذهب بها إلى ليبيا بعد الزواج. لا أحد يعرف لماذا يسافر إلى ليبيا. يقول إنه تعرف على أحد الليبيين المقيمين بحى الورديان، من الذين هربوا أيام عمر المختار من الطليان، وأن هذا الرجل قرر أن يعود إلى بلاده، وسيفتتح ضمن مشروعاته محل حلوانى سيكون الأول فى بنغازى. حكمت أيضًا ستتزوج قريبا. ربما تسبق الجميع، مشيرة تعثَّر حظها فكامل خطيبها لم يعد من الحرب، لم يقل أحد إنه استشهد، ولم يقل أحد إنه أسير، هو فى عداد المفقودين وهى تنتظره. رابطة مهببة!. تقول حسنة التى لم يتقدم لها أحد. لا أحد يعرف هل تقصد مشيرة أم نفسها. نادية سلام تقول لهن دائمًا إنها لا تفكر أبدًا فى الزواج، تخفى قصة حبها مع إبراهيم مرسى، وتحلم به أكثر من مرة فى اليوم الواحد.

كما تحلم الجونى بخير الدين الذى لا يفتأ يجلس على سلالم الماكينة الحمراء يتابعها بعينيه كلما صعدت إلى السطح، أويصعد على سطح بيته يتطلع إليها من بعيد، وفى كل الأحوال لا يتكلم خير الدين ولا يبدى أى إشارة.

ظهرت نادية سلام فى هذا الفضاء مثل مهرة حقيقية، هى أصغرهن لكنها أطولهن وأكثرهن غزارة فى الشعر. حكمت وحدها ظهرت مثل شعلة من لهيب فوق جبل بعيد كلما ابتسمت لمع فى الفضاء شهاب واختفى!.

قالت حسنة:

ـ العقبى لكم يا بنات حتى تخرجن من المساكن إلى الدنيا الحقيقية.

قالت شوقية لحكمت:

ـ أكيد أنت يا حكمت سوف تسكنين هنا فى محطة الرمل.

قالت حكمت:

ـ أنا قلت لخطيبى ألا يبتعد عن كرموز.

قالت شوقية:

ـ أنت يا حكمت غاوية فقر.

تساءلت بدرية.

ـ الواحدة بعد الزواج ألا تسكن فى مكان أفضل؟

قالت حسنة:

ـ طبعا. لو معها فلوس للإيجار!

ابتسمت بدرية ثم قالت:

ـ أنا كنت فاكرة الشقة الجديدة شيء تابع للزواج؟

تساءلت حسنة:

ـ ماذا تقصدين بشيء تابع للزواج؟

ـ يعني لما الواحدة تتزوج المحافظة أو الدولة تعطيها شقة بإيجار رخيص.

نظرن إليها مندهشات. قالت حسنة:

ـ يقصف عمرك يا بدرية، أنت هبلة وعبيطة لا ندري.

انطلقن جميعا في ضحك عال وأسرعن الخطى إلى محطة الرمل. الساعة حوالي الخامسة. النهار يفارق الدنيا على مهل، البحر عند الأفق يلتهب بالشمس الذاهبة، وبعض السحب السود تختلط بدم الشمس فيبدو الأفق في حريق حقيقي. نار ودخان. أنفاس الموج تصل إليهن، يرين بعيدا هاماته البيضاء تترى خلف بعضها في كسل. سفن وزوارق حربية تقف في الميناء الشرقية متناثرة ما بين لسان السلسلة وقلعة قايتباي. ظلالها تترجرج فوق الماء مع حركتها الهادئة. البنات تمشين أسفل شرفات العمارات تهفو نفوسهن إلى ركوب الحناطير التي تتهادى بالبنات اليونانيات والإيطاليات والشباب الإفرنجي، ويسمعن صوت طرقات أقدام الخيل على الأسفلت. يا أولاد الكلب. قالت حسنة في سرها وهي تتابع عربات الحنطور تحمل العشاق. لكن الذي خطف أبصارهن بحق كان الزجاج الأبيض للمطاعم والمقاهي. مقهى الكريستال، المقهى التجارية، مطعم نصار. المناضد البيضاء تتحرك بينها فتيات صغيرات جميلات، يونانيات وإيطاليات، ومصريات أيضًا، في ثياب أنيقة، چوبات زرقاء ضيقة على الأرداف والسيقان، قمصان بيضاء وأربطة عنق زرقاء. جرسونات المقاهي وزيهن المميز،

البنطلون الأسود والچاكيت الأبيض وكل منهم قد وضع يده فى چيب الچاكيت يحرك القروش «الفكة» داخله فى حركة لا إرادية . .

رأين من بعيد أمام المسرح زحامًا من الشباب والأولاد، يقفون فى استعراض قوة يحدث عادة حين يتجمعون معا. تعودوا، شباب وصبية المساكن، على الذهاب إلى السينما فى محطة الرمل دائمًا جماعة، يثيرون فى طريقهم المشاغبات التى يفضى أكثرها إلى معارك طائشة مع الآخرين. نادرا ما يذهب أحدهم إلى السينما وحده، إذا حدث يبدو فى ذهابه وإيابه حزينا صامتا لا يصدق من يراه أنه هو نفسه الذى يتحول إلى جنى مع أصحابه. يعطيهم الفرح اليوم طاقة أكبر من التحفز. فى الإسكندرية تنتهى الأفراح غالبا بمعارك. «سلو بلدنا!» هكذا يقولون.

كان واضحا أن الشباب قد كووا قمصانهم بالنشا، ووضعوا الفازلين أو الصابون على رؤوسهم فثبت الشعر ولمع! ولبسوا البنطلونات الووتر بروف ذات الوسط الساقط على طريقة چيمس دين!.

بالداخل كان العدد الذى وصل من الآباء، عمال السكة الحديد الذين لا ينزلون المدينة إلا فى الأعياد، يجلسون فى الصفوف الخلفية تاركين الصفوف الأولى للنساء والأطفال. لكن عددا منهم كان لا يزال قادما فى الطريق بينهم حمزة. كان حمزة لا يزال يحكى حكايات غريبة عن الحرب التى انتهت منذ عام، خاصة عن الطائرات التى سقطت فوق المدينة، والتى شارك هو شخصيا فى إسقاطها بعد أن تطوع فى فرق الحرس الوطنى، حيث تم توزيعه على بطارية مدفع مضاد للطائرات فوق جبل الطوبجية بكوم الشقافة. الموقع نفسه الذى كان فوقه مدفع

إنجليزى كبير فى الحرب العالمية الماضية ظلت طائرات الألمان لمدة عامين تحاول تدميره وتفشل حتى نجحت فى ليلة كادت فيها تدمر الإسكندرية كلها .

لقد تغير الزمن وصار المدفع مصريا والطائرات إنجليزية! الإنجليز يعرفون الموقع جيدا لذلك حرصوا على تدمير المدفع منذ البداية ، لكن كل الطائرات المغيرة تم تدميرها فى الفضاء . هكذا يقول حمزة ، والناس جميعا تعرف أن عدد الطائرات التى سقطت فوق الإسكندرية لا يصل إلى خمس طائرات . لم تحدث غارة كبيرة إلا مرة واحدة من إحداها سقطت القنابل على مبنى البوستة فى المنشية ، وفى الثانية سقطت القنابل فى مينا البصل وفى الثالثة سقطت القنابل على بحيرة مريوط ، طاشت يعنى! .

اليوم دخل حمزة وخلفه الرجال الذين يقودهم إلى المسرح يشم فى طريقه إلى الصف الأولى رائحة بارفانات تطيّر العقل! المسرح واسع والأضواء الخافتة تنبعث من أعلى الجدران وفى الواجهة ، على خشبة المسرح ، إضاءة بيضاء قوية وكوشة محاطة بلمبات الفلورسنت البيضاء والزهور . كوشة شديدة الإضاءة داخلها مقعدان من المخمل الأحمر خاليان إذ لم يصل العريس وعروسه بعد .

جلس حمزة ومن معه فى الصف الأول ، ولأنهم يدخلون هذا المكان لأول مرة لم يحاولوا الالتفات والبحث عن زملائهم . فى الحقيقة أسكرتهم روائح البارفانات . جلسوا فى أدب كالأطفال غير مدركين الرجال والشباب الذين ينظرون إليهم . نساء جميلات معطرات شبه عاريات فى ملابس سهرة سوداء وحمراء وخضراء ورجال ببدل سوداء ووجوه حمراء وبابيونات ملونة ومناديل فى لون

البابيونات والكرافتات وشباب نضر يصافحون الفتيات ويقبلونهن على الخدود وأطفال يانعو البشرة نظيفو الثياب يمرحون فى الطرقات التى بين المقاعد. سمن على قشدة على لبن. هكذا رأى حمزة النساء ولم ينتبه إلى المكان بعد!!

قال أبو عيد المشعور لحمزة:

ـ النسوان حلوة يا ولد.

فقال حمزة:

ـ هكذا الأفراح التى تقام فى المسرح دائمًا.

تساءل أبو عيد المشعور.

ـ يعنى هذه النسوان تابعة للمسرح.

ـ طبعا، وتجدها فى كل الأفراح.

هكذا أجاب حمزة واثقا. لم يجد سببا لوجود النساء غير هذا، على الأقل حتى الآن.

بين الحين والحين يظهر من ينظر إليهم من بعيد ثم يمضى ليقف يتحدث مع شخص آخر سرعان ما يأتى ينظر إليهم ثم يمضى وتظهر على الاثنين الدهشة والارتباك. لا أحد يتقدم يسألهم، وهم الرجال الذين يرتدون الجلابيب البلدى والعمائم أو البنطلونات الكاكى والجواكت الرخيصة، عن هويتهم. ظنهم أهل العروس من أهل العريس الذين ظهروا فجأة قادمين من الريف.

أهل العريس بدورهم ظنوا أنهم أهل العروس!. ظهرت امرأة طويلة قوية انحنت على طفلة صغيرة تحدثها، فأسرعت الطفلة حتى وصلت إلى حمزة وسألته:

ـ حضرتك من أهل العريس؟

اضطرب حمزة للحظة ثم قال:

ـ نعم كلنا أهل العريس.

نقلت الطفلة الرسالة إلى المرأة التى كشرت عن وجهها واحمر حتى كاد ينفجر وأسرعت تدخل إلى غرفة جانبية وتخرج منها فى يدها امرأة أخرى قوية أيضًا لكن أقل طولا. خلفها راح رجل أنيق ينظر إلى حمزة وزملائه ويهز رأسه.

انتحت المرأة الطويلة بالأقل طولا وراحتا تتكلمان بحدة لكن بصوت غير مسموع. حمزة الذى كان يراقب ذلك أدرك أن شيئًا ما غير طبيعى يحدث حولهم، فى الوقت الذى سمعت فيه الطبول والدفوف وأصوات الزفة الإسكندرانى داخلة من باب المسرح تحوط العريس والعروس فسكتت المرأتان وتابعتا المشهد لكن لم ينته غيظهما ولم يختف من على وجه كلتيهما. ما إن جلس العريس والعروس فى الكوشة حتى قال حمزة:

ـ هذا ليس رشاد ولا هذه بفاطمة.

قال أبو عيد:

ـ الله يكسفك يا حمزة دخلت بنا مسرح غلط... وأنا أقول الناس رايحة جاية تبص لنا ليه؟ وتقول لى النسوان لزوم المسرح يا فشار..

وقف حمزة ووقف الرجال واتجه بهم إلى الخارج لكن المرأة الطويلة كانت بدورها فى الطريق إليهم ومعها المرأة القصيرة. قبل أن تتكلما تكلم حمزة:

ـ لامؤاخذة يا مدام ظنناه فرح ابننا رشاد وبنتنا فاطمة . «هابى ماريدج» إن شاء الله . .

أزالت الجملة الإنجليزية صخور الغضب وانحلت أسارير المرأتين .

قال أبو عيد :

ـ حقك علينا . . واضح أننا وسخنا الفرح . . .

نظرت المرأتان إليهم بإشفاق حقيقى . قالت الطويلة .

ـ بالعكس . حضوركم شرفنا جداً . هذا فرح توتو وبيسة . كأنه فرحكم . نحن فقط لم نكن نعرفكم . سامحونا إذا كنا تصرفنا تصرفا غير لائق .

قال حمزة بهدوء وأداء تمثيلى :

ـ كلك ذوق يا مدام . اسمحى لنا بالانصراف .

ـ ليس قبل أن تأتوا معى .

قالت ذلك ومدت يدها أمسكت بيد حمزة الذى لم يصدق أن هناك فى الكون يد امرأة بهذه النعومة والدفء فترك نفسه لها يمشى جوارها كالمأخوذ والرجال خلفه حتى دخلت بهم غرفة واسعة مليئة بالتورتات والجاتوه والساندوتشات وفى وسطها يقف خادمان نوبيان . راحت هى بنفسها تعطى كلا منهم علبتين صغيرتين مغلقتين بشريط أخضر ووردة بيضاء بلاستيك عند عقدة كل شريط . قرأ حمزة كلمة «ديليس» على جوانب العلبة فابتهج وخرجوا جميعا غير مصدقين . فى الحقيقة كانوا محتاجين إلى هواء البحر المشبع بالندى بعد أن كادوا يختنقون من الحرارة التى ارتفعت فى أبدانهم مرة بسبب الإحراج وأخرى بسبب الابتهاج . وقال أبو الحسن .

ـ أكيد داخل هذه العلب بسطة .

فقال حمزة :

ـ داخلها جاتوه يا حمار . البسطة هناك فى غيط العنب عند «الحلوانى جزر» لكن هذه من عند ديليس فهى جاتوه .

الإسكندرية كلها تعرف أنه لا فرق بين البسطة والجاتوه ، لكن هكذا جرت العادة ، يستخدم أهل المناطق الجنوبية الفقراء كلمة «بسطة» ، ويقول أهل الشمال الغنى «جاتوه» ، والحقيقة أن الاثنين صنف واحد يبيعه الحلوانى والكلمتان معا أصلهما أجنبى ! ! .

(٢)

أقيمت الأفراح . بدت الدنيا أوسع . الراديو يبث أحاديث الانتصار منذ أكثر من عام . الوحدة بين مصر وسوريا قد أعلنت ، وصلى جمال عبد الناصر وشكرى القوتلى ، الرئيس السورى ، معا فى الجامع الأزهر . . . الناس عموما تستطيل قاماتها !

لم تعد حكايات اليهود وخروجهم الكبير تصل إلى المساكن ، لقد خرج من خرج وفاز من فاز ومصائب قوم عند قوم فوائد ثم ماذا يستفيد سكان المساكن من غنى «زعيط واختفاء معيط !» . الدنيا بعيدا عنهم لا تصل إليهم ولا يصلون إليها . .

أقيمت الأفراح بعد عام من التجهيز والاستعداد . . . رفض على زين العابدين إقامة فرح ابنته شوقية على عريسها التاجر فى المسرح . «لا يجب شحططة الناس» هكذا قال . «سيقام السرادق فى الشارع الوسطانى» هكذا قرر . . .

حضر عمال الفراشة والكهرباء من كرموز. تدلت المصابيح الملونة على واجهة المساكن المطلة على شارع قنال المحمودية. تم توصيل الكهرباء بأعمدة نور الشارع العامة. الحكومة لا تأتى هنا إلا نادراً. امتدت الأنوار بطول الحائط فوق النوافذ فاشتعلت المساكن الممتدة لمسافة تزيد على الأربعين مترا وتحولت إلى ما يشبه واجهة مدينة للملاهى . . . اشترك الصبية فى تنظيف الشارع الوسطانى، حبس الناس أغنامهم ومَعْزهم ذلك المساء، كذلك طيورهم من بط وأوز ودجاج. شيئًا فشيئًا بدأت تظهر معالم السرادق لكن رائحة المعْز والأغنام والطيور وبول الأطفال كانت لا تزال ترتفع من أرض الشارع رغم أن الأولاد كنسوا الأرض ورشّوها بالماء. الرائحة النفاذة لعطور النساء الرديئة ستقضى على أى رائحة أخرى ساعة الفرح، ثم إن هذه الرائحة التى قد لا يتحملها الغريب، يعيشون هم وسطها ليل نهار! .

فى البيت تجمعت البنات حول شوقية وأمها، أبلة نرجس. منذ شهر كامل لم ينقطعن عن السهر، يجهزن الملابس للعروسة ويغنين ويطبلن ويرقصن أيضًا. لقد جهزت أبلة نرجس ابنتها أحسن تجهيز. وكل يوم تندهش البنات مما تشتريه أبلة نرجس لشوقية، حرير برودريه، وبروكار بالقصب لزوم الفساتين، وبيكة سادة ومشجرة للجلابيب وتيل حرير أطلس وتيل ملايات ألوان وجوبلان روميو وچولييت وأربع أطقم سرير كتان مشغول وعشر فوط المحلة زهرة اللوتس وثلاثة أطقم سفرة المحلة وعشرة شرابات كاوتشوك «أول سايز» وعشرة قمصان نوم رمش العين و«كمبينزونات شرميز وكمبينزونات ساتان جرسيه بدانتيلا» وثلاثة أطقم نوم نايلون شفاف ثلاث قطع وعشرين «كيلوت بليسيه» وعشر سوتيانات واثنين سجادة صلاة وغير ذلك كثير. عدن إلى البرنامج الإذاعى وعاد إليهم. تغيرت حظوظهن كثيرا بعد الحرب.

صار حظ شوقية غالبا مع محمد فوزى ذى الصوت المبهج الرنان، تعب الهوى قلبى وشحات الغرام، ويلك ويلك يا مشتاق وبعد بيتنا ببيت كمان حلو ساكن من زمان، ونسيت الحزن القديم مع أحلام وعبده السروجي وتفاءلت بالمستقبل. مع موسيقى وصوت محمد فوزى تنتعش البنات ويرقصن ويغنين ولا يعرفن كيف يستطيع عم على زين العابدين أن ينام فى الحجرة الداخلية كل ليلة ولا يعترض ولا يحتج، بل يسمعن صوته أحيانا وهو يشخر. . نزل عليهن الصمت فجأة ليلة جاءهن خبر زواج حكمت. لم يبد قبل ذلك أى استعداد لذلك، ولم تبد لهن أى إشارة ولم يبد فى ذلك اليوم أنها ستتزوج فى آخره! لم تَدْعُ أحدًا إلى فرحها الذى أقيم فى المسرح. كان ذلك شرط العريس. لعلها لذلك أخفت الخبر عنهن. لا يصدقن أبدا أنها تنكرت لهن. لكن حسنة قالت غاضبة:

ـ الفلوس تعمى الناس. بياع سمك جربوع أبوه بالكتير كان يسرح بغلق على رأسه بالقراميط الميتة أصبح تاجرًا ويفرض شروطه على البنت الغلبانة حكمت التى هى أجمل من مريم فخر الدين ومارلين مونرو!.

وظلوا ساكتين. قالت بدرية:

ـ مسكينة حكمت. لابد أنها زعلانة. أنها لا تستغنى عنا أبدًا.

لم تظهر نوال تلك الليلة فلم يغن أحد. . لكن فى الليلة الثانية اجتمعن مبتهجات. ما الذى يجعل الناس هنا سريعى النسيان للحزن والغضب؟ هل هو المكان البعيد عن المدينة، هل هو الهواء القادم من المدينة، هل هو الفضاء الواسع حولهم. هل هو الصمت الذى لا يرتفع فيه غير أصوات الأطفال؟. هل هو التسليم والرضا بقضاء الله؟ لقد

حملت إليهن الأنباء أن حكمت سكنت فى شقة جميلة بكامب شيزار قرب سينما أوديون بينما عُدن إلى الطبل والرقص والغناء، ومنذ أيام لم يستطع كروان أن يكتم عن البنات ما سمعه من خير الدين الذى قال له كيف وهو خارج من سينما الهمبرا، وبعد أن أخذ يمشى فى شارع صفية زغلول فى اتجاه محطة مصر، كيف رأى حكمت وهى جالسة فى «تافرنا» وحدها تدخن سيجارة. لقد رآها من خلف الزجاج وكانت أصابعها ترتعش رغم أنها ترتدى بالطو أخضر والجو فى تافرنا مكيّف ونحن فى الربيع. رآها شاحبة جدا غارت عيناها الجميلتان كثيرا إلى الداخل حتى كاد لا يصدق أنها حكمت. سألته شوقية:

ـ هل قال لك ذلك بنفسه؟

ـ سمعته يقوله لسليمان.

ـ طيب عرفت يعنى إيه تافرنا!!

هكذا تساءلت شوقية فضحكت نوال وقالت:

ـ كافيتريا اسمها تافرنا، مقهى أفرنجى يعنى، أنا عارفاها.

تساءلت شوقية فى دهشة:

ـ تعرفين المقاهى يا نوال؟

استمرت نوال تضحك ثم قالت:

ـ أنا يا بنت دخلت كل كافتيريات إسكندرية، تريانون وديليس وعلى كيفك وإيليت وستريا حتى المونسينور والوندسور وباسترودس وسانتا لوتشيا..

لم يكن جميعا يعرفن شيئًا من ذلك. قالت حسنة مندهشة:

ـ هل هذه أسماء مقاهى حقيقية؟ يهيأ لى أنها أسماء عفاريت!

انطلقن يضحكن وقالت نوال:

ـ لى صاحبة من المغنيين اللاتى أسعدهن الحظ واشتغلوا فى الإذاعة تعزمنى كثيرا فى هذه المقاهى .

عادت حسنة تتساءل :

ـ وهل لابد للمغنية أن تعرف كل هذا؟

ـ للأسف اللقاءات الفنية والاتفاقات كلها تبدأ فى المقاهى .

سكتن للحظات حتى قالت بدرية :

ـ ربنا ينصرك يا نوال وأسمع صوتك فى ليبيا . ليبيا التى لا أعرف أين هى بالضبط !

ضحكن كثيرا تلك الليلة ، ها هن اليوم سيودعن واحدة منهن ، شوقية الجميلة بنت أبلة نرجس الطيبة .

ظهرت أم الضابط عند العصر وأخذت شوقية إلى الحجرة الداخلية .

اختفى على زين العابدين ذلك اليوم . سيظهر فى المساء فى السرادق نفسه بعد أن تكون كل الاستعدادات قد انتهت من البيت . رأى كروان دمعة تنساب على خد أمه . «خلاص يا كروان شوقية ستتركنا» . كان هو بعد أن اختفت فاطمة قد استوعب فكرة أن يترك الشخص مكانه وأهله بعد الزواج .

لكنه اليوم ، الآن فقط ، عاد كما كان غير قادر على استيعاب الفكرة . أخته التى كانت تصحبه إلى مدرسة الشيخ عبد الله بكفر عشرى ، تمشى به على طريق المحمودية المقطوع ، وتعود به على الطريق نفسه بعد أن تكون قد انتظرته أربع ساعات أمام باب المدرسة . أخته التى ظلت تفعل ذلك ثلاث سنوات حتى انتقل العام الماضى فقط إلى

مدرسة القبارى الابتدائية فراح يمشى مع مصطفى وعبده الأكبر منه بعامين، واللذان سينهيان دراستهما الابتدائية هذا العام. كيف حقا تمضى أخته وتتركه.

رأى البيت كله فى حالة حركة من أجل شوقية منذ أكثر من شهر. بالليل سهر مع البنات وحياكة ملابس شوقية وبالنهار تخرج أمه مع شوقية أو مع أبيه لشراء أجزاء من «الشوار» وأبوه كلما دخل إلى البيت نظر إلى شوقية مبتسما نصف ابتسامة ومسد شعرها بيده وقال: «خلاص حنتحرم منك يا شوقية» وتطرق شوقية إلى الأرض حزينة بحق، إلا أن وجهها يحمر من جديد وتبتسم وتبتهج حين تسمع أباها يقول: «إن شاء الله ستعيشين سعيدة مع زوجك» لكن غلالة من الحزن رقيقة تظل دائمًا تغلف هذا الفرح فى الأسرة ولا تنجلى إلا فى المساء مع حضور البنات.

بعد أن حضرت أم الضابط طلبت من كروان أن يغادر البيت ليتابع أعمال الفراشة والكهرباء فى الشارع الوسطانى. وقف وسط العمال النشطين المعلقين على الأعمدة والواقفين على الأرض. الأطفال يختلطون بالكبار والسعادة ترفرف فوق الجميع. ما هو سر سعادة كل هؤلاء الناس بذهاب أخته بعيدا عنه إلى الأبد. أخته التى لم يبد أن لها اهتمامًا فى الحياة بغير راحته ومشاغبته بالهزار الجميل، أخته التى لم تكشر فى وجهه أبدًا، ولم تنم قبل أن ينام هو وتغطيه ولم تأكل قبل أن تعرف أنه أكل وشبع ولم تبخل عليه بالقروش تعطيها له سرًا ولم تتركه يخرج مرة واحدة بثياب متسخة ولا قميص أو بنطلون غير مكوى. غياب شوقية عن حياته ليس أبدا كغياب فاطمة من قبل..

أخذ طريقه عائدًا إلى البيت ووقف ينظر إلى أمه.

ـ أريد أن أرى شوقية .

ـ كنت معها منذ قليل .

ـ أريد أن أراها

ـ لكنها بالداخل مع أم الضابط وعيب تدخل عليهما .

ـ لازم أشوفها .

كان الألم الحقيقى باديا على وجهه . البنات تتطلعن إليه متأثرات . «ياعينى يا كروان» . «زعلان علشان أخته حتسيبه» «روحه فيها» . كانت أم الضابط بالحجرة الداخلية قد استمعت إلى الأحاديث فجاء صوتها من الداخل .

ـ تعال أدخل يا كروان .

دخل فلم يصدق أن هذه الحمراء الوجه مثل عروسة المولد هى أخته لولا أن نادته ومدت له يدها . قالت بصوت أجمل من صوت فاطمة ذلك اليوم .

ـ حتوحشنى يا كروان .

صوتها المختنق جعل أم الضابط تحذرها .

ـ إياكى تبكى يا شوقية . تفسدى الزواق .

ثم تحدثت إلى كروان قائلة ما سمعه من أمه كثيراً .

ـ كل بنت مصيرها لزوجها يا كروان .

لكنه لم يكن يسمع شيئًا . لم يترك حتى ذكرى رؤيته لأم الضابط ذات مرة عارية تماما تقفز إلى ذهنه . كانت أمه قد أرسلته بجلباب خاطته لأم الضابط . وجد باب العشة مفتوحا فدخل دون أن يطرقه .

وجد باب البيت مفتوحا فدخل خفيفا ليرى أم الضابط تقف أمامه فى الصالة وسط طشت كبير عارية تمامًا. كانت عالية جدًا فهى امرأة طويلة، عريضة الجسم ضخمة الثديين عظيمة الفخذين بيضاء مشوبة بالحمرة. وقف مبهورًا أمام المشهد. تجمدت عيناه على الهضبة السوداء المليئة بالشعر الأسود بين فخذيها وأم الضابط بدورها ابتسمت بفمها الكبير وبانت أسنانها الذهبية.

ـ ماذا تريد يا كروان؟

لكنه لم يجب بكلمة. كان جوار الطشت النحاس صفيحة مياه ساخنة كبيرة يرتفع منها بخار الماء، و«الجارية» خادمة أم الضابط التى تحمل هذا اللقب القادم من عصور سحيقة ولا يعرف أحد كيف توصلت أم الضابط أو زوجها إليه، الجارية تقف فى يدها كوز تسكب منه الماء الساخن على رأس أم الضابط التى كان شعرها القصير ملتصقا بوجهها.

انزعجت الجارية التى كانت ترتدى جلبابا خفيفا جعله الماء المتطاير عليها يلصق بجسدها فى أكثر من مكان. ضحكت أم الضابط وقالت.

ـ لا تخافى. كروان بعد صغير. وحتى لو كبير كروان ولد لطيف..

أسرعت الجارية وأخذت منه الجلباب ثم دفعته أمامها إلى الخارج وهو الذى لم يتكلم بعد ظل ممسكا بصورة الجسد الضخم المبتل تحيطه غلالة من البخار تتوسطه هضبة الشعر الأسود الغزير. كان أصعب شىء من بعد هو ألا يقول ذلك لأحد، ولقد نجح.

مشهد كهذا كان يمكن، بل يجب، أن يقفز إلى ذاكرته وهو يرى أم الضابط مع أخته، خاصة أنه حدث منذ أقل من عام، لكنه لم يتذكره،

اختفت أم الضابط تمامًا من المشهد أمامه. كان يتقدم من أخته شيئًا فشيئًا، وفى اللحظة التى همت فيها أن تأخذه إلى حضنها وتقبله هوى بكفه على صدغها فصرخت أم الضابط «يالهوى» وعضت شوقية شفتها وسكنت حزينة جامدة.

تركت اليد الصغيرة أثرها على البودرة التى على الخد بينما خرج كروان مسرعا. لمح وهو يلتفت عائدًا الدمعة التى انفلتت من عين أخته، والتى ستفسد «الزواق»!

دخلت أمه والبنات لحظة خروجه من الحجرة. وقفن مندهشات بينما كان هو قد ابتعد كثيرا عن البيت وخرج من المساكن كلها ووقف على شاطىء ترعة المحمودية يتطلع إلى الصنادل القادمة من الميناء. يقولون إنها تبحر إلى الصعيد، وأن بين الإسكندرية والصعيد مئات الأميال، فكيف إذن تعود بسرعة إلى الإسكندرية. ليست هى التى تعود يا كروان. صنادل أخرى تأتى كل يوم. لكن الذى يغادر الإسكندرية يعود أيضًا وإن بعد وقت طويل. لابد. الدنيا مليئة بالصنادل والسفن والناس الذين يأتون ويذهبون. الدنيا كبيرة يا كروان لا يستطيع أحد أن يعرف أولها من آخرها!

انتهى فرح شوقية جميلا حملها بعده زوجها التاجر إلى بلدته كفر الدوار.

غنت فى الفرح أشهر فرق البياصة. حسان شرارة وبدرية السيد المطربة الجديدة التى يذيع صيتها الآن فى الإسكندرية ورقصت فرقة أولاد دياب النوبية ورأت النساء البنات عاريات إلا من ريش يغطى خصورهن وأثدائهن وتعجبن جدا من هذه الفرقة الجريئة، وهتف الرجال إعجابا خلف بدرية السيد وهى تغنى موالها الوحيد بصوتها القوى العريض:

طلعت فوق السطوح أسأل على طيرى ،

لقيت طيرى بيشرب من قنا غيرى ،

سألت ليه يا طيرى ،

قال لى زمانك مضى ، دور على غيرى !!

وصعدت نوال تهدى لحبيبتها وصديقتها أغنية . التهب الفرح بالحماس . وبدا الزهو على وجه حمزة وهو يجلس فى الخطوط الخلفية مع الرجال . غنت أغنية نجاة الصغيرة الجديدة «بان علىَّ حبه من أول ما بان» وودعت البنات شوقية بالتصفيق خارج باب المساكن وهى تركب العربة المرسيدس الكبيرة الجميلة المزينة مع زوجها وخلفهما أكثر من سيارة أجرة من الريف تقل أهله وأقاربه ، وعدن إلى بيوتهن مرحات حتى انفردت كل واحدة بنفسها ، وبكت . أكثرهن بكاء كانت مشيرة التى لا تزال على أمل بعودة كامل المفقود فى الحرب .

كن على موعد آخر بعد أيام مع سفر بدرية مع عريسها إلى ليبيا . حلت ليلة السفر واجتمعن . تأملتهن أبلة نرجس بدون حكمت وشوقية ، ومشيرة المعتكفة حزنا . غدا ستلحق بدرية بالغائبات . العقد الجميل تنفرط حباته واحدة بعد الأخرى وإن بسبب الأفراح . تتألم فى صمت ولا تتكلم . تعرف حكمة الزمان ، بل تتمنى لهن جميعًا أن يلحقن بشوقية وحكمت وبدرية بالفعل . .

قالت ألچونى :

ـ كل أغانى ما يطلبه المستمعون الليلة من أجل بدرية ، هدية منا .

قالت حسنة :

ـ الأغانى الحلوة فقط . أغانى النكد خليها لنا .

ضحكن، وأخرجت نوال من علبة قطيفة صغيرة زرقاء معها شيئا ظهر إنه عقد من الكهرمان برق فى عيونهن.

- هذا لك يا بدرية كهرمان حر.

شهقت البنات. كان بريقه الأصفر لا يقاوم. قالت نوال:

- شوفى.

وقربت العقد من قطعة من القصاقيص فعلقت به. قالت حسنة مندهشة.

- إنه يلقط كالمغناطيس.

- حرٌّ كما قلت لكم. ليس صناعيًا. الكهرمان هو أصل الكهرباء. العلماء عرفوا الكهرباء لما رأوا الكهرمان يلقط. درستها فى مادة الطبيعة.

هتفت حسنة:

- يخرب عقلك يا نوال. أنت إذن مثقفة ونحن لا ندرى.

- بالكاد الدبلوم. الثقافة لا. قطيعة!

كانت أبلة نرجس تتأملهن وتعمل على الماكينة وتبتسم. وكن أيضًا يتحدثن وهن يعملن. ضحكت نادية سلام وقالت:

- شكلك زعلان من الثقافة يا نوال.

- معى دكتور فالق دماغى بالثقافة. كلما قرأ كتابًا قال لى أن أقرأه، وأن الفنان لازم يكون مثقف!

قالت حسنة:

- هذا غير دكتور الغناء؟

ـ هذا شاب متخرج حديثا، الثانى أستاذ.

ـ أنت إذن فى مستشفى للمجانين يا نوال.

ضحكن بشدة. نبهتهن أبلة نرجس إلى أن عم على زين العابدين قد يحضر فى أى لحظة من الخارج والليلة صيفية فتحت فيها نوافذ البيوت.

قالت نوال:

ـ يحدثنى بكلام غريب عن الالتزام بمشاكل الناس وهمومهم فى الغناء مثلما فعل سيد درويش.

قالت الچونى:

ـ من هو سيد درويش؟

قالت أبلة نرجس:

ـ أنا أعرفه. له أغنية جميلة هى «طلعت يا محلا نورها».

قالت نوال:

ـ سيد درويش هو فنان الشعب.

سكتن. لم يفهمن معنى ذلك. انشغلن بالعمل. قالت نوال بعد لحظات:

ـ لم أكن أحفظ له شيئا. حببنى فيه الدكتور. قال لى على الأقل لأنه كان من الإسكندرية، من كوم الدكة.

قالت حسنة:

ـ طيب إذا كانت أغانيه جميلة غنى منها واحدة لبدرية.

أغمضت نوال عينيها وقالت:

ـ سأغنى لكُن دور صعب لكن جميل.

وسكتن. توقفن عن العمل. بدا أن نوال شردت تماما عنهن، ثم بدأ صوتها الجميل ينساب:

والله تستاهل يا قلبى
ليه تميل ما كنت خالى
أنت أسباب كل كربى
أنت أسباب ما جرالى.

ولم تنته من الأغنية إلا وهن جميعا يبكين بحق. كان حزنهن غير عادى لفراق بدرية، إلا أبلة نرجس هى التى تماسكت. صحيح أن كل واحدة منهن تتمنى زوجا وبيتا وأسرة، الغريزة والطبيعة تهفوان إلى ذلك، لكن محبتهن لهذه الجلسة حول أبلة نرجس أمر لا يمكن التخلى عنه بسهولة. إنها الجلسة الأجمل فى حياتهن، الوقت الأجمل، الحرية الوحيدة المتاحة. إنه الزمن الخالى من الهموم التى ستشتاق إليه كل واحدة منهن بعد ذلك. إنها بكارة اكتشاف الدنيا شيئًا فشيئا. الدمعة الأولى للفرح أو للحزن، هنا تحليق الروح مع الآمال. هنا أبلة نرجس هى أمهم ومركز الدنيا ومحور الآمال والأحلام.

هل يمكن حقا أن يصبح هذا اللقاء مجرد ذكرى؟ هذا ما يحدث شيئا فشيئا. يا لأبلة نرجس كيف حقا تذهب إلى الفراغ العميق وحدها؟ لكن المرأة الحكيمة كانت تعرف كيف تسكت وتطوى حزنها. ونوال صرخت، هتفت وهى تنطلق بأغنية جديدة، ضحكت وابتهج وجهها بالسرور كله:

أنا مت يا ناس مرة فى حبى،
جم الملائكة يحاسبونى.
أول سؤال سألونى عليه.
إنه السبب فى لوم العزال.

أعادتهن إلى الضحك والبهجة. هذا كلام جميل لم يسمعن مثله من قبل. كلام يبعث على المرح. عجيب سيد درويش هذا حقا. كيف لم يعرفن به من قبل وهو ابن مدينتهم. بعد أن انتهت نوال قالت نادية:

- نفسى أحضر فرح يغنى فيه سيد درويش.

ضحكت نوال، وابتسمت أبلة نرجس. قالت نوال:

- سيد درويش مات من زمان، من قبل حتى أن نولد جميعا. مات أيام سعد باشا زغلول.

لم يكن يعرفن شيئا عن أيام سعد باشا زغلول فسكتن، بدت الأسئلة بائخة. طلبن من نوال أن تستمر فى الغناء لفنان الشعب ابن كوم الدكة الإسكندرانى البجبوح سيد درويش..

غنت نوال القلل القناوى، أنا عشقت، الدنيا مالها يا زعبلاوى، أنا هويت وانتهيت. يخرب عقلك يا نوال كل هذه الأغانى تعرفينها؟ أعمل إيه فى الدكتور عاشق سيد درويش. تعملى إيه يعنى إيه يا بنت. تجوزيه وتخليه يحب فريد الأطرش!. يضحكن بشدة. أيوه ويغنى نجوم الليل تشهد على حالى. العمر قضيته حزين مظلوم.

يضحكن. تضحك أبلة نرجس بلا صوت. تغنى نوال «ماقال لى وقلت له، وجانى ورحت له، يا عوازل فلفلوا» لفريد. أغنية سريعة الإيقاع مبتهجة على غير العادة فى أغانيه. تقف نادية ترقص على إيقاع الأغنية ثم تنهى نوال الغناء بأغنية الحلوة دى قامت تعجن فى البدرية..

عادت بهن نوال من الكهف المسحور الذى أخذتهن إليه لأكثر من ساعتين. لا واحدة منهن فكرت فى شىء آخر غير هذه السعادة التى تنسكب عليهن من صوت نوال الصافى. كيف حقا لا تغنى فى إذاعة الإسكندرية؟ كيف لا تقبلها لجنة الاستماع للأصوات الجديدة؟ إنها

جديرة بالغناء فى إذاعة القاهرة ذاتها لكن بدرية كانت قد وقفت فأعادتهن إلى الحقيقة، حقيقة أن الليلة لوداعها.

ـ خلاص يا بدارة؟

ـ خلاص يا أبلتى.

وارتمت بدرية فى حضن المرأة السمينة التى أرادت الوقوف فتأخرت، وبينما كانت بدرية تبكى على صدرها راحت هى تربت على ظهرها، إنها طفلتها الصغيرة الحمراء كالدجاجة ستسافر بالقطار إلى السلوم ثم تقطع الصحراء فى سيارة إلى بنى غازى. تعرف أبلة نرجس الطريق من كلام زوجها الذى يسافر كثيرا مع العمال لإصلاح خطوط السكك الحديدية بالصحراء. يا لها من رحلة على الدجاجة الصغيرة. لكن لا بأس إنه الزوج والزواج..

راحت بدرية تحضنهن واحدة بعد الأخرى. مسحت أبلة نرجس دمعة تسللت منها، كبحتها حتى لا تنفطر البنت فى البكاء أكثر. لكنهن، البنات الصغيرات، لم يستطعن أن يتماسكن. شهقن واندفعن فى البكاء خاصة حينما احتضنت بدرية نوال وقبلتها كثيرا وهى تشكرها على العقد الكهرمان وعلى الغناء الجميل الذى غنته من أجلها وخرجت مسرعة. بقين واقفات فى حيرة مفاجئة. صارت الدنيا أوسع من قدرتهن على الفهم أو الحركة فجأة.

قالت أبلة نرجس:

ـ بنات. الدنيا صغيرة. سيأتى يوم تقابل فيه كل واحدة منكن الأخرى، وأقابلكن أنا أيضًا. أسألونى أنا التى أعرف الدنيا أكثر منكن. أسألونى يا بنات. أجل أنا أعرف...

ولم تستطع هذه المرة أن توقف دموعها. حاولت ولم تنجح.

راحت تهتز أمامهن ثم انفرط منها البكاء لأول مرة أمام البنات. بناتها الصغيرات، نوال وحسنة ونادية والچوني، ترى من عليها الدور فى الغياب. من ستترك العقد الجميل وتمضى فى الفراغ؟

(٤)

لا فائدة يا محمود. كلاكيت آخر مرة فى الإسكندرية. فى القاهرة. فى الجمهورية العربية المتحدة كلها يا محمود! ها هم السينمائيون أولاد الأفاعى انطلقوا يضحكون منك كلما حدثتهم عن مشروعك. قالوا اكتبه، فكتبته. قالوا لغتك ركيكة. مالنا ومال اللغة يا سينمائيين يا محترمين!

السينما أحداث يا منتجين. تركوك وصنعوا فيلمهم عن بور سعيد. الفيلم يكتسح السوق فى لبنان الآن، وسيكتسح السوق فى مصر قريبا. قتلوك ليعطوا الفرصة لعز الدين ذو الفقار. طبعا. أليس هو صانع فيلم رد قلبى عن الثورة. هو مخرج الحكومة المدلل إذن!. لكن الأدهى من ذلك سليمان المؤلف الناشىء، الذى لم ينشر أى قصة، المجنون مثل عمه الذى يتحدث عنه كثيرا، والذى سينتهى مثله تماما، يطفش إلى بلد مجهولة. سليمان أيضًا لم يستمع إليك. عدت من القاهرة يائسا، ما إن لامست قدماك أرض المساكن حتى ارتفعت الآمال أمامك. فكرت أن تعيد الكرّة ولجأت إلى سليمان.

ـ هل صحيح أنك تؤلف القصص يا سليمان؟

ـ بدأت أكتب فى رواية كبيرة يا محمود. كتبت عددا من القصص القصيرة لكنها لم تعجبنى.

ـ يعنى لو حدثتك عن قصة شعب بورسعيد هل يمكنك تحويلها إلى رواية تصلح لعمل فيلم.

ـ طبعا.. لو عجبتنى.

قال لك ذلك فى خبث وتحملته.

ـ ما رأيك لو ابتعدنا عن هنا؟ نجلس عند كوبرى التاريخ مثلا وأحدثك عن القصة.

ـ فكرة ممتازة.

الجو صيف لكنها ساعة مغرب طرية. والناس الذين اعتادوا أن يستحموا فى المحمودية ظهروا يستحمون فى المحمودية! سرب من الطيور يرتفع فى الفضاء محوما فوق الماء. صندل قديم يأتى من ناحية الميناء محملا بالجرارات الزراعية. قشر القصب يظهر على الأرض ويزداد كثافة كلما تقدما ناحية كفر عشرى يدوسان عليه فيتقصف تحت أحذيتهما ويسمعان صوت تقصفه. على يسارهما الآن الباب المفضى إلى أرصفة البضائع وسط السكك الحديدية. الرصيف القريب عادة هو الرصيف الذى تصل إليه القطارات المحملة بالقصب تنقله السيارات بالنهار إلى جميع أنحاء المدينة. هنا أيضًا على الشاطىء تقف الصنادل القادمة من الصعيد محملة بالقصب وتفرغ شحناتها. الآن باب السكك الحديدية موصد، ولا صنادل تقف على الشاطىء لكن قشر قصب كثيراً جف تحت شمس النهار وراح يتقصف تحت الأقدام. دخلا شارع التجارة الأسود الرطب المزكوم بالرائحة المكتومة للغلال المخزونة بمخازن الشارع على الناحيتين، رائحتها رائحة شىء قديم أكلته الحشرات، رائحة حشرة تحترق. مدرسة عبد الله النديم وبيته على يسارهما. من يصدق أن من هذا البيت خرج خطيب الثورة العرابية!

قال ذلك سليمان فلم يرد محمود. كل الكتب تتحدث عن القاهرة ومقهى متاتيا والشيخ جمال الدين الأفغاني ولا أحد تكلم عن بيت عبد الله النديم بكفر عشري. مسكين عبد الله النديم يرقد جسده الآن في تركيا بعيدا عن بيته وأهله بآلاف الأميال. هل يمكن أن يعيده أحد بسلام يا محمود؟ سأله سليمان ولم يرد، يرتب أفكاره التي سيقولها. فجأة تساءل:

ـ ألا نشتري ورقا وقلما لتكتب يا سليمان؟

ـ لا تخف. ذاكرتي حديد..

وصلا إلى كوبري التاريخ. في وسط الكوبري تماما توقفا، تحتهما مياه المحمودية صافية، أمامهما الأفق متسع فوق الميناء أبيض تجلله سماء زرقاء كبيرة، على شاطيء الترعة مساحات ضيقة مستطيلة مزروعة بالخضروات، جرجير وخس وطماطم وباذنجان وفجل بينها أكشاك صغيرة يعيش فيها أصحاب هذه الأراضي العشوائية. مجرد أربعة أكشاك في كل شاطيء اثنان منها. وأمامهما بالميناء تظهر أعالي السفن وأعالي الأوناش والشمس التي تغيب على مهل. خلفهما مرت ترام تتلكأ في سرعتها. كانت شبه خالية من الركاب.

ـ اسمع يا سليمان، أنا مظلوم ظلما بشعا في هذه لحياة.

قال ذلك محمود بإيقاع هاديء مؤثر، أو رآه كذلك فقال سليمان:

ـ ومن بالحياة ليس مظلوما يا محمود؟ الحياة نفسها ظلم. لقد قال أبو العلاء: تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد يا محمود..

فكر محمود قليلا ثم قال..

ـ الكلاب والحمير ربما تكون مرتاحة أكثر من بني آدم...

ـ لكنى لا أقصد ذلك يا محمود، الكلاب أيضًا تتعذب وتمرض وتموت ميتة الكلاب! والحمير كما ترى يعذبها بنو آدم أبشع تعذيب، إنما أقصد أشياء أعمق . . .

ـ أعمق!؟

تساءل محمود فى دهشة . . . كان يود أن يكون كلامه مدخلا مؤثرا لما سيحكيه لسليمان عن بور سعيد لكن . . .

ـ أجل ما أقصده أعمق جدا، يعنى لو لم تكن أنت موجودا مثلا هل كنت ستتألم من شىء؟

ـ لا .

أجاب محمود فى دهشة . الحقيقة أنه صار كالمأخوذ لا يفهم ولا يستطيع أن يرفض الإجابة على سليمان أو يحول الحديث إلى شىء آخر . قال سليمان :

ـ وجود الإنسان هو سبب ألمه . اضرب أى حائط بحجر أو حتى بالجزمة أو بالرصاص هل سيتألم؟

ـ لا .

ـ لأنه غير حى . جماد . حياتنا هى السبب . حياتنا هى الظلم الحقيقى لكننا لا نعرف إلا الأسباب العارضة الساذجة . .

انزعج محمود للغاية من الحديث وقال فى يأس . .

ـ يعنى لو كان الواحد حيطة كان أفضل!؟

ـ طبعا . لكن الأفضل هو ألا يوجد من الأصل .

ـ يعنى قصدك يموت!؟

ـ لا يوجد من الأصل يا محمود. هل تفهمنى؟. وما دام هو غير موجود فلن يحيا ولن يموت!؟

وسكتا. سليمان الذى يدرك أن هذه الأفكار السوداء تجتاحه منذ اختفاء چين، ومحمود الذى أصابه رعب حقيقى. لو لم يكن موجودا هل كان ذلك أفضل حقا؟ الله يخرب بيت أمك يا سليمان يابن ديك الكلب! ماذا أنتظر من فاشل يصطاد الضفادع ليبيعها للتلاميذ؟ ومرت من خلفهما ترام أخرى أكثر ثقلا فى الحركة فأحس محمود بصوت العجلات داخل رأسه، بل تدوس العجلات على مخه.. تبعثره. لقد جاء يستعين بسليمان فأسقط عليه جبلا من عدم الفهم. إنه الحظ السيىء يطاردك، يا محمود، وإلا كان المنتجون قد وافقوا على قصتك عن بور سعيد ولم يقولوا ركيكة. كانت ستكون خبطة كبيرة لو سبقت عز الدين ذو الفقار. لكنك قابلت فى القاهرة مجانين فى مكاتب الإنتاج، ولجأت الآن إلى المجنون الأكبر الذى أردت أن تعطيه قصة ملؤها الحياة والقوة والتضحية فأعطاك حديثا عن الموت وانعدام الوجود. ويقولون إن عيد هو المشعور!

ـ تعرف يا سليمان ماذا حدث لنا فى بور سعيد؟

ـ قرأت فى الصحف لكنى جئت لأسمع حكايتك التى ستكون أهم.

ـ لقد انهزمنا يا سليمان فى بور سعيد شر هزيمة ولا يجب أن نتذكر ذلك أبدا أبدا.. هيا نعود..

كلاكيت آخر مرة يا محمود.. لا يجب أن تقول قصتك لأحد. تذكرها ولا تنساها ولا تقلها لأحد.. أى أحد..

الخميسى، الطويل الضخم مثل باب يأخذنا بالليل. يعبر بنا فى

الظلام من المطرية إلى بورسعيد عبر بحيرة المنزلة. نحمل صناديق الذخيرة. نمشى بتؤدة كالجمال. الطائرات الإنجليزية والفرنسية تواصل الضرب. الضرب يتركز على الشاطىء حيث المدافع المضادة. «بروقة» إسقاط مظلى خبيث. ودمى بلاستيكية على هيئة جنود تسقط بالمظلات. البنادق تنطلق فى الفضاء من كل مكان. أكثر الرصاص يصعد من حى المناخ. لقطة مكبرة من أعلى للمدينة كلها وقد تحولت إلى أفواه تنفث النار إلى السماء. تنين بآلاف الأفواه. طائرات الأعداء تركز الضرب على حى المناخ. الحرائق تشتعل فى الحى كله. الفقراء يدافعون عن بور سعيد. الفقراء يموتون جملة تحت النار والأنقاض. المناخ حى الفقراء. صراخ بأن الحرائق تشتعل فى الشارع الثلاثينى. الناس تهرول إلى هناك. أرتال البشر تطفىء النار فى كل مكان. خراطيم وجرادل. رجال ونساء وأطفال. عويل وصراخ وبكاء ونداءات. إشاعات تنطلق بأن مظلات الإنجليز نزلت بحى الجميل، الناس تهرع بالمئات إلى حى الجميل. القذائف تنزل من السماء وهى تجرى إلى حى الجميل. الإنجليز لم ينزلوا إلى حى الجميل، شباب يمرون بالسيارات بين الناس يطلبون منهم ألا يستمعوا إلى الإشاعات التى يبثها الطابور الخامس.

من هؤلاء الشباب الذين يحاولون إرشاد الناس؟ إنهم الشيوعيون وجدوا لهم عملا. . حوار يتطاير فى الفيلم. . الشيوعيون يساعدوننا فى توزيع صناديق السلاح بهدوء ونظام. رجال المحافظة يتعاونون معنا.

واحد من رجال المحافظة لا ينسى أن يكتب أسماء الشيوعيين الذين يتعاونون معنا فى مفكرة صغيرة، لماذا يكتب أسماؤكم يا هاجوج؟ اسمه هكذا هاجوج. إبراهيم هاجوج. لطيف ولا ينسى. نوبى الأصل.

يقول لابد أنهم سيقبضون علينا بعد الحرب . ضحك . كلنا نضحك . منشورات تنزل من الطائرات . رجل مسن يقرأ المنشور «أين عبد الناصر وجيشه؟ لقد ترككم وحدكم للموت» . الرجل يصرخ فى الطائرات فى السماء . أنا الجيش . نحن الجيش . الجميع يهتفون خلفه . نحن الجيش . الهتاف يتكرر مثل كرة من نار يصعد إلى السماء ، يسمع قائدو الطائرات ، يقول أحدهم . . إنهم مصممون على المقاومة سيدى الچنرال . اضرب بلا رحمة . يقول سيده الچنرال . . هدوء يعم المدينة . الحرائق خمدت أو فى طريقها للخمود .

رائحة دخان وأثاث وحيوانات ولحم بشرى يحترق . أطفال تبكى فى الأزقة . نساء تبكى فى الأركان . خروج جماعى بأقل متاع . اللنشات تنقل الناس عبر بحيرة المنزلة . السيارات تجوب بورسعيد . أيها الناس لا تتركوا بلدكم ، اصمدوا وقاوموا . النساء تهرع إلى وسط بورسعيد بقمصان النوم . الرجال فى السراويلات الداخلية . من يلبس جلبابا من الرجال يخلعه يلقى به للنساء . الخامس من نوفمبر . تاريخ يملأ الشاشة . لن ننسى . الإنزال الحقيقى . لقد استولوا على حى الجميل والرسوة والملاحة . يشعلون الحرائق فى كل مكان يقابلهم . الخميسى يأتى إلينا بالأخبار فى مكمننا . كلما رأيته تذكرت أبواب القلاع الأثرية . هكذا وسط الضرب . اكتشاف جاسوس . الناس تلقى به من الدور الخامس إلى الأرض . مشهد سيكون مرعبا . يحذف . يكفى إطلاق الرصاص . الإنجليز يمشطون المقاهى فى شارع البحر . الضرب مستمر من الجو فى سائر المدينة . الجثث تملأ الطرقات . مازلنا نحارب بالبنادق من أكثر من مكان . نغير أماكننا بسرعة . الخميسى يرشدنا إلى طرق سرية دائمًا . الدبابات الروسية البرمائية تظهر على شواطىء بورسعيد . إشاعة أطلقها الجواسيس . الناس تجرى فى جنون إلى

البلاچ. يمتدون بالآلاف على الأرصفة، لقد ملأوا الشاطىء ليقابلوا دبابات الأصدقاء. رقص وفرح وأناشيد. تخرج دبابتان من الماء ترفعان العلم الروسى والعلم المصرى. كلاكيت ومؤثر ولابد أن يطول على الشاشة. العلم المصرى يرفرف والعلم الروسى يرفرف. صوت رفرفة العلمين يرتفع ويزداد ارتفاعا فى الفضاء. إنهم يصفقون فى جنون. الله أكبر تملأ الفضاء من حناجرهم الفولاذية. الكاميرا ترتفع على السماء. تصوير من أعلى. السماء صافية فلا طائرات الآن، ولا سحب رغم أن الجو شتاء. طيور النورس تحلق فوق الدبابتين، طيور بيضاء ودبابتان صفراوان وعلمان تبرق ألوانهما البديعة فى هذا اليوم الجميل. كل شىء يبدو على ما يرام، الدبابتان تتحركان بين جحافل الناس المجنونين بالفرح. ها هم الحلفاء الروس يأتون. احترقت المدينة لكنهم أتوا. الإنجليز انكمشوا فى الأماكن التى احتلوها. لابد أنهم يستعدون الآن للهرب. هكذا يكون الإنذار الروسى. خروشوف رجل شهم. لا تنس بولجانين صاحب الإنذار. أسماؤهم صعبة يا جدع لكن حلوة. روس. لكن فين روسيا دى يا بوعربى. روسيا؟! تقريبا فى روسيا. أى والله. ها ها ها. الضحكة تملأ الشاشة. كلاكيت آخر مرة. صوت القذيفة يدوى فى الفضاء. لقد تحركت ماسورة مدفع الدبابة أولا ببطء شمالا ويمينا. إنها تستعرض البشر انطلق المدفع ومعه القذائف السريعة من المدافع الرشاشة. صراخ. صراخ. الناس تتكوم فوق بعضها بسرعة الطلقات. الدم يملأ الشاشة. الدم ينفجر فى كل مكان. الدم يحفر أنهارا على الرمال. يتلاقى فى أكثر من موضع. تتلاقى أيدى القتلى تتماسك على الأرض بين الجثث. الدبابتان إنجليزيتان. كلاكيت آخر مرة للإنسانية. الناس تهرع فى الشوارع فى ذعر لم تره السينما من قبل. أقفز أنا على دبابة. أرفع غطاءها. وألقى

داخلها قنبلة. تنفجر. يفعل ذلك جندى آخر. تتوقف الدبابتان. لكن الموت يملأ الأرض بالجثث والدم. لا يزال الصراخ والعويل. الكاميرا تستعرض وجوه القتلى. كلهم يبتسمون. كلهم شهداء وفى أفواههم جميعا زهور الياسمين. ليل حزين ينزل على المدينة. اجتماع ليلى لنا مع عدد من رجال المقاومة. كتاب وصحفيون جاءوا من القاهرة يشاركون فى المقاومة. بينهم امرأة شابة تحظى باحترامهم. الزميلة أمينة. هكذا ينادونها. فتاة جميلة أخرى وسط رجال المقاومة. الفتاة تقوم بإغراء ضابط إنجليزى وتأتى به إلينا. يمشى خلفها واحد من رجالنا. فى زقاق معتم يقتل الإنجليزى.

لا. اشطب هذا المشهد يا محمود. مشهد قديم من أفلام قديمة. الزميلة أمينة تطلب توزيع السلاح على النساء أيضًا. توزع الخناجر والمسدسات على البيوت معنا. الإنجليز والفرنسيون يستغلون حظر التجوال ويصعدون إلى البيوت ليلا ليغتصبوا النساء. امرأة تصرخ فى الشرفة. خلفها جندى فرنسى يحاول جذبها. تلقى بنفسها من الشرفة. يسمع الذين فتحوا النوافذ صوت ارتطامها بالأرض. تهتز عدة مرات. قلبها يخفق من أجل أولادها وزوجها يا محمود. يا أيها السينمائيون الأغبياء لماذا لم يعجبكم مشروعى، لا يمكن أن يفعل عز الدين ذو الفقار فيلما على هذا المستوى. النساء يبكين خلف النوافذ. أصوات الرجال من بعض النوافذ. عاشت مصر. تسقط فرنسا وإنجلترا. تسقط إسرائيل. النوافذ تتجاوب. الصوت يملأ الليل بالنهار. الليل يصبح ضوءا أبيض. الليل أبيض يضيؤه صوت الناس. الصوت يطلع من الفم كأنه فتيل شمعه مضىء، تتلاقى الأصوات فى الفضاء فتائل عديدة، بالآلاف، فتضىء الليل؛ لا يحتاج الأمر إلى أكثر من مهندس فى الخدع البصرية أيها السينمائيون المحترمون! لكن المرأة لا تزال على الأرض. لا

يتقدم أحد لسحبها إلى البيت لدفنها فيما بعد. أحد الشباب يخرج بهدوء من باب المنزل يحاول اختراق حظر التجوال. يتلفت فى حذر يمينا وشمالا. يقف قليلا فوق الرصيف. يعيد التلفت. ينزل الشارع على مهل. الكاميرا تصور قدميه الواحدة بعد الأخرى وهى تلتقى بالأرض. الكاميرا تسقط على بندقية جندى فرنسى خلف أحد السواتر الرملية البعيدة. البندقية تتحرك فى اتجاه الشاب. الشاب لا يزال يتلفت حواليه. قطة تمشى أمامه بهدوء تنونو. يرتفع مواؤها. تبدو كمن أصابها مس من الجنون. يظهر كلب ضخم قادما من نهاية الشارع. إنه يطارد القطة التى راحت تجرى. قطع على الشاب يقف مرتبكا، ثم قطع على فوهة البندقية تخرج منها رصاصة ودخان. صوت الرصاصة يدوى فى الصمت. الكاميرا تمشى ببطء. لابد أن المتفرجين الآن يتوقعون رؤية الشاب ميتا، الكاميرا تقف فوق الكلب صريعا يقطر دما. قتل الجندى الفرنسى الكلب. ابتلع الشاب ريقه واستمر فى طريقه إلى المرأة. الذعر على وجوه الناس خلف النوافذ المفتوحة. ينحنى الشاب الذى وصل إلى المرأة يحملها. يقف وسط الشارع يدور بها حول نفسه. الناس خلف النوافذ تصفق بجنون. يمشى حزينا وهو يحملها بين ذراعيه فى اتجاه المنزل الذى سقطت من شرفته. التصفيق لا ينقطع. قطع. الكاميرا على فوهة البندقية تتحرك فى اتجاه الشاب. الشاب يمشى بهدوء. التصفيق يزداد كلما اقترب من المنزل. مسافة أمتار قليلة لكنها احتاجت إلى وقت طويل. الإحساس بالوقت فى مشهد كهذا لا يكون إلا كذلك. وقت طويل لا يمر. يصعد الشاب الرصيف بالمرأة. يصل إلى الباب. تدوى الرصاصة، تصيبه فى ظهره. يظهر الألم على وجهه. رصاصة أخرى. لا يترك المرأة. يمشى والتصفيق يزداد. لقد دخل إلى المنزل واختفى وازداد الرصاص المتجه إلى المنزل. الكاميرا تنزل إلى

أسفل من الباب. خيط من الدم يخرج منه إلى الرصيف ويمشى فوقه على مهل. على مهل. على مهل. كلاكيت آخر مرة يا محمود. لا الإسكندرية ولا القاهرة ولا الجمهورية العربية المتحدة تصلح لك. لو ذهبت بفيلمك هذا إلى هوليوود لاشتروه منك. أجل. هوليوود ولا أقل يا محمود..

نهض واقفا فى حالة من الحزن الشفيف. حزن أقرب إلى الفرح. لا يعرف. خرج دون أن يكلم أحدا من أسرته. سأل نفسه وهو يمر من أمام أبيه هل يعقل أن يظل حتى هذه السن بلا عمل ثابت. هل يتفق أن يظل حتى هذا العمر ينتظر ثمن السينمات من أبيه العامل المسكين؟ ما الذى قذف فى قلبه حب السينما؟ ملعون أبو السينما. إنه لم يجد حتى الآن أى فرصة أبعد من كومبارس وسط المجاميع. هل يكفى كون أمه قد ورثت قيراطين فى البلد يصلها عشرون جنيها ريعا لهما كل عام ليصبح هو من العاطلين بالوراثة؟. لكن ماذا يفعل وقد فشل فى كل عمل حاوله منذ أن اشتغل مع يوسف شاهين فى فيلم ابن النيل. منذ ذاك الوقت وهو يشعر بنفسه شخصًا مختلفًا عن كل الناس. من الذى أتيحت له أن يحمل شعلة ويجرى بها وسط الظلام فى الريف ساعة الفيضان مثله؟. يا لها من ليلة تم فيها التصوير. يا له من مخرج يوسف شاهين هذا الذى جعل ذلك كله يظهر فى السينما كأنه حدث فى وقت واحد!. لن يتنازل محمود ويعمل أى عمل آخر غير السينما. حتى لو ظل كومبارس، فسيأتى اليوم الذى يسيطر هو فيه كمخرج على كل هؤلاء الذين أهانوه وسخروا منه.

أخذ طريقه إلى دكان العنيبسى. كان الوقت بعد الظهر. نساء كثيرات يخرجن من القبو الآن بعد شراء السمك ويسرعن خوفا من أن يدركهن الظلام. محمود القزعة مشغول فى إعداد صناديق السمك

الذى سيشحن إلى المدينة وتغطيتها بقطع الثلج الذى يقوم بتهشيمه بمطرقة خشبية معه عماله الثلاثة الذين يقف وسطهم يمسك بيده «السنجة» الحديد التى يسحب بها ألواح الثلج من الكشك الذى يملكه على رأس السلالم المؤدية إلى القبو ويحتفظ فيه بالثلج. كان الجالسون الذين تعودوا ذلك كل يوم فى مكانهم، بينهم تاجر البهار فى حالة من الصمت العميق. مرت ثلاث نساء خارجات من القبو صاعدات السلالم ثم أخذن طريقهن إلى اليمين فى اتجاه المعدية. كن ملتفات بالملاءات، ويمشين على مهل، ويتمتعن بأرداف عالية ضخمة عجيزة كل منهن قد انفلقت فلقتين عاليتين ترتفع الواحدة وتنخفض الأخرى أثناء المشى فى توقيع رتيب ومثير لمحمود القزعة الذى ظلت عيناه معلقتين بالأرداف الصاعدة الهابطة فاتحا فمه عاجزا عن التعليق. انتفض فجأة لأن السيجارة التى بين إصبعيه كانت على وشك الانتهاء فأحرقته. نتر يده نافضا السيجارة بعيدا فضحك تاجر البهار ووقف عدد من العمال ينظرون إليه بدهشة كاتمين ضحكاتهم فهتف فيهم محمود القزعة «اشتغل يابن ديك الكلب أنت وهو» وفوجىء محمود الملاح بتاجر البهار يوسع له مكانا إلى جواره.

ـ تعال يا سى محمود، اجلس جوارى، شايفك على غير ما يرام.

ما إن جلس محمود الملاح حتى باغته تاجر البهار:

ـ كم يكفيك لصنع فيلم يا سى محمود؟

ارتعشت شفتا محمود. ارتعشت أرنبة أنفه. أوشك أن يسب تاجر البهار ظانا أنه يسخر منه، لكن تاجر البهار قال فى سرعة:

ـ لا تزعل هكذا. لا تستصغر شأنى.

عاد محمود إلى هدوئه وقال:

ـ أنت رجل طيب يا . . . .

ـ فلفل . اسمى فلفل . معقول إنك نسيت اسمى ياسى محمود . أهكذا ياسى محمود . لا تنس اسمى مرة أخرى بالله عليك ، أنا أحبك وأحب طموحك . الفلفل أثمن البهارات فى الشرق .

بدأ محمود يبتسم واستمر تاجر البهار يتحدث :

ـ كان لى صديق اسمه «البن» . عمل مشكلة مع واحد جاره . أخذوه إلى قسم البوليس . هل تعرف ماذا فعلوا به؟ .

ـ ضربوه طبعا .

ـ ياليت . طحنوه ! !

ضحك محمود الملاح بشراسة ضحك تاجر البهار . ضحك الرجلان الجالسان لا يعرف أحد عنهما شيئا . ضحك رجال محمود القزعة الذين لم يسمعوا الحوار ! راح محمود القزعة يقاوم الضحك . لم يسمع شيئا ويرى أن هؤلاء الجالسين بلا عمل يفسدون متعته فى الفرجة على النساء .

كانت امرأتان تصعدان السلم ، جذبتهما الضحكات ، فالتفتتا ناحية تاجر البهار وابتسمتا .

ـ هيا . تعال معى ياسى محمود . الليلة منجة !

قال ذلك تاجر البهار وهو يقف يشد محمود الملاح من ذراعه فوقف ومشى معه كالمسحور .

ـ لا تتردد ولا تخذلنى . مضى شهر الآن وأنا أراقب هاتين المرأتين فى حضورهما . لا يمر أسبوع إلا وتأتيان لشراء السمك . تفاهمت عيوننا على كل شىء . إنهما كما ترى بطتان حقيقيتان . انظر إلى

ظهر كل منهما كيف أبدع الله فى تقسيمه فما بالك لو انكشفت البطن أمامك؟ ولا هند رستم ياسى محمود.

كانت المرأتان فى طريقهما إلى المعدية وخلفهما يسرع محمود الذى أمسك يده تاجر البهار!.

عند الفجر. وبعد أن عاد محمود الملاح إلى المساكن، لم يكن قادرا على تصديق ما جرى. لم يكن يتصور أن لتاجر البهار هذه القدرة الساحرة على اصطياد النساء. كان يعرف أن كل الجالسين جوار دكان العنيبسى ضائعون يتحدثون كثيرا عن النساء، وحديثهم ليس إلا من قبيل الفشر الذى يلازم الفاشلين. لكن الليلة سقطت امرأتان معا فى فخ تاجر البهار الذى ظل ينصبه طيلة شهر كامل كما قال له. لقد ركبا معهما المعدية فبادرهما تاجر البهار بكلام لا يذكره محمود، ولن ينسى كيف اتسعت عينا المرأتين بالفرح والدهشة والرغبة معا. لكن محمود كاد يضحك وهو يسمع تاجر البهار يقول لهما «شهر كامل أقول لنفسى يا ولد يا فلفل لا تيأس من رحمة ربنا»..

لقد بدا أنهما تآلفا من قبل هذا اللقاء. مشوا جميعا إلى كوم الشقافة ثم عبروا الحى كله إلى شارع الرحمة. ياه. مشوار طويل. دا أنتم كنتم اشتريتم سمك من باب عمر باشا أقرب!. ربنا قاسم تيجوا الملاحة ونقابلوكم.. قال تاجر البهار والمرأتان الصغيرتان لم تطلبا منهما نقودا ولا أى شىء آخر. محمود لا يعرف لماذا فكر فى ريا وسكينة وهما يمشيان مع المرأتين فى الأزقة الضيقة. ابتسم. ريا وسكينة لم تقتلا الرجال. دخلوا جميعا منزلا صغيرا منخفضا ظن محمود أنه جحر للأرانب لا أكثر. لكن فى الداخل كانت هناك ثلاث غرف واسعة. انفرد هو بالأصغر فى غرفة وانفرد تاجر البهار بالأكبر فى غرفة ثانية

وكان محمود يسمع أصوات لهاث فى الغرفة الثالثة التى رآها مغلقة الباب بقفل كبير فخاف أن يسأل وترك نفسه للمرأة الصغيرة المدهشة.

لقد أعطاه تاجر البهار شيئًا ملفوفا فى ورقة سيلوفان قبل أن يدخل بالمرأة الغرفة.

ـ ما هذا. بونبونى؟

ـ تركيبة سرية ستجعلك ترى ما لم تره فى حياتك.

أخذها محمود مترددًا. شجعته المرأة.

ـ خذها يا سى محمود، صاحبك عطار!

استحلبها محمود كما قال له فلفل، وشرب بعدها فنجانا من القهوة المحوجة كما قال له فلفل أيضًا، وصار لا يسمع صوت السرير القديم وهو يئن من أثر الحركة، بل يسمع صوت البيت كله يئن، سلالمه وجدرانه ونوافذه. وخشى أن تسمع البيوت الأخرى أنين البيت فتئن كل بيوت الحى تعاطفا ومشاركة للبيت فى أنينه فيتجمع الناس ويرون ما يفعلون وتكون فضيحة!. انتهى لكنه ظل منتعظا. كرر النوم سبع مرات حتى ضجت المرأة وتعبت وكادت تموت بين يديه. رأى وجهها بالفعل يشحب وتزرق بشرتها فارتفع عنها. خاف حقا أن تموت بين يديه وخرج مع تاجر البهار يمشيان منتعظين فى الطريق الخالى بعد منتصف الليل ويضحكان غير مصدقين.

ـ هل عرفت عنوان البيت؟

تساءل تاجر البهار فرد محمود..

ـ لا. هل عرفت أنت اسم المرأتين؟

ـ لا. لكنهما تأتيان إلى الملاحة دائمًا..

ـ شيء عجيب .

قالا ذلك معا وعادا يضحكان وهما يمشيان فى المدينة الصامتة . اقتربا من جامع العمرى ورأيا عددا من الناس يتجهون إلى صلاة الفجر . قبل أن يتجه محمود إلى شارع عمود السوارى داخلا إلى كرموز قال :

ـ متى سينتهى أثر هذه التركيبة السحرية .

ـ لا أعرف .

ـ لا تعرف؟ . هل سنظل هكذا أيضًا بالنهار؟

ضحك تاجر البهار الذى لم يكن يعرف أن أثر هذه التركيبة سوف يمتد طويلا هكذا . لقد اختلت منه المقادير فيما يبدو مع أنه يحفظ عن ظهر قلب كل وصفات كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه» .

تركه محمود ومشى وحده منتعظا فى الشارع الطويل الذى تضيؤه مصابيح البلدية العالية . على يساره سور المدافن وعلى يمينه المنازل البيضاء المنخفضة ومحلات القماش . معظمها محلات لبيع الأكفان وبعد أن اقترب من «سوق عُداية» رأى سيارة شرطة . .

لا بد أنها حملة قوية على تجار المخدرات . تأكد أنه يحمل بطاقته الشخصية . لكن . . . ماذا يحدث لو شاهد الضابط أيره المنتعظ فى البنطلون . مد يده داخل البنطلون محاولا وضعه بطريقة تقلل من ظهوره لكنه أخفق . ترك الأمر للحظ . وكان حظه هذه الليلة مختلفا عن حظه فى الحياة فلم يوقفه أحد من رجال البوليس ووصل إلى كوبرى كرموز بسرعة . عبره وأخذ طريقه إلى المساكن . كان يسمع صوت صلاة الفجر لا يدرى من أين يأتى . ولدهشته وجد سليمان جالسا على مقعد خيزران أمام المساكن . لماذا يسهر سليمان حتى هذا

الوقت؟ لابد أن لديه ما يؤرقه. سيلقى عليه التحية ولا يتوقف. لا. لا يليق. لابد أن يتحدث.

ـ صباح الخير يا سليمان.

ـ صباح الخير يا أبو حنفى.

ـ هل تعرف ماذا حدث فى بور سعيد يا سليمان؟

اندهش سليمان جدا. قبل أن يجيب قال محمود:

ـ انتصرنا على الدول الثلاث إنجلترا وفرنسا وإسرائيل. كنسناهم. لا. أكثر من هذا..

وقال الكلمة القبيحة وهو يشير إلى ذكره المنتعظ لا يزال..

(٥)

لم يصدق سليمان وهو يمسك الظرف بين يديه أن العالم يمكن أن يكون صغيرا إلى هذا الحد، طيبا إلى هذا الحد... رحيما..

ما المسافة بين مصر وأستراليا؟. هى المسافة بين أستراليا ومصر!. هى الذاكرة تنتصب فى بئر النسيان. قالت إن الخطابات ستنقطع بين مصر وأوروبا أو على الأقل ستُراقب. لم ينتبه أحد إلى استراليا. البيروقراطية المصرية أحيانا تكون مفيدة، أو لعل فى الأمر خطأ ما، إهمالا ما..

عزيزى سليمان:

مضى أكثر من عام لم تغب فيه عن ذاكرتى. لا يبدو أننا سنعود إلى مصر أبدا. أرسل لك هذا الخطاب ولا أعرف هل سيصلك أم لا. إذا

وصلك سوف أكون محظوظة لأنه سيؤكد لك أننى لم أنسك. أتمنى أن تكون قد التحقت بالجامعة، بالكلية التى تريدها. ليتك تقلع عن دراسة العلوم، وتلتحق بكلية للدراسات الإنسانية. هذا يقترب جدا من ميولك الأدبية. مصر بلد جميل لا يمكن أن أنساه. الإسكندرية أجمل مدينة فى الدنيا. هكذا يقول لى أبى دائمًا وأشعر أن ما يقوله هو الصواب. لقد تزوجت من دبلوماسى نابه. إنه يجلس جوارى وأنا أكتب لك هذا الخطاب. نحن فى أستراليا الآن. إنه يندهش جدا أن لى صديقا فى مصر. يتصور أن مصر بلد للتماسيح تسبح فى النيل. مسكين لم يزر بلادكم. إننى أتابع أخباركم.

يحزننى جدًا أن عددا من الأجانب، الطليان واليونان، بدأوا يتركون الإسكندرية. سياسة التمصير لا تعجبنى. إن عبد الناصر زعيم وطنى كبير ومخلص ما فى ذلك شك، لكن بلادكم لا يمكن أن تعيش معزولة عن العالم. موقعها وتاريخها. أنا أعرف أنكم تريدون أن تمسكوا ثرواتكم بأيديكم، لكن لابد من طريقة صحيحة.. طريقة لا تسبب الإزعاج لجيرانكم فى أوربا التى هى الأقرب إليكم.. كذلك أقرأ عن الوحدة التى تمت بين مصر وسوريا. هذا أمر مهم وخطير.

لو توصل العرب إلى نوع من الاتحاد، مثل الاتحاد الأميركى، أو البريطانى، سيكون مفيدا. لكن... على أى حال. ننتظر الزمن. المهم أن تنتبه أنت لموهبتك وتستمر فى الاطلاع على الثقافات المختلفة، وإذا فكرت يوما فى السفر إلى إنجلترا أو إلينا هنا فى أستراليا فيمكننى مساعدتك كثيرا..

المخلصة

چين بانكروفت

لم ألتحق بالكلية التى أريدها يا چين. لقد تم تسريب الامتحانات قبل موعدها هذا العام. اكتشفت الدولة ذلك فتم تأجيل الامتحانات لمدة شهر.

فى ذلك الشهر أصابنى رمد خبيث لم يعطنى فرصة المراجعة. لكننى لم أتخلف عن الامتحان. صممت على النجاح. تم توفير لجنة خاصة لى وتخصيص شخص يكتب ما أمليه عليه من إجابات، فى منتصف الامتحان أصابتنى حمى لعينة فكان إخوتى يحملوننى كل صباح ملفوفا فى بطانية صوف رغم الحر داخل تاكسى حتى لجنة الامتحان. كان واضحا أن الرجل الذى أمليه لم يعد يكتب لأننى كنت أخرف بأى شىء، بل بأشياء غريبة لا علاقة لها بالعلم ولا بمناهج الدرس.

هكذا قال لى مراقب اللجنة وهو يسوق الأعذار للرجل الذى تم تخصيصه ليكتب لى. كنت على يقين أننى لا أخرف وإنما هو الرجل المخصص للكتابة يكتب غير ما أمليه عليه. هكذا أحكمت المؤامرة ضدى من القدر والناس فرسبت. هذه هى المسألة ببساطة يا چين. هل أكتب إليك ذلك. ماذا يفيد؟

كنت بدأت أنسى، وأسلى الوقت الجميل الذى أمضيته معك. أحاديثك الرائعة عن د. هـ. لورانس الذى لم أكن تعرفت عليه. كيف حقا لم أقرأ د. هـ. لورانس؟ أحب الوجوديين الفرنسيين. وهل الجنس ليس حالة وجودية؟ أنا لست ضد التفسير الجنسى للحياة، لكن يبدو أننى لم أنتبه إلى أهمية ذلك. ألم يسبق لك الحب يا سليمان؟ للأسف لا. لماذا؟ لا أعرف. هذا سؤال لم يخطر ببالى. ربما انغماسى فى القراءة. الحب يحتاج إلى وقت. هى القراءة يا سليمان حقا، لابد أنك أحببت قصص المحبين. هو كذلك بالضبط، تضحك وتلمع عيناها

وتهز رأسها فيمرح شعرها فى كل اتجاه. أحببت رواية آلة الزمن جدا، إنها أيضًا أقرب إلى مشاعرك الوجودية. ربما.. من الصعب جدًا أن يجد الإنسان نفسه فى عصر آخر وبين ناس آخرين. شعور بالغربة عميق، والدهشة أيضًا. أصعب منه أن يكون كذلك فى عصره وبين أهله. أفكارك تميل إلى التشاؤم يا سليمان. ربما هو عمِّى الكاتب الفاشل الذى ترك البلاد بحثا عن سراب اسمه الإمبراطورية المصرية فى إفريقيا. يا إلهى يا عزيزتى چين. لقد أيقظت فىَّ الحياة. إننى عاكف على كتابة مسودات روايتى الكبيرة عن الإسكندرية التى تحبينها. أجمع لها المادة من الصحف. مادة عشوائية لكنها تعكس روح العصر. فمثلا اهتم جدا بخبر مثل احتفال جريس كيلى بعيد الميلاد الأول لطفلتها كارولين، وبالرقصة الجديدة التى أطلقت عليها نعيمة عاكف اسم «حسن» فى فيلمها الجديد «أحبك يا حسن» كذلك بازدياد المبيعات من الملابس الداخلية ماركة النبلة للجنسين، وبعرض سينما ريالتو بشارع صفية زغلول لفيلم «الأمير والراقصة» لمارلين مونرو ولورانس أوليفييه، وظهور أعظم فيلم سينمائى مصرى بعنوان «رُد قلبى» بالألوان الطبيعية، وكيف قتلت سيارة الرفق بالحيوان طفلا فى محرم بك حين انفصل الجرار عن السيارة وصعد على الرصيف فقتل الطفل وأصاب أربعة من المارة، وكيف بلغت أسعار الذهب أربعمائة وستين قرشا للجنية عيار أربعة وعشرين قيراطا، وحادث التسمم الفظيع لسكان القاهرة بسبب الخبز والتحفظ على الدقيق المستخدم وفتح جميع المستشفيات العسكرية للمصابين، وطلب إمام اليمن الانضمام إلى الوحدة بين مصر وسوريا، ولقد شاهدت فيلم «ستشرق الشمس أيضًا» المأخوذ عن رواية هيمنجواى البديعة التى أحبها جدًا والتى مثلت فيه أفاجاردنر مع تايرون باور. لقد عرضته سينما مترو بالإسكندرية

وكلفنى الفيلم ربع جنيه كاملاً، التذكرة والمواصلات والكوكا كولا التى شربتها وسندويتشات السجق التى اشتريتها من المحل اليونانى المقابل للسينما وسيجارتين وينجز لزوم المنظرة أمام السينما وتلميع الحذاء فى محل لأول مرة فى حياتى أنا الذى أفعل ذلك دائمًا بنفسى وشراء مجلة «آخر ساعة» فى عودتى بالليل وجلوسى عند بائع البليلة بالمكسرات الشهير فى أول شارع عمر بن الخطاب من ناحية محطة مصر! إيزنهاور يجرى عاريا بين الولايات الأمريكية. وأسجل من أجل هذه الرواية التى أخطط لها كيف رأى مجلس الدولة أن رقصة الروك آند رول هى رقصة خليعة وجنس صاخب، ذلك أن محافظة القاهرة كانت قد طلبت من المجلس الفصل فى إباحة هذه الرقصة من عدمه فى الملاهى، وجاء فى مذكرة المحافظة، تمثل هذه الرقصة كأنما يستولى الرجل بقوته على المرأة بضعفها فيحملها ويدور بها وهى مستسلمة له خاضعة لإرادته ولا يزال يسيطر عليها بقوته حتى تتهالك بين يديه وتبدى من الأصوات والحركات ما يشعره باستسلامها إليه وعندما تصل المرأة إلى هذه الحالة تكون حركاتها قد كشفت عن ساقيها ـ وتفاصيل دقيقة فى كلام المحافظة لم تذكرها الصحف ـ ويتجمع من ذلك لدى النظارة فكرة الاستسلام الواقعى من المرأة إلى الرجل، ولا يمكن القول بأن كل المتفرجين قد استعد حياؤهم لتقبل هذا التعبير الملتوى عن الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة، حتى لو لم يكن فى هذا العمل جريمة من الناحية القانونية فلا أقل من اعتباره مغايرا لتقاليدنا وما يتمسك به ذوو الأخلاق من مقاييس اجتماعية للأدب بعامة. وقد جاء فى فتوى مجلس الدولة أنه يلاحظ أن هذه الرقصة لا يقوم بها المحترفون فحسب، بل يشاركهم فيها رواد الملاهى، الأمر الذى يستدعى سرعة إيجاد علاج للحيلولة دون التردى في مهاوى الفسق الذى قد تدفع إليه

هذه الرقصة، ولما كان موضوع هذه الرقصة يقوم على فكرة التعبير الملتوى عن اللذة الجنسية بين الرجل والمرأة، وإنها تدفع إلى استثمار الغرائز البهيمية، لذا نرى أنه يجب على الإدارة أن تمنع هذه الرقصة بالطريق الإدارى حرصا على الآداب العامة، فى الوقت نفسه بدأ عرض فيلم الملاك الصغير للممثلة الجديدة الجميلة ذات العينين الفاتنتين زبيدة ثروت واشتعلت الأزمة على الحدود بين مصر والسودان فى الجنوب وارتطمت طائرة مصر للطيران القادمة من بيروت بتل من الرمال جوار المهبط فاشتعلت فيها النيران، ولحسن الحظ ساعدت الرمال على إطفاء الحريق، لكن مساعد الطيار فتح نافذة الهبوط الاضطرارى وقذف بنفسه منها فجذبه الهواء نحو محرك الطائرة الذى كان لا يزال دائرا فقضى عليه فى الحال بينما نجا جميع الركاب وبقية الملاحين، وهاجمت قوات من البوليس السرى الأميركى فى ولاية فيلادلفيا دارين للعرض السينمائى تعرضان فيلم «وخلق الله المرأة» لبريچت باردو لما تضمنه من مشاهد خليعة.

ولا أنسى يا چين أن أسجل أحوالنا هنا. فلقد مر بالمنطقة مجنون جديد طويل جدا حتى يظنه المرء يمشى على شجرتين وليس ساقين. إنه يأتى من ناحية كرموز ـ عكس مجنون الغناء الذى عادة يأتى من ناحية كفر عشرى ـ ويمشى على مهل على الأرض الترابية للشاطىء ولا يمشى فى الشارع الأسفلتى أبدا ولا يظهر أكثر من يوم واحد فى الأسبوع، ويمشى عاريا تماما، على عكس مجنون الغناء الذى يرتدى جلبابا نظيفا ولو كان ممزقا من الخلف بسبب الاحتكاك بالجدران وصار يظهر كثيراً. المجنون الجديد لا يعترضه أحدا أبدا، ولا يحتج على عريه، وحين يقترب من المساكن يتخلى عن بطء حركته ويسرع جاريا كالريح فلا يكون هناك من سبيل للأولاد لإيقافه ولا يقذفونه بالحجارة كما يتوقع

منهم فى مثل هذه الحالات، ولا يعرف أحد السبب فى توقفهم عن متابعته فى كل مرة، لكنه قبل أن يسرع جاريا يكون قد فرد علما إنجليزيا صغيرا يحمله عادة مطويا على عصا قصيرة ويجرى رافعا العصا والعلم ولقد سميناه مجنون العلم. يقول محمود الملاح إنه كان لدينا مجنون واحد هو مجنون الغناء الذى كان فى الأصل عصفوراً ثم سخطه الله ليكون بنى آدم لذلك يحن للغناء، والآن صار لدينا مجنون آخر قادم من الحرب العالمية الثانية، من معركة العلمين بالتحديد، يتصور أن الإنجليز لا يزالون ينتصرون فى الحروب ولا يعرف أننا نكحناهم فى بورسعيد!! معذرة يا چين!! تشرشل العجوز جالس فوق ضفدعة فوق ساعة بيج بن. وظهر عامل جديد فى محل العنيبسى اسمه مرعى، أحول، أو أعور، على عينه الشمال نقطة بيضاء والسلام فيبدو دائمًا كأنما فى كدر أو غضب حتى وهو يضحك، لا يمر يوم إلا والعنيبسى ينهره ويزجره ويسبه لأنه ما إن تبدأ الإذاعة فى بث أغنية أم كلثوم فى الساعة الرابعة عصرا حتى يترك كل عمل فى يده، وأكثر ما يكون إعجابه بأم كلثوم وهى تغنى رباعيات الخيام رغم أن مرعى هذا لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولا يفهم معانى الرباعيات. أما تاجر البهار فقد اختفى هذه الأيام بسبب وصفة جديدة صنعها لمحمود القزعة. من قبل قدم له وصفة جعلته ينتعظ لعدة أيام حتى كاد يفقد صوابه خوفا وخجلاً. هذه المرة قال له إنها وصفة عادية ستنفعه لمدة ساعة لا أكثر إلا أن محمود القزعة جاء فى اليوم الثالث شاهرا سيفا قديما يحتفظ به عنده، وحافيا على غير العادة - قال فيما بعد إنه تعمد أن يكون حافيا حتى يلحق بتاجر البهار إذا فكر وجرى أمامه - وسأل أين ابن ديك الكلب الجبان فلفل مطحون؟ لكن فلفل لم يظهر ذلك اليوم ولا يزال رغم مضى شهر كامل على الواقعة. ماذا جرى يا معلم محمود،

والمعلم محمود القزعة لا يتكلم ويقسم أن يقطع فلفل مطحون إربا إربا ويرميه للقطط الضالة بدلا من السمك.

تسببت الوصفة فى ارتخاء القزعة الذى ظل يجاهد يومين كاملين وينتظر مفعولها، والآن جاء فى اليوم الثالث ليقتل تاجر البهار خاصة أن الانكماش الذى أصابه يزداد ساعة بعد ساعة وهو كلما تبول مد يده يبحث عن حيوانه فيجده قد تراجع إلى الخلف كثيرا حتى صار الرأس لصق البطن، ابن ديك الكلب الجبان تاجر البهار، يشتم القزعة ويضرب رأسه بيده، ولا يعرف ماذا سيحدث غدا وأين سيذهب الرأس بعد ذلك وهل يمكن أن يختفى ذكره إلى الأبد؟.

قال ذلك فى ثورة غضبه، وكان أولى به أن يدارى بلواه كما رأى العنيبسى، ولا يعرف أحد ما الذى جعل مرعى، العامل الجديد الأعور عند العنيبسى، يقول إنه سمع أن رجلا دخل المستشفى الأميرى منذ أسابيع تم تحويله بعملية جراحية إلى امرأة، وأن هذا الرجل كان قد لاحظ أن ذكره يتراجع إلى الخلف يوما بعد يوم.. تماما يا معلم محمود مثل حالتك وربنا يستر!!

كان مرعى يتحدث جادا محاولا تنبيه القزعة للخطر وللبحث عن تاجر البهار فلفل مطحون الذى يمكن أن يقدم له وصفة جديدة مضادة تنقذه، أو على الأقل يعرض نفسه على طبيب قبل أن يتفاقم الأمر، لكن القزعة كان آخر من يمكن أن يفهم هذا القصد لمرعى. قفز ومسك بخناقه، ورغم طول مرعى، إلا أنه فوجىء تماما وشُلت حركته، وراح القزعة يكيل له اللكمات فى وجهه واستطاع أن يتعلق فى رقبته بيديه ويسقطه على الأرض ثم جرى يمسك بالسيف الذى كان قد ركنه على جدار كشك الثلج وعاد ليهوى به على مرعى..

لكن ذلك لم يحدث. وقف خلق كثيرون بينهما لا يعرف أحد من أين ظهروا، توسط هؤلاء الخلق جميعا حبشي وأولاده الصغار الذين عجز الناس عن إحصائهم. هز حبشي رأسه وطوح شعر رأسه الناعم يمينا ويسارا ثم هتف:

- عليَّ الطلاق من بدرة لأكون قاتلك يا معلم محمود لو لمست هذا الرجل المسكين، هل لأنه وحداني تفترى عليه؟ هل لأنه فقير؟

جن جنون محمود القزعة فهجم بالسيف على حبشي الذى انحنى بسرعة حاملا القزعة على ظهره ملقيا به خلفه على الأرض كجوال فارغ. صفق الأولاد جميعا. أولاد حبشي وأولاد المساكن ووقفنا جميعا نتفرج على القزعة الذى جلس على الأرض مكسور الخاطر والسيف ساقط بعيدا عنه وعن حبشي الذى وقف غاضبا يقول:

- تريد تغلبنى يا قزعة؟ تغلب طرزان! عمرك شفت طراز انهزم فى السينما؟

وهز رأسه ومشى إلى الكشك وأولاده حوله عراة إلا من سراويلات قديمة أو شورتات ممزقة ثم قفز الجميع فى الترعة يسبحون، هو وهم خلفه بنات وصبيان. ليس فى هذا الصيف جديد، غير رسوبى الذى حدثتك عنه يا چين، ونجاح خير الدين وحصوله على الدبلوم التجارى وبدء بحثه عن عمل، ونجاح نسيم فى التوجيهية والتحاقه بمعهد زراعى فى بلدة تسمى مشتهر قرب بلدة أكبر تسمى طوخ. أسماء جديدة تدخل حياتنا هنا. لقد أقمنا لنسيم احتفالا كبيرا على المحمودية، سهرنا معه الليلة الأخيرة بالصيف قبل سفره لبدء الدراسة. قال إنه بعد أن ينتهى من سنوات المعهد سيسافر إلى كندا فى هجرة نهائية. الهجرة هى حلم حياته الآن. وفى الإسكندرية ليس هناك من جديد أسجله لك،

وللرواية التى أجهز لها، غير هذه المشاريع الكبرى التى تجرى بسرعة لشق طريق كبير من محطة الركاب بالميناء إلى ميدان المنشية، هذا الطريق الذى أطلق عليه شارع النصر، والذى يتم بناؤه على الطراز الأميركى. تلك العمارات العالية المستقيمة الصامتة الواجهات بلا حليات أو كرانيش أو زخرفة مما يتناقض مع جمال العمارة الكلاسيكية الأقرب إلى الباروك، بميدان المنشية.

كذلك يجرى العمل بسرعة لشق طريق سريع واسع فوق ترعة الفرخة يحمل اسم طريق قناة السويس يبدأ من الشاطبى وينتهى عند كوبرى محرم بك، وتقيم المحافظة على الضفة الشرقية منه مساكن شعبية بينما على الضفة الغربية العمارات القديمة لحى الرصافة الجميل كما تتم فى الإسكندرية الآن إزالة تلال كوم الدكة وفتح طريق صفية زغلول ليصل امتداده إلى محطة سكك حديد مصر. إنهم يتحدثون عن آثار يونانية أو رومانية ستظهر تحت التلال. وأنا لم أعد قادرا على المشى فى محطة الرمل أو المنشية كثيرا كما كنت أفعل من قبل إذ أتذكرك دائمًا ويأخذنى الأسى من كل جانب، ففكرت فى أن أساعد نفسى على النسيان، لا تؤاخذينى، وكلما ذهبت إلى ميدان المنشية، لا أجد فيه الضوء القديم الغامر، ولا الاتساع الكبير. المحلات معظمها مغلق معظم الوقت، والصيارفة ينكمشون إلى أقصى مدى، ويزداد الأولاد جامعى أعقاب السجائر ويقل باعة الفل والياسمين والمحلات الأجنبية فى شارع شريف تتحول واحدة بعد الأخرى إلى محلات قماش أو أحذية مصرية وتفقد للأسف كثيرا من نظافتها وبهجتها، أقول للأسف لأننا كنا جديرين بما هو أجمل من ذلك. لقد أخذنا ما نريد واسترحنا، أو اعتبرنا ذلك هو الهدف فى ذاته. ليتك ما صحبتينى للمحلات الأجنبية بهذا الشارع حتى لا أدرك الفرق. لكن لعل ذلك يكون مؤقتا.

المؤسف أن كل الناس فى المدينة تتحدث عن الإهمال والقذارة التى تصيب المحلات التى تركها الأجانب للمصريين، بمن فيهم المصريون أنفسهم الذين يديرون هذه المحلات!؟

عزيزتى چين، لقد لاحظنا غياب الديب، فعلى طول الصيف لم نلمحه عائدا من أسفاره. يبدو أنه صار يخبىء نفسه عنا، ولم يعد يسعدنا بحكاياته الخرافية. طبعا أنت لا تعرفين الديب وأنا لم أحدثك عنه... وأعلنت الصحف عن حضور المخرج الإيطالى ألسندرينى چوفريدو لإخراج أوبرا عايدة على سفح أبو الهول وألسندرينى هو زوج الممثلة المشهورة آنا مانيانى وهو مولود فى مصر فى العمارة رقم أربعة بميدان التوفيقية ومعنى اسمه بالإيطالية «أمان الله السكندرى» هكذا كتبت الصحف وأنا للأسف لا أعرف الإيطالية لأستوثق من ذلك، لألسندرينى عمارة يملكها فى شارع المرعشلى بالزمالك كتبها باسم زوجته السابقة أنامانيانى التى لا يستطيع أن يطلقها لأنه تزوجها زواجا كاثوليكيا. المدهش إنه تزوج من امرأة أخرى وله منها بنتان. والأكثر إدهاشا هو أن أنا مانيانى بدورها من مواليد الإسكندرية وأبوها مصرى ولقد فازت بالأوسكار هذا العام، كما لابد أنك تعرفين، عن دورها فى فيلم «وشم الوردة» التى مثلته مع بيرت لانكستر ذى الابتسامة العريضة التى تغيظ! مارلون براندو يخلع سروال چيمس دين!

كما ترين يا چين لا أتوقف كثيرا عند السياسة، تلك العاهرة التى أبعدتك عنى. ربما أسجلها، لكنى لا أحب أن أذكرها الآن وأنا أتحدث إليك. ويستهوينى الخبر العجيب عن استعداد أهالى البحرين لاستقبال أحد مواطنيهم بعد أن فُقد ثلاثا وثلاثين سنة. إنه ناصر بن على بن عمران، هذا اسمه، خرج يوما لصيد اللؤلؤ عام ١٩٢٥ ولم يعد. لم

يفكر أحد أبداً إنه قد يكون على قيد الحياة بعد أن خرج الصيادون فى رحلات كثيرة يبحثون عنه إلى أن تلقى عمدة بلدته، واسمها السر، وفيها من اسمها سر، تلقى برقية من أحد زوارق الصيد تعلن أنه تم العثور على الحاج ناصر فى إحدى الجزر الصغيرة المهجورة حيث كان يعيش على الأعشاب والأسماك التى يصيدها بشبكة صنعها من الأعشاب. بالضبط كما كان يفعل روبنسون كروزو فى الرواية الشهيرة. تم العثور عليه عاريا يغطى جسمه كله شعره الطويل من رأسه حتى قدميه. قال إنه طوال هذه السنين كان يرى السفن لكنه لم يستطع أن يلفت انتباهها إليه! أى عذاب هذا الذى عاشه الحاج ناصر كما أطلقوا عليه. يرى السفن أكثر من ثلاثين سنة ولا تلتفت إليه. يا للمأساة التى كتب على الإنسان أن يعيشها على الأرض. إن سوء التفاهم الذى يسود بين البشر، والوجود ذاته، ثم عدم الالتفات هذا، أقسى ما يدمر حياة البشرية.

هى أقانيم القسوة غير المبررة. وأنا على يقين من اكتشافى لأقانيم جديدة للعذاب البشرى. لا تؤاخذينى يا چين. إننى مندهش من مضى الحياة فهناك كل يوم جديد. ففى السينما المصرية تم اكتشاف وجهين جديدين فى قمة الجمال، نادية لطفى وليلى طاهر، وبدأ العمل فى تصوير فيلم جميلة بو حريد بإخراج يوسف شاهين الذى كان وراء حب محمود الملاح للسينما ومأساته أيضًا، ونشرت الصحف أول صورة لزعماء الثورة الجزائرية فى اجتماع سرى بالجبال بعد إعلان الحكومة المؤقتة. إنهم يحاربون فرنسا التى حاربتنا لأننا دعمناهم. يا لها من لعبة. وإليزابيث تايلور أرملة هوليود تعود إلى سرقة الأزواج، فلقد سرقت زوج ديبى رينولدز التى بكت وقالت إن ليز سرقت قلبها، وردت ليز، طبعا، قائلة إن زوج ديبى هو الذى سرق قلبها فماذا

تفعل. ليز لم تتجاوز السادسة والعشرين وتزوجت ثلاث مرات حتى الآن. وشادية تلتقى مع طليقها عماد حمدى لأول مرة بعد الطلاق فى فيلم إرحم حبى وزوجها الجديد يمنعها فتطلب الطلاق وتصر على الفيلم! . هذا الحب للحياة يحيرنى يا چين، لعلنى المخطئ. لقد حزنت جداً لوفاة تايرون باور الذى شاهدت له منذ أشهر فيلم «الشمس تشرق أيضًا» كما قلت لك والذى أعشق فيلمه القديم «دماء ورمال»، وأتوقف عن ذلك التسجيل الذى يبدو إنه لن ينتهى يا چين. إننى على يقين إنه سيعطى الرواية التى أخطط لها طعما جديداً. . يا إلهى لقد كتبت ذلك كله بالعربية. هل أترجمه الآن إلى الإنجليزية وأى رسالة هذه التى ستصل إلى أستراليا فى كل هذه الصفحات ومن يضمن لى أن جهة أمنية ما، لن تفتح الخطاب، وتقرأه، وتعتبر كل ما كتبته معلومات خطيرة، ما كان يجب أن أفضى بها لفتاة أجنبية يعمل أبوها فى الخارجية الإنجليزية؟ وابتسم من هذه العبارات العجيبة التى تتسلل منه وتتناثر وسط الكلام ولا يعرف معنى لها.

نحن نقترب من نهاية العام الميلادى الآن. سيكون مناسبا أن أرسل لچين كارتًا به صورة للإسكندرية وعليه تهنئة بمناسبة العام الجديد. لاشك أن الوقت الذى سيستغرقه سفر الكارت سيكون طويلا وسيصل قريبًا من نهاية العام وليس فى الكارت من ضرر. أما آخر ما أسجله الآن فهو أننى بالليل أمس كنت جالسا وحدى على رصيف الشارع كما تعودت عند فجر كل ليلة، عادة واظبت عليها منذ بداية هذا الصيف. ساعة من الصفاء نادرة تشبعنى بالمشاعر وتهدينى إلى أفكار جديدة لروايتى. كنت أفكر تلك الليلة فى أمر خير الدين الذى أصابه فجأة سعال شديد لعدة أيام احتاج بعده إلى الانتقال إلى مستشفى الصدر بكوم الشقافة لتظهر الحقيقة المؤلمة. خير الدين مصاب بالسل. كان خير

الدين قد صارحنى بحبه المكتوم للچونى التى يجلس بالنهار دائمًا عند الماكينة الحمراء منتظرا صعودها على السطح ليراها. فقط ليراها. وحدثنى عن رغبته بعد العمل أن يتقدم لخطبتها.

لم يحصل خير الدين على عمل بعد وسقط فى المرض اللعين. كنت أفكر فى هذه المفارقات التى لا تنتهى للحياة العجيبة التى يتصارع من أجلها الناس وبينما أنا جالس شاهدت عربة تاكسى تقف أمام باب المساكن وينزل منها لطفى السائح، ليس على عكازين هذه المرة، فقد شفيت ساقاه، ولكن بدا واضحا أن ذراعه اليسرى قد وضعت فى الجبس وإلا ما هذا البياض الذى يشق الظلام حول ذراعه المعلقة إلى صدره؟

(٦)

منذ بداية العام الدراسى، وكروان كلما توافر لديه قرش صاغ اشترى الجورنال، الآن هو تلميذ فى مدرسة طاهر بك الإعدادية بالورديان، يقطع المسافة القديمة بين السكك الحديدية حتى يصل إلى القبارى، ومن هناك يستقل الترام حتى المدرسة. يمشى وحده الآن فى الذهاب وفى الإياب. عيد انقطعت علاقته بالتعليم تمامًا، مصطفى الذى كان يسبقه بعامين التحق بمدرسة كوم الشقافة الإعدادية، عبده انقطع عن التعليم بشركة ستيا بالحضرة عاملا على ماكينة نسيج. إبراهيم بلك الذى نجح فى امتحانات القبول للمرحلة الإعدادية مثله، لم يوافق على الانضمام لمدرسة طاهر بك.. اختار مدرسة كوم الشقافة الإعدادية التى سبقه إليها مصطفى، وفعل ذلك أيضًا «زبيبة» أخو مصطفى. كروان لا يضايقه أن يذهب وحده إلى المدرسة. لقد لاحظ

أنه يمشي مستمتعا فوق «رصيف الباشا» الذى تأتى إليه البضائع وتحت ظلام السقف الجمالونى. هذا الاتساع فى الكون يجعله يفكر فى أشياء كثيرة جميلة، وكثيرا ما كان يراجع مادة اللغة الإنجليزية وهو فى الطريق ويضحك لأنه دائمًا يردد ما جاء فى درس الحريق «رجال الحريق يضعون السلالم على الحائط ويصعدون عليها لإطفاء الحريق» يكرر هذه العبارة ويحفظها عن ظهر قلب وكلما ابتعد عنها عاد إليها وهو مندهش من ذلك، ولم تنجح الدروس الأخرى التى يراجعها فى الطريق أن تنسيه العودة إلى هذه العبارة العجيبة. .

فى المدرسة الإعدادية الكبيرة الواسعة استمع لأول مرة إلى خطب سياسية فى طابور الصباح من مدرسى اللغة العربية يشجعون كل يوم شعب الجزائر فى ثورته، ويهاجمون النظام الحاكم فى العراق. بل لقد خرج لأول مرة فى مظاهرة كبيرة قادتها مدرسة الورديان الثانوية ومشت فى شارع المكس تنضم إليها كل المدارس، والمعهد الدينى الذى كان طلابه مميزين بين المتظاهرين بالجبة والقفطان والعمة والطربوش الصغير، ومن شارع المكس انحدروا إلى شارع السبع بنات ثم المنشية وهم ينددون بالاستعمار البلچيكى ويحيون لومومبا. المدرسة الإعدادية جعلت العالم أكثر اتساعا بالنسبة لكروان، خاصة أن هناك حصتين دراسيتين مخصصتين للقراءة الحرة. يدخل مكتبة المدرسة ويتركه المدرس يختار الكتب التى يميل إليها. انجذب كروان نحو قراءة الروايات. كثيرا ما كان يستمع إلى عازف الربابة الجوال الذى يأتى إلى المساكن بين الحين والحين. ثم إنه يحب السينما، ويحب القصص العجيبة للأفلام، وينتظر مع الأولاد عودة الديب ليحكى لهم حكاية جديدة. . كان طبيعيا بعد ذلك أن يشترى كروان الجورنال كلما توفر معه قرش صاغ.

كل يوم تقريبا تكون هناك حصة خالية غاب عنها مدرسها. يتجمع التلاميذ حوله يقرأون معه الجورنال. أثناء الدرس لا يستطيع كروان أن يمنع نفسه عن فتح الدرج والنظر إلى الجريدة ليقرأ جملة أو جملتين. يرفع طرف الصفحة التى تقابله ويقرأ ما يظهر فى الصفة التى تعلوها. هكذا دون ترتيب وكيفما اتفق. اليوم رفع طرف الصفحة فقرأ «انتقل إلى الأمجاد السماوية المقدس بشارة غطاس منقريوس ويقام القداس بكنيسة المرعشلى بالزمالك». «الذكرى السنوية لشهيد الشباب على على من أعيان نجع حماد» ترك الجريدة للحظات وانتبه إلى درس اللغة العربية. بعد لحظات عاد إلى الجريدة. أخذته أصابعه إلى صفحة الوفيات مرة ثانية. كان قد لمح صورة لامرأة جميلة ويريد أن يعرف هل ماتت هى الأخرى. تسمرت عيناه على الصورة الجميلة «بنتى جلفدان، اختطفك الموت فى ريعان الشباب ولن ننساك أبداً. لعل الله يعوضك بعريس من الجنة. أمك وأبوك وأخواتك شهرت ورجاء وثروت».

أغلق الدرج ولم يعد قادرا على الانتباه لدرس اللغة العربية اليوم. أحسن بحزن حقيقى من أجل صاحبة الصورة. أحس أنه يعرفها وتعرفه. عاد إليها من جديد يتأملها فى دهشة وعدم تصديق. وجهها مضىء وعيناها جميلتان. أنها فتاة حية وليست أبداً ميتة.. ولمح السطر الذى فوقه الصورة بقليل وقرأه. أخذته عيناه إليه. انتقل إلى رحمة الله على زين العابدين وستشيع الجنازة اليوم من جامع كخيا بعد صلاة الظهر. تغمد الله الفقيد برحمته ومنح أهله الصبر والسلوان..

عاد يقرأ الخبر مرة إثر مرة. الدم يرتفع إلى وجهه وتحمر عيناه إذ تصعد إليها دموع حارقة لا يستطيع أن يقاومها.. ثم.. انفجر بالبكاء..

ـ مالك يا إسماعيل؟

في المدرسة لا يعرفون اسم كروان الذى لقبه الناس به فى المساكن. لم يستطع أن يتوقف عن البكاء. راح ينشج بصوت جريح بعد أن أخرج الجريدة من الدرج وأشار إلى زميله وإلى الخبر. زميله هو الولد عيسى الذى يحب الموسيقى ويعزف على العود فى فريق الموسيقى. قرأ عيسى الخبر ورأى الدموع فى عينى إسماعيل فطفرت الدموع من عينيه أيضًا. كان المدرس يكتب على السبورة وشعر أن شيئًا غير طبيعى يحدث خلفه فلم يهتم حتى ازداد صوت البكاء فالتفت إليهم مندهشا:

ـ مالك يا ولد أنت وهو؟

كان التلاميذ فى الفصل كله ينظرون إلى كروان وعيسى متأثرين. تماسك عيسى وقال وهو ينشج نشيجا متقطعا.

ـ إسماعيل يا أستاذ أبوه مات.

اتسعت عينا المدرس من الدهشة. سكت لحظة ثم قال:

ـ مات؟. طيب لماذا حضرت اليوم يا إسماعيل؟

ـ لم أكن أعرف.

ارتبك المدرس. وبدت الدهشة على وجوه التلاميذ جميعا.

ـ طيب هل أتى أحد وأخبرك بذلك؟

أشار عيسى إلى الجريدة التى وضعها الآن فوق التختة وقال:

ـ مكتوب في الجورنال، فى صفحة الميتين!.

ـ ناولنى الجريدة.

قال المدرس فانتقلت الجريدة من يد إلى أخرى حتى وصلت إلى يد المدرس الذى تأمل الخبر وابتسم:

ـ قم يا إسماعيل واغسل وشك أبوك لا مات ولا حاجة .

رد عيسى بلهفة . .

ـ كيف يا أستاذ . اسمه فى الجورنال؟

راح التلاميذ يرددون نظراتهم بين المدرس وكروان وعيسى غير فاهمين ومرتبكين . قال المدرس .

ـ متى رأيت أباك آخر مرة يا إسماعيل؟

ـ اليوم صباحا .

ـ هذا الجورنال الذى يصلكم فى الإسكندرية فى الصباح يطبع ويوزع فى القاهرة بالليل . إذن الجورنال صدر وأنتم تأكلون أرزا مع الملايكة . يعنى الجورنال صدر وأبوك نايم يا إسماعيل .

بدأ كروان يشعر بشىء من الطمأنينة ، وبدأت عيون التلاميذ تتسع بالابتهاج ثم تساءل المدرس .

ـ ماذا يعمل أبوك يا كروان؟

ـ عامل فى السكة الحديد .

ـ طيب يا كروان بذمتك هل هناك عامل فى السكة الحديد يستطيع أهله دفع ثمن إعلان عن وفاته فى الجورنال . الإعلان هذا اسمه نعى والسطر فيه بجنيه كامل فى جريدة الأهرام هذه . يعنى النعى بمرتب أبيك كله .

ضحك الأولاد بصوت عال وضحك كروان لكن عيسى قال :

ـ طيب والاسم المكتوب يا أستاذ؟

على الفور قال المدرس :

ـ تشابه أسماء يا حمار. ثم إن الجنازة ستخرج اليوم من جامع كخيا، وجامع كخيا هذا فى القاهرة. ثم أنت يا عيسى لماذا تبكى؟ إسماعيل يبكى أباه وأنت لماذا تبكى حقا. مشاركة؟ أم لأنك موسيقار حساس فاكر نفسك عبد الحليم حافظ؟..

ازداد ضحك الأولاد وضحك عيسى والمدرس الذى قال:

ـ على أى حال هذه فرصة أكلمكم فيها اليوم عن الصحافة ومهنة الصحافة، من يدرى ربما يصبح أحدكم صحفيا يوما ما..

إلى أى بحار مسحورة أخذهم هذا المدرس العجيب. قصير لكن معلوماته غزيرة جدا، فقير لكن هندامه نظيف، يلقى بالمعلومات المهمة فيجعلها كالطعام الشهى لا يريدون أن ينتهوا منه أبدًا.

جعل زمن الحصة يمر كأنه ثانية.. لم يشعروا بالأسف أبدا على انتهاء الدرس كما حدث اليوم. اكتشفوا أن للصحافة تاريخا من النضال الوطنى والإصلاح الاجتماعى، واستمعوا إلى كلمات جديدة لن تزول من عقولهم الخضراء!، وعرفوا أسماء رجال ونساء عظام مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ولطفى السيد وقاسم أمين ومصطفى كامل وسلامة موسى وطه حسين والعقاد ومصطفى أمين وعلى أمين وخالد محمد خالد ومحمد زكى عبد القادر وهدى شعراوى وروز اليوسف وفاطمة رشدى، وعرفوا أسماء صحف لم يسمعوا بها من قبل مثل المسامير والمنار والمقطم وكوكب الشرق والفجر الجديد والبعكوكة والزمان والأهالى، واستمعوا إلى قصص وحكايات ونوادر من حياة الصحفيين والممثلين والحكام، ومن أسماهم المدرس نجوم المجتمع. ثم فجأة توقف المدرس وقال: «مشكلة جرائد اليوم إنها كلها تتحدث بصوت واحد وعلى لحن واحد وبعازف واحد فهى جرائد لا لون ولا طعم لها ولا رائحة وأفضل صفحاتها هى صفحة الوفيات».

التلاميذ الذين لم يفهموا معنى هذا الكلام ضحكوا متأثرين بحماس المدرس الذى حين جمع أوراقه وخرج اشتاقوا إليه، وكأنه كان يعرف، التفت إليهم وقال، الحصة القادمة نكمل الدرس وغمز لهم بعينه وتركهم سعداء. أحب كروان القراءة وكان طبيعيا أن ينجذب إلى سليمان الذى يذيع صيته فى المساكن كقارىء ومثقف. رأى معه سليمان مرة كتابا؛ فسأله عن عنوانه. قال كروان:

ـ إنها مسرحية الملك الضليل لمحمود تيمور.

ـ ها. إنها عن امرىء القيس أشهر شعراء العرب.

وقف كروان مرتبكا. إنه لم يقرأ المسرحية بعد. قال سليمان:

ـ إنها مأساة حقيقية. الشاعر الغريب فى القبيلة، المهمش، والهامشى، اللاهى، العابث، الذى يموت غريبا كما كان دائمًا.

ظل كروان واقفا وقد ازداد ارتباكه. قال سليمان.

ـ مادمت تحب القراءة فابحث عن المعنى العميق لما تقرأ، إن لم تستطع الآن ففيما بعد يا كروان.

شيئًا فشيئًا لم يعد أحد يرى كروان فى الشارع. ربما يوم الخميس فقط والجمعة. اندهشت أمه وأبوه من اعتكافه فى البيت دائمًا للقراءة، لكنهما وجدا ذلك أفضل من الشارع، وبلغ من تركيزه على القراءة إنه صار يقرأ وسط البنات وهن جالسات حول أمه فى المساء يتحدثن ويستمعن للراديو أو يغنين. كان الحديث فى الأيام الأخيرة كله عن خير الدين، الأسمر الجميل، الذى أصابه السل فجأة. لقد راحت ألچونى فى هزال يوما بعد يوم. لا تأكل وبالكاد تشرب، حزنا على خير الدين. الجميع يعرفون إنه يحبها فى صمت، لكن أحدا لم يقل إنها تحبه. منذ أيام وقبل وصول البنات كلهن سمعها تقول لأمه:

ـ هل سيشفى يا أبلتى؟ .

ـ طبعا يا چونى، وغيره شفى .

ـ أمى تقول إنه لن يشفى . وإذا شفى هذه المرة سيعود المرض إليه . أمى تقول إنه نوع غريب من السل ينتقل بالوراثة . سل عائلى . وتقول إن أخواله ماتوا جميعا بالسل .

ـ . . . . . .

ـ ساعدينى يا أبلتى، أنا أحب خير الدين .

أمه لم ترد . نظرت إليه هو وقالت :

ـ كروان . إياك كلمة مما سمعته تقولها لأحد .

ألچونى تحت وطأة الحزن لم تفكر فى وجود كروان . لحسن الحظ لم يغب خير الدين أكثر من أسبوع . حالته بسيطة يمكن شفاؤها . هكذا قيل . عادت ألچونى إلى الأكل بشراهة . ظهرت على السطح أكثر من مرة فى اليوم الواحد، خير الدين صار فى الصباح يصعد إلى السطح يتأملها من بعيد وفى العصر يجلس جوار الماكينة الحمراء ينتظر صعودها ويبتسم لها وتبتسم هى أيضًا، لكن الأولاد صاروا يبتعدون عن خير الدين . السل مرض معد . هكذا عرف الجميع . لم يعد يقترب منه غير سليمان وكروان . . خير الدين بدوره صار يبتعد عن الكبار والصغار معًا .

خير الدين من هواة السينما الكبار، لكنه منذ صغره لا يتردد على السينمات الشعبية، يدخر من مصروفه ليدخل سينمات الدرجة الثانية . سينما ركس أو كونكورديا أو الشرق بالمنشية أو سينما الهمبرا أو بارك أو ماچيستيك أو ريتز فى محطة الرمل . كذلك سينما فؤاد وسينما بلازا بشارع فؤاد . راح يرشد كروان إلى الأفلام الجميلة منذ أن رآه يقرأ رواية

الوسادة الخالية «لإحسان عبد القدوس». قال له إن قصص إحسان عبد القدوس كلها تتحول إلى أفلام وكذلك قصص معظم الكتاب الكبار. وقال له إن معظم الأفلام الأجنبية أيضًا أصلها قصص عظيمة مثل «ذهب مع الريح». يعنى تستطيع أن تعرف من أفيش الفيلم، أو المقدمة السينمائية، اسم الرواية وتبحث عنها وتقرؤها فتكون قرأت أحسن القصص العالمية..

وجدها كروان فكرة ممتازة، فاندفع يشاهد الأفلام الأجنبية ويبحث عن ترجمات للروايات، وكثيرا ما وفق فى الوصول إلى الروايات المترجمة. قرأ وداعا للسلاح ولمن تدق الأجراس لهمنجواى بعد أن شاهد الفيلمين. وقرأ ديڤيد كوبرفيلد كذلك. كان يتمنى لو عثر على رواية موبى ديك بعد أن شاهد الفيلم لكنه لم يجد ترجمة لها، وهو لا يستطيع أن يقرأ بالإنجليزية جيدا، فهو من الجيل الذى دخل المدرسة بعد الثورة مع سياسة التعريب التى جعلت اللغة الإنجليزية لغة ثانوية. سيجعل من أهدافه فيما بعد تعلم الإنجليزية.. فاجأه خير الدين بدعوته للذهاب معه للفرجة على فيلم دراكيولا المعروض بسينما محرم بك والذى تتحدث عنه الإسكندرية كلها كفيلم للرعب أصاب أكثر من شخص بأزمة قلبية.

ـ المهم يا كروان فى هذا الفيلم أن تمسك أعصابك.

طوال الفيلم كان كلاهما يحبس أنفاسه. انتهى الفيلم وأضيئت السينما فرأى كل منهما الآخر شاحب الوجه من الفزع. خرجا إلى الشارع المضاء كمن يخرج إلى الدنيا من قبو عميق. أطلق كروان ضحكة فى الفضاء، كذلك فعل خير الدين ذو الصوت الأجش القوى، أسرعا بالمشى إلى محطة مصر.

ـ لا بد من طبق بليلة بعد هذا الرعب.

قال خير الدين فابتسم كروان وهما يسرعان . .

جوار عربة البليلة البيضاء، وفى الزقاق الصغير من أول شارع عمر ابن الخطاب من ناحية المحطة، جلسا وسط عدد من الشباب أمام المناضد الصغيرة فوقها أطباق البليلة يصعد بخارها إلى وجهيهما حاملا معه رائحة السكر والزبيب واللوز والفستق والبندق وجوز الهند والسمن البلدى. قال خير الدين إنه اليوم أسعد واحد فى الدنيا لأنه تسلم خطابا بالعمل فى شركة الحديد والصلب بحلوان، وأنه حزين لاضطراره لمغادرة الإسكندرية لكنه سيعود دائمًا فى الإجازات، ومن يدرى قد تفتح الشركة فرعا لها فى الإسكندرية يوما ما. إنه يعرف أن حلوان بعيدة، لكن جوها جاف ومناسب جدًا لصحته، ثم أن بها آبارا للمياه الكبريتية تعالج من أمراض كثيرة. ثم سكت قليلا وقال:

ـ هل تظن يا كروان أن ألچونى توافق أن تتزوجنى . .

كان كروان لا يزال فى دهشة من فكرة عمل خير الدين فى بلد بعيد عن الإسكندرية ففاجأه خير الدين بالسؤال، وهو سؤال كبير بالنسبة لكروان، ففيه يعترف له خير الدين بحبه ألچونى، وهذا يعنى أنه يعتبره على الأقل صديقا وفيا. تردد كروان الذى لم يجد إجابة بسرعة فقال خير الدين:

ـ منذ صغرى وأنا أحب ألچونى. حب أفلاطونى والله يا كروان. تصدق أنه جاءتنى فرص كتير أبوسها ولم أفعل. عارف يا كروان ألچونى بالنسبة لى مثل الشمس. الدنيا تنور ليس لما تطلع الشمس فى الصباح، لا، لكن لما ألچونى تطلع على السطح. ويا سلام يا كروان لما ألچونى تطلع على السطح بعد انقطاع المطر، تشعر

وأنت جالس عند الماكينة الحمراء بالدفء. لا تشعر ببرد أبدًا. نظرة منها فى الشتاء تخليك دفيان، ونظرة فى الصيف تصبح كأنك شربت سطل خروب كاملاً من عند باب شرق، ألچونى يا كروان هى البلسم. تعرف لماذا أنا شفيت بسرعة. لأنى أحبها. الحب نجانى من المرض. الحب قال لى قم يا خير الدين أقهر المرض وتزوج ألچونى. وألچونى صوتها جميل. طبعا أنت عارف أكثر منى لأنك جارها. البحة التى فى صوتها شىء نادر فى الستات ويا سلام لو شفتها وهى زعلانة، تصعب عليك يا كروان وتحس إنك لازم تكسر الدنيا حتى تسعدها. تعرف يا كروان أنى لما أشوفها أشعر بأن لا أنا ولا هى مكاننا على الأرض. أجل. ألچونى لازم يكون مكانها فى السما مع الملائكة وأنا معاها. يا سلام. الحب فعلا جميل يا كروان. .

كان كروان يستمع إليه بأدب جم، وبدهشة بالغة. للحظة رأى دراكيولا يقفز فى الظلام فاتحًا شفتيه مبديا نابيه المخضبين بالدم، إلا أنه بسرعة طرد هذه الصورة العجيبة التى لا محل لها أمام كلام خير الدين.

ـ لم تجب عن سؤالى. هل توافق ألچونى على الزواج منى؟.

اندفع كروان يقول:

ـ طبعا. إنها أيضًا تحبك. سمعتها تقول لأمى ذلك. .

عض شفته السفلى. لقد أفشى سرًا وعد أمه ألا يفشيه. أدرك خير الدين ورطته فقال وقد غمرته السعادة:

ـ لا تتضايق. كأنك لم تقل شيئا لى. أنا أيضًا اعترف لك بحبى لأنى أعرف أنك رجل. يقول لى سليمان إنك تقرأ كتبا مهمة.

هذا يعنى أنك عاقل عن الآخرين. ثم دعنى أفشى لك سراً آخر. إبراهيم مرسى يحب نادية سلام.. أجل. لا تندهش. إبراهيم نفسه حدثنى بذلك حين جاء يزورنى بالمستشفى. قال إن دخولى المستشفى عطل لقاءاتهما.

هل تعرف أين كانا يتقابلان؟ أمام حديقة المستشفى. إنه المكان الآمن لأن أحدا من المساكن لن يزور أحدا من المرضى. إبراهيم مرسى طول عمره لئيم - كان كروان يضحك غير مصدق - وأنا وعدت إبراهيم ألا أفشى سره، ولاشك إنك ستفعل ذلك أيضًا. لكن أنا عندى إحساس أن قصة إبراهيم ونادية ستفشل.

- لماذا؟

- لا أعرف. ربما لأن أهل نادية صعايدة وأهل إبراهيم فلاحين، ربما لأن إبراهيم نفسه غير واضح.

- لقد وجد عملا بكفر الزيات.

- أجل. بالدبلوم مثلى تماما. كان معى ثلاثة أعوام فى مدرسة تجارة محرم بك وأعرفه جيداً. يحب مصلحته فقط.

- أقصد إن العمل قد يسهل له الزواج.

- طبعا. مرتب تسعة جنيهات ليس بالقليل. أكثر من مرتب أب أى واحد فينا.

فكر كروان قليلا ثم قال:

- صحيح..

قال خير الدين:

ـ أنت والدك شاطر يعمل بالتجارة ويكسب لكن الباقين «ميزرا بل»!

ـ نعم؟!

ـ «ميزيرا بل»، بؤساء يعنى. ألم تشاهد فيلم البؤساء؟

ـ ولا مرة.

ـ إذا عرض مرة أخرى فى أى سينما لا تجعله يفوتك. رواية مشهورة أيضًا لازم تقرؤها وممثل الفيلم رهيب اسم چان جابان ـ وضحك خير الدين ـ ويقوم بدور البطل الهارب من السجن الذى اسمه چان ڤالچان.

بدا كروان مرتبكا لا يدرى ماذا يقصد بالضبط.

ـ يبدو أن اسم چان منتشر فى فرنسا.

سكتا لحظات طويلة. كانا قد انتهيا من أكل البليلة الساخنة الحلوة وقال خير الدين:

ـ أنا مندهش من المنطقة التى نعيش فيها. كلنا فينا شىء غير طبيعى. مجانين مثل عيد أو عندنا أحلام لا تتحقق مثل محمود الملاح وسليمان أو غامضين مثل العربى أو معرضين للآلام مثل لطفى السائح.

كذلك الناس الذين يأتون يجلسون عند دكان العنيبسى لا تعرف من أين يأتون، يخيل إلىَّ إننا نعيش فى مركز الأرض، ويأتى الصباح فنخرج كالنمل إلى كل جهة ثم نعود بالليل. العجيب أننا بمجرد عودتنا إلى المساكن لا نفكر أبدًا أن هناك دنيا أخرى أبعد.

لم يجد كروان شيئًا يقوله. نهضا ليعودا مشيا. طوال الطريق كان صوت أم كلثوم يسرى فى الليل مجروحا حزينا وهى تردد.

سهـــــران لـــــوحــــــدى

أناجــــــــــى طيـــفك الســـــارى

ســــــابــح فى وجـــــــدى

ودمـــــعى على الخــــــدود جـــــارى

العجيب أنه لم يكن هناك مقهى واحد سهران فى الطريق أو دكان، لكن الصوت كان يمشى معهما باستمرار..

(٧)

من جديد عاد إبراهيم مرسى ونادية سلام إلى اللقاء فى الحديقة أمام مستشفى الصدر. أخبرها إبراهيم بعمله الجديد كمحاسب بشركة الزيوت والصابون بكفر الزيات. كانت تعرف. لقد انتشر الخبر فى المساكن. لكن وجهها كان أصفر شاحبا، قال إنه لم يجد عملا فى الإسكندرية، قد يجد عملا مستقبلا. وإنه ليس الوحيد الذى فشل فى أن يجد عملا فى الإسكندرية، خير الدين أيضًا لم يجد عملا إلا فى حلوان.

شركة الزيوت لها فرع بالإسكندرية قد ينجح أن ينتقل إليه بعد عام. ثم إن المسافة من الإسكندرية حتى كفر الزيات ليست بعيدة. كفر الزيات أقرب من حلوان. نصف المسافة تقريبا. القطار يحمله فى ساعة ونصف إلى عمله. القطار العادى، القشاش، وليس الإكسبريس. يذهب ويعود كل يوم ولا يحتاج للبقاء فى كفر الزيات مثلما يحتاج خير الدين للبقاء فى حلوان. ثم إن ذلك أيضًا لا يكلفه شيئًا، فالشركة

تدفع قيمة الاشتراك السنوى فى القطار. الأمور إذن تمضى كلها بشكل طيب.

- لماذا إذن لا تتقدم لخطبتى؟ متى نعلن حبنا على الناس؟

أرادت أن تقول متى يمشيان فى مناطق أكثر نظافة وهواء أكثر نقاء بعيدا عن هذه المنطقة القريبة من الماضى.

- احتاج أن أدخر شيئًا من المال. لقد وجدت عملا وهذه هى البداية، لن نتأخر يا نادية، لا تقلقى.

- لكن خير الدين سيتقدم إلى ألچونى قريبا وليس معه شىء. كل الناس الآن تعرف حب خير الدين لألچونى.

- أنا لست مثل خير الدين.

- أنت تخفى عنى شيئًا يا إبراهيم..

كانت تفكر فى شخصيته التى يشوبها كثير من التردد والخوف. كثيرًا ما يبدو مضطربا يتلفت حوله فى الطريق. دائمًا لا يشارك الشباب ولا الصبية فى أى لعب. لم تره مرة جالسا مع من هم فى مثل عمره مثل خير الدين وسليمان ونسيم، ولا مع من هم أكبر منه مثل العربى أو محمود الملاح أو رشاد قبل أن يتزوج من فاطمة، كما لم تره جالسا مع من هم أصغر منه مثل كروان أو مصطفى أو بلك أو عبده. إنه لا يجلس مع أحد. يمشى دائمًا يتلفت كهارب من شىء. يلقى التحية مسرعا ولا ينتظر حتى الرد عليها. وجهه دائمًا أصفر بلا سبب.

- أمى بدأت تلاحظ الأمر. ترتاب فى خروجى المتكرر. فى صعودى على السطح بسبب وبلا سبب. أخاف أن تصعد خلفى مرة فترانى أكلمك أو تمشى ورائى مرة فترانا هنا. وأنا لا

أستطيع أن أحافظ على سرنا أكثر من ذلك. أحتاج إلى أن أعلن حبنا، أحتاج أن أفرح. أخاف أن يتقدم لى أحد من أبناء عمى فى الصعيد. ساعتها ولا كلمة. سيحملوننى إلى الحر والذباب والفقر، إلى بيت ملىء بالأطفال والنساء والرجال. سأموت يا إبراهيم.

لم يستطع أن يصارحها بأنه تحدث مع أهله بالفعل فى أمر خطبته لها. لقد رفض أبوه وأمه. لا قبل لهما بعائلة نادية. كيف؟ الأفضل أن تتزوج فتاة فلاحة من بلدنا. بنات العائلة كثير وأهل بحرى طيبون منكسرون أما الصعايدة فشىء آخر، أهل الجنوب قلوبهم صخر. لكنى أحب نادية وسوف أتزوج نادية وليس أهلها. نادية جميلة حقا. طيبة حقا. تبدو أحيانا عبيطة من فرط الطيبة، لكن الإنسان لا يستطيع أن يعيش مع زوجته ويقاطع أهلها. أخو نادية، سلامة، شرس ومجرم لا يعرف أحد له عملا، يخرج فى الصباح الباكر ولا يعود إلا فى منتصف الليل. له علاقات مشبوهة مع تجار المخدرات بجبل ناعسة بكرموز. يجلس طول النهار بمقهى سلامة الغلق. صحيح أن أحدا لم يتأكد من ذلك، لكن لا دخان دون نار..

لم ييأس إبراهيم. قال إنه يحتاج لبعض الوقت فقد يلين والديه، خاصة حين يجدونه قد ادخر ما يكفى للزواج. كيف يشرح لنادية ذلك. لابد أنها تفقد فيه الثقة الآن. لو حزنت نادية سيصبح الثور نفسه أمامها مثل دجاجة صغيرة!! ووجد نفسه يسألها..

ـ لو فرضنا أننى تقدمت إليك يا نادية ورفض أهلك؟

ـ سأشرب دى. دى. تى.

ـ ولو فرض أن أهلى لم يوافقوا؟

نظرت إليه صامتة. بدا أنها فهمت المغزى من السؤال. عيناها قالتا ذلك. يا لحماقته.

أمسك بيدها وهو يرى وجهها يكاد يشتعل بالتوتر والضيق قال مبتسما:

ـ ساعتها سأشرب أنا الدى. دى. تى.

لكنها لم تبتسم. فكرت فى حوادث الانتحار بالدى. دى. تى التى كثرت فى الإسكندرية. حوادث أغلب ضحاياها فتيات فشلن فى الحب وأكرهن على الزواج ونساء تركهن الرجال مع أطفالهن يعانين البؤس والفقر وذهبوا يبحثون عن نزواتهم. لكن الحادثة التى روعت المدينة كانت انتحار الولد والبنت من راغب. لقد رفض أهل كل منهما زواجهما بعد قصة حب عنيفة. جاء الخبر أن الولد انتحر بتناول مائة برشامة ريفو فخرجت البنت جارية من البيت وأمام أول ترام قادمة من سيدى كريم ألقت بنفسها تحت عجلاتها. مزقتها الترام التى حين توقفت كانت قد عبرتها. رآها الناس، جسدا ممزقا يرتعش على الأرض. صرخوا، صرخت الفتيات والنساء على الرصيفين. أغمى على أكثرهن، وفى الشرفات لم ينقطع العويل، من بعيد كان يأتى جاريا، الولد، الذى قيل إنه انتحر. لم يكن انتحر ولا يعرف أحد من الذى سرب للبنت الإشاعة.

واحد من أهلها، قيل ذلك فيما بعد!. واحد غبى أراد لها أن تنساه فقرر أن يفجعها فيه. واحد لا دين ولا رحمة عنده ولا أخلاق. واحد قاسى القلب جبان. هكذا قال الناس فى المدينة بعد ذلك. أتى الولد مسرعا ووقف أمام البنت مذهولا تسقط دموعه كالمطر. لم يكن أحد من الواقفين يعرف أنه حبيبها الذى انتحرت من أجله. فقط حين

صرخت فيه أمها «أنت السبب» وتعلقت بصدره تكيل له الضربات. فقط لحظتها عرف الناس أن البنت كانت تحبه. والأم التى كانت تضرب بكفيها صدره انهارت على الأرض. انسحب الولد صاعدا العمارة التى خلفه مباشرة. لم يكن أحد واقفا بالسلم ليسأله إلى أين يصعد. الجميع يقفون بالشرفات. لو أن شخصا واحداً قابله على السلم ما استطاع الولد الصعود إلى السطح الذى وقف عليه وسمع الناس صوته وهو يصرخ كطائر خرافى «سناء سناء» وجروا إلى كل ناحية لأنه كان يهوى إلى الأرض. اهتز رجفتين وسكت إلى الأبد. صار الشارع كله جنازا ولا يعرف أحد كيف انصرف الناس بعد ذلك. لقد تصالحت العائلتان ودفن الولد والبنت فى قبر واحد. كانت جنازتهما فرحا حقيقيا تسبقها الموسيقى والورود، وحين واروهما القبر انطلقت الزغاريد من عشرات النساء ووزعوا على المعزين الشربات والملبس والبسطة وأحضروا مأذونا عقد قرانهما وكان أب الولد وكيلا له وأب البنت وكيلا لها، ولما عرف المأذون أن الولد والبنت قد انتحرا انسحب بعد أن دعا للجميع بالصبر والرحمة ولملم أوراقه ومشى غير مصدق. يا للإسكندرية ولأهل الإسكندرية المجانين..

كانت نادية تبكى وتهتز ولا تستطيع أن تسيطر على نفسها. اندهش إبراهيم وارتبك وتلعثم فى الكلام.

- لا تقلقى يا نادية. أرجوك. قريبا جداً سأحسم الموقف. أجل. لا بد أن تثقى بى.

بدا جادا، ونجح فى إخراجها من حالة البكاء المفاجىء هذه. كان هو قد قرر لو فشل فى إقناع أهله تماما أن يهرب بها. لكن هل توافقه هى على ذلك؟ لم يشأ أن يسألها. ليؤجل ذلك. ليحدثها عن أى شىء

آخر . ليس غير القطار العجيب الذى يستقله كل يوم إلى كفر الزيات . حكايات ومشاهد، يمكن أن تدهشها، أن تجذبها بعيدا عن هذا الحزن المباغت. . . «القطار الذى أركبه يا نادية كل يوم غريب وعجيب، ولا ألف ليلة وليلة. زحام من ناس فقراء متعبين، وجوههم ممصوصة، ذقونهم فى العادة غير محلوقة، عيونهم بعيدة داخل رؤوسهم غائرة بشكل غريب، مليئة بالعماص، حمراء وحولها ورم خفيف. وكمية العاهات التى بين الناس يندر أن يراها أى شخص حتى ولو فى مستشفى للمعوقين. ناس كتع وعور وعرجان وبرصان. أى والله يا نادية. . . كانت هى تود لو تصرخ فيه أن يكف. كادت تتناثر قطعا من الضيق. ضربت الأرض بقدميها، وهو لا يزال يتكلم غير منتبه لحالتها. شردت عنه وتركته يتكلم فى الفضاء. فكرت فى الفيلم الجديد لعبد الحليم حافظ. فيلم حكاية حب، الذى تعرضه سينما ركس. لقد أخذتها نوال سراً إليه. شاهدته يوم الأربعاء الماضى فى حفلة الساعة الواحدة ظهراً التى تخصصها السينما للنساء فقط كل أسبوع، رأت الإسعاف تقف أمام باب السينما لتحمل الفتيات والنساء اللاتى يغشى عليهن. لقد تم عرض الفيلم لأول مرة منذ شهرين بسينما فريال. كانت الإسعاف تقف هناك تنقل النساء والفتيات إلى مستشفى الأميرى القريبة. نوال قالت إن قسم الاستقبال كان يستقبل على الأقل عشرين حالة كل يوم من جميع الحفلات. أكثر الإغماءات تكون عندما يقف عبد الحليم يغنى أغنية نار. كذلك حين يعرف أنه مصاب بمرض خطير سوف يميته بعد عام واحد. لكن حين يغنى عبد الحليم «فى يوم. فى شهر. فى سنة» قبل نهاية الفيلم لا يستطيع أحد السيطرة على الفتيات المغمى عليهن. . لقد شاهدت نادية الفيلم ولم يُغْم عليها، لكنها بكت بشدة، ورأت المناديل البيضاء تتحرك فى الظلام أمام كل النساء

والفتيات. لقد تحولت السينما إلى مناحة وهو يغنى الأغنية الأخيرة. وشاهدت عمال السينما يجرون فى الظلام بأكثر من فتاة يحملونها إلى الإسعاف. وإبراهيم لا يزال يتكلم عن هؤلاء الناس الذين بينهم أكبر نسبة من العور، ومن العميان الذين عادة تسحبهم صبايا جميلات فقيرات وفى كل محطة يصعد بشر غريب وينزل بشر عجيب، أما عدد الشحاذين فلا يمكن حصره، وكلهم ذوو عاهات، عددهن من الضخامة إلى درجة أن الواحد يتصور أنه هو الوحيد السليم فى هذا القطار، بل فى الشعب المصرى كله. واحد مجبس ذراعه وآخر مجبس رجله وثالث مجبس صدره كله أو عنقه وغيره رابط رأسه بشاش مغموس بدم وكلهم نصابون والناس تعرف ذلك لكنهم يعطفون عليهم بمليم أو نكلة أو حتى «برونزه» ونادرا ما يدفع أحد قرش تعريفه كاملا. أغرب واحد شفته رجل ثبت فى صدره بطرمان به مياه ويخرج من غطائه خرطوم رفيع يصل إلى فتحة أنف الرجل الذى كلما تنفس تحرك الماء. الرجل يمشى فى اتجاه ثابت لا يلتفت ولا يتحرك يمينا أو يسارا حيث إن هناك جبسًا حول عنقه. لا أحد يعرف حكاية البطرمان والتنفس من خلال المياه هذا لكنه رجل شاحب الوجه مريض بحق يكاد يكون جلدا على عظم وفى حزام بنطلونه ثبت حصالة من الصفيح يضع له الناس فيها الفلوس... وكانت نادية تفكر كيف حقا لا توجد بنت سعيدة فى المساكن. شوقية التى تزوجت تاجرا حملها إلى كفر الدوار تأتى الأخبار بأنه يضربها كل يوم هو وأهله وتغضب عند أمها أكثر الوقت لكن أباها يعيدها إلى زوجها صابرا يقول ليس فى سلو بلدنا بنات تغضب وتترك بيتها!، وأبلة نرجس فى نار لا تخمد من أجل ابنتها المرحة الجميلة التى لم تعد تعرف المرح ولا يشفع لها الولد الجميل الذى أسمته باسم جده على، عند زوجها وأهله. وحكمت المسكينة

جاءت لأول مرة منذ أسبوع تزور أهلها. رآها الناس تنزل من سيارة بيضاء كبيرة ودخلت المساكن تسبقها زفة من الأطفال راحت توزع عليهم البونبوني وتضحك. بعض النساء اللاتى رأينها تحسرن على شبابها، وبعضهن بكين بالفعل. أتت فى المساء عند أبلة نرجس. دخلت من الباب وألقت بنفسها فى حضن الأبلة. رأيناها وتأكدنا مما سمعناه فى الصباح عند دخولها المساكن. سامحينى يا أبلتى. سامحينى. كانت تقول ذلك لأبلة نرجس وتبكى ولا تزال فى حضنها بينما رأينا نحن كيف شحبت البنت الجميلة وغارت عيناها وذبلتا وكيف طال أنفها الصغير الجميل من فرط النحافة التى أصابت وجهها وأعجب ما رأينا هذا الانتفاخ تحت جفنيها السفليين وهذه الهالة السوداء حول عينيها. وأخرجت حكمت من شنطتها جلد الثعبان منديلا حريريا ملونا فخرجت علينا معه رائحة بارفان آسر وراحت تمسح دموعها. أنت بنتى يا حكمت كيف أزعل منك، وعلام أسامحك؟. واستدارت حكمت إليهن. سامحينى يا نوال. سامحينى يا نادية. سامحينى يا چونى. سامحونى كلكم. شوقية كيف حالها، اسمع أخبارًا سيئة.. كيف تعرفين؟. إخوتى يعرفون من الناس. لا شىء يمكن إخفاؤه هنا. قالت أبلة نرجس وهى تعض شفتها أسفا. ودخلت حسنة فزغردت. تعلقت بها حكمت وتعلقت هى بها. وأخبار بدرية. هل صحيح سافرت ليبيا. وأنت يا حسنة متى يأتيك ابن الحلال؟. يبدو أن أبناء الحلال انتهوا من الإسكندرية. يضحكن ثم لو كان الزواج سيجعلنى مثلك يا حكمت أو مثل شوقية فلا داعى أبدا. يتذكرن مشيرة. لا تزال على أمل فى عودة كامل. أبوها أقسم أن يزوجها لأول رجل يخطبها. مشيرة صارت «كالسلاَّية» من الحزن. لا تأكل ولا تشرب. ماذا جرى لنا يا بنات. تشربى شاى يا حكمت،

قهوة قهوة يا أبلتى قهوة سادة. عامله إيه مع جوزك. أدينا بنخبط فى بعض. نفسى أدخن سيجارة يا أبلتى.

وأخرجت سيجارة «كنت» من العلبة التى أخرجتها من الحقيبة وأخذت نفسا طويلا فى صدرها ثم نفثته بهدوء ياه يا حكمت. أنت بتدخنى ولا أجدع كييف. قالت حسنة. هزت حكمت رأسها. أنا أيضًا تمنيت لو دخنت سيجارة يا إبراهيم. لقد طالت قصتنا ولا يبدو أنها ستنتهى كما ينبغى. إبراهيم لا يزال يتحدث عن الباعة الذين هم سيرك وحدهم، يصعد بائع الشيكولاته ينادى القطعة بقرش تعريفه ولا يشترى أحد، الجميع يعرفون اللعبة، فهو يفعلها كل يوم، ويعرف أنهم يعرفون لكنه يعود ليفعلها. ينادى بعد ذلك الثلاث قطع بتعريفة ولا يشترى أحد، ثم الأربعة ثم الخمسة حتى يصل إلى العشرة فتشترى النساء ويوزعن ما يشترين على الأطفال الذين فى صحبتهن.

لقد اشتريت مرة هذه الشيكولاته، فلم تكن غير بسكويت مغموس بالشيكولاته، لا، ولا حتى بسكويت، كانت شيئًا لا أستطيع أن أحدده بالضبط. لقد أصابتنى بإسهال لمدة يومين ولم أعد إلى شرائها، لكن الباعة لا يزالون يصعدون والنساء والأطفال لا يزالون يشترون ويأكلون ولا أحد اشتكى من الإسهال. أما باعة البرتقال واليوسفى فهم فيلم آخر. نادية لا تزال سابحة فى أفكارها تحاول ما استطاعت ألا تستمع إليه. لكن صوته اخترق الحجاب الذى صنعته لمشاعرها وتيار أفكارها...

تمنيت لو دخنت سيجارة وأحسست بالمتعة من التدخين وأن رأسى صار متزنا ومزاجى صار منسجما وتمنيت لو أفعل ذلك وحدى على شاطئ البحر فى ليلة شتوية أو على السطح فى المساء ولا يرانى أحد،

ليس خوفا، لكن كى أتنهد بعمق، وألقى بالدنيا خلف ظهرى. وقلت التدخين حلو يا حكمت؟ قالت سلوتى الوحيدة يا نادية، وباعة البرتقال واليوسفى يحمل الواحد منهم قفصا به برتقال ويوسفى يضعه على الأرض فى الطرقة بين المقاعد وينادى الخمسة بشلن، ولا أحد يشترى، ثم الستة والسبعة وهكذا حتى يصل إلى العشرة ولا أحد يشترى، طيب خمستاشر آخر كلام، لكن لم نعد نرى زوجك فى الملاحة كثيراً. افتتح محل سمك كبيراً بالميدان بالمنشية، ويقف البائع عند هذا الرقم لا يتزحزح، لا تحدثونى الليلة عن زوجى. أريد أن أستمع إليكم. نادية مالك نحيفة هكذا؟. ألا تأكلى؟. لا أرد. طيب عشرين آخر كلام بشلن، ويبدأ الناس فى الشراء ويقفز البائع على الرصيف بالقفص الذى صار فارغا فيصعد بائع آخر بقفص آخر، أنا مضطرة أمشى، ولا أستطيع أن أسهر معكم البيت بعيد والسائق لابد أنه قلقان. عندك سائق يا حكمت؟. قطيعة! سائق وجاسوس، بعد باعة البرتقال يصعد باعة ألعاب الأطفال، طيب ألا تسمعى أغنية من نوال. ياريت متى يا نوال نراك مع شادية وفايزة ونجاة فى حفل أضواء المدينة؟ الدكتور أحمد يقول إنه سيساعدنى كثيراً فى الوصول إلى الإذاعة، يزداد اهتمامه بى هذه الأيام. يا بختك يا نوال، ولعب الأطفال إما صفارات أو زمامير ومراوح من ورق، ياريت تغنى لى حاجة لأسمهان يا نوال. أهوى مثلا. لأنك تشربى قهوة يا حكمت؟. تقول حسنة. نضحك. طيب ناولينى الفنجان تمسك به نوال. هكذا كانت تمسك به أسمهان فى الفيلم.

لقد ماتت قبل أن تنهيه. أى فيلم يا نوال؟ فيلم «غرام وانتقام» ووقفت نوال فى آخر الصالة الصغيرة وتقدمت نحونا وارتفع صوتها الجميل:

قـــــهــــوة. قــــــهــــــوة.
يـا مـين يـقـــــــول لـى أهـوى.
أســــقـــــيــــه بـإيدى قـــــهـــوة.
أنـــــا. أنـــــا. أنـــــا، أهـــــوى..

ولا بد من قيام معركة كل يوم بين واحد من الركاب وكمسارى القطار، فضلا عن الذين يصعدون فوق القطار ويتعرضون لحوادث.

أهوى القــــمــــر يسكرنـى ضـيــــاه
أهوى أقــــــضى طول الـليـل وياه.
يـخـلـى قـلبى فـى نـشــــــــوة
والـدنيــــــا هـمس ونجـــــــوى

وكثيرا ما يتم إيقاف القطار فى المحطات لإنزال هؤلاء الركاب الذين يستقلون سطح القطار ويتم القبض على أكثرهم. إننا نسمع أصوات أحذيتهم وهم يجرون فوق القطارات خاصة، غالبيتهم من عساكر الجيش يرتدون أحذية ثقيلة نشعر بها تدق على دماغنا.

يا لـلى تبـــــات الليـل ســــهـــران
من إيـدى لو تـشـــــرب فـنجـــــان
راح تـلقـى فـــــيــــــه الـسلـوى
والـدنيــــــا تصـــــــبح حلـوة

لكن لا تخافى يا نادية. لو حدث أنك سافرت معى مرة لن أتركك أبدا تركبين هذا القطار، سأحجز لك فى البولمان ديوانا خاصا. كثيرا ما أشاهد البولمان يمر بسرعة جوار قطارنا القشاش. ألمح وجوه الناس النظيفة السمينة وملابسهم الغالية، والنساء الأجنبيات يضحكن بسعادة وأحيانا أشاهد رجالا تقبل النساء أى والله.

إبعــــد همــــومك عـن روحك
إيه تجـنى منهــا غـــيـر نـوحك
والـدنيــــا دى إيـه تســـــوى
وإيـه تفـــــيــــد الـشكـوى

ـ كفاية يا إبراهيم.

قالت ذلك بهدوء. لقد تفصد عرق كثير على وجهها وجبينها رغم أننا فى نوفمبر والجو بارد. هتف إبراهيم قلقا:

ـ نادية. أنت تعبانة؟

ـ عد بى إلى البيت بسرعة.

ووقفت لكنها لم تستطع أن تتقدم خطوة واحدة. سقطت على المقعد مغشيا عليها، صرخ هو، نادية. نادية. يا نهار أسود. وجرى إلى سيدة تجلس بعيدا وحدها تمسك فى يدها بسلسلة بها كلب كانيش، كانت قد سبقته وأخرجت من حقيبتها زجاجة بارفان صغيرة قدمتها إليه. عاد مسرعا يضع الزجاجة التى فتحها تحت أنف نادية التى عادت إلى الوعى لكنها حين رأته صرخت صرخة طويلة كطائر يتم ذبحه فى الفضاء السحيق..

(٨)

استقلت نوال الترام رقم (٥) وهى لا تصدق أنها تفعل ذلك بنفسها. لكنها هى وليس أحد آخر من يجلس فى الترام المتجه إلى المنشية الآن.

ـ أنا لم أفعل ذلك من قبل يا دكتور أحمد!..

ـ أعرف، ولن تفعلى أى شىء غلط.

ـ أنا لا أغنى فى الأفراح ولا فى الحفلات . .

ـ هذا ليس فرحا ولا حفلة.

ـ احتفال برأس السنة يا دكتور أحمد ماذا تسميه؟

ـ احتفال خاص جدا مع مجموعة من الأصدقاء. ناس ستحبينهم للغاية. إنهم لا يصدقوننى حين أحدثهم عن صوتك وسوف يصدقوننى اليوم، وبالمناسبة بينهم ناس مهمون، صحيح لا يعملون فى الإذاعة لكن يمكنهم الوصول للإذاعة، ومن يدرى قد تصبح الإذاعة كلها لهم فى يوم ما، ولنا أيضًا!

ماذا كان يقصد بذلك؟ هل سيشترون الإذاعة مثلا؟. هناك شىء غامض فى هذا المشوار كان عليها أن تتبينه. سبق السيف العزل. لقد نزلت فى المنشية الصغرى الآن ولا معنى للعودة. وماذا يمكن أن يحدث؟ ليس لديها أى شىء لتخسره. فى العمارة المجاورة للعمارة التى بها محل رمضان شحاته أشهر بائع شنط فى الإسكندرية دخلت، تطلعت فى البداية إلى النوافذ العالية المغلقة. . هذه العمارة الجميلة فى الميدان الصغير لم تنتبه إلى جمال زخارفها وشرفاتها ونوافذها من قبل؟ إنها، مع هذا المطر الخفيف الذى بدأ، كمن يقف وسط ميدان فى أوروبا، فرنسا مثلا أو إيطاليا. لا ينقصها إلا مظلة جميلة ترفعها، وجوانتى فى لون ا لمظلة، وبالطو فرو، ومصور سينمائى، ليصنع فيلما أجنبيا. ابتسمت. فكرت كيف أن هواء هذه المدينة الطرى يجعل الإنسان يدخل فى بعضه وينام وهو يقظان. المحلات كلها مغلقة، فضل أصحابها الإغلاق مبكرًا للإعداد للاحتفال بليلة رأس السنة. لا أحد يتأخر فى الإسكندرية الليلة. ياويله من يأتى عليه منتصف الليل

وهو فى الطريق. يسقط فوقه كل ما هو قديم فى بيوت الإسكندرية. زجاجات، أكواب، قلل، أرجل مقاعد، أطباق صينى. كل ما يحدث صوتا حين يرتطم بالأرض. وداع خاص للعام الذى انتهى، واستقبال فريد للعام الجديد. يقولون إنها عادة طليانية. ربما. الإيطاليون مجانين. رأت صوفيا لورين وچينا لولو بريچيدا وآنا مانيانى فى السينما. إنهن مجانين بالفعل خاصة حين يتحدثن. لا أحد يلحق بهن. ولماذا تذهب بعيدا. معهن راهبات من المستشفى الإيطالى، يشفى المرضى خوفا من الكلام معهن!. لكنها، نوال، لم تحتفل من قبل قط بليلة رأس السنة. تكون لديها نوبتجية بالمستشفى لاستقبال حالات التسمم الكحولى والتخمة وإصابات الطريق، أو تمضى الليلة لدى أبلة نرجس مع البنات يشوين أبو فروة ـ الكستناء كما عرفت من إحدى المجلات ـ ويقزقزن اللب. فى العام الماضى جلست تغنى لزميلاتها فى حجرة الممرضات. كانت هناك عملية كبيرة لاستئصال رحم تعفن فيه الجنين لأم مريضة بالسكر!. كان الموت المحقق يرفرف فى سقف غرفة العمليات، والجراح الكبير المجنون شديد الثقة بنجاح العملية طلب منها أن تغنى أغنية عبد الوهاب «لست أدرى».

ظلت تردد «جئت لا أعلم من أين لكنى أتيت. أبصرت أمامى طريقا فمشيت. كيف جئت كيف أبصرت طريقى لست أدرى..».

انتهت من الأغنية وكررتها، تعبت ولم يتعب الجرّاح. أشار إليها بالصمت. لم يعد هناك غير همساته للأطباء الشبان حوله والممرضات. انتهى فى الساعة الثانية عشرة تماما وكان قد بدأ فى الساعة الثامنة. نجحت العملية الخطيرة وقفز الأطباء الشبان يهنئونه ويقبلونه لكنه تقدم ناحيتها وقال لها باسما وقد بدا عليه الإرهاق الشديد. «نصف نجاح العملية بفضل صوتك الملائكى» نامت بعدها

ساعة فى غرفة الممرضات. انصرف الأطباء على عجل يلحقون بسهراتهم فى الخارج. زميلاتها أيقظنها.

- ونحن يا نوال أليس لنا نصيب فى الاحتفال؟

- أنا تعبانة يا بنات من الغناء فى غرفة العمليات.

- إنها ليلة فى السنة يا نوال!

- طيب. أغنيتين أو ثلاث. . .

لكن واحدة منهن أشارت إليهن بالسكوت. كن ثلاث ممرضات ونوال ثم قالت:

- أنا عندى فكرة مجنونة، نحتفل مع المرضى بليلة رأس السنة.

ضحكت نوال وقالت:

- يعنى من مطربة العمليات إلى مطربة المستشفى. ترقية على أى حال!

ضحكن. قالت صاحبة الاقتراح:

- أحسن ثواب نعمله فى المرضى هو هذه الحفلة. لا أظن أنهم سينسون هذه الليلة أبدا.

بدا أنها موافقة، وفكرن من أى عنبر يبدأن. عنبر الباطنة نام نزلاؤه مبكرا متعبين. عنبر العمليات كذلك. فى قسم الأطفال نام الأطفال. ليس من يقظان الآن غير مرضى العظام، هؤلاء لا ينامون بسهولة من طول رقدتهم، ولا يتألمون مثل مرضى الحروق، وهم فى ضيق دائم من الجبس وأوضاعهم غير المريحة ويحتاجون لشىء من البهجة.

فوجىء المرضى بهن. العنبر الطويل كان نزلاؤه جميعا يقظين. سيقان مرفوعة فى الجبس مشدودة إلى أثقال من حديد، أذرع مرفوعة

على وسائد. أعناق مشرئبة محاطة بالجبس لا تلتفت، وغير هؤلاء جلوس لا يستطيعون النوم لأن قمصانا من الجبس تحيط بصدورهم. ضحكت إحدى الممرضات وقالت:

ـ ربنا يستر ولا ينكسر صوتك الليلة، يا نوال. .

انطلقن جميعا يضحكن. عرف المرضى بالمهمة فصفروا وصفق سليمو الأذرع وخبط الباقون بأرجلهم على الأسرَّة. ضحك واهتزاز محسوب وألم خفيف يظهر على الوجوه.

ـ ماذا تطلبون الليلة؟

توالت أسماء المطربين والمطربات وفى النهاية قال المرضى:

ـ اختارى أنت سستر نوال ونحن موافقون على كل ما تغنى.

غنت نوال إيه ذنبى إيه، ولايق عليك الخال ثم تخونوه لعبد الحليم، انتقلت إلى ألحان خفيفة فغنت لشادية «خمسة فى ستة بثلاثين يوم» و«ياحسن يا خولى الجنينة» ثم «تعب الهوى قلبى» لمحمد فوزى التى راح العنبر كله يغنيها معها فأشارت إليهم بالهدوء، وعند الفجر، كانت قد تعبت، والمرضى أيضًا كانوا متعبين، لكنهم أصروا أن تستمر وهى بدورها اختارت أغنية «أول همسة» الطويلة لفريد الأطرش وما انتهت منها حتى كانت زميلاتها يبكين وعدد من المرضى يبكون أيضًا فى صمت، لكن فى النهاية ضحك الجميع، ظل المستشفى لأيام بعد ذلك يتحدث عن حسن حظ قسم العظام الذى أمضى ليلة من أجمل ليالى العمر حتى إن بعضهم قال إن الكسور التأمت بسرعة بسبب المتعة التى انسكبت فى روحهم تلك الليلة، كان يوم خروج بعضهم من المستشفى محزنا للغاية. لقد أحبوا المكان ولم يغادر واحد منهم المستشفى قبل المرور على سستر نوال وتقديم الشكر الجزيل لها، تقدم أكثر من واحد

منهم لخطبتها وكانت دهشة زميلاتها كبيرة من رفضها لهؤلاء الخطاب الذين كان بينهم موظفون محترمون وأبناء عائلات ومتعلمون . . لكنها قالت إنها حددت هدفها، الغناء فى الإذاعة أولا ، وهى لم تيأس حتى الآن من الحصول على فرصة حقيقية . .

استقلت نوال المصعد الأشبه بالقفص المعدنى ، لا تعرف لماذا تركت يدها تمشى على جدرانه الملساء . انتعشت من ملمسه الناعم البارد . تركته فى الدور الخامس ، تماما كما قال لها الدكتور أحمد . أمام الباب الطويل القوى البنى اللامع تتوسطه شراعة صغيرة من الحديد والزجاج القاتم خلفها ستارة رمادية لامعة ، أمام هذا الباب المهيب الذى يرتفع لمترين ونصف على الأقل ترددت قليلا . كيف تثق فى الدكتور أحمد كل هذه الثقة فتأتى إلى شقة لا تعرف ماذا ينتظرها داخلها؟ . لكنها قرأت اسم صاحب الشقة . نادر نعيم مفتش أول لغة فرنسية . هذا هو الاسم الذى طلب منها الدكتور أحمد أن تحفظه . ضغطت زر الجرس . سمعت صوت الجرس قويا كأنما يدوى فى فراغ . لابد أنها شقة واسعة . قالت لنفسها . فى بيتنا كل شىء مكتوم حتى صوت الدجاج! قالت ذلك أيضًا . وفتح الباب وأطل من خلفه رجل طويل مهيب . ذو وجه أحمر وشعر أبيض . رجل فى حوالى الخمسين من العمر يرتدى روب دى شامبر من الحرير . الروب بداية غير مشجعة . لكنه قال :

ـ نوال هانم . . تفضلى .

ابتهجت واتسعت عيناها . الرجل المهيب يدعوها بالهانم . دخلت خجلى تشعر كأن نملا يجرى فى جسمها كله . أمامها رأت صالة واسعة بها صالون كبير مذهب أنيق عليه رسوم لروميو وچولييت . إنها تعرف ذلك . الصالة عالية ، جدرانها من الورق الجميل ، رمادى تتوسطه

ورود وردية صغيرة حولها مربعات ذهبية الإطار، اشغال كانقاه معلقة على الحائط ولوحات فنية. تماثيل كثيرة فى الأركان، على الأرض، على مناضد صغيرة دائرية متفرقة فى الصالة من الأبنوس الأسود اللامع. رفعت عينيها إلى النجفة الضخمة التى تتلألأ فيها الأضواء، وللمناضد الدائرية اللامعة مذهبة الحواف فوقها ڤازات صينية وبلچيكية وتماثيل شعبية، وعلى الأرض كان السجاد عميقا تكاد تغوص فيه عليه رسوم أطفال بين الحدائق وطيور تحلق حولهم. توقفت شبه خائفة. هل يحق لها أن تمشى فوق هذا السجاد؟

ـ نوال هانم لازم تعتبر نفسها صاحبة بيت.

لم ترد. نظرت إليه نظرة توسل أن يتركها تعود قبل أن تقع مغميًا عليها. راحت عيناها تدوران مع الجدران.. قال:

ـ آه.. التابلوهات. هل تحبين الفن التشكيلى. غناء ورسم. أنت نعمة إلهية مدموازيل نوال.

لأول مرة تشعر بالشجاعة. كادت تبتسم. ماذا تقول لهذا الرجل المعتوه الطيب الوسيم الذى يبدو كإله نازل من فوق جبل!.

ـ هذه لوحات غير أصلية. مجرد بوسترز. لكنى اشتريتها من باريس. طباعة ممتازة. هذه لوحة لديجا. ديجا كان مشهورا كما تعرفين برسوم راقصات الباليه. وهذه لجوجان ـ كانت لامرأتين عاريتين فى حمام قديم فأغمضت نوال عينيها واستمر هو يتحدث ـ كذلك هذه لرينوار أيضًا ـ كانت لامرأتين نضرتين تمشيان رافعتين المظلة فى الحقول الشاسعة وجذب انتباهها بشدة جمال ونضارة النساء ـ أما هذا الحذاء فهو حذاء ڤان جوخ الشهير، وهذه اللوحة الكبيرة هى الغذاء على العشب التى دشن بها مانيه الحركة التأثيرية

ـ كانت قد أشاحت بوجهها بعيدًا عن المرأة العارية على العشب مع الرجال ـ كل هؤلاء كانوا فى فرنسا. الحقيقة أنا من عشاق المدرسة التأثيرية، لكن لا بأس أيضًا من أدهم وانلى، هذه لوحة حقيقية له، باليرينا على طريقة ديجا. أدهم وسيف وانلى بلدياتنا..

أخيرًا ظهر الدكتور أحمد قادما من إحدى الغرف. بدا كمنقذ حقيقى لها..

ـ طبعا الزميل نادر لازم يعطيك دروسه الرائعة فى الفن التشكيلى.

ـ أهلا دكتور أحمد.

قالت ذلك وهى فى شبه إغماءة، لكنها كانت تفكر كيف يقول الدكتور أحمد عنه إنه زميل... وقال أحمد:

ـ تفضلى.

أخذها من يدها. فى الحقيقة لم تشعر بيده. دخل من باب إلى حجرة واسعة بها مقاعد وثيرة عالية الظهر، وبها عدد لا يقل عن عشرة أشخاص، كلهم ما بين الثلاثين والأربعين باستثناء رجل واحد يبدو أكبر من نادر نعيم. أحست بخجل حقيقى حيث لا توجد امرأة بينهم. كأنما كان أحمد يقرأ أفكارها قال:

ـ ستأتى بريچيت. لن تكونى وحدك، وبالمناسبة هى ليست بريچيت باردو.

دخل الرجل المهيب، الزميل نادر كما دعاه أحمد، يقول:

ـ هذا المقعد الخالى الذى يتوسط الجلسة تركناه لك، تعتبرين نفسك اليوم الملكة ونحن الشعب..

ما هذه المعاملة يا ربى التى تلقاها من هؤلاء الناس النظيفين جدا، الذين يرتدون بدلاً أنيقة ثقيلة من الصوف الهلد الإنجليزى وعلقوا معاطفهم على الشماعات الأبنوسية الثلاث فى الأركان! جلست وهى تنظر إلى التايير البسيط الرخيص الذى ترتديه، وإلى أصابعها الخالية إلا من خاتم ذهب صغير ولأنها شمت رائحة البارفانات التى تكاد تفقدها قوتها تذكرت كيف أنها لا تستخدم إلا كولونيا الياسمين الخفيفة التى تنتهى رائحتها بعد خروجها من المنزل حين تقابلها أول نسمة هواء. . تمنت ألا تأتى بريچيت. إنها تتحمل أن يكون الرجال أكثر أناقة أو حتى وسامة، لكنها لا تتحمل ذلك من امرأة حتى لو كانت بريچيت هذه التى ينتظرونها. . قال الدكتور أحمد الذى كان يرتدى البنطلون والقميص فوقه بول أوفر صوف.

ـ أفضل طريقة للتعرف على الزملاء هى التلقائية، لا بأس بسرعة أن أخبرك بأسمائهم، لكن لا ترهقى نفسك بحفظها، أثناء السهرة سترسخ الأسماء فى ذاكرتك.

قال أحد الجالسين:

ـ يا سيدى لو حفظت أسماء خمسة اليوم يكفى. المرات القادمة كثيرة. .

إذن هناك مرات قادمة؟ قالت ذلك لنفسها. وتذكرت أنها لم تر الدكتور أحمد أبدًا مرتديا بدلة كاملة. دائمًا بنطلون وقميص ويأتى الشتاء فيضع فوقهما بول أوفر. رأت من بينهم شابا فى عمر الدكتور أحمد يرتدى أيضًا بنطلونًا وقميصًا فوقهما بول أوفر أقل قيمة مما يرتديه أحمد. أحست ببعض الطمأنينة. ورأت أحمد بسرعة خارجا وهو يقول: «دقيقة واحدة» ثم يعود بسرعة وفى يده زجاجة شمبانيا فى

جردل أخضر صغير ملىء بالثلج . وضعها بينهم على منضدة صغيرة، وجاء بعده نادر نعيم يحمل صينية عليها كؤوس صغيرة كريستال .

ـ نبدأ أولا بالشمبانيا .

ـ قل نبدأ بالتعارف .

هذه الخفة والنعومة فى الجو حولها شىء يكاد يبدد روحها . كأنما دخلت فى فيلم يعرض أمامها على الشاشة وصارت فردا من أفراده . دخلت منومة لا تشعر بما تفعل . سمعت أحمد يتلو أسماء الزملاء . لم تلتقط اسما واحداً وهى تهز رأسها مع كل اسم! هطل مطر شديد فى الخارج . زخات قوية كأنما انفتحت أبواب السماء على مصاريعها ودق جرس الباب . .

ـ بريچيت! .

هتف نادر نعيم وتهللت أساريره .

ـ بريچيت والمطر! ياله من غيث . .

قال ذلك وهو يسرع ناحية الباب . لحظات وكانت بريچيت واقفة أمامهم عند مدخل الغرفة تسلط عينيها الزرقاوين وفمها المفتوح على نوال . نوال وليس أحد آخر بينما كان نعيم يخلع عنها البالطو الأنيق من الخلف .

ـ هذه مهمتى لن أتنازل عنها أبداً . .

كانت نوال تفكر أنها لا ترى أمامها امرأة شابة جميلة، إنما مهرة حقيقية جامحة لا سبيل لأحد إلى ترويضها . يا له من جمال هذا الذى يتجسد أمامها واقفا، من أى سماء أقبل وأى خالق هذا الذى نحت؟ .

نهض الرجال واقفين ومرت عليهم بريچيت تصافحهم وتقبلهم

ويقبلونها الواحد بعد الآخر حتى إذا قبلت الدكتور أحمد أغمضت نوال عينيها، لكنها لم تعط هذا الضيق فرصة الظهور على وجهها.

أدركت نوال أن بين الجالسين ثلاثة من الأجانب، عرفت اليونانى والإيطالى أما الثالث فلم تعرف جنسيته. لم ترهق نفسها بذلك.

كانت تفكر كيف تترك امرأة نفسها يقبلها كل هؤلاء الناس، لكنها فجأة لم تشعر بأى عيب. كانت رائحة عطر بريچيت قد غزت المكان كله بالانتعاش والشبق. كل شىء حول نوال الآن يبدو منتعشًا منتشيًا غير مستقر حتى الجدران. فى الخارج كان لا يزال المطر يزداد لكن صوت زخاته صار يتداخل فيها صوت الريح. فى لحظة ينقطع صوت المطر ثم يعود مرتطما بالأرض. إنها لحظة تطير فيها الريح الهائجة الأمطار هنا وهناك ثم تنقطع الريح فيستقيم سقوط المطر وصوت ضرباته فى الأرض والأسطح. معركة من نوع غريب، فيها جنون، لكن هنا، داخل شقة الزميل نادر نعيم، كل شىء هادىء، ناعم، والمدفأة التى بالصالة تنشر الدفء فى الشقة كلها، وكان لابد أن تصافح بريچيت نوال.

ـ بريچيت فنانة تشكيلية. نوال مطربة المستقبل.

قال الدكتور أحمد فانتعشت نوال، أدركت أنها رأت بالصالة صورة زيتية جميلة للزميل نادر نعيم فى ركن منها توقيع بريچيت رشيقًا. حركت بريچيت قدميها كالأطفال وهى تضربهما فى الأرض وتساءلت:

ـ أين أجلس؟

أشار نادر نعيم إلى مقعد فى مواجهة نوال وقال:

ـ هنا أيتها الملكة.

ضحك أحد الجالسين وقال :

ـ صار لدينا ملكتان اليوم، هل بعد كل الذى فعلناه لمقاومة الملكية يصبح لدينا اثنتان مرة واحدة؟

ضحكوا لكن نعيم قال :

ـ النساء الجميلات لا يصلحن إلا ملكات واسأل الشاعر. ما رأى عصمت مفتاح؟

أشار إلى الشاب الذى يرتدى البنطلون والقميص والبلوفر الذى بدا شاردا ناظرا إلى الأرض. رفع رأسه ودار بعينيه عليهم. ابتسم لنوال وقال :

ـ النساء ملكات على عروش قلوب الرجال.

الله. الله. الله. صفقوا جميعا، ونوال فى دهشة وسعادة. قالت بريجيت :

ـ لا بد أنك كتبت شيئًا جديدا يا عصمت.

سكت لحظات ثم قال :

ـ قصيدة لم تكتمل.

ـ ممكن نسمعها؟

ـ لكننا جئنا الليلة لنسمع الآنسة نوال.

وجدت نوال نفسها تقول :

ـ أنا يسعدنى جداً أن استمع إليك يا أستاذ عصمت.

ـ الله. الله. الله. معجبوك يزيدون يا أستاذ.

قال نادر نعيم وأحست نوال بخجل حقيقى، وإذا بعصمت مفتاح يقف يتهيأ ليتلو شعرا..

عرش قلبى تجلس عليه خلاسية من زنزبار .
عرش قلبى تجلس عليه غجرية من سمرقند
عرش قلبى طريق لنساء أميركا اللاتينية
لا ينافسهن فيه إلا امرأة من الهند
وامرأة تهوى كالبرق من فوق جبال أرارات . .

تصفيق وآهات وكلمات استحسان وإعجاب ونوال فى حيرة حتى اقترب منها الدكتور أحمد وقال :

ـ كونى قوية ولا تخافى، إنهم ناس طيبون جدا، ستكونين أنت الملكة فى النهاية، وستفهمين كل شىء . .

طلبوا جميعا من عصمت أن يكمل القصيدة . فتح نادر نعيم زجاجة الشمانيا فرأت نوال أن الصوت الذى يصدر حين يطير الغطاء حقيقى وليس تمثيلاً كما كانت تتصور حين ترى ذلك يحدث فى الأفلام . رأت الرجل المهيب يقفز بالشمبانيا وهى تفور ويضع منها بسرعة فى كؤوس الزملاء . تركته يملأ كأسها . لم تشرب من قبل، لكنها رفعت ذراعها معهم فى صحة عصمت مفتاح . «لا . . لا . . يسينين» .

«ولماذا لا يكون ماياكوفسكى» .

«أفضِّل أن أكون رامبو . على الأقل لبعض الوقت» .

كان الحوار حولها لا تفهم منه شيئا لكن تشعر أنه صادق وجميل . . وراح عصمت مفتاح يلقى قصيدته :

المرأة التى تجلس على عرش قلبى
انتهت لتوها من صنع الثورة
إنها تشوى بصلا على الفحم

وتشرب النبيذ مع الفراشات

وتوزع الخبز على جنود النهار .

ران على الجميع صمت مهيب . بدا عصمت مفتاح وقد شرد عنهم، راح يلقى شعره للبعيد البعيد . .

إن ديلا كروا الذى انتهى للتو

من رسم الحرية وهى تقود الشعب

قد خرج يجرى فى الحدائق

فرأى المرأة التى انتهت لتوها من صنع الثورة

فبكى بين يديها أن تنتظر

فالحرية الحقة لم يرسمها بعد . .

هنا لم يستطيعوا السكوت . ضجوا كالأطفال معجبين . رأت نوال بريچيت تأكل عصمت مفتاح بعينيها .

من أنت أيتها المرأة اللغز؟

قالت أنا التى اعتصر جويا حليبى

وقام مجنونا ليرسم فريق الإعدام

ويجرى فى الشوارع مع الثيران .

يا رفاق . .

وأشار إليهم أن يسكتوا عن الصياح وواصل بصوت جهورى عال :

يا رفاق . .

الثيران عرفت جويا وأوسعت له الطريق

ووصل جويا إلى حافة النهر فرحان

هيا نصلى جميعا وراء جويا
جويا الذى وصل إلى حافة النهر
فوجد المرأة التى اعتصر حليبها
تغسل شعرها عارية
ولا تنزل إلى الماء
لماذا لا تنزلين أيتها المرأة إلى الماء
لأن جويا عض مفاتنى فى نزق
لأن جويا ترك ألوانه على جسدى
إنها المرأة شديدة الذكاء والعبقرية
التى انتهت للتو من صنع الثورة
فارتاحت على عرش قلبى .
هنا . هنا فى الإسكندرية
التى ينزل عليها المطر يغسلها
لترى السماء وجهها فى الأرض .
أى مدينتى العبقرية
مدينة النزق والجنون والاستشهاد
كيف دخلتك الخيول العجوز
محمَّلة بكل هذا الغبار والتراب
كيف فتحت أبوابك للبرابرة
وتبعثرت فيك النساء .
هبينا مدينتى القدرة على الثورة

أطلقى مدينتى أسر المرأة الذكية
دعيها تصنع الثورات
وتشوى بصلا على الفحم
وتشرب النبيذ مع الفراشات
وتوزع الخبز على جنود النهار .

صفقوا بجنون، طلبوا الويسكى فى صحة الشاعر ، قامت بريچيت وقبلت عصمت وهو شارد يكاد لا يشعر . لقد تفصد العرق من جبينه واحمرت عيناه، ونوال التى لم تفهم شيئًا أحست بالنار تشتعل فى جسدها كله . من هو عصمت مفتاح هذا وماذا يكون؟ إنه أشبه بكرة النار التى سقطت من الفضاء أمامها . أنها لا تحيل عينيها عنه .

يعود ويجلس مطرقا إلى الأرض، يتناول كأس الويسكى ويشرب منه بهدوء . والدكتور أحمد مشغول بوضع المزات أمامهم على أكثر من منضدة منخفضة . جمبرى وسردين مقلى وجبن حلوم وجبن رومى وكاليمارى وجبن فلمنك وزبادى وخيار . . يا إلـهى . . أشياء كثيرة يا نوال فى الدنيا لن ينقلك إليها إلا أن يواتيك الحظ فى الطرب . لكنها لن تشرب الويسكى ولا السجائر التى يقدمها إليها أحدهم بين الحين والحين . لن تندفع فى هذا الطريق، ولن تأتى هنا مرة أخرى . أجل . سيقتلها هؤلاء الناس . هذا الشاعر الحزين وجهه شاحب مثل سيدنا عيسى عليه السلام . . عيناه واسعتان وأهدابه طويلة مثل سيدنا عيسى عليه السلام . ذقنه قصيرة مدببة مثل سيدنا عيسى عليه السلام . إنها تحتاج أن تأخذه فى صدرها مثل ستنا مريم!

ـ الساعة الآن العاشرة . نريد أن نسمع نوال قبل أن ينتهى العام .

ضحكوا . العام سينتهى بعد ساعتين حقا . فلتغنى نوال كما لم تغنّ

أبدا . لقد أشعل فيهم الشاعر النار ، أما هى فستطير بهم فى السموات العلى . ستجعلهم لا ينسونها أبدا بعد ذلك ولن تأتى هنا مرة أخرى . لن تستطيع .

(٩)

جلست كاتينا مع العربى وحدهما الليلة . ذلك لم يحدث من قبل فى أى عام .

ـ عربى . أنا غير مبسوطة هذا العام .

ـ لماذا كاتينا . الأتيليه لا يزال يعمل ، وأنت تزدادين جمالا . لماذا لم تقيمى حفلة مثل العام الماضى؟

ـ كنت تريد حفلة عربى؟

ـ لنفسى لا . هكذا أفضل . أنا وأنت نشرب الميتاكسا الفاخر ، لكن الحفلة من أجلك أنت . .

ـ الجالية اليونانية كلها غير مبسوطة عربى . . الكلام فى أى سهرة كله سياسة فى سياسة .

ـ لكن ليلة رأس السنة مناسبة جميلة فيها الناس يمكن أن تنسى السياسة .

ـ لا عربى السياسة الآن صعبة . لا أحد يعرف مصر رايحه فين! كل يوم تمصير بنوك وشركات . الأجانب الآن يبحثون عن طريقة لتهريب الأموال .

ـ لكن الجرائد كلها تقول إن التمصير مفيد وضرورى لمصر .

سكتت كاتينا قليلا ثم قالت :

ـ الحقيقة عربى أن التمصير مفيد لمصر، لو كان ياناكيس موجود كان زمانه مبسوط. كان ممكن يقول يعيش جمال عبد الناصر.

ـ طيب ليه زعلانين كاتينا؟

ـ لأن بعد سنة بالكثير مصر ستصبح دولة شيوعية. رأسمال مصرى ممنوع. رأسمال أجنبى ممنوع جدا.

ـ غريبة! . ياناكيس فقط كان ممكن يحب التمصير؟

ـ تمام عربى. ياناكيس كان يسارى. يسارى يعنى شيوعى. يعنى لا يحب الملك. .

ـ أعرف. أعرف كاتينا خلينا نشرب أحسن.

جلسا صامتين لدقائق يشربان الميتاكسا ويمزان بالمورتاديللا.

قالت كاتينا:

ـ التمصير حلو لكن ثمنه غالى عربى. ثمنه أن الأجانب كلهم يتركون إسكندرية. وطبعا كل مصر.

شرد العربى وقال لنفسه:

«وأولاد البلد يشترون محلاتهم ويأخذون شققهم وكذلك يفعل ضباط فى الجيش والبوليس. كثيرون اشتروا بيوتا بثمن بخس».

قالت كاتينا:

ـ أنت واحد مجنون عربى. ضيعت الخمسين جنيها فى البارات. راشيل تركتها لك لتشترى شيئًا مفيدا لكنك مجنون. أنا أحبك لأنك مجنون. شوف الآن محلات البقالة فى المزاريطه وكامب شيزار والإبراهيمية بعد أن اشتروها أولاد البلد. شوف حالها

يغم. زمان كان لا يمكن تشوف دبانة فى الدكان. ليس زمان. أمس فقط عربى. أنا ساعات يتهيألى إن الجبنة الحلوم لونها تغير إلى أسود.

يضحكان بشراسة. كان واضحا أن الخمر بدأت تلعب برأسها.

ـ يخرب عقلك كاتينا. أنت بنت نكتة ولا أعرف.

ـ أنا مصرية عربى. بابا كان يشتغل فى تجارة القطن. وبابا بابا كمان!

ـ جدك يعنى.

ـ مضبوط عربى.

رفعت كأسها وقالت:

ـ إشرب عربى فى صحة إسكندرية. من يعرف عربى.. يمكن أنتم تخلوها أحسن. يمكن عربى.

شرب معها صامتا وتناول شرائح المورتاديلا. العام الماضى كانت المائدة عامرة بالروزبيف والكبد وأسماك البربونى والجمبرى والكاليمارى والزيتون اليونانى، الشقة كانت عامرة باليونانيين، والطليان أيضًا، وما كاد الليل ينتصف حتى كان كل يقبل فتاته فى ركن من الأركان. كانت أسمهان موجودة تلك الليلة، وقبلته قبلة طويلة أمام الناس.

كانت تقبله كثيرا بلا سبب تلك الليلة، وجاءت چورچيت وزوجها، لكنهما انصرفا بعد منتصف الليل مباشرة. الباقون استمروا حتى الصباح، انصرف من انصرف ونام الآخرون فى كل مكان على الأرض. كانت الأرض مفروشة بالرجال والنساء والطعام والزجاجات الفارغة من الخمور والمشروبات الغازية. كان يخيل إليه أن هؤلاء الناس

يعيشون ليومهم الأخير فى الدنيا. لكن الدنيا تغيرت بسرعة خلال هذا العام. يعرف ذلك كلما ذهب إلى المنشية لأمر ما. يقل عدد الأجانب فى الطرقات أما الصيارفة فقد اختفوا تماما الآن. لم يعد مسموحا بتداول العملات الأجنبية إلا فى البنوك ووفق نظم صارمة لكن ما لكاتينا وما يحدث فى الاقتصاد فى مصر. أنه لا يفهم هذه المرأة. لابد أن لها أسهما فى بعض الشركات خسرتها فى البورصة، وإلا أين تذهب فلوسها التى تكسبها فى الأتيليه؟ ليس من المعقول أن ترسلها كلها إلى ابنتها فى اليونان!

ـ ما رأيك كاتينا أن ننزل إلى بياصة الشوام نتعشى، أكيد هناك ناس سهرانة الآن.

ـ فى هذا المطر وهذه الرياح؟ مستحيل عربى.

ـ نجرب كاتينا. عندك بالطو فرو وعندى بالطو ياناكيس ثم أننا شربنا ميتاكسا مثل النار.

تركته لدقائق وعادت بعد أن غيرت ثيابها، بدت وسط البالطو الثرى نضرة الوجه كزهرة عباد الشمس. أمسكت بمظلة صغيرة. أخذ هو المظلة ووضعها فوق المنضدة القريبة.

ـ بياصة الشوام على بعد خطوات!

خرجا من باب البيت فقابلتهما ريح باردة وشديدة فرفع كلاهما ياقة البالطو حول عنقه ثم أسرعا تحت البلكونات، خاصة وقد هطلت زخة مطر مفاجئة. «أنت مجنون عربى. . أكيد مجنون» وتركا شارع الكنيسة الإنجيلية وعبرا شارع الليثى. كل شىء مغلق حولهما وصامت، فى شارع مسجد العطارين كان الظلام والصمت على الناحيتين.

فى بياصة الشوام كان مصباح شحيح الضوء على الحائط يضىء الساحة لكن لا أحد. لا بائع السمان والعصافير المشوية ولا باعة الفستق والكستناء.

ظلام وماء بين بلاط الأرض ورائحة الملابس والبضائع القديمة التى تفرش البياصة بالنهار تتسلل من خلف أبواب المحلات المغلقة والمخزونة فيها. انطلقت تضحك وهى تقف وحيدة معه وضحك هو.

ـ أنت واحد مجنون كبير عربى وأنا أحبك لهذا السبب . .

وأخذته فى حضنها وقبلته قبلة طويلة وهو فى ذهول.

إنها تغدق عليه من مشاعرها هذه الأيام وهذا ينذر بنهاية مخيفة. تشجع وأسندها إلى الحائط تحت المصباح، الحائط البارد. إنه يضع يديه عليه، لكنها دافئة. فتح كل منهما بالطو الآخر وتركا جسميهما يلتقيان.

ـ أنت ستسافرين قريبا كاتينا.

ـ من قال ذلك عربى؟

ـ كل هذا الحب.

ـ أنا طول عمرى أحبك وأنت واحد حمار.

ـ إذن هيا نعود إلى الشقة.

ـ لا. خلينا هنا فى البرد.

ـ البرد يمكن أن يؤذيك كاتينا.

ـ أنا كنت أحب ياناكيس فى الجبال فى اليونان فوق الجليد. تعرف عربى ياريت روميو وچولييت ماتا بالبرد وليس بالسم والخنجر.

اندهش من الكلام، لكنه لم يتوقف عن تقبيل عنقها وصدرها وتذكر أنه شاهد فيلما أجنبيا مات فيه البطل والبطلة فى الجليد فقال فى نفسه «حقا الموت فى البرد أفضل من أى موت» وقفز قط كبير صارخا بجواره لا يعرف من أين أتى الآن فدخلت فى صدره أكثر وفجأة انطفأ المصباح ثم عاد فأضاء ثم انطفأ ثم أضاء وارتبك العربى ثم هتف فى فزع.

ـ كاتينا لازم نجرى، الساعة الثانية عشرة . .

كانت النوافذ المغلقة فى الأدوار العالية قد فتحت وانطلقت منها أضواء غمرت الدنيا من كل اتجاه مع المطر الذى بانت خطوطه فى النور. من خلف النوافذ راح الناس يلقون بكل قديم عندهم فتداخلت أصوات الأطباق الصينى وهى ترتطم بالأرض بأصوات الزجاج والأخشاب، ولمح بعض الشباب العربى وكاتينا يهرولان فصوبوا إليهما قذائفهم. أصابت العربى قطعة خشب اصطدمت بالأرض ثم ارتفعت لتصطدم بساقه. يابن الكلب!!

أصوات الضحكات تأتى إليهما من الأدوار العالية، انتبهت كاتينا إلى أن خطرا حقيقيا يحدق بهما فهرولت أكثر رافعة ذراعيها فوق رأسها وعند باب البيت بالضبط أصيب العربى فى رأسه وسقط على الأرض. صرخت كاتينا، عربى، لكنها سمعته يقول: أدخلى أنت بسرعة ولم يكن ممكنا لها أن تدخل وهو ملقى على الأرض، توقفت واتجهت بوجهها إلى النوافذ العالية وهتفت «عيب وقلة أدب ممكن لرجل يموت وأنا أعرف قليل الأدب الذى قذفنا، وبكره الصبح لازم أبلغ البوليس. بكره تشوفوا ماذا تفعل كاتينا».

توقف القذف. الحقيقة أنه عادة لا يستمر أكثر من دقائق، كان

العربى قد نهض ووضع ذراعه على كتفيها وصعدا معا السلالم. كان الدم الساخن ينزل من رأسه وشعر به، لكنه لم يكن غزيرا . .

داخل الشقة شعر العربى بالراحة. تنفس نفسا طويلا ثم زفر زفرة أطول. كانت كاتينا قد أحضرت بطرمان البن الذى راحت تكبس الجرح به بعد أن نظفته بالقطن والميتاكسا فليس لديها مطهرات من أى نوع. ضحك العربى وهو يشعر بحرقة فى الجرح. قالت:

ـ عجيب أنت عربى تضحك وكأنك مبسوط.

ـ أبدا كاتينا. أنا فقط حاسس أن الميتاكسا يعبر من رأسى إلى فمى. هل يحدث شىء إذا نفذ الميتاكسا إلى المخ؟

ـ أنت لذيذ الليلة عربى.

ـ هل أنام الليلة عندك كاتينا؟

تساءل متفائلا للغاية لكنها قالت:

ـ بعد أن ترتاح سأتصل بصديق يحملك فى سيارته حبيبى إلى البيت.

وخزه الألم، لكن كان هناك وقت كى تعطيه درسا فى الحب يحمل تجربة كل هذه السنين التى عاشتها زوجة وأرملة طروب. ولا يعرف عربى لماذا سألها قائلا:

ـ لماذا لم تتزوجى بعد ياناكيس كاتينا؟

قالت ضاحكة:

ـ الزواج يعطيك رجلا واحدًا أما من غير زواج فأمامك عشرات الرجال.

ثم نهضت تطلب بالتليفون أحد أصدقائها ليحمل عربى إلى بيته .

* * *

كان ذلك هو الوقت الذى نهضت فيه نوال طالبة العودة والوقت نفسه الذى بدأ فيه محمود الملاح العودة إلى البيت . لم يكن فى المساكن من يحتفل بليلة رأس السنة بالخارج غيرهم .

قال محمود الملاح لسائق التاكسى حين وصل به إلى كوبرى كرموز أن يعبر الكوبرى ويأخذ يمينه فى اتجاه كفر عشرى . المساكن تقع فى منتصف الطريق لكن السائق رفض . قال الطريق مقطوع بعد ذلك، وعند مخازن سلفاجو كثيرا ما يوجد لصوص وقطاع طريق . ابتسم محمود وقال :

ـ سلفاجو . سلفاجو من يا رجل؟ سلفاجو راح وراحت أيامه . أرض المخازن الآن صارت مدرسة ابتدائية كبيرة .

قال السائق :

ـ أنا لم آت هنا منذ عام . لا تؤاخذنى .

ـ معك حق تقول سلفاجو . مصر رجعت للمصريين يا أسطى .

سكت السائق قليلاً ثم قال :

ـ هو سلفاجو غير مصرى؟

ـ يونانى . .

ـ كنت أظنه مصريا، لكن لا تزال شركات كثيرة ملكه .

ـ ليست كاملة . التمصير رجَّع على الأقل نصف الشركات للشعب .

ـ لا تؤاخذنى يا أخ لن أستطيع توصيلك . لازلت خائفا .

ترك محمود التاكسى ونزل وهو يقول لنفسه ما فائدة الكلام مع حمار؟ لا داعى لأن أفسد على نفسى متعة هذه الليلة المباركة. لقد اقترب النهار، ولا أظن قاطع طريق ينتظرنى وسط هذا البرد وبعد هذا المطر! ثم إن القمر هلال كبير تخفيه السحب حينا ثم تمشى فيظهر ويضيىء الطريق ولو للحظات فها هى المياه تلمع بين حين وحين. ترعة المحمودية ساكنة، لا حركة ولا سفن، هجع اللصوص فى أماكن بعيدة. ثم إنه يحتاج حقا أن يمشى الليلة ويفكر ما دامت الأمطار قد انقطعت، فى هذه القدرات الخارقة التى يمتلكها فلفل مطحون تاجر البهار العجيب. ما هو سر «التحويجة» التى يقدمها لى فى كل مرة يكونان فيها على موعد مع المرأتين. لقد عاد تاجر البهار وظهر بعد أيام من واقعة محمود القزعة الذى كان قد عاد إلى حالته الطبيعية ونسى الانتقام ومنذ عودته وهو يغامر مع النساء مصطحبا محمود معه.

ـ إذا وفقت أول مرة توفق دائما ونحن الآن موفقون والحمد لله.

ولم يشأ أن يخبره أبدا بالوصفة السحرية.

ـ لا تقلق. إذا مت سأترك لك الوصفة فى وصيتى..

تقدم محمود فى الفسق فدخن الحشيش الذى لم يجربه من قبل قط، ورفض شرب الخمر. قال إنه كان يحبه زمان حتى رأى فى محل عند كوبرى راغب كيف يتم تحضير الخمير والبوظة، وشاهد كميات الذباب التى فوق الطشوت التى يتم التحضير فيها قبل أن يدلقوا الخمير أو البوظة فى الجرار. منذ هذا اليوم أقسم ألا يعود إليه. لا بأس فقط أن يدخن الحشيش فى السجائر. لكن المرأتين وضعتا لهما الحشيش فى كنكة القهوة فدخل محمود عالما سحريا لا يكف فيه الناس عن الضحك ودعمه فلفل بالتحويجة فبدا بعدها الكون كله كأنه فرج امرأة وما هو إلا

ذكر يحمل الكرة الأرضية على رأسه ويقوم بتلقيح كل هذا الكون. صار يضحك فى كل وقت، حتى وهو فوق المرأة.

ـ يخيل إلى أنك لست بفلفل مطحون ولا تاجر البهار.

ـ من أكون إذن ياسى محمود؟

ـ أنت شيطان ولا أقل من شيطان. أنت الشيطان الأصلى الذى قال له ربنا أسجد لآدم ولم يسجد.

رأى عينى فلفل حمراوين يكاد يطل منهما شرر فأصابه رعب أخفاه بجهد وقال فلفل:

ـ ياسى محمود العطارة أسرار من ملك أسرارها ملك الدنيا والملكوت.

ـ لكنك لم تقل لى أبدا لماذا تركت العطارة؟

ـ هذا أيضًا من الأسرار.

تركه ونهض إلى المرأة التى تنتظره فى الغرفة، كذلك فعل محمود وبعد قليل التقيا بالصالة فتساءل تاجر البهار.

ـ شبعت؟

ـ لا. لكن يمكن أن اكتفى اليوم.

ـ لا تكتف إلا حين تشبع. هل تضمن صحتك غدا أو بعد غد. .

ـ لكنى سمعت الكبار دائمًا ينصحون بتوفير الصحة ليوم نحتاجها فيه.

ـ طيب، وإذا ضربك ترماى ومت فماذا كسبت؟

سكتا. قال محمود فى نفسه، صحيح، ثم فكر كيف أنه الآن لا

عمل له إلا الجرى وراء النساء، وحده أو مع فلفل، وكيف أن العالم كله يكون بين يديه حين يمتلك المرأة، أى امرأة. . واكتشف فى نفسه قدرات هائلة على الامتاع الجنسى، وبعض النساء سهلن له الحصول على نساء أخريات، وهكذا لم يعدم من تقدم إليه بعض المال. فى البداية تضايق ثم تعوَّد ثم صار يطلبه فى بعض الأحيان. بالجنس صار لديه ما يفعله، وصار مفيداً! . لكن يظل فى نفسه غصة إنه لو وفق فى إخراج الفيلم، أى فيلم، لكان الآن يذوق طعم نساء أجمل. كلاكيت آخر مرة يا محمود . لا تعد إلى الحديث عن السينما. أنت الآن ذكر، حيوان، عضو، أيْر. وليس أى شىء آخر. .

وسمع تاجر البهار يقول له.

ـ لا تنظر لى يا فتى. أنا أكتفى بسرعة. أنت شاب. انهض لبى نداء الدنيا والدين!

تأمله محمود بدهشة. قال. .

ـ ما دخل الدين هنا ونحن ذاهبان إلى جهنم لا محالة؟

أجاب فلفل.

ـ من الذى وضع فينا هذه الغريزة اللعينة؟

ـ ربنا.

ـ إذن لا بد من استعمالها وإلا نكون ناكرين لفضل ربنا!

وهنا هتف محمود بانفعال:

ـ استعمالها فى الحلال يا فلفل يا بن ديك الكلب لا تزين لى الحرام. هذا الذى نفعله حرام. لا تضللنى. تسألنى إذن لماذا أفعله

أقول لك إنى طامع فى عفو الحليم الجبار، والأن لا تفسد علىَّ متعتى بهذه المرأة الشرموطة.

ضحك تاجر البهار، وبعد أن اختفى محمود فى الغرفة قال تاجر البهار بصوت عال..

ـ جهنم يا سى محمود وقودها الناس والحجارة. أنا الناس وأنت الحجارة.

لكن محمود كان قد انشغل عنه فلم يهتم. قبل الفجر خرج معه ومشيا فى طريقهما إلى المدرسة التليانية. بعد المدرسة التليانية وقفا عند أول شارع باب سدرة. الشارع المزدحم بالنهار بباعة الملابس يبدو خاليًا تمامًا. أبوابه الخشبية مغلقة بأقفال ضخمة. لكن أعلى الأبواب ترك أصحاب المحلات لمبات مضيئة تحت وفوق وحول اللافتات.

معظم التجار هنا أقباط. فوق المحلات عبارات لها مغزى. الله لا تدخلنا فى تجربة.. إذا أعطاك الرب فلا تخش أحدًا.. قال فلفل:

ـ أنا ساكن قريبًا من هنا فى شارع البرنسيسات، اسمه هكذا رغم أنه مجرد زقاق ضيق وقذر.

ثم بعد لحظة قال:

ـ لقد عرفت بيتى يا سى محمود. عرفت شيئا عنى. وستعرف الكثير فيما بعد..

كانت الأرض حولهما مليئة ببقايا الماء ونفايات الصينى والزجاج والفخار الذى حطمه السكان عندما انتصف الليل. صافح محمود تاجر البهار وانفلت عائدًا داخلا فى شارع عامود السوارى متجها إلى كوبرى كرموز. لا ترام الآن. يمكن أن يمشى لكن هاتفًا باطنيًا جعله

يعود يتطلع فى الظلام إلى تاجر البهار الذى صار بعيداً فى شارع باب سدرة.

فجأة توقف تاجر البهار وعاد. رآه محمود يعود إليه فظل واقفًا فى مكانه.

- ما الذى أعادك؟

- أود أن أصحبك حتى الكوبرى على الأقل. وأنت لماذا توقفت؟

- فى الحقيقة كدت ألحق بك. لم أشأ أن أتركك وحدك الآن.

وأخرج من جيبه زجاجة عطر صغيرة. - هذا عنبر. إنه عطر الأمراء.

ابتسم محمود وهو يمسك الزجاجة الصغيرة جداً فى يده ويشم رائحتها الجميلة.

قال تاجر البهار.

- فى جدودى مجانين من نوع خاص. أحدهم كان مجنون العنبر. أمضى حياته كلها بين عُمان وزنزبار يتاجر فى العنبر كان لديه أحسن فريق من الغواصين يأتون له بالعنبر من أعماق المحيط الهندى. سمع يومًا أن هناك عنبراً قيِّما يقوم بإفرازه طائر خرافى فى جزر المالديف فذهب إلى جزر المالديف وبنى بيتًا هناك وبحث عن الطائر الخرافى لكنه لم يصل إلى شىء حتى جاء صباح رأى فيه دويًا فى الفضاء وصوت ضربات جبارة كأنها طبول من فوق الجبال، وتطلع من شرفة البيت فرآها، الرياح الأربع، قادمة إلى البيت، كان قصراً فى الحقيقة عاليًا قويًا، واقتلعت الريح القصر ومشت به أمامها فى الفضاء. تركته واقفًا وحده وحملت القصر

سليمًا كما هو من حوله، وارتفعت به إلى الفضاء، لم تعده مرة أخرى. ظل جدى هذا واقفًا يومًا كاملا فى العراء، لا أحد يمر به ولا أحد يراه، وفى المساء مشى حزينًا إلى الشاطئ فوجد زورقًا فى انتظاره حمله إلى سفينة حملته إلى عُمان وانتهى صيادًا للحيتان، وسكتا، راح محمود يتأمله بوداعة فائقة قال:

ـ يعلم الله كم أحبك يا فلفل مطحون.

ـ إذن دعنى أصحبك حتى الكوبرى.

ظهر تاكسى قادمًا من عند المدرسة التليانية فأشار إليه محمود بالوقوف وقال:

ـ لقد أظهر كل منا نيته الطيبةِ إزاء الآخر وهذا يكفى. أنت بيتك قريب وأنا بعيد دعنى أوصلك بالتاكسى وأعُد إلى البيت.

ـ فى هذه الحالة دعنى أعُدْ على قدمى. إنها بضعة أمتار يا صديقى.

وصافحه بقوة وأخذه فى صدره وقبّله، أمام دهشة سائق التاكسى. هذا السائق الحمار الذى لم يوافق أن يكمل بمحمود الطريق. ومحمود الآن وصل بسرعة مذهلة إلى المساكن. كان ذهنه مشغولا بصديقه العجيب تاجر البهار، وكان مندهشا من فكرة أن يكون هو أيرًا والكون كله فرج كبير فكان يقفز أحيانا برأسه يتفادى برك المياه على الأرض لكنه يهز رأسه ويدور بها فى قلب الفضاء يحكها فى شىء. يحس الآن كأن عقله يتشقق، ويحتاج للجلوس على شاطئ ترعة المحمودية رغم البرد والظلام يشجعه الهلال الذى يطل بين لحظة وأخرى من السماء.

برودة سلالم الماكينة الحمراء نشعت من البنطلون إلى إليتيه وساقيه حين جلس. فى ذلك الوقت سمع صوت هدير سيارة صغيرة سرعان ما ظهرت تمشى على مهل وتتوقف عند بوابة المساكن. كان بها سائق شاب وفتاة سرعان ما تحقق أنها نوال. نوال! قال فى نفسه مندهشا. إزدادت دهشته حين رأى السائق الذى كان شابا صغيرا ينزل من السيارة ويقابل نوال التى نزلت من الناحية الأخرى، ويصافحها ثم يقبلها قبل أن تتركه وتدخل من البوابة. لم تنس نوال أن تلتفت وتهز ذراعها للسائق مودعة من بعيد. يا إلهى إنها نوال ولا أحد آخر. لكنه لاحظ أن فتاة أخرى كانت تجلس بالمقعد الخلفى نزلت وقبلت نوال أيضا ثم جلست مكانها فى المقعد الأمامى.

استدارت السيارة عائدة على مهل. رؤيته للفتاة الأخرى جعلته يفكر ربما هى والشاب من أقارب نوال لكنه سرعان ما استبعد الفكرة. ثم مط شفتيه. ماذا يهم؟ فقال لنفسه. إنها ليلة مباركة على أى حال. لكن صوت سيارة آخر أعلى هديرا سرعان ما ملأ الظلام. توقفت هى الأخرى عند البوابة ونزل منها العربى. إنه لا يخطئه. كانت هناك امرأة أيضًا فى السيارة تجلس جوار السائق، كان العربى هو الجالس فى الخلف. لدهشة محمود الكبرى ركبت المرأة السيارة التى قفلت راجعة. ما الذى يحدث هذه الليلة يا محمود؟ ياله من استقبال للعام الجديد.

(١٠)

لم يكن صوت الرعد الذى زلزل الإسكندرية عند الفجر هو الذى أيقظ سليمان هذه الليلة الأخيرة الطويلة من العام. كان حلمًا عجيبًا

رأى فيه الإسكندرية وهى تنقلب على ظهرها ويتساقط الناس من نوافذ مبانيها وأبوابها وأسطحها، وشخص طويل ضخم يقف على ظهر المدينة التى صارت كسلحفاة ويمسك بيده مكنسة طويلة من مكانس عمال البلدية ويعمل فى صمت. . انتبه فسمع صوت أبيه يصلى الفجر فى الصالة ويتردد صوته الخفيض فى الظلام. لكن ضوء المصباح الهادئ الموجود عند الحمام كان يكفى ليخرج سليمان إلى «العشة» الخارجية ويجلس وحده. لقد أقام لنفسه ركنًا محكمًا لا يزيد على متر فى مترين وضع فيه كنبة ومكتبًا صغيراً ومقعدًا. كان سقف العشة على غير عادة العمال هنا من خشب وأسمنت بينها أفرخ من الكرتون والخيش المغمور بالزفت بحيث لا تستطيع المياه اختراقه بسهولة. ومع ذلك كان هناك «سرسوب» رفيع يتسلل من أحد الأركان. لقد لمحه أبوه وهو يعبر الصالة خارجًا إلى العشة فرفع صوته فى الصلاة فقال سليمان «سوف أذاكر» وأغلق باب البيت الذى يفضى إلى العشة خلفه حتى لا يصل إليه أى صوت من الداخل.

جلس إلى مكتبه الصغير، لاحظ أن الراديو فى مكانه لم يحركه أحد من إخوته. فكر ألا يشعله ثم مد يده وأشعله وبسرعة وجد محطة الموسيقى التى لا يعرف مكانها فى الدنيا والتى تظل تبث الموسيقى فى النصف الأخير من الليل. أخرج كراسة وأمسك بالقلم. يحتاج إذن أن يكتب. هذا ما أيقظه وليست الرؤيا العجيبة. إن فكرة تاريخ الإسكندرية فى القرن العشرين من خلال حياة مغنية لا تزال، وقد خايلته فى الأيام السابقة كثيرا، هى الأصلح لتقوم عليها روايته التى يخطط لها ويجمع من أجلها المعلومات. لكن المشكلة أنه كلما وضع المغنية أمام الجمهور لم يخرج منها صوت. الأحداث تمر خلفها فى شريط سينمائى، ويظهر مغنون عظام مثل سيد درويش وسلامة

حجازى وأم كلثوم وكلهم يغنون ويسمعهم الناس، لكن الناس حين يذهبون إلى مغنيته وقفت وفتحت صوتها فلم يخرج منها صوت. ونزلت دموعها. الجوقة خلفها أيضًا كبيرة، تزيد على المائة موسيقى وبها كل الآلات الشرقية والغربية المناسبة وكلهم يعزفون لكن لا صوت للموسيقى، والجمهور الذى نزع المقاعد من الصالة الكبيرة وملأ الصالة واقفًا يصفق ويصفر ويضرب الأرض بأقدامه ولا صوت يخرج. لا صوت يا سليمان. لا صوت لشيء.

أرقته هذه الفكرة أيامًا وأسابيع، وجد أن الرواية هكذا انتهت قبل أن تبدأ، ففكر أن يكتب عن مغنية حقيقية، ولتكن أم كلثوم مثلا، ومن خلال حياتها يعرض تطور الحياة المصرية من السياسة إلى الذوق، لكن ذلك يحتاج منه إلى جهد كبير، والحل المفتوح أمامه، وربما هو الذى أيقظه اليوم. هو أن يلغى فكرة المغنية الحقيقية و الخيالية ويكتب ما حوله هنا. لقد سجل كثيراً مما يحدث فلماذا حقًا لا يكون ذلك مادته الحقيقية. وجد نفسه يكتب فى الصفحة الأولى عنوانا كبيراً يقول «وقائع اليوم الأخير فى العام قبل الأخير!».

ماذا سيحدث لو طالت الرواية أعوامًا أخرى؟ لا بأس. يغير العنوان.

«ثلاث حوادث كبرى اليوم قبل، ومع هبوط الظلام. صباحًا هاجم البوليس عصابة حميدو فى ترعة المحمودية. إنها العصابة التى دأبت على سرقة السفن. رأيت المخبرين وهم يطلقون الرصاص على حميدو فى الماء. لكنه، وكما يحدث فى الأفلام، كان يغوص أسفل الماء ويظهر بعيداً. لم يفكر واحد من المخبرين فى النزول وراءه. لقد لاذوا بالشاطئ وإطلاق الرصاص وقبضوا على ثلاثة من رجال حميدو

خرجوا مستسلمين من الترعة. انهالوا عليهم ضربًا وألقوا بهم فى العربة البوكس حسب تعليمات الضابط الشاب لكن حميدو لم يخرج. يطول وقت اختفائه ثم يظهر ليشير إليه الأطفال فيصوب نحوه المخبرون لكنه أسرع من الجميع يكون قد غطس. إن حميدو يمشى تحت الماء والمخبرون وجنود الشرطة يمشون على الشاطئين فى تصميم على الإمساك به حتى لو فى نهاية الترعة حين تتصل بالنيل. الأطفال الذين لا أعرف كيف ازدادت أعدادهم إلى هذا الحد يمشون وراء المخبرين والجنود. حبشى منع أطفاله من المشاركة، ومشى هو جوار الضابط. كان حبشى طويلا جدًا وهو يمشى حافيًا فى جلباب قصير جوار الضابط الذى بدا قصيرًا للغاية. صباح عجيب لليوم الأخير فى العام الميلادى. حميدو هذا ليس هو فتوة المنشية القديم، لكنه رجل مسكين من غيط العنب كان تعيسًا شقيًا من يومه، شارك فى قتل الإنجليز وسرقتهم أثناء الحرب الماضية، وكثيرًا ما قبض عليه البوليس وأرسله إلى معتقل «الطور» الذى به أعتى المجرمين، وأمه امرأة سمينة لا يعرف أحد كيف تنهض عن الأرض تبيع الخضراوات عند مدخل البيت فى غيط العنب وقد تزوجت فى الحرب العالمية الماضية رجلا هزيلا قصيرًا كان كنديًا فى الجيش المرابط، ويرابط معها طول النهار وتستخدمه فى قضاء المشاوير! لا يعرف أحد لماذا انقلب حميدو إلى زعيم عصابة. هل هو الإجرام بالسليقة كما يقول لومبروزو، أو هو المجتمع كما يقول چان چاك روسو؟. هذا هو الكلام المباشر فى الفن يا سليمان فاحترس.. جمال عبد الناصر يلعب الكرة الشراب مع أم كلثوم!.

عند كوبرى كرموز جرت الواقعة. انهمر الرصاص من الشاطئين كثيفًا إلى درجة أبقت حميدو طويلاً تحت الماء حتى كاد يختنق. وعندما ظهرت يد واحدة له فوق الماء صارت ذراعًا مهتزًا عرفوا أنه يطلب

الاستسلام . خرج إلى البر يقطر ماء من لباسه القصير . كان قد خلع ثيابه كلها فى الماء وكان يرفعها لهم وهو غطسان فيصوبون نحوها الرصاص بتهور ويضحك الأطفال حين يكتشفون الخدعة ويجن جنون الضابط الشاب ويصمم على إنجاز مهمته . وقف حميدو عاريًا وسط البرد ، ولكنه كان قويًا وشامخًا لم يقع والضرب ينهال عليه بأكف المخبرين الغليظة . كانوا يضربونه خائفين . بعضهم فى الحقيقة يعرفه ، فهو يسرق السفن منذ سنوات ويعطيهم مما يسرقه . لكن الضابط الصغير تقدم منه وهوى بكفه على صدغه فصوب إليه حميدو نظرة حادة كادت تفقد الضابط صوابه فتراجع وخطف عصا خيزران من يد أحد المخبرين وعاد ناحية حميدو وقال مهددًا .

ـ أمسكوه ابن القحبة وأعطونى ظهره .

كان واضحًا ما يريد أن يفعله بالعصا . تردد المخبرون للحظة وتقدم حبشى بسرعة خالعًا جلبابه القصير ووضعه فوق حميدو وهو يقول بصوت هادئ للضابط .

ـ لا يا حضرة الضابط . هذا حميدو . . حميدو لا يهان . .

المدهش أن الضابط الشاب لان واقتنع . أشار بالكلبش فوضع فى يدى حميدو الذى مشى معهم صامتًا إلى قسم البوليس بينما عاد حبشى إلى مقره بالفانلة واللباس . . سيظهر حميدو مرة أخرى بعد أيام ويمارس نشاطه ، وسيعود الضابط بعد وقت ليقبض على حميدو من جديد . إنها لعبة العسكر والحرامية التى نشاهدها مستمتعين . كيف يعمل العسكر إذا اختفى اللصوص؟ . كلوت بريچيت باردو أحمر ومقطوع . . . !!

إن أحداث الشهور الأخيرة من هذا العام مهمة ، فالأمير فهد بن

عبد العزيز آل سعود تزوج فتاة مصرية هى صافيناز نور، وسيأتى اليوم ويصبح الأمير ملكًا. كما ظهرت الترجمة العربية الكاملة لكتاب فى سبيل الحق أو قصة حياتى بقلم المهاتما غاندى، وظهر العدد الأول من مجلة جديدة هى مجلة العربى، من الكويت، صدرت فى مائة وأربع وستين صفحة ومائة وخمسين صورة ورسمًا وعشرين لوحة بسعر خمسة قروش وأعلنت محلات الكافيار عن أن سعر البطارخ الطازجة الممتازة بثلاثة جنيهات وانتشرت رياضة الهولاهوب حتى صار أعضاء برلمان ألمانيا الغربية السمان يتدربون عليها فى بدروم البرلمان، وأستطيع أن أكتب أحداثًا أخرى أكثر أهمية لكنى أرجئها الآن وأعود إلى ما جرى فى المساء قبل المغيب النهائى للشمس، وأم كلثوم تغنى شمس الأصيل من راديو العنيبسى ومرعى يستمع إليها زعلان من الانسجام! . وقعت الواقعة الثانية. فى الحقيقة الثالثة اليوم لكنى أجلت الثانية للنهاية لأنه بعدها قد تسقط الأعمدة التى تحمل السموات وينهار الكون. وما زلت أحتاج بعض دقائق للحياة، رغم أنى على يقين من سوء الحظ الذى سيلازمنى كما لازم عمى الموجود الآن مع القرود منذ عشر سنوات، وكما لازم إسماعيل أدهم فانتحر فى البحر، وفخرى أبو السعود فانتحر فى الحديقة. الأول فيلسوف والثانى أديب. فقدت الإسكندرية عقلها وقلبها منذ ذلك الوقت.

كانت الفلائك تمر عائدة بعد التنزه إلى كفر عشرى عليها بنات جميلات وشباب فوقف أولاد المساكن يقذفونهم بالحجارة طالبين ضريبة عبور. لا الذين فى الفلائك سيصعدون ليدفعوا ضريبة لأحد، ولا الأولاد يريدون ضريبة لكن هكذا جرت الأمور. كان عيد المشعور هو الذى قاد الأولاد.

دائمًا نعتبر سكان كفر عشرى أصدقاء لنا، ليس من فرط الأدب

الذى نتحلى به هنا، لكن لأنهم الأقرب فى الجيرة إلينا، إلا النسوان فلا يسلمن من معاكسة الصيع الجالسين جوار دكان العنيبسى طول النهار. فى الجو ريح حملت الأحجار إلى أجساد البنات الثلاث والشباب الثلاثة وابتعدوا وأطبق الظلام على الدنيا. عند صلاة العشاء فى الجامع فوجىء الرجال بأربعة رجال فى زى المخبرين، الجلباب البلدى والبالطو والكوفية والخيزارنة، يدخلون الجامع.

ـ السلام عليكم.

ـ عليكم السلام ورحمة الله.

ـ نحن مخبرون من قسم بوليس كفر عشرى. أولادكم ضربوا أولاد كفر عشرى وأصابوا البنات والصبيان إصابات صعبة وتقدم إلينا أكثر من شخص بشكوى ضد أولادكم..

ارتبك الرجال. كنت أنا بالصدفة خارج البيت فشاهدت الرجال الأربعة المخبرين، بل إننى أنا الذى صحبتهم إلى المسجد الصغير بالشارع الوسطانى.

ارتبك الرجال، نظروا إلى بعضهم فى حيرة حقيقية. إنهم فى العادة طيبون. تشعر أن الله وضعهم هنا فى هذا المكان وأنهم لا يعرفون من الدنيا غيره. ورغم ما يحدث بين النساء أحيانًا من شجار، فالرجال لا يتشاجرون فما الذى جعل أولادهم أشرارًا؟ قال المخبرون:

ـ يمكن أن تتصالحوا معهم لو قدمتم ترضية مناسبة واعتذارًا. سوف نساعدكم. المهم أن تحضروا معنا إلى القسم لإنهاء المحضر.

وجدت نفسى أقول:

ـ هل الشكوى ضد شخص بعينه؟

حدجني أحدهم بنظرة ثاقبة وقال :

ـ ضد سكان المساكن كلهم. ما رأيك. ؟

بدأ يتحداني. الحقيقة أني وجدت نفسي أسكت. ارتبت فيهم للحظة لكني لم أستمر في الارتياب. تطوع عدد من الرجال للذهاب معهم. سبعة رجال مشهود لهم بالهيبة وحسن الحوار. على زين العابدين والدكروان، وعلى عمران والد «بَلَلك»، وعلى الشافعي الذي بلا أولاد، وعلى المعناوي، والد عيد المشعور، وعلى ضيف والد بدرية وعلى السائح والد لطفي ومشيرة وحمزة والد نوال. . الحقيقة أن الوحيد الذي يحمل اسم على فيهم هو على زين العابدين لكني غيرت أسماءهم جريا على عادة الكتاب وأبقيت حمزة كما هو. . حمزة هو أقلهم صحة وقوة لكنه أكثرهم لباقة ودربة على الكلام. حتى الحادية عشرة لم يعد الرجال. اضطر وفد آخر إلى الذهاب بعد ضغط النساء اللاتي لم يتأخر أزواجهن كذلك من قبل. كان المطر شديداً وصحبت الوفد غير مستريح البال. شكوك كثيرة بدأت تأكلني، لكن ماذا يمكن أن يحدث. لم أصل إلى إجابة. لذلك لم أستجب للشكوك.

عند كوبرى كفر عشرى، ووسط الظلام والمطر والبرد، رأينا الرجال وسمعنا أصواتهم. كان هناك مصباح وحيد على سور السكة الحديد عند باب الدخول إلى الأرصفة، والباب مغلق بالليل ولا يوجد عمل ولا حراسة ولا حتى شخص تأخر في الطريق.

كان الرجال مربوطين بأعمدة نور ملتصقة بسور الكوبرى المعدنى، وقد عروهم من ثيابهم إلا السراويل، بانت أثار الضرب بالسياط والأحزمة الجلدية ظاهرة على أجسادهم. لم يكن المخبرون مخبرين إذن! . هذا ما كان ينهش صدرى من شك ولم أفهم. لقد حطموا

المصابيح التى فوق رؤوس الرجال ولم ينتبهوا إلى مصباح السور الخافت. كان الرجال مشرفين على الموت. مشهد غريب كمشاهد الأفلام الرومانية حين يصلبون العبيد ويرفعونهم على أعمدة فى الطريق. لم يخطر ببالى أن أرى شيئًا قريبًا من ذلك وفى البرد وتحت المطر. قمنا بسرعة بفك قيد الرجال، خلع الرجال الذين صحبتهم جلابيبهم ووضعوها فوق العراةوعادوا بالفانلات والسراويلات. لقد انتقم أهل كفر عشرى منا شر انتقام. ما كدنا نصل إلى الجامع حتى بدأ الأصحاء التفكير فى خطة للهجوم على كفر عشرى وحرقه على من فيه. صحبت النساء رجالهن المتعبين، ما كاد الأصحاء يخلون إلى بعضهم فى الجامع حتى انفجروا جميعًا ضاحكين. كنت أعرف أنهم لن ينتقموا. الناس هنا ودائع مسالمون. لقد ضرب أبناؤنا أبناءهم وهم ضربونا. علقة بعلقة والمسامح كريم. قلت بانفعال:

ـ لكن لا يجب أن نسمح لهم أبدًا بالمرور أمام المساكن من الترعة..

قالوا:

ـ فى هذه نحن معك.

بعد لحظات أدركت أن أهل كفر عشرى أنفسهم لن يجرؤوا على المرور بالترعة، على الأقل حتى ينسى الناس الإهانة، وإلى وقت طويل.. خروشوف يجلس على حِجْر مارلين مونرو!..

بين الحادثتين وجد السيد خليل السيد الأعرج فى دكانه محترقًا ومتفحمًا دون أثر للنار فى أى مكان ولا أثر لاعتداء. منذ أيام والسيد الأعرج يجلس طويلا إلى السيد خليل فى دكانه. ذلك لم يحدث أبدًا عبر السنين الطويلة التى لا يعرف أحد عددها فكل ا لناس جاءت هنا فوجدت الدكاكين الثلاثة، دكان أحمد العنيبسى، ودكان السيد

خليل، ثم دكان السيد الأعرج. احبس أنفاسك أيها القارئ فالقصة مؤلمة. السيد الأعرج بائع فاكهة وخضار لا يشترى منه أحد ولا يكف عن البيع. السيد خليل وأحمد العنيسى يبيعان البقالة وكل شىء عدا الخضر والفاكهة، آخر الليل يغلقان الدكانين و ينصرفان هما وأولادهما وعمالهما إلى بيوتهم. السيد الأعرج ينام فى دكانه، فلا زوجة له ولا ولد. يعيش السيد الأعرج على ما يشتريه بعض المارة من الغرباء. السكان هنا لا يشترون منه أبداً منذ ضبط يلوط طفلا من الأطفال. لا يذكر أحد متى وقعت هذه الحادثة لكنها كل يوم تزداد تأكيداً. السيد الأعرج أعرج بالفعل لديه التواء غريب، أصله شلل أطفال، فى ساقه اليسرى. يرتدى جلباباً قاتمًا قذراً على الدوام، وجهه طويل ضخم ولا يتكلم معه أحد. لم أر يومًا أحداً يتكلم معه واقفًا أو جالسًا. لا بد أن السيد الأعرج حين ينفرد بنفسه بالليل يتكلم كثيراً مع الجدران. ليس من السهل أن يُمنع الإنسان من الكلام كل هذا العمر لذلك كان غريبًا أن يُرى جالسًا مع السيد خليل كل يوم ومنذ أكثر من شهر. والسيد خليل الذى هو فى حوالى السبعين، يزيد عشرين عامًا على الأقل على السيد الأعرج، أيضًا يمضى اليوم فى الدكان لا يكلم أحداً، يتابع أعمال ولديه والعاملَيْن اللذين معهما وينتظر الموت. فيمَ كانا يتكلمان؟ ذلك ما قاله السيد خليل اليوم للضابط أمام الناس..

«السيد الأعرج أصيب بلوثة فى الأسابيع الأخيرة. كان كل يوم يحكى لى حكايته مع صبى جميل أحبه. أنا لم أشاهد أبداً هذا الصبى الذى حدثنى عنه كل يوم. كان أحيانًا يبكى ويقول إنه خائف من انتقام الله. لقد مر الولد الجميل أمام دكان السيد الأعرج أكثر من مرة فى أول يوم يراه فيه. كان ينظر كثيراً إلى البرتقال والموز. أشار إليه الأعرج ببرتقالة وموزة فتقدم الولد ليأخذها. جلس يأكل كمن لم يأكل منذ

سنة. الأعرج قال إن الولد كان جميل الطلعة. عيناه سوداوان واسعتان وبشرته بيضاء نضرة ووجهه مستدير كالبدر وجلبابه نظيف وفي قدميه كاوتش أبيض نظيف ومن جسمه تفوح رائحة المسك. كيف حقًا يكون مثل هذا الولد فقيراً لا يأكل البرتقال والموز؟

قال الولد إنه كان يعيش في حجرة واحدة صغيرة مع أمه وأبيه في حي القبارى. أبوه كان حمَّالا في شركة «درايكو» التي تقوم بتجفيف الخضر والفاكهة. أصبح صباح خرج فيه الأب ولم يعد. الولد ذهب مع أمه يسألان عن الأب في الشركة فقالوا لهما إنه لا يوجد شخص في الشركة بهذا الاسم. في صباح اليوم التالي لم يجد الولد الأم.. خرج يبحث عنها في الشارع فلم يجدها. عاد فوجد الغرفة مغلقة عليها قفل قديم صدئ وقال الجيران إن أحداً لم يسكن هذه الغرفة منذ عشرين سنة حين اكتشفوا بها قتيلا تحت البلاط. مشى الولد هائمًا حتى وصل إلى الملاحة فنام في إحدى الفلائك الصغيرة المركونة في البحيرة. عطف عليه الصيادون فألحقوه بالعمل معهم وفي المساء ينام في الفلائك، ينهض في الصباح وجلبابه القذر قد صار نظيفًا، غسلته الملائكة وهو نائم بالليل، أدرك الصيادون أن العناية الإلهية تكتنف الغلام الجميل فلم يؤذوه، قالوا من يدرى، غلام تغسل الملائكة ثيابه بالليل فيها سر..

كان السيد الأعرج يحكي لي ذلك ويبكي كل يوم، يقول السيد خليل لضابط البوليس، وفتح السيد الأعرج الدكان للولد ينام فيها كل مساء، وأجزل له في الفواكه والطعام..

كل يوم بالليل ينام الغلام ويظل الأعرج جالسًا ينظر إلى النور الذي يشع من وجهه ويترك الدموع تنزل على خديه، حتى جاءت

اللحظة التي مد فيها الأعرج يده يلمس خد الغلام المشرق الطرى فسرت اللذة العجيبة فى جسده وكهربته يا سيدى الضابط . كانت لذة لا توصف حتى إنه اندفع بعدها يبكى طول الليل . كان خائفاً أن يقترب منه أكثر ، لكنه لم يعد قادرًا على تحمل طغيان هذا الجمال ولا تلك اللذة تحمله إلى السموات العلى . «أطاعنى الغلام وليته ما أطاعنى» كان يقول ذلك لى ويبكى .

يخرج الولد جميلا كل يوم إلى العمل بالملاحة ويعود أجمل مما خرج فى المساء ، ولم يخبر أحدًا أين ينام وإلا حَذّروه فسمعة الأعرج تسرى فى كل مكان ، وربما أخبر الناس لكن لم ينتبه أحد .

رتب القدر كل شىء فيما يبدو ، ولم يعد الأعرج قادرًا على الانتظار . قرر أن يفوز بلذة الموت . أنزل يده من فوق خد الغلام الذى كان أحمر مثل وردة وأبيض مثل القمر ودافئًا مثل المخمل ، وترك أصابعه تمشى مضطربة إلى عنق الولد ، لقد جرت النار من أصابع الأعرج إلى جسده فكادت تفتته فقلب الولد النائم على ظهره لينام على بطنه وانقلب فوقه .

لا تؤاخذنى يا سيدى الضابط هذا ما كان يقوله الأعرج لى كل يوم ويبكى وأنا لا أصدق لأنى لم أر هذا الغلام أبدا مع أن الدكان ملاصق للدكان . لقد سقط الأعرج فوق ظهر الغلام مثل مركب حملها الموج الغاضب عاليًا ثم تركها تهوى فى الماء . برك فوقه مثل بهيمة . ولما فرد الغلام ذراعيه فرد الأعرج أيضًا ذراعيه وأحكم الإمساك بذراعى الغلام الذى كان يتململ تحته ويئن . كان الأعرج يغيب عن الوعى وهو يحكى لى كيف ظهرت بين ذراعى الولد وجانبيه أضلاع من ريش قوى ، وكيف استطاع الولد أن ينهض بنصفه الأعلى ، وكيف التصقت ساقاه

وتحول نصفه الأسفل إلى ذيل سمكة مصمت مليء بالقشور. «كاد يرفعني معه، بل رفعني عن الأرض وهو ينهض بجناحيه وتركني أسقط كالحالم الذي استيقظ ورأيته أمامي يرتفع في فضاء الدكان المظلم الذي أضاءه فجأة نور عجيب، وهبت ريح قوية فتحت باب الدكان فاندفع الغلام طائراً بجناحين مرفرفا في ظلام الكون الذي كان يضيء أمامه كلما اندفع فيه عاليًا. لقد خرجت كالمجنون ووقفت بالباب ورأيته هناك في الأعالي فوق كوم الشقافة يحلق طائراً وسط المطر متجهًا إلى نجم بعيد احترق قبل أن يصل إليه».

هذه هي القصة العجيبة التي حكاها لي السيد الأعرج، والتي ظل طيلة شهر كامل يحكيها لي ويزداد خوفه يومًا بعد يوم من انتقام السماء.

سأموت في مكاني يا معلم سيد. كان يقول لي ذلك وهو يرتعش ويبكي. ورطني الغلام بجماله وأطاعني! قلت له إن هذه أضغاث أحلام يا رجل، فلم يصدقني. قلت له مادام قد احترق في الفضاء فهو إذن جني والجن نسل الشياطين فلا جناح عليه لكنه كان دائمًا لا يصدقني واحترت معه فقلت له أنت رجل قليل الأدب ابن كلب وأنا مش فاضي لتخاريف آخر زمن هذه ومنعته من الجلوس معي حتى جاء اليوم فوجدناه محترقًا متفحمًا كما ترى وكل شيء من حوله سليم، غير ذلك لا نعرف عن هذا الرجل المسكين شيئًا، ولا نعرف حتى له أهلا ولا أقارب ولا أولادًا..

حملت الإسعاف الجثة المفحمة. لم يكلف أحد نفسه بالذهاب معها لدفنها في أي مكان، وسيغلق الدكان إلى الأبد.

انتهى هذا العام بأحداثه الكبرى والصغرى، ففازت جميلة

أبو حريد المناضلة الجزائرية بلقب أهم امرأة فى العام، كما فاز بوريس باسترناك بجائزة نوبل وتم إرغامه على رفضها. سأبحث عن روايته الفذة هذه دكتور چيفاجو وأقرؤها. كما أهدى جمال عبد الناصر أرفع وسام فى الدولة لتوفيق الحكيم تقديراً للفن والأدب. ، وقتلت بنت لانا تيرنر عشيق أمها وحكمت محكمة الأمور المستعجلة فى القاهرة برفض فرض الحراسة على أموال مسيحى تزوج من اثنتين وقالت الإنجيل ليس فيه نص يمنع تعدد الزوجات، ومات فريق السلاح المصرى كله فى حادث طائرة وكذلك حدث مع فريق الكرة البريطانى وازداد استخدام الدى. دى. تى كموضة فى الانتحار وغنت أم كلثوم قصيدة «ثورة الشك» وتم تمصير تسعمائة مؤسسة وشركة أجنبية فى مصر وأعلنت مديرية الصحة أن عدد المواليد فى الإسكندرية بلغ ألفى مولود هذا العام بينهم ثلاثون من الأجانب، وأن تعداد المدينة بلغ أربعمائة وخمسة وسبعين ألفًا بسبب ازدياد الهجرة من الريف إلى المدينة فى الوقت الذى سجلت فيه تناقص أعداد الأجانب إلى خمسين ألفًا بعد خروج اليهود والإنجليز والفرنسيين وعدد من الجالية اليونانية والإيطالية أضرت بهم إجراءات التمصير كما سجلت الرحلات البحرية نشاطًا أكبر من كل عام.

وترك سليمان القلم وتمطى وهو يحس كأنه عائد من كهف مسحور.

راح يقرأ ما كتب. أدهشته العبارات التى لا تزال تنزلق منه دون تمهيد. . وظلت لذة الكتابة تبث النشوة فى دمه. إن لديه هنا أشخاصًا وحياة وثراء ليس له نظير. . إن محطة الموسيقى تعانى من ارتباك فى الأثير كأنما هناك محطة أخرى تزاحمها فى الفضاء فهناك كلام يريد أن

ينبعث وهناك موسيقى تريد أن تستمر. لقد أصبح الصباح وكثرت محطات الإرسال فى العالم والفضاء الرحيب لم يعد كافيًا لما يرسله بنو الإنسان. مد يده يحرك المؤشر ليضبط المحطة فاندفع الكلام واضحًا وغابت الموسيقى، وسمع اسم مصر، والجمهورية العربية المتحدة. سياسة فى الفجر! لكنه لم يستطع الابتعاد بالمؤشر. كان الكلام يتضح والذهول يفتح عينى سليمان معه إلى نهايتيهما. الآن تكون قوات البوليس المصرية قد انتهت من مداهمة آلاف الأسر وقبضت على آلاف المثقفين والمفكرين والأدباء والصحفيين الشيوعيين، الذين تمتلئ بهم الآن مديريات الأمن تمهيدًا لنقلهم إلى سجون أبى زعبل وطرة وأسيوط ومعتقل الوادى الجديد. لقد وصل الصدام بين الشيوعيين والنظام إلى نقطة اللاعودة بعد خلاف القيادة السياسية مع النظام فى العراق الذى تحالف مع الشيوعيين.

وهكذا يكون النظام الحاكم فى مصر قد اعتقل أهم القوى الوطنية المصرية، فالإخوان المسلمون لا يزالون فى المعتقلات وسينضم إليهم اليساريون ولن يبقى إلا عملاء النظام الذى يتحدث عن الديموقراطية كل يوم ويسجن البلاد والعباد.. إذاعة صوت مصر الحرة.. إذاعة صوت مصر المستقلة...

* * *

القسم الثالث

(١)

كيف لم تكتب الصحف أى شىء عن القبض على الشيوعيين . شهر كامل مضى الآن على الليلة الأخيرة من العام، وفى كل يوم يشترى فى طريقه إلى المدرسة صحيفة «الأهرام» فلا يجد أى خبر ، ولا فى «الأخبار» أو «الجمهورية» اشترى فى الليل صحيفة «المساء» واشترى المجلات الأسبوعية ولا خبر ، والإذاعة التى التقط منها الخبر لم تستمر . . تداخلت فيها أصوات إذاعات أخرى فلم يسمع إلا وشيشًا مزعجًا . لم يستطع العثور على هذه المحطة الإذاعية مرة أخرى . كأنما كانت مخصصة لبث هذا الخبر له هو بالذات، لا لأحد آخر . لم يجد أحدًا يتحدث فى الموضوع فلماذا يشغل باله حقا؟ وما علاقته هو بالشيوعيين؟ لم يقرأ شيئًا فى الشيوعية . مرت عليه بعض الصفات السيئة لها فى معرض التنديد بفظائعها، بعد أن دخل الجيش السوفيتى المجر أواخر عام ١٩٥٦ . يذكُر أن كتابًا صدر عام ١٩٥٧ . لونه أحمر وعلى غلافه دبابة ودخان وقتلى وعنوانه بالأسود «عندما تدخل الشيوعية بلدًا» لكنه لم يشتر الكتاب ولم يهتم . ضحك من نفسه كيف حقا يهتم بخبر القبض على الآلاف من المثقفين بتهمة الشيوعية ربما لأنهم مثقفون، ولم يستطع أن يتخلص من رغبته أن يعرف شيئًا عن المسألة، وظل يقلب فى الصحف . . اكتشاف مؤامرة لاغتيال صائب سلام رئيس وزراء لبنان الأسبق عند عودته من القاهرة،

وظهرت رواية «فى بيتنا رجل» لإحسان عبد القدوس، اشتراها والتهمها فى يوم وليلة، رواية بسيطة عن الوطنية والحب، اندهش من المدرس الذى انتحل صفة طبيب فى إحدى المدارس الثانوية للبنات، لم تذكر الصحف اسم المدرسة رغم أن الجميع يعرفون أنها مدرسة المعلمات بالورديان، وراح يكشف على البنات بحجة أنه طبيب ويعبث بيده، طبعًا، فيما يستطيع أن يصل إليه من أجسادهن. دب الفزع فى مدارس البنات وامتنع الأهالى عن إرسال بناتهن للمدارس لعدة أيام ثم عاد كل شيء كما كان، وأصيبت البيچوم أغاخان بأنفلونزا حادة فاعتكفت فى فندق شبرد. أهدت ملكة إنجلترا لقب سير للممثل إليك جينس عن دوره فى فيلم «جسر على نهر كواى» الذى سيعرض قريبًا فى القاهرة، لكن لا خبر عن القبض على المثقفين بتهمة الشيوعية، وبلغت جُملة ما بيع من رواية «دكتور جيفاجو» التى يبحث عنها بشدة، فى لندن وحدها، ثمانمائة وخسين ألف دولار ستوضع فى أحد بنوك سويسرا حتى يحصل عليها باسترناك يومًا ما. إذن لقد ترجمت الرواية إلى الإنجليزية والأمل كبير أن تصل مصر ويقرؤها، وأقام الأرمن بالإسكندرية حفلا موسيقيًا جميلا فى القاعة الرخامية الكبرى بقصر رأس التين - هذه إحدى فوائد الثورة فهو يستطيع إذا أراد أن يذهب إلى القصر - وعزفوا فيها موسيقى خاتشا دوريان وفولكلور من أرمينيا.. لماذا حقا لم يحاول فهم الموسيقى. إنه يحب الأغانى، لكنه يحتاج أن يفهم الموسيقى، خاصة الكلاسيك، كيف يعد نفسه ليكون كاتبًا دون أن يفهم الموسيقى. وأرسل خروشوف رسالة إلى عبد الناصر يقول فيها إن التعاون بيننا مثال رائع للتعايش السلمى، ورد عبد الناصر بأن الصداقة سوف تزداد بين شعبينا مع الأيام.. وخروشوف هذا رئيس وزراء دولة شيوعية، فهل يعقل أن يقبض عبد الناصر على

آلاف المثقفين بتهمة الشيوعية ثم يتبادل مع خروشوف هذه الرسائل الودية؟!

كان الاتحاد السوفييتى هو النصير الأول لمصر أيام العدوان الثلاثى العام قبل الماضى، والاتحاد السوفييتى الآن يعد الخطة لبناء مشروع السد العالى الذى سحب البنك الدولى تمويله عام ١٩٥٦، مما دعا عبد الناصر لتأميم القناة فكانت الحرب! إذن هذه الإذاعة التى استمع إليها كاذبة مغرضة!

الأهم هو لماذا يصر على البحث عن الحقيقة حول شىء لا يهم؟ يضحك ويبتسم من نفسه ويشترى الصحف ويقرأ المجلات. انتصار جديد للشيوعية فى كوبا. . كاسترو يدخل هاڤانا بعد جهاد عامين ونصف ضد الدكتاتور باتيستا. باتيستا هرب من البلاد، ولأول مرة تلتحق أربع فتيات من خريجات كلية الحقوق بسلك النيابة فى مصر، نيابة إدارية لكنها نيابة، ودعوة فرقة المسرح القومى لتسافر إلى الكويت فتحدث مشاكل هناك، تيار كبير لا يريد لها أن تمثل على المسرح الذى لم يحدث أن مثلت عليه امرأة من قبل، والفرقة القومية المصرية بها نساء، ولكن الصحافة المستنيرة تقاوم التخلف وتكتب: «الفرقة يجب أن تحضر، ويجب أن تمثل، والشمس ستظل تدور حول الأرض، ولن تقوم القيامة». طالب جامعى يفتتح مطعمًا فى القاهرة يقدم فيه المأكولات وهو يرقص الهولا هوب، الحدث الذى هز الدنيا هو إطلاق الاتحاد السوفييتى قمرًا صناعيًا إلى الفضاء، سيقوم بنشر قاعدة ومحطة أرصاد فوق القمر مما دعا بريطانيا إلى القلق أن يتمسك الاتحاد السوفييتى بملكية القمر. وبدأ سيناريو عرض فيلم أنا حرة للممثلة الجميلة السمراء لبنى عبد العزيز، كذلك بدأ عرض فيلم غزاة الشمال، الفايكنج، بطولة كيرك دوجلاس وتونى كيرتس وجانيت لى فى

القاهرة، ولا بد أن جميع الأولاد فى المساكن سيذهبون لرؤيته حين يعرض بالإسكندرية، فهم يعشقون كيرك دوجلاس، ولقد تم اكتشاف موقع الإذاعة السرية التى بثت الأفكار السامة ضد مصر، إنها تأتى من القاعدة الأمريكية فى أطنة فى تركيا، إذن لا توجد مشكلة مع الشيوعيين فى مصر، ولم تقبض الدولة على أحد، فلا توجد أى إشارة لذلك فى الصحف، إلا ما كتبته صحيفة الأخبار فى صفحتها الأولى فى شكل خبر صغير يقول تم نقل مجموعة من الحيوانات إلى مكان أمين، ولم يعرف أحد لماذا يكتب خبر الحيوانات فى الصفحة الأولى ومن المؤكد أنها لا تقصد الشيوعيين، والإذاعة انكشفت فهى معادية للوطن، وعليه أن يرتاح من عناء البحث فى شيء لا يهمه من الأساس!! لينتبه إلى ما يحدث حوله. إنه يسمع زفة أطفال قادمة من القبو، يضحك ويضحك الجالسون محمود الملاح وتاجر البهار ومحمود القزعة وعماله والذين لا يعرف أحد من أين أتوا!.. اليوم هو موعد وصول جدى خميس الجمّال إلى المساكن. الأطفال جميعًا يمشون وراء على زين العابدين وهو يقصع المسافة الطويلة من المساكن حتى مقلب الزبالة على حدود البحيرة وجنوب منطقة القبارى حيث خلاء كبير تلقى فيه القرية فضلاتها، هناك أقام خميس الجمَّال حظيرة خنازير ومنزلا له ولأسرته. جوار حظيرة الخنازير أقام حظيرة أخرى للمعز والأغنام والجمال. فى الحقيقة ليس لديه غير جمل واحد لكن يبدو أنه كان تاجرًا قديمًا فى الجمال. قال مرة إن أهله البدو من الصحراء الغربية كانت لهم رحلة سنوية يحضرون فيها الجمال من ليبيا لبيعها وذبحها فى الإسكندرية.

يمشى الأطفال المسافة وراء على زين العابدين، وكروان دائمًا مع أبيه فى هذه الرحلة. حاول اليوم أن يعتذر لكن أباه الذى ابتسم قال له:

«لا تكبر على أبيك يا ولد. تعال معى فلقد تعودت عليك» يعبر الأطفال القبو خلف على زين العابدين، ويمشون فى الخلاء حتى يصلوا إلى مقلب الزبالة ثم يعودوا خلفه أيضًا لكن هذه المرة سحب الجدى بحبل قصير أعطاه لكروان فى الحقيقة. يعلق حزمة برسيم صغيرة فى رأس الكبش المسكين، و الأطفال يصفقون ويضحكون. هو إذن كبش وليس مجرد جدى، له قرنان كبيران معقوفان إلى الخلف ورأس صغير ناشف وخطم رفيع مدبب، وجسم قوى ضخم، لكنه كما يقول الناس لا يصلح للأكل، أى لا يمكن ذبحه. لماذا؟ لأن له عملاً واحدًا يقوم به وهو تعشير إناث المعز لذلك فلحمه متفسخ مهرى.. هرّهرّ.. يقول على زين العابدين الأطفال يضحكون.. شى..حا.. يبالغون كأنه حمار.. أصعب مرحلة هى عبور القبو المظلم دائمًا بسبب «زبيبة» الذى كلما جاء عمال البلدية ووضعوا اللمبات دخل بعدهم وكسرها جميعًا.. شر مجانى.. شيطنة صبيان ربانية! والكبش الذى سبق له العبور مرات عديدة فى كل مرة يحرن ويتلكأ ويحاول التراجع ويثغو، ما يكاد يخرج من الظلام حتى ينظر إليهم مندهشًا، تتسع عيناه ويقفز فى الهواء فرحا، ويكاد يتكلم.. يجرى كروان المسافة الباقية مستغلا حالة الفرح التى فيها الكبش، وها هو يجرى به الآن والأطفال يضحكون وعم على لا يستطيع الجرى، يمد الخطى ويتابع الموقف من بعيد. لقد عبروا جميعًا أمام الجالسين على السلالم المؤدية للقبو، الذين لم يتوقفوا عن الضحك، وبدأ عم على يطلب من الأولاد الرجوع بصوت عال، فالكبش يقترب من بوابة المساكن وبعدها سيختفى فى البيوت. عند البوابة تفرق الأطفال على شارع قنال المحمودية وشاطئها والأرض الواسعة أمام وابور النور. رحلة الكبش بعد ذلك معروفة سيبدأ من البيت الثالث،

بيت محمود عمران فالبيت الأول الذى يسكنه صالح والبيت الثانى الذى يسكنه محمد على زوج أم الضابط لا يربيان المعز، ولا حتى طيوراً من أى نوع، يمضى الكبش قرابة شهرين بالمساكن، يبيت ليلة عند كل عائلة، ينتقل من عشة إلى عشة حتى ينتهى من تعشير كل المعز، ويحصل خميس الجمال على شلن عن كل عنزة. يوم خروجه لا تقل فيه زفة الأطفال عن يوم دخوله. لكنه لا يستطيع يوم خروجه الجرى، يبدو منهكا مطرقًا إلى الأرض مضطربًا من النور الذى يغمر الكون بعد شهرين قضاهما فى عشش مظلمة. بالراحة يا أولاد الكبش تعبان. يترنح بالفعل ويكاد يقع. فى هذه المرة لا يذهب به عم على إلى خميس الجمال. يأتى خميس بنفسه ليأخذ الكبش. مشوار العودة متعب وعم على يدرك ذلك. لكن فى لحظة تدب القوة فى الكبش ويبدو مختالاً بالفعل بما فعله. لقد قام بتعشير أكثر من مائة معز، رقم بطولى لأى فحل. لكنه سرعان ما يتكاسل، ويمشى متعبًا ذليلا غير قادر على المضى للأمام. تمر أيام قليلة ثم يشاهد خميس الجمال خارجًا من القبو ساحبًا فى يده الكبش تنتظره سيارة نصف نقل فى الشارع يصعد إليها مع الكبش الذى سيقوم بتوصيله إلى جهة أخرى فى الإسكندرية فى الأماكن العشوائية التى تنمو فى الشرق والغرب، لقد استرد الكبش عافيته بسرعة وعاد للعمل.

ـ ما رأيك فى عمل فيلم عن الكبش يا محمود؟!

تساءل سليمان فنظر إليه محمود فى غيظ.. لكن سليمان قال:

ـ أنا لا أهزر.. فيلم ولو قصير جداً.. لقطتان فقط، الأولى وهو يدخل قويًا حوله الأطفال ينظر إليهم فى شموخ رافعًا رأسه، والثانية وهو يخرج زائغ النظرات لا يستطيع أن يرفع رأسه عن

الأرض يمشى فتحسبه يمشى على ساقيه الأماميتين فقط إذ يكاد ينكب على وجهه.

هنا ضحك محمود الملاح.. ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه لولا أن خلفه جدار دكان العنيبسى.. وقال تاجر البهار..

ـ والله فكرة الأستاذ سليمان جديدة، ويمكن توسيع القصة فتجعل الكبش يدور فى الأحياء الشعبية ثم يصل إلى القرى القريبة من الإسكندرية، كفر الدوار مثلاً ورشيد من الشرق، والدخيلة والعامرية من الغرب.

قال محمود ساخراً.

ـ ويسافر بالقطار بالدرجة الأولى فى الديوان!

هنا هتف سليمان قائلاً!

ـ ولم لا ؟ يلبس چاكت، وتعلق فى عنقه بابيون أبيض أو أحمر، وينزل فى المحطات ويكون فى انتظاره العمد والأعيان وأفراد الشعب.

أضاف تاجر البهار:

ـ ولا مانع طبعًا من السفر، ما دام هو يركب القطارات، إلى أسوان والعودة إلى مرسى مطروح، وهكذا يمر على كل البلاد..

قال محمود الملاح..

ـ ويفضل لو علمناه ركوب الطائرات.

فقال سليمان:

ـ فى هذه الحالة سيقوم بالدور اللازم فى كل الأمةالعربية..

كان محمود القزعة يتابع هذا الحوار العجيب والسيجارة بين إصبعيه

لا ينتبه إليها. انتهت وحرقته فنترها بشكل مضحك وضحكوا هم بدورهم، كان ضحكهم أكثر على هذه الأفكار العجيبة التى انطلقت من أفواههم بلا ترتيب، وبعد أن سكتوا بدا الغم الحقيقى على محمود الملاح. لقد ذكروه بالسينما التى حذفها من حياته فقام بهدوء وانصرف دون حتى أن يلقى السلام.. سكتوا هم بدورهم.. أدركوا سر حزنه وانصرافه.

فى اليوم التالى لخروج الكبش من البلاد، كما يحلو لسليمان أن يقول فى كل مرة، عاد العمال آخر النهار، وعرجوا فى طريق العودة إلى المرعى الذى يتركون فيه المعز فى الصباح، فلم يجدوا المعز. كل المعز.. وقفوا غير مصدقين. هل عادت المعز وحدها؟ هى حقا تستطيع ذلك لكنها لم تفعله من قبل قط. شىء ما غير طبيعى حدث اليوم. هل صادرتها المصلحة؟ لا يمكن. للأسطوات وللمفتش ولموظفى الحركة، معز بينها. لا يمكن خروج المعز إلا من طريقين، إما من أمام الشرطى القابع عند بوابة المساكن الخلفية التى تفضى إلى السكك الحديدية، أو من البوابة الكبيرة لمنطقة السكك الحديدية كلها التى تفضى إلى سيدى كريم بغيط العنب. الطريق إلى المساكن أقصر.. وربما تكون المعز قد عادت وحدها لأول مرة فى التاريخ! لكن الشرطى أخبرهم أنه لم يرها تعود، لا وحدها ولا مع أحد، وأنها لم تصادر من قبل المصلحة وإلا لكان هو أول العارفين، ولا بد أن المصلحة كانت تستعين به فى أمر كهذا. إذن لقد سرقت المعز! أخذها لص يعرف مواعيد خروجهم وعودتهم. سرقها وقت القيلولة حين يعودون إلى بيوتهم لمدة ساعة أو ينامون فى أماكن أعمالهم. لكن هل يسرق كل هذه المعز شخص واحد؟ أكثر من مائة عنزة قام كبش خميس الجمال بتعشيرها خلال

شهرين كاملين وكانت ستلد جميعًا بعد شهور . خسارة فادحة وسارق ليس غريبًا عنهم . يمكن أن يساعده لصوص من أماكن بعيدة ، لكن السارق الأصلى الكبير ، شخص من المساكن . ترى من يستطيع أن يفعل ذلك؟

اجتمع الرجال فى الجامع الصغير ، هو فى الحقيقة زاوية ، الذى يتوسط المنازل ويفتح بابه على الشارع الوسطانى . فكروا فى سلامة سلام . قيل إنه سافر إلى الصعيد منذ أسبوعين . فكروا فى أحمد حجازى فوجدوه محجوزًا فى قسم البوليس منذ يومين بسبب محاولته سرقة أجزاء من قطار سكة حديد قديم واقف فى ورش منطقة الزيتون . وليس حبشى بسارق ، فهو لا يغامر بعداوتهم ، ثم إنه رجل يعيش على هامش الترعة من زمان صديق للبوليس وللصوص ا لمراكب معًا ، يعيش على ما يقدمه له هؤلاد وأولئك ، ولقد عثر منذ أيام على لقيط جديد فضمه إلى فريق اللقطاء وأرسل بنتًا من بناته تطلب شيئًا من لبن المعز لهذا اللقيط الجديد . حبشى لا يمكن أن يسرقهم . واليوم ليس جمعة ، موعد سوق الأغنام والمعز بجبل الطوبجية بكوم الشقافة . السارق إذن أخذها إلى سوق آخر . اكتشفوا أنهم لا يعرفون فى الإسكندرية سوقًا آخر ! كانت ليلة سوداء بحق ! أطفئت فيها المصابيح مبكرًا ونام الأهالى مغمومين ! الثروة القومية ضاعت كما قال مصطفى ، وعليه العوض فى ثورة يولية ! لكن الرجال ظلوا يتقلبون فى مخادعهم طول الليل . أجهد كل منهم ذهنه فى محاولة الوصول إلى إجابة السؤال ، من السارق؟ وأين ذهب بالمعز؟ كانوا قد توصلوا فى اجتماعهم بالجامع إلى إرسال شخص فى الصباح إلى العامرية وآخر إلى الضهرية وثالث إلى كفر الدوار ورابع إلى الدخيلة . هكذا يكونون قد بحثوا فى الإسكندرية والقرى القريبة منها شرقًا وغربًا ، ثم إن حضور سوق كوم الشقافة بعد

ثلاثة أيام سيفيدهم. اختفاء مائة عنزة وبيعها أمر سيمر ببعض التجار بالتأكيد.

ضحك محمود الملاح بشراسة وهو يجلس مع تاجر البهار يتأملان محمود القزعة الذى يتأمل صعود وهبوط أرداف النساء فى نزولهن السلالم التى تؤدى إلى القبو فى الطريق لشراء السمك، كان الوقت كالعادة مغربًا، وحركة النساء قليلة، والهدوء يلف الكون، لولا صخب الأولاد الذين يلعبون الكرة الشراب قريبًا من الشارع. أخذ محمود القزعة نفسًا طويلا من السيجارة التى بين يديه ونفثه على مهل فى الفضاء. كان واضحًا أنه مشغول بتأمل عميق. نظر إلى محمود الملاح وتاجر البهار وسليمان الذى انضم إليهم منذ قليل وقال:

ـ ألم تجد لى حلا بعد يا أستاذ سليمان؟

ـ فيم يا معلم محمود؟

ـ هل هناك موضوع آخر عندى؟ اليوم الذى صمته وضاع منى.

ابتسم سليمان.. ها هو محمود القزعة يعود إلى موضوع قديم ظن سليمان إنه قد نسيه تمامًا. ولم يجد كلامًا يقوله هذه المرة، فقال محمود القزعة.

ـ تعرف مثلا أن المعز يمكن أن تعود لكن ذلك اليوم الذى صمته لن يعود.

هز سليمان رأسه وقال:

ـ طبعًا طبعًا.. هذه مسألة أخرى. كل شىء يذهب يمكن أن يعود إلا الزمن يا معلم محمود.

هز محمود القزعة رأسه بالموافقة، لكن كان واضحًا عليه الاستياء المكتوم. دخل محمود الملاح فى الكلام فقال:

ـ تعرف يا معلم محمود أنه منذ أن صمت أنت هذا اليوم والبلد كلها في كرب.

نظر إليه القزعة في استخفاف وقال:

ـ يعني مثلا خد عندك عبد الحليم حافظ، مريض، أجرى عملية جراحية جديدة في السر، ورغم أنه لم يمض عامان على العملية السابقة. وعندك جمال عبد الناصر، تعبان جداً، كل يوم مؤامرة لاغتياله، واليهود طفشوا، والطلاينة واليونانيون بدأوا يطفشون، ولن يبقى في الإسكندرية غير ثلاثة محلات فول لليوغسلاف، وخمسة محلات تصوير للأرمن، وخمارتين للسكارى من القبارصة، وأهم من هذا كله أن المعز قد سرقت كلها والناس في غم.

انطلقوا جميعًا يضحكون باستثناء محمود القزعة الذي يحاول كتمان رغبته في الضحك من هذا الكلام العجيب الذي لم يخطر بباله، وبعد أن فرغ من تأمل ردفي امرأة تمشي خارجة إلى الشارع، وكانوا هم قد سكتوا وراحوا يتأملونه بدورهم في صمت حتى يعطوه فرصةالفرجة كاملة، بعد ذلك قال:

ـ لكن أنا شفت صورة عبد الناصر عيان جداً، لكن هذا سر من أسرار الدولة.

وهنا تأمله محمود القزعة قليلا ثم قال:

ـ وطبعًا حضرتك عارف؟

ـ طبعًا.

ـ يعني حضرتك تركت السينما واشتغلت بالسياسة، تصدق بالله

أنت وهو وهو ، هذه البلد لن ينصلح حالها إلا إذا مات كل الرجال وخصوصًا العواطلية أمثالكم ، ولم يتبق بها غيرى أنا والنسوان ، ضحكوا بشدة واستمر هو يتكلم :

ـ وأنا لن أرتاح ولن ينام لى جفن إلا بعد أن أسرق كل نسوان البلد ، تمامًا مثل ابن القحبة الذى سرق المعيز !

هنا قال تاجر البهار بهدوء وأداء تمثيلى رفيع :

ـ هذا حقك يا معلم محمود . . أنت على أى حال لست أقل من كبش خميس الجمال . .

المدهش أنه لم يعد موجودًا فى مكانه بمجرد انتهائه من الكلام . قفز قفزة كبيرة ، وقبل أن يستوعب محمود القزعة المعنى كان تاجر البهار يقف ضاحكًا بعيدًا قرب المعدية . . ضحك محمود الملاح وقام يضرب كفيه غير مصدق تاركًا المكان ، كذلك ضحك سليمان ومشى يهتز جسده من الضحك ، وقف القزعة وحده يتأمل تاجر البهار الذى يقف بعيدًا فى غيظ ، فى الحقيقة كان بوده لو ضحك ، لكنه لم يستطع . كان من قبل قد أشعل سيجارة جديدة نسى أنها بين إصبعيه ، وكانت كالعادة قد انتهت ، فأحرقته فنترها بعيدًا ، قفز فوقها بحذائه هذه المرة ودهسها فى الأرض .

تفرق رجال المساكن فى الأيام التالية شرقًا وغربًا ولم يصلوا إلى نتيجة . فى سوق كوم الشقافة لم يصدقهم أحد من التجار ، صاروا يضحكون منهم حينًا ، وحينًا يرثون لهم . . عند المغرب ، ومعظمهم يجلسون فى حيرة يقلبون الأمر الذى استحال إلى لغز حقيقى . ظهر الديب عائدًا ، صخب الأولاد المجتمعون عند الماكينة الحمراء ينادون عليه . هتف الديب :

ـ عندى حكاية مهمة، لكن الأهم الآن هو أن أرشد أهاليكم عن مكان المعز.

سرعان ما تجمع حوله الرجال وجلس هو صامتًا لحظات ثم قال:

ـ المعز فى طنطا.

ـ ماذا تقول يا ديب؟

ـ هذه هى الحقيقة، ولقد تم التضحية بمعظمها أمام مسجد سيدى أحمد البدوى.

ـ لكن كيف عرفت أن المعز سرقت من هنا أصلا؟

ـ حدث أن القطار الذى أحرسه دخل المخزن فى طنطا لمدة يومين لتبديل بعض العربات، رحت أتسكع داخل المدينة، وأصلى الوقت بوقته فى الجامع الأحمدى. وصل إلى أذنى بأحد المقاهى حديث بين تاجرين يتناقشان فى سعر مائة عنزة مسروقة من الإسكندرية. سمعت أحدهم يقول إنها ملك لعمال السكة الحديد، قلت إذن هى معز المساكن، كانوا يختلفون على السعر، المشترى يريد أن يدفع جنيهًا لكل رأس كبير فى صغير، والبائع يريد مائتين. انتهيا إلى مائة وخمسين.

استمر الديب يشرح لهم ما سمعه من البائع الذى سافر بالمعز مشيًا إلى طنطا خلال يومين كاملين ليلاً بنهار، لم يسترح إلا ساعات، وقال إنه اختار طنطا لبعدها ولأنها لن تخطر على بال أحد ولسرعة تصريف المعز أمام المسجد الأحمدى. قال الديب إنه يعرف شكل التاجر واللص وأن ذلك يحتاج أن يعود بهم بسرعة إلى طنطا مع وفد قوى.

سافر معه على زين العابدين ومحمود عمران وحمزة الذى ضحك

وقال: لعلهم لا يحبسونا هناك ويضربونا كما فعل رجال كفر عشرى.. فى الساعة الأولى لوصولهم التقوا باللص فى المقهى.. استدرجوه إلى خلاء قريب من ورش السكة الحديد وهم يحدثونه عن رغبتهم فى بيع عدد كبير من المعز والشياه، وفى وسط الخلاء ضربه محمود عمران «مقصًا» بقدمه فأسقطه على الأرض وجلس الثلاثة حوله وأمسكوا به من خناقه فكاد يموت بين أيديهم.

ـ أين التاجر الذى بعت له المائة عنزة؟

ـ لا أعرف.

ـ إذن سنقتلك هنا أيها اللص، ولا من شاف ولا من درى.

ـ لماذا تقتلوننى؟ أنا لست لصًا، لقد اشتريتها من واحد من أولادكم.

ـ أولادنا!

ـ أجل.

ـ من هو؟

ـ لا أعرف اسمه. لكن لا أنسى شكله. ولد فيه شىء لله.

ـ فيه شىء لله؟

ـ أجل.. شعره أسود وحافى، كان أثناء الكلام كلما مرت أمامنا امرأة تركنى ومشى حتى لحق بها ونظر فى عينيها وعاد، مجنون يعنى.

نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم، ثم انطلقوا يضحكون. لقد فعلها عيد المشعور وهذا آخر ما كان يخطر ببال أحد.

ـ بكم اشتريتها منه؟

ـ بخمسين جنيهًا .

انهالوا عليه ضربًا، فهو اللص الحقيقى الذى غرر بالولد الطيب، كاد يموت فى أيديهم بالفعل فقال إنه يعرف التاجر الذى اشتراها، لكن المشكلة أنه أيضًا باع منها عددًا كبيرًا للفلاحين ذبحوها كنذور أمام المسجد، من ناحية أخرى، لم يتبق معه من المائة والخمسين جنيهًا التى باعها غير خمسين جنيهًا، لكنه يستطيع أن يدبر لهم خمسين جنيهًا أخرى فيما بعد، حتى لو سافر بها إليهم فى الإسكندرية .

ـ هيا معنا إلى التاجر الذى اشترى .

ظهر أن التاجر الذى اشترى المعز سبق له أن تعامل مع على زين العابدين فى تجارة البطاطين والأحرمة الصوف . اعتذر لهم بشدة، قال إنه باعها كلها، ما ذبح منها، وما لم يذبح، لعدد كثير لا يذكره من المشترين، وأن ما تجمع لديه من البيع هو مائتى جنيه، إذا أخذ منها المائة والخمسين التى دفعها للص يتبقى خمسون جنيهًا هى ربحه ويستطيع أن يدفعها إليهم .

تجمع معهم مائة جنيه، ثم أضاف إليها التاجر خمسينًا أخرى وقال إنه يعرف كيف يأخذها من التاجر، اللص، الذى باع له المعز . قال حمزة فى نفسه «الاثنان لصان كبيران يلعبان بنا لكن لا بأس» ثم قال بصوت مسموع :

ـ لو عدنا بسرعة ولحقنا بعيد قد نجد معه الخمسين جنيهًا فتكون خسارتنا بسيطة .

لكن عيد الذى اجتمعوا حوله فى اليوم نفسه تركهم يفتشون جيب قفطانه باسمًا، لم يجدوا شيئًا ولم يكف هو عن الابتسام . لم يكن عيد وحده، كان معه شخصان معتوهان لا يعرف أحد من أين أتى بهما ولا

إلى أين يذهب معهما. أمسكوه من ذراعيه يهزونه بعنف.. أين الفلوس ثمن المعز يا عيد؟ لكن امرأة جميلة ظهرت فى الطريق وجهها يشتعل تحت ضوء الشمس الأخير، وعيناها تشعان نورا، حاول هو أن يفلت من أيديهم، لكنهم تشبثوا به حتى ابتعدت المرأة كثيراً فى اتجاه كفر عشرى، وفى لحظة خاطفة هبط عيد إلى الأرض وجرى خارجًا من القفطان الذى كانوا يتشبثون به من الكمين. لذهولهم وجدوا القفطان فى أيديهم وسمعوا ضحكات الأطفال التى انفجرت من كل مكان يقفون فيه بينما كان عيد يسرع فى تصميم عجيب نحو المرأة وليس فوقه غير الفانلة واللباس.

(٢)

دبّت الحركة فجأة فى بيت ألچونى. هى وأمها وأختها الكبيرة المتزوجة التى تعيش فى محرم بك يعملن بهمة فى تنظيف البيت. يصعدن إلى السطح بالمراتب والحشايا ويرششن الفنيك فى الأركان وفى الحمام وعند عتبة البيت وينظفن النوافذ والأبواب.. زائر هام سيزور البيت اليوم.

الأولاد فى إجازة بمناسبة الذكرى الأولى للوحدة بين مصر وسوريا، شارع المحمودية منذ الصباح ممتلئ بهم، وبعضهم ذهب إلى الملاحة لصيد السمك، البنات الصغيرات لم تخرجن بعد، وإن كن يهيئن أنفسهن للخروج عصراً للعب الهولا هوب بالأطواق، اليوم سيخطب خير الدين ألچونى.. ففى بيت خير الدين كانت الزغاريد ترتفع من وقت لآخر.

السؤال المكتوم على وجوه الناس قالته أبلة نرجس لزوجها، هل

يصلح خير الدين لألچونى؟ هو بدوره أجاب بإيجاز، ولم لا؟ سكتت أبلة نرجس التى لم ترتح للإجابة. فكرت أن تعلق ولو بكلمة، لكنها سكتت من جديد. منذ العلقة العجيبة التى نالها مع الرجال فوق الكوبرى وقد تغير حاله. فى صمت يأكل، فى صمت يخرج، فى صمت يدخل، فى صمت يتكلم! لقد رتب نفسه وحده على الانتقام، تردد عليه محمود عمران، كيف يحدث أننا نسكت، لا كنا رجالاً من الصعيد ولا كان الصعيد. قال له دعنى أرتب المسألة. تعلقت هى به، أمسكت برقبته وتوسلت أن ينسى لما رأته يجهز الحبال والأجولة التى سيضع فيها الرجال، وسمعته يقول لمحمود عمران أن ينقل بالليل عدداً من الأحجار، يفرغها على شاطئ الترعة تحت الكوبرى بحيث لا تلفت انتباه أحد. كان واضحًا أنه قرر إغراق رجال كفر عشرى فى ترعةالمحمودية وإلى الأبد. سافر إلى الصعيد وعاد. سيصل بعد أسبوع عشرة رجال. قال لمحمود عمران الذى قال بدوره، وأنا توصلت لعناوين الرجال الذين ادعوا أنهم مخبرون ولمن شارك معهم. . ولا يعرف أحد من الذى كان وراء الحضور الجماعى لعدد كبير من رجال كفر عشرى، فجأة وبلا موعد إلى المساكن. . جاءوا معهم بالجناة وأوقفوهم أمام رجال المساكن.

«ها هم. . اقتلوهم لو شئتم. . ها هى العصى لضربهم وها هى السكاكين لذبحهم، وها هى المسدسات لضربهم بالنار» إذن لقد فسد الترتيب كله. من الذى أخبر أهل كفر عشرى بما يجهز لهم. وهل يمكن أن يتم هذا بالصدفة؟ قال كبيرهم لعلى زين العابدين لقد سمعت باسمك بين الرجال الذين أهينوا، فلم يغمض لى جفن حتى أتيت إليك بالجناة. كان تاجراً مشهوراً هناك، كره على زين العابدين هذه التجارة

التى تجعل له أصدقاء فى كل مكان. كان لها أثرها الإيجابى يوم سرقت المعز، أما هذه المرة فقد أفسدت الانتقام.

كما يحدث فى مثل هذه الحالات لم يعاقبوا الجناة، الذين بدورهم أخرجوا ثلاثمائة جنيه، كان كبار الحى قد حكموا عليهم بها. لكن أهل المساكن أيضًا لم يقبلوا الفلوس، فاشتروا أربع بقرات سمان ذبحوا اثنتين منها فى المساكن، ووزعوا لحمها على الناس، ثم ذبحوا الأخريين بكفر عشرى. انتهت القصة بدم لكن حلال!، وظل على زين العابدين على حالته. معبأ بالصمت فى كل وقت.

كانت ألچونى فى البيت هى الأكثر حركة. صوتها يعلو وهى تنادى أختها، أو ترد على أمها، وكثيراً ما تشرد وهى تعمل فتبتسم أختها فى مكر.. لم تكن ألچونى سعيدة ولم تكن حزينة بالطبع. كان قلق غير مفهوم يسكن عينيها ويتسع فى صدرها. ذهبت إلى أبلة نرجس بعد أن تم ترتيب البيت، وقبل أن تستحم، تطلب منها بعض «البارفان» الغالى الذى لا يوجد إلا عندها حيث تشتريه من محل لمبروزو بالمنشية.

ـ بسم الله ما شاء الله.. وردة يا چونى.. النار طالعة من وجهك تحرق كل عدو وحَسّاد.

قالت أبلة نرجس وهى تبتسم فى فرحة حقيقية.. وأعطتها زجاجة البارفان كاملة.

ـ شانيل يا چونى.. عطر فرنساوى غالى لا يخرج إلا للغاليين وهمست فى أذنها ـ الشمة الواحدة تدوخ أجدع رجل.

ابتسمت ألچونى واحمر وجهها ولم تستطع أن تمنع نفسها من المزاح فقالت:

ـ خير الدين دائخ طبيعى يا أبلتى، ربنا يستر عليه.

ضحكت أبلة نرجس، وتأملتها فى دهشة ثم قالت:

ـ اسمعى يا چونى، ما دمت تحبينه لا تتراجعى.

ـ حاضر يا أبلة.

قالت ألچونى فى رضا جميل، وأضافت أبلة نرجس:

ـ ثم ما دام أبوك وأمك موافقين لا يهمك شىء.

ـ أبى موافق.. أمى مترددة.. موافقة من أجلى.. أنا موافقة لكن خائفة.. ساعات أقول لأ وساعات أقول آه.. لنفسى يعنى غير معقول إنه يخرج من المستشفى دون شفاء يا أبلتى.. لا بد أنه شفى تمامًا، لا بد أنه سليم.. أليس كذلك؟

على الجانب الآخر كان خير الدين يجلس فى البيت مع سليمان وكروان سعيدًا. لا يكاد يجلس إلا لينهض ينظر فى المرآة.. سليمان يبتسم ثم يضحك.. جميل يا خير الدين آخر جمال! كروان صامت أغلب الوقت.. هو أصغر من أن يتحدث فى مثل هذه المناسبات، خير الدين يحبه وهو يحب خير الدين. ربط خير الدين الكرافتة وارتدى چاكت البدلة ووقف أمام سليمان وكروان مبتسمًا.

ـ ما رأى صديقى؟

بدا جميلا بحق. أسمر لامع وجهه، عيناه العسليتان تشعان لمعانًا آسرًا، وضع الفازلين على شعره فازداد بريقًا، دعك أسنانه بعناية منذ فترة فصارت بيضاء ناصعة، والجزمة السوداء فى قدميه بيضاء الجانبين لها بوز جميل، يتناسب بياضها وسوادها مع البدلة الشارك سكين التى

يرتديها، البنطلون الأسود فوقه الچاكت الأبيض تحته القميص اللينوه السماوى الفاخر. صفّر سليمان واتسعت عيناه إعجابًا.

ـ من أين حصلت على هذه الثياب الجميلة؟ من أى مكوجى أجَّرتها؟

ضحكوا، وضحكت معهم أم خير الدين القصيرة البيضاء وأبوه الأسمر النحيل الناشف وقال خير الدين:

ـ ما رأيكما أن تأتيا معى؟

ـ إلى هنا وتذهب وحدك. سننتظرك لنحتفل بك بعد الخطوبة.

اقترب خير الدين منهما وقال:

ـ بعد الخطوبة سآخذ الچونى إلى السينما. هناك فيلم جميل فى سينما فريال.. ـ ثم همس لهما قائلاً ـ فيلم «قبلنى فى الظلام».. فيلم جديد لهند رستم وشكرى سرحان.

ضحك سليمان وكروان، وتركاه ليذهب مع أهله للخطوبة. لم يطل الوقت. كانت الساعة حوالى الرابعة بعد الظهر تحدث أبو خير الدين واستمع أبو ألچونى، قدمت لهم ألچونى صينية فوقها أكواب الشربات. وافق أبو ألچونى على الخطوبة من خير الدين الهادئ المثقف المكافح، ولم تتكلم أم ألچونى، بينما زغردت أختها وأم خير الدين. سمعت أبلة نرجس الزغاريد فنهضت ومشت على مهلها ودخلت من الباب المفتوح تبارك للجميع، خلفها تقاطرت النساء والبنات وسرعان ما امتلأ البيت بالجيران، فانشغلت أم ألچونى وأختها بتوزيع الشربات واضطرت أم ألچونى أن تهتف فى الجميع قائلة:

ـ اليوم قراءة فاتحة فقط.. الخطوبة بعد ثلاثة أشهر.

ـ إذن لا توجد بسطة .

ـ بعد ثلاثة أشهر . . اليوم شربات فقط .

ضحكت النساء وانصرفن ومعهن أولادهن ووقف خير الدين يستأذن في الخروج مع ألچونى .

كان اليوم أبيض رائقًا . يوم سكندرى حقيقى . . وفى الخارج كانت الشمس التى ذهبت للمغيب لاتزال تترك نورها الأبيض على الأرض حول الأولاد والبنات الصغيرات . الأولاد يلعبون الكرة والبنات ينتشرن بطوق الهولا هوب ، وسليمان الذى أحضر كرسيًا من بيته بعد أن ترك خير الدين جلس علي الرصيف يتأمل الأطفال يتأمل البنات في الحقيقة يتأمل من بينهن بنتًا لم تظهر من قبل . ظهرت ألچونى خارجة من بوابة المساكن تتأبط ذراع خير الدين يسبقها عطرها العجيب الذى لم يشم أحد مثله من قبل فى المنطقة ، وترتدى «جوب أزرق سماوى» فوقه بلوزة صفراء بديعة لها ياقة بيضاء ، وفوق البلوزة چاكت أزرق سماوى» بلون الجوب . إنه «تايير» كامل ، لم يحدث هنا أن ارتدت بنت أو امرأة تاييرًا كاملاً إلا حكمت . لقد اشترته للچونى أمها من هانو ، وطلبت منها أن تحافظ عليه ولا تلبسه إلا فى المناسبات الكبيرة !

ظهرت ألچونى طويلة ممشوقة القوام ، شعرها الأصفر الغزير خلفها يعطيها جمالاً أخاذًا . . فى قدميها حذاء بكعب عال تمشى به فى ثقة كمن تدربت عليه من قبل كثيرًا . جعلها الحذاء من الخلف تبدو مثل مارلين مونرو بديعة التقسيم مكورة الردفين تلمع ربلتا ساقيها تحت الجوب القصير نوعًا ما . . هكذا رآها سليمان وهى تمر من أمامه فوقف يحييها هى وخير الدين بينما صفق الأولاد جميعًا الذين فى الشارع ، وتوقف اللاعبون عن اللعب ليصفقوا أيضًا للعريس والعروسة «ابنا

الحتة» فهز خير الدين رأسه ممتنًا وهو يتمتم شكرًا شكرًا. لقد تصرف كما يليق برجل حقيقى رشيد بينما ابتسمت ألچونى خجلى وتهللت عيناها بالفرح وأحست بالثقة فى النفس وأن أهل المساكن جميعًا أهلها وأولادهم أخوتها، وحينما رآهما حبشى وهما يركبان المعدية تعبر بهما إلى البر الثانى ليستقلا الترام قال لبدرة:

- هذه هى النعمة الإلهيةالتى يعطيها الله لبعض الناس يا بدرة. ألچونى هى النعمة الإلهية وخير الدين الطيب هو الذى قسم له الله أن ينعم بها. ادعى له بالشفاء يا امرأة.

عاد سليمان يتأمل البنت التى لم تظهر من قبل، والتى ظهرت اليوم تلعب الهولاهوب فى الشارع. كان يعرف أن أسرة جديدة نزلت بالبيت المقابل لبيت أسرته. سمع حركة نقل الأثاث بالليل أمس.. وفى الصباح شاهد رب هذه الأسرة الجديدة وهو خارج إلى العمل. رجل نحيل للغاية أسمر، متوسط الطول، له وجه برىء كوجوه الأطفال، ورأى زوجته تقف بالباب لحظات بعد خروجه، بيضاء جميلة مستديرة الوجه، ولدهشته كان لكل من الرجل وزوجته عينان خضراوان. رأى آخر النهار الأطفال وهم يخرجون من البيت إلى الشارع. ثلاث بنات وثلاثة صبيان أكبرهم فى حوالى الثالثة عشرة، أسمر كأبيه، وبقية الأولاد بيض كأمهم، الجميع عيونهم خضراء. أسرة كاملة عيونها خضراء شىء لم يحدث من قبل هنا. لاحظ أن أكبر البنات فى حوالى العاشرة، أجملهن على الإطلاق، شعرها، على غير أخواتها، تركته الأم غزيرًا طويلاً خلفها. شقراء بريئة فى لعبة الهولاهوب العجيبة. تذكر حكمت التى كانت فائقة الجمال، كيف ذبل جمالها بسرعة بعد الزواج. تابع النظر إلى البنت الجديدة

وقال فى نفسه: الجمال يحل محل الجمال، وما زال هناك أمل فى هذا العالم!

كانت سفينة كبيرة تمر خلف الجميع بالمحمودية، شراعها مفتوح على آخره لنسمة الشتاء المسائية، شراعها أبيض عريض جاذب للنظر وهو معبأ بالهواء وقفت البنت تتأمل المشهد العجيب للسفينة التى لم تر مثلها من قبل. وكان رجل قد لف وسطه بالحبل المربوط بصارى الشراع، ويمشى على الشاطئ يشد السفينة يساعد شراعها. بدا عملاقًا أسطوريًا بصدره العريض وصداره الممزق ولباسه الخشن والواسع. بدا كما لو كان إلهاً من آلهة الإغريق التى تخرج فجأة فى الأفلام تعترض طريق الأبطال. بوزايدون إله البحر الذى خرج لبحارة السفينة الأرجون من قلب الماء. هذه الأساطير التى يقرؤها سليمان ويحبها وتتركه فى دهشة مفتوحًا رأسه للهواء من كل ناحية!.. ظهر تشكيل من عصافير المساء يطير فوق الرؤوس. هذه الطيور تأتى دائمًا فى الأماسى الجميلة، اليوم جميل يا سليمان، أليس كذلك؟ العصافير مبتهجة فى الفضاء رغم أن أحدًا لا يعرف من أين تأتى ولا أين تذهب حين يحل الظلام.. ليس فى المدى القريب أشجار ولا جبال. الطيور الجميلة انخفضت كثيرًا ورفرفت بأجنحتها بقوة. الجميع رفعوا أبصارهم إليها.. البنت السعيدة الرشيقة تركت الطوق يدور فى وسطها ورفعت بصرها تتابع تشكيلات الطيور التى انضمت إليها أسراب أخرى شكلت دائرة كبيرة فى الفضاء هبطت قليلاً لتقترب من رأس البنت ثم وقفت لترفرف بقوة وترتفع بشموخ.. الله.. الله.. الله.. هتف أكثر من ولد، وقف اللاعبون منهم وهتفوا فرحانين، أما الجالسون عند السلالم المؤدية إلى القبو فقد وقفوا مبهورين وهم يهمون بترك أماكنهم والعودة إلى منازلهم التى لا يعرفها أحد. لقد أوشك

الظلام أن يتملك الدنيا بعد قليل، وسليمان الذى كان جالسًا وقف وهو يشعر بقلبه يرفرف مع الطيور. . لقد رأى البنت تخرج من الطوق، وتعود إلى البيت وخلفها أخواتها الأصغر. مرت أمامه وابتسمت له فلم ينتبه إلى مرورها إذ ظن ذلك الذى ابتسم له طيف يعبر الفضاء.

توقف الأولاد عن لعب الكرة، وجلسوا على سلالم الماكينة الحمراء كعادتهم ونزل الظلام وقال إبراهيم بلك:

قال مصطفى:

ـ نعرف. . بيتهم أمام بيتنا.

قال بلك:

ـ لا. . لا أقصد هذه العائلة البيضاء، أتكلم عن عائلة أخرى سوداء تمامًا، كل أفرادها سود نزلت فى شارعنا. . واضح أنها عائلة كبيرة. .

نظروا إليه جميعًا، وإلى سواده اللامع فى الغبش وقال مصطفى ضاحكًا. .

ـ ماذا تقصد بعائلة كبيرة. . هل يعنى هذا إنكم صرتم أغلبية؟ يعنى أغلبية فى مجلس الأمة!

ضحكوا جميعًا، ملأ ضحكهم الفضاء، تذكروا ما يقوله الخواجة بطسو لإبراهيم بلك كلما رآه. أنت يا ولد أسود رغم أن أمك بيضاء، كان حقك تطلع لأمك مش لأبوك! خد ياولد إشترى لى بيضتين أوعى تلمسهم لحسن يسْوَدّوا. ظلوا يتكلمون وسليمان لا يبرح مكانه فوق المقعد على الرصيف تصل إليه أصواتهم لكن لا يميز ما يقولون. مر من أمامه تاكسى توقف عند بوابة المساكن. لقد عاد خير الدين وألچونى.

كان الساعة حوالى العاشرة. رأى ألچونى تسبق خير الدين فى الدخول بسرعة إلى البوابة. هذه أول مرة تتأخر فيها فى الخارج، وربما هذه أول مر تتأخر فيها بنت من المساكن، باستثناء نوال التى تستدعى ظروف عملها ذلك. لكن ماأدراك يا سليمان؟ وهل تجلس هنا كل يوم وترى المتأخرين والمتأخرات، وهل يعرف أحد غير الله ماذا يحدث فى هذه البيوت المتكومة على بعضها بالليل. وما يدريك فقد تنتظر البنات كل ليلة حتى ينام الأهل ثم يفتحن الأبواب فى هدوء ليقابلن الصبيان فى الظلام. ياله من مشهد سوريالى. البنات الصغيرات والكبيرات معًا. يقابلن الصبيان الكبار والصغار ويمارس الجميع الجنس على تراب الشارع الوسطانى بعد منتصف الليل والمطر يهطل فوقهم بلا انقطاع. وتناهت إليه ضحكات الأولاد الذين كان مصطفى يحكى لهم حكاية «فول السودانى» الذى كان يخفيه مع عبده وكروان خلف «وابور النور» من ناحية السكة الحديد أيام كانوا يذهبون معًا إلى مدرسة القبارى الابتدائية. كانوا يأخذونه من قطارات البضاعة المتوقفة بإزاء الأرصفة، ويخبئونه فى مكان سرى جوار سور «وابور النور» أو شركة توليد الكهرباء التى تغذى السكك الحديدية بالنور. ذات يوم تركهم عبده عند عودتهم من المدرسة. قال إنه ذاهب إلى «حناطة» فى الغيط بأرض الموز بالقبارى. كان مصطفى يعرف أن عبده كذاب، فحناطة صاحب الغيط طرده منذ أسبوع، قال لكروان «إن هناك شيئًا سيفعله عبده لا نعرفه ولا يريدنا أن نستفيد منه معه. سنأخذ السودانى كله ونبيعه لأى مقلاة وإذا سألك قل إن الشرطى ضبطنا وصادر الكمية كلها». بالفعل ذهب عبده فى اليوم التالى إلى المخرن السرى، الذى كان حفرة كبيرة فى الأرض جوار السور فلم يجد السودانى ضحكوا وسأل مصطفى عبده. حقا لماذا طردك حناطة يا عبده؟.

ضحك الجميع من سؤال مصطفى لأنهم يعرفون الإجابة. كان هناك اتفاق بين عبده وحناطة صاحب الغيط الكبير بأرض الموز بمقتضاه ينصب عبده عيدان «المخيط» التي هي عيدان قصيرة الجريد مغموسة في صمغ خاص ويطلق عليها هذا الاسم المشتق من «المخاط»، لقوام هذا الصمغ المخاطي إن لم يكن للشكل المنفر أيضًا. ينصب عبده عيدان المخيط بين أفرع الأشجار بغيط حناطة. آخر النهار يجمعها بما يكون قد لصق بها من عصافير ويتم اقتسام الكمية مناصفة. في أحد الأيام هرب عبده بالعصافير كلها مبكرًا وجاء في اليوم التالي إلى حناطة بلا مليم معه. كانت العادة أن يبيع العصافير في بار بالفراهدة ثم يعود إلى حناطة بثمنها. قال إنه لم يصطد أي عصفورة أمس. كان حناطة يعرف أنه اصطاد خمسين عصفورة إذ رآه أحد رجاله يبيعها في بار صغير بالمنشية. لقد غير عبده مكان البيع لكن هكذا شاء سوء حظه. صفع حناطة عبده وضربه بالشلوت وأخذ حذاءه وتركه يعود حافيًا وأقسم إن رآه في الغيط لأخذ ملابسه أيضًا وفعل فيه الفاحشة.. ضحك عبده وهو يتذكر وقائع ذلك اليوم وقال:

- الجزمة كانت قديمة تركتها له وجريت. في طريقي رأيت سباطة موز كان قطعها من الشجرة، حملتها وهربت بها. كاد يلحق بي لولا أني وصلت إلى السور الفاصل بين الغيطان والسكك الحديدية ونفذت من فتحة فيه. وجدت قطار بضاعة فتعلقت بالسبنسة، صعدت إليها بعد أن نجحت في وضع السباطة من فتحة الباب فوق سلم السبنسة. حناطة لا يعرف القفز إلى القطارات ولا منها مثلنا. وقف يائسًا ورحت أشير إليه بأصبع يدي الوسطاني في الفضاء.

ضحكوا وراحوا يتذكرون الحكايات الكثيرة لعبده الذي دائمًا ما

يخون أى شخص يتعاون معه ـ فى العادة لا يكفون عن التعاون معه ـ فإذا ذهب معه أحد لصيد العصافير هرب عبده بالعصافير كلها، وإذا ذهب أحد معه لصيد السمك يفعل ذلك أيضًا، أما إذا ذهبوا إلى السينما فيقطع لهم التذاكر بعد أن يجمع ثمنها منهم، ثم يقف يبيعها فى السوق السوداء وهم حوله مندهشون. «معلهش. معى تذاكر أخرى. انتظروا» وما يكاد يفرغ من البيع حتى يقيد لكل منهم ثمن تذكرته ويجرى بما كسبه ولا يدخل معهم السينما!.

ـ كانت أيامًا جميلة أيام مدرسة القبارى الابتدائية.

قال مصطفى الذى هو فى الإعدادية الآن. فقال عبده:

ـ كنا نصطاد العصافير فى طريقنا ونسرق الفول السودانى والقصب وحتى البصل كنا نبيعه للتلاميذ. أى والله. كانوا يستخدمون البصل مع ساندوتشات الفول.

ضحكوا وقال مصطفى:

ـ هل نسيت صياد اليمام الذى أعطى كروان يمامة مرة وكنت تريد أن تأخذها منه.

كروان الأصغر، فى السنة الأولى الإعدادية الآن، وقال:

ـ ما زلت أمشى وحدى فى نفس الطريق وما زال صياد اليمام يصطاد اليمام لكنه يبدو دائما شاردًا وكأنه لم يعرفنى من قبل.

ـ هل ما زالت الدبابات تأتى من المينا إلى القطارات يا كروان؟

ـ الدبابات والمدافع والعربات العسكرية تأتى الآن أكثر من أى وقت. إننى أحب الفرجة عليها جدًا..

ضحك مصطفى وقال:

ـ طيب بالذمة هل هذا طريق مدرسة؟ يعنى الواحد يذهب إلى المدرسة وسط معدات حربية! طيب كيف يذهب إلى الحرب، بالكراسات.. عليه العوض فى ثورة يولية.

انطلقوا يضحكون، وزادت جلبتهم وهم ينهضون ليدخلوا بيوتهم، كان سليمان قد سبقهم فى العودة إلى البيت حيث ازدادت لسعةالبرد والحقيقة إنه كان يريد أن يكتب شيئًا، أى شىء لقد فجر فيه جمال البنت الصغيرة رغبة فى التعبير عن شىء لا يعرفه. ربما يعرفه حين يمسك بالقلم.

كان حبشى وبدرة، داخل الكشك القريب جدًا من الماكينةالحمراء يسمعان أصوات الأولاد ويأتنسون بها. قالت بدرة..

ـ العجيب فى أولاد المساكن إنهم دائمًا مبسوطون، لا يعرفون الحزن أبدا.

نظر إليها حبشى فى استنكار وقال:

ـ ستحسدينهم يا بدرة؟

قالت باسمة:

ـ لا والله. أحبهم جدًا..

ـ تحبينهم. كيف؟

ارتبكت.. ضحكت ولم ترد.. اقتربت منه ودخلت فى صدره. فكر هو فى معنى هذه الفكرة التى تتسلط عليه منذ الصباح بأن بدرة يمكن أن تختفى كما اختفت المرأة السابقة. كانت أصوات وضحكات الأولاد التى تصل إليهما تساعد فى إبعاد هذه الفكرةالسوداء عن رأسه. لقدسمع صوت الأولاد يجرون ضاحكين إلى منازلهم، وسمع

صوت المطر الخفيف الذى هطل فجأة. قال لبدرة إنه يحلم بيوم يأخذها فيه فى مركب جميل يجرى بهما جنوبًا صاعدين الريف والخضرة حتى يصلا إلى السودان فيعيشان هناك مع الطبيعةوعلى الطبيعة والأولاد حولهما، أولاده الحقيقيون وأولاده اللقطاء الذين أضاف إليهم واحدًا منذ أسابيع أطلق عليه اسم «أتيلا الجبار» لأنه أول ما حمله عن الأرض ونظر فى وجهه صفعه الولد على وجهه، وكانت قوة الصفعة شيئًا لم يتوقعه، قالت بدرة:

ـ نعيش على الطبيعة يعنى عريانين؟

ـ على الأكثر قطعة قماش تسترنا مثل طرزان.

ـ طرزان؟. دائمًا تذكر اسمه، وتطلق اسمه على الأولاد. من طرزان هذا يا حبشى؟

ـ ياه يا بدرة. هذا موضوع طويل.

قالت فى كسل:

ـ هل هو أطول من الليل؟

ـ لا طبعًا.

ـ إذن أحكى لى قصته.

دخلت فى حضنه أكثر فقال مستسلمًا:

ـ طرزان يا بدرة شاب ولد فى الغابات، فقد أهله فقامت الحيوانات بتربيته فكبر صديقًا لها يعيش بينها ويقفز فوق الأشجار مثل القرود التى أرضعته وعلمته، ويصرخ كالأفيال صرخة جبارة تعرفها جميع الحيوانات، من الأسود إلى النمور إلى الفيلة والغزلان، وحتى وحيد القرن وكلها تجرى عليه لترى ماذا يريد منها.

ـ وحيد القرن هذا حيوان؟

ـ طبعًا. هل تظنينه إنسانًا. حيوان شكله غبى وضخم مثل الجاموسة وله قرن واحد لو دخل فى أى حيوان آخر يقتله على الفور. حيوان شرس يا بدرة الله يخرب عقلك أنا لا أعرف لماذا تسألينني هذه الأسئلة الليلة.

ـ طيب يا حبشى ربنا يسامحك. قل لى بعد صرخة طرزان هل كل الحيوانات تسمع كلامه حتى الأسد؟

ـ واللبؤة أيضًا يا بدرة.

ضحكت. فهمت مغزى كلامه. قالت:

ـ طيب. أكمل يا حبشى.

ـ طرزان معه قردة لطيفة اسمها شيتا. طبعًا عارفاها، شيتا هذه تخلصه من كل المشاكل التى يقع فيها.

قالت:

ـ إخص عليك يا حبشى دائمًا تشبهنى بشيتا. يعنى أنا قردة؟

ـ يا ولية وهل يختلف القرد عن بنى آدم. القرد ليس إلا بنى آدم ربنا سخطه لما مسح «طيزه» باللبن. وعلى فكرة، ممكن ربنا يسخطنا بدون مسح لا باللبن ولا بالشاى.

ضحكت بدرة بصوت عال هذه المرة واهتزت فى صدره، وضحك هو وأشعل سيجارة. واستمر يتحدث:

ـ طبعًا. ربنا قادر على كل شىء ورأيت بنفسك ما جرى للسيد الأعرج. حرقه بدون نار، ولازم تأخذى عظة..

ـ إخص عليك يا حبشى، لماذا آخذ عظة؟ هل أنا غلطانة فى شىء؟

ـ لا طبعًا لكن الإنسان لا بد يأخذ الموعظة فى كل وقت .

وسكتا لحظات ابتسمت فيها بدرة وقالت :

ـ تعرف يا حبشى ربنا لو سخطنى سيسخطك أنت أيضًا .

قال ضاحكًا وهو يضمها بشدة . .

ـ ما دمنا معًا لا يهمنى شىء . .

ـ وإذا سخطنا سيسخطنا حجرين .

ـ الأحسن يا بدرة يسخطنا تمثالين . أجل . حبشى وبدرة . شىء مثل حسن ونعيمة مثلاً . وتأتى الناس تتفرج علينا ، ويدفعون ثمن التذاكر للفرجة كما يفعلون عند دخولهم منطقة عمود السوارى . المهم أن البلدية تضرب حوالينا سورًا وتعلق يافطة «منطقة أثرية» .

ـ يا ليت يا حبشى ، نصبح أغنياء بحق وحقيق .

أمسك بوجهها ووضع فى فمها السيجارة لتأخذ نفسًا وقال :

ـ الفلوس ستأخذها الدولة يا امرأة . سنصبح حجرين ألا تفهمين؟

نظرت إلى عينيه طويلا وتساءلت .

ـ كيف تعرف كل هذه الأشياء يا حبشى؟

ـ من الدنيا . من الزمن . من السينما أيضًا .

ـ خذنى يا حبشى للسينما .

ـ سآخذك لكن مرة واحدة . السينما يمكن أن تلحس مخك .

ضحكت ثم قالت بعد لحظات صمت :

ـ أنا عرفت لماذا تحب طرزان يا حبشى . لأنه يتيم مثلك .

ـ ومثلك أنت أيضًا .

ـ صحيح، ومثل الأولاد المساكين النائمين حولنا الآن.

ـ تعالى يا بدرة فى حضنى وبطلى كلام خلى الليلة تمر بسلام.

ـ وما كادت تدخل فى حضنه أكثر حتى فكرت أنه من الممكن أيضًا أن يسخطهما الله حجرًا واحدًا لكن له رأسان. تشبثت به فى فزع..

(٢)

غدًا. أجل. غدًا سيكون فى شاطئ ستانلى أجمل شواطئ الإسكندرية. أكثر من عام تصحبه كاتينا معها إلى الشاطئ. فرجة سنوية على اللحم الأجنبى النضير. البكينى، المايوه الذى لا تجرؤ مصرية على ارتدائه. موجود بكثرة هنا. أجسام كغصن البان، كالبوص الأخضرفى البحيرات تتمايل مع الهواء. الكبائن، الأدوار الثلاثة المميزة من الكبائن أمامها العجائز يتأملن اتساع المياه، ورحابةالأفق، والسماء التى دائمًا، زرقاء لا تشوبها سحب فى شم النسيم، والغبار الذى أحيانا يهب على المدينة من الصحراء لا يصل إلى ستانلى، يحجزه حاجز من هواء غير مرئى، كما تحجز الصخور الأمواج عن الدخول إلى الشاطئ. شاطئ ستانلى هو الأكثر نظافة إذن، والأكثر ملاءمة للأطفال يلعبون فى الماء بلا خوف، فى البحيرة الصغيرة التى على اليسار من الشاطئ الذى قسمته الصخورالى نصفين. فى شاطئ ستانلى يستطيع العجائز تأمل الأطفال بالضبط كما يتأملن الأفق البعيد. إنه الزمن فى الحقيقة الذى تتأمله العجائز، الماضى الذى إنصرم بلاعودة واستكن هناك عند الأفق، والمستقبل الذى يمرح بين يدى الأطفال وضحكاتهم. إن إدراك الزوال شىء صعب جدًا، فكيف يقوى العجائز على تحمل فكرة إنهن قريبًا جدًا سيمتن؟.

ليس لكاتينا كابينة هناك، لكن لعائلة أسمهان كابينة جميلة فى الطابق الأخير اشتراها أبوها من رجل إنجليزى رحل بعد عام ١٩٥٦ . أمام الكابينة يقف العربى يشوى اللحم . . وتكون أسمهان فى الماء مع صديقها الإيطالى «ماسيمو كافاريللى» يا له من اسم صعب، لا يحب العربى هذا الماسيمو كافاريللى الذى ما يفتأ ينظر إلى العربى ويضحك بلا سبب . لقد اشتكى مرة لأسمهان ففوجئ بها تقول له :

ـ لا تشغل بالك بماسيمو فهو أبله .

اندهش كيف حقًا تصادق هذا الأبله كما تقول لكنه لم يتلق إجابة . فى الحقيقة هو لم يسأل . للأجانب أحوال . قال لنفسه وسكت . لكن ماسيمو لم يظهر فى شم النسيم العام الماضى . قضى العربى معظم اليوم مع أسمهان وكاتينا فى الماء . أخذهما فوق الديليسوار واندفع بهما عميقًا وهن يصرخن كالأطفال، كاتينا فى مايوه أسود قطعة واحدة . أسمهان فى مايوه أخضر قطعتين . تستطيع كاتينا أن تشترى البكينى وترتديه، لكن الجسم هو الذى يحدد نوع المايوه . لحم كاتينا ترهل عند الفخذين، أحمر مائل إلى السواد كلما اقترب من التقاء الفخذين . أسمهان لا يلتصق فخذاها . كل فخذ هو عامود قوى متسق نحيل لكن من لحم منظوم، أبيض، مائل إلى الحمرة الحقيقية . ربع قرن على الأقل يفصل بين كاتينا وأسمهان، لكنهما تمرحان كطفلتين وهو يحب كاتينا ولا يحب أسمهان وإن كان يتمنى لو نالها مرة . حبه لكاتينا يجعله يخلص فى علاقته مع أسمهان . وهل الإخلاص فى العلاقة يعنى أن تخلو من الجنس؟ . لا يعرف لكن هكذا يفهم الأمور هو المصرى الشرقى ابن الناس الفقراء الذين إذا قامت القيامة اليوم سينسونهم فى أماكنهم ولن ينتبه لوجودهم أحد، شيطان أو ملاك ! .

سقطت كاتينا فى الماء أكثر من مرة، وكذلك سقطت أسمهان، كل

منهما تسبح بسرعة مدهشة، كاتينا فوق الماء أو تحته بقليل مثل فرس البحر القوى، أسمهان مثل الدرفيل الصغير اللاهى.

يجيد السباحة لكنهما يسبقانه باستمرار فيتوقف ويعود إلى الديليسوار الذى يكون الموج قد قربه إليه. تغطس كاتينا وأسمهان ولا تظهران، وفجأة تصعدان من تحت الماء على جانبى الديليسوار الذى يكون هو قد ركبه، ويقلبان الديليسوار فيسقط العربى فى الماء. يبتسم ويندهش من نفسه لماذا حقًا لا يستطيع اللهو كالأطفال:

- عربى. هذا يوم جميل. أنت لازم تلعب.

- عربى أنت واقف على طول مثل عسكرى البوليس. غير معقول عربى لازم تكون فى الماء مجنون!

فى الغداء لا يستطيع العربى أن يأكل بشراهتهما. ولا بشراهة أبى أسمهان البغل صاحب المطبعةوالكرش الضخمة والرأس الأصلع الكبير والوجه الأحمر يكاد «يبك» منه الدم. أول إيطالى بكرش يراه العربى فى مصر، وكذلك لا يستطيع أن يجارى شراهة أنطونيو أخى أسمهان ولا البنت الجميلة أفيليا التى لا تتركه. طول النهار فى حضنه، ترفع وجهها إليه تقبله قبلات أشبه بالماء فى نداوتها وبساطتها، وأم أنطونيو تتابعهما فى دهشة وصمت وفجأة تندفع فى الكلام. يبدو الإيطاليون للعربى لا يتوقفون عن الكلام ولا يلتقطون أنفاسهم، وهم يتكلمون، إنهم كالمطر الذى ينهمر فجأة على الإسكندرية بالليل. يندفع أنطونيو بدوره فى كلام ويضحك أبوه ويقهقه ويقول كلمة أو اثنتين وتظلل سحابة من قتامة وجه الفتاة التى ما تلبث أن تبتسم فى النهايةوتدخل من جديد فى حضن أنطونيو وتقبله قبلات ندية كالماء..

العربى لا يستطيع أن يأكل أو يشرب جيدًا إلا مع كاتينا وحدهما

وفى البيت كما هو الآن يستعد معها للاستماع إلى حفلة شم النسيم الموسيقية من ا لإذاعة يحييها فريد اللأطرش الذى سيغنى كما هو معتاد أغنية الربيع ثم يتبعها بأغنية أول همسة . . كانت أسمهان هنا فى الأتيليه حتى الساعة السادسة ، وطوال اليوم ليس لها من حديث إلا عن أخيها أنطونيو الذى هرب من البلاد . .

ـ ولماذا هرب أنطونيو من البلاد؟

ـ هرب قبل أن يقبضوا عليه بيوم واحد . أنطونيو شيوعى . .

سكت العربى الذى تحيره هذه المسائل . عبد الناصر الذى يتبنى سياسة التمصير ويتهمه الأجانب بالشيوعية يقبض على الشيوعيين! قالت كاتينا :

ـ لقد قبضوا على خمسة يونانيين فى رأس السنةالماضية ، هل عادوا يقبضون على الشيوعيين من جديد؟

ـ أجل . حملة اعتقالات جديدة منذ أيام . الصحافة الشيوعية فى إيطاليا تهاجم مصر كثيراً .

ـ أنطونيو شاطر لأنه هرب .

ـ أنطونيو من أول السنة وهو يجهز للهروب ولا يتحدث معنا فى شىء . .

نطق العربى فجأة وقال :

ـ ألم يشارك أنطونيو فى مقاومة الإنجليز فى بورسعيد؟

ـ شارك مع عدد من زملائه ومع يونانيين أيضًا .

ـ إذن كان يجب أن يبقى هنا فى مصر ويثبت لهم أنه وطنى يحب مصر بدليل مشاركته فى المقاومة فى بورسعيد .

ـ هل كانوا سيتركونه؟

تساءلت كاتينا فأجاب العربى :

ـ لا أظن أنهم يقبضون عليه .

للحظات تحدثت أسمهان بالإيطالية لكاتينا التى ردت باليونانية وفهمت كل منهما الأخرى فلزم العربى الصمت . يعرف كلمات قليلة من اليونانية وأقل من الإيطالية لكنهما تتكلمان بسرعة . سكتوا جميعًا لوقت طويل حتى عاودت أسمهان بالعربية . .

ـ جاء البوليس وفتش بيتنا . ظابط طويل جدًا وقوى جدًا قال لأبى «اسمع خواج ڤياللى ، نحن نعرف أنك تعمل فى مطبعة الخواجة بوتشينى فى شارع عبد المنعم وإنك شريك فى رأس المال أيضًا ، وابنك أنطونيو على علاقة قديمة بالشيوعيين المصريين . يحضر إليهم منشورات من الخارج كلما سافر إيطاليا ويهرب لهم مقالات تنشر فى الخارج . . . وضحكت أسمهان وهى تواصل القصة :

ـ أبى قال إنه ربى أنطونيو ليكبر بتاع بنات وليس بتاع سياسة وأن أنطونيو لا يمكن أن يكون شيوعيًا . ولم يصدقوا أبى فأخذوه من بيتنا ونحن نرتعش أنا وأختى روزانا ونبكى . قال الضابط لا تخافوا ، نحن لا نريد والدكم . يوم واحد وسيعود . فكرنا نتصل بالسفارة الإيطالية . قال أبى لنا أن نفعل ذلك إذ غاب أكثر من يوم واحد . قال ذلك بالإيطالية فابتسم الضابط وقال لا تخف ڤياللى ربما تعود بعد أقل من يوم . عاد أبى فى اليوم التالى ليقول إنهم سألوه عن أصحاب أنطونيو فقال لهم إنه لا يعرف له أصدقاء ، وإنه يراه مع بنات كثيرات ، وأعطاهم أسماء بنات رحلن مع عائلاتهن فى العام الأخير ، وقال إن صديقه الوحيد الذى يعرفه

من الرجال هو روسيليني عازف الجيتار فى الكوفى شوب الخاص بفندق الوندسور وهذا لا يمكن أن يكون شيوعيًا فهو يعزف للسكارى والعشاق ويغنى لهم أغانى فرانك سيناترا وإيف مونتان وموريس شيفاليه. كذلك كان لأنطونيو صديقه باولو برتينى لاعب الكرة بالنادى الإيطالى، وهو أيضًا طبيب أطفال فى المستشفى الإيطالى، وباولو هذا ميوله ملكية مثل أبيه الذى كان فى حرس الملك فيكتور عما نويل الأول قبل الحرب الثانية، والأهم من ذلك أن باولو نفسه سافر ليلعب فى نادى نابولى!. أنطونيو ابنى لا يمكن أن يكون شيوعيًا..

قالت أسمهان إنهم بعد أن أطلقوا سراح أبيها قبل أن يمر يوم كامل فعلاً، كان منتعشًا ومزهوا يشعر بالفخر والانتصار، لكنه فجأة بعد اليوم الثالث عاف الطعام، راح يشرب الويسكى بشراهة ويدخن باستمرار. «كنا سنقوم بترحيلك سنيور ڤياللى لكن ثبت لنا أن أنطونيو لم يستخدم مطبعتك أبدًا. لا تقل لنا أنه ليس شيوعيًا، نحن نعرف أكثر منك. أنت أيضًا لم تشترك معه فى أى نشاط. هذا هو ما يهمنا، لكن أبلغ ابنك إننا سنصل إليه ولو اختبأ فى ثقب إبرة فى إيطاليا، وبلّغه أنه من الآن على القائمة السوداء، يعنى ممنوع من دخول مصر إلى الأبد».

قالت أسمهان إن أباها، بعد أن ظهر عليه الهزال وكاد يموت أكل وقال...

ـ لقد ولّت أيام العز بالنسبة لنا ولكل الأجانب فى مصر.

من يومها وفكرة الرحيل تراود أبى، ولا أظن أنه سيبقى هنا أكثر من عام..

ـ سترحلين معه؟

تساءل العربى . . ابتسمت وقالت :

ـ طبعًا . هل أبقى فى مصر وحدى . . .

ابتسمت كاتينا بمكر وهى تنظر إلى كل منهما مرة، لكنها لم تتكلم . قال العربى فى نفسه هل يكون معقولاً أن تدعونى لزواجها؟ لا أظن . إنها مجرد إجابة عن سؤالى لا تعنى شيئًا . . قالت له كاتينا بعد أن غادرت أسمهان الأتيليه . .

ـ حاذر من أسمهان عربى . . إنها تغير الرجال كما تغير ملابسها الداخلية . .

ـ ماذا تقصدين كاتينا؟

ـ أسمهان الآن على وشك الرحيل، ذاقت الكثيرين من الأجانب إيطاليين ويونانيين وأرمن وقبارصة وحتى شباب من سويسرا ومن الشام، لكنها الآن تحب أن تذوق واحد مصرى . وليس أفضل من حمار مسالم مثلك . . .

ـ أشكرك كاتينا على هذه الإهانة .

قال ذلك فى صمت ولا مبالاة، فاقتربت منه ودخلت فى حضنه وراحت تقبله قبلات هادئة لطيفة طازجة حقًا لكنها أبدًا ليست كالماء . لقد أدرك العربى الآن فقط ولأول مرة أن كاتينا تجاوزت فى العمر الخمسين . وقال :

ـ إذن لن يكون هناك شم نسيم غدًا مع أسمهان وأسرتها مثل كل عام .

ابتسمت وقالت :

ـ سنذهب معًا . لا تخف . نحن الأجانب لا يعطلنا شيء عن حب

الحياة. غداً إجازة شم النسيم فى مصر كلها ولا بد أن نستمتع بها. سنذهب وسنرى أن أسمهان تنتظرنا بشغف أكثر من أى وقت....

فى الصباح أيقظ العربى كاتينا فى وقت مبكر. يريدان الانطلاق إلى ستانلى قبل أن تزدحم المدينة أو تصفر من العواصف الرملية..

عندما عاد آخر النهار متعبًا، لم يكن يفكر كثيرًا فى المسافات التى قطعها سباحة مع أسمهان أكثر مما قطعها مع كاتينا، ولا فى كثرة أعداد المسنين من الأجانب التى فاقت كل الأعوام الماضية. كانت الأحاديث الطائرة حوله..

ـ الشباب يتركون مصر الآن.

ـ المغامرة برأس المال لم تعد مضمونة.

ـ العجائز أمثالنا لهم هنا تاريخ وذكريات.

ـ العجائز سيرحلون قريبًا أيضًا.

ـ مصر تبتعد يومًا بعد يوم عن البحر المتوسط.

ـ إنها تقترب أكثر من الاتحاد السوفيتى.

ـ مشروع السد العالى لم يستطع الغرب الغبى أن يفوز به.

ـ هل تظن أن إسرائيل وراء ذلك؟

ـ عبد الناصر سيذهب بمصر فى ستين داهية.

ـ من يدرى. ربما يحدث العكس. الناس تحبه بجنون.

ـ هناك أحاديث عن تخطيط فى الصناعة وعن خطة خمسية.

ـ تمامًا على طريقة الشيوعية فى روسيا..

ـ هذا الشاطئ لم يعد شاطئنا . .

ـ لقد كثرت فيه أعداد أولاد البلد . .

ـ إنهم ينظرون إلينا بتحد . .

ـ وربما بخوف فأكثرهم يأتى إلى هنا أول مرة .

ـ الحقيقة نحن لم نهتم بهذا البلد قدر إهتمامنا بأنفسنا . .

ـ من تقصد بنحن . أنتم الإيطاليون طبعًا؟

ـ واليونانيون وكل ا لملل . كل همنا هو أن نجمع الدولارات نرسلها إلى بنوكنا فى بلادنا ونصيف بها فى الريڤييرا وكان وماربيلا .

ـ لو سمعك عبد الناصر لضمك لوزارته .

ـ هذا كلام الشيوعيين .

ـ إذن سيقبض عليك . . ها . ها . ها .

كان أحيانًا يلتقط المعنى بقليل من المفردات اليونانية أو الإيطالية التى يعرفها ، وأحيانًا تترجم له كاتينا أو أسمهان وكان يسأل بشغف عن الأثر الذى يتركه ظهور الشباب من أولاد البلد على البلاج . قالت له أسمهان لما سألها عن ذلك أكثر من مرة . .

ـ الآن صار الشاطئ طبيعيًا ، فيه الأجانب وفيه المصريون . مثل أى حديقة حيوانات بها الغزلان والقرود . .

ابتلع الإهانة ، ولكنه لم يستطع أن يمحو أثرها عن وجهه . لقد أربد وجهه بحق وأحس بغيظ شديد . .

ـ لا تزعل عربى . . لا تزعل حبيبى .

وقبلته بسرعة لكن القبلة كانت على شفتيه ولاحظ أنها عضت شفته

السفلى بأسنانها المدربة . . تذكر على الفور حديث كاتينا . لعلها تعمدت تضايقني لتقترب مني بقوة . ما محبة إلا بعد عداوة يا عربى . وسحبته وراءها كثيراً فى البحر ، وقبلها كثيراً تحت الماء وفوقه . . لم يدرك قط أن اليوم شم النسيم إلا آخر النهار عند العودة . رأى زحام المدينة بينما كان النهار كله فى جنة حقيقية . ارتفعت رائحة السردين والفسيخ والرنجة من بعض الكبائن التى آلت للمصريين بينما ظلت الكبائن الأخرى تنضح بروائح فواكه البحر واللحوم المشوية والأسماك والخمور وزجاجات البيرة كانت تبرق على المناضد أمام كبائن الأجانب ، وكذلك كانت أمام كبائن المصريين .

عاد وسط زحام المدينة فى تاكسى ومعه كاتينا . كان التاكسى يمشى ببطء على الكورنيش من فرط الزحام ، فالمدينة اليوم مفتوحة منذ الصباح للقادمين من القاهرة والريف من الأعيان ويعودون الآن ولسوف تظل ملاهى الكورنيش عامرة حتى الصباح رغم تعب النهار ، ولن ينقطع صوت الموسيقى على طول الشاطئ ، وكانت المسافة من المنشية حتى العطارين هى الأصعب فأفواج المشاةالعائدين إلى الأحياء الشعبية الجنوبية أشبه بالطوفان وأصواتهم العالية تملأ الفضاء بالضحكات والنكات ودقات الطبول والدفوف والصاجات التى يشبكها عدد من الصبية والشباب فى أصابعهم على طريقة الراقصات . . كانوا رجالاً متوسطى العمر ونساء وشباباً وشابات وصبية وبنات وأطفالاً بملابس من كل نوع ، جلابيب وفساتين ، شورتات ، بنطلونات ، وقمصان ، قفاطين ، بيچامات ، حفاة ، بصنادل ، بجزم ، بشباشب ، بيض وسود وخمرى ، عيون سوداء ، خضراء ، زرقاء ، وعسلية ، شعر أسود ، أصفر ، بنى ، أحمر ، أبيض ،

رمادى. طوال وقصار، نحيفون وسمان، مسرعون ومتمهلون، خليط عجيب وفوضى لا نهاية لها والسيارات الأجرة والملاكى ترتفع أصوات أبواقها وتتحرك بينهم تحرك السلحفاة، وميدان المنشية أشبه بيوم الحشر، أعداد لا حصر لها فوق نجيل الحديقة الفرنسية يقفزون ويتقافزون وينطون الحبل ويغنون رغم انصرام النهار، وميدان التحرير، يشهد زحامًا أكثر، وبين الزحام عشرات من باعة الزهور، الفل والياسمين والقرنفل، وعشرات من المتسولين الصغار، وجامعى أعقاب السجائر، وتملأ الجو رائحة الفسيخ والسردين الذى أكل بالنهار، وسلال المهملات قد امتلأت عن آخرها بالمخلفات التى فاضت من حواليها على الأرض العشبية وأخذتها الأقدام هنا وهناك فامتلأت الحديقة بالورق المهمل والقاذورات، وحول تمثال محمد على تجمع العديدون يلتقطون الصور التذكارية، وبعض الصبية غامر بالصعود على قاعدة التمثال والوقوف جوار الحصان ولما حاول البعض الصعود أعلى الحصان منعه بعض الآخرين، عيب. لا يصح. إنه تمثال مدينتنا، لكن أحد المحاولين لم يخضع وحاول الصعود فانزلق من فوق ساق الحصان إلى القاعدة العالية ثم سقط إلى الأرض بين ضحكات الواقفين وبينهم هم الذين حاولوا منعه. قالت كاتينا:

ـ شفت إسكندرية يا عربى؟

ـ شفت يا كاتينا. .

كاد يقول كما قالت أسمهان صارت غابة بها الغزلان والقرود، لكن كيف يقول ذلك. ثم ماذا يهمه من الإسكندرية التى لم تفطن إليه حتى الآن، فما هو إلا تابع صغير الشأن لامرأة ليست مصرية. فلتذهب الإسكندرية إلى الجحيم، وليذهب الأجانب وعبد الناصر

والشيوعيون، كما ذهب اليهود والإنجليز والفرنسيون وكما يذهب كل شيء فالأيام دول، وأيامه لاتزال ضائعة فى قلب الزمان. . . .

(٤)

هذه ليلة تحرص كل منهن ألا تفوتها. ليلة شم النسيم. يقل عددهن حقا لكن البهجة التى تثيرها الحفلة الإذاعية تجعل الدنيا حولهن متسعًا من السعادة. كروان جالس بالقرب منهن يقرأ فى كتاب صغير. سألته نوال:

ـ ماذا تقرأ يا كروان. . . ؟ قصة؟

ـ إنها قصة روبنسون كروزو الشهيرة. .

ضحكت حسنة وقالت. .

ـ من روبنسون كروزو هذا ومن أين الشهرة إذا كنت أنا لا أعرفه.

ضحكت نوال وابتسم كروان وقال. .

ـ هذه قصة مبسطة وليست الأصلية ويمكن بعد أن أنتهى منها أن تقرئيها. .

ـ تانى يا كروان. أنا تركت المدارس فى سنة ثانية ابتدائى. قراءة تانى. طيب. . بدل الكتاب هات لى عريس. .

ارتفعت الضحكات تملأ الحجرة ثم قالت حسنة:

ـ إذا كانت قصة حب أحكيها لنا. .

قالت أبلة نرجس مبتسمة. .

ـ حسنة. اتركى كروان فى حاله. . الولد صغير. .

ـ صغير! . والنبى تلاقيه مقطع السمكة وذيلها .

هكذا أجابت حسنة، فضحك الجميع وأحس كروان بالخجل وقالت نوال . .

ـ صحيح يا كروان ما هى حكاية أمينة بنت الأسطى البياع .

ابتسم كروان واندفع يتكلم ببساطة وبراءة . .

ـ هى فى مدرسة المعلمات الثانوية . مدرسة المعلمات بجوار مدرستنا، مدرسة طاهر بك الإعدادية . السور بينهم واحد . فى حصة الألعاب طارت كرة القدم ونزلت فى مدرستها . المدرس طلب منى أقفز من فوق السور . شالنى زملائى وطلعت فوق السور . كان فيه بنات كتير فى الحوش . كان وقت الفسحة فى المدرستين . . شاورت لواحدة منهم تحضر لى الكرة . . كانت أمينة . عرفتها لما قربت من السور وضحكت لى . قذفت الكرة ونزلت أنا .

ـ وبعد . . . ؟

تساءلت حسنة ضاحكة .

ـ خلاص . . لم أرها بعد ذلك . العصر لاقيت أمها تشتكى لأمى وتقول إنى أطلع على سور المدرسة أعاكسها . طيب كيف أعاكسها، وهى أكبر منى . ثم هل لأنها حلوة أعاكسها . البنات الحلوين كتير . مدرسة المعلمات فيها بنات كتير أحلى من أمينةومع ذلك لا أعاكسهن، أنا لا أحب ذلك . .

كن فى غاية الدهشة من حديث كروان الذى أدركن الآن إنه كبر بحق ودخل فى طور الشباب . قالت حسنة بهدوء ودهشة . .

ـ يخرب عقلك يا كروان . كل هذا يطلع منك .

ابتسم وعاد يقرأ. كانت الموسيقى تنبعث من الإذاعة حيث لم تبدأ الحفلة الغنائية لفريد بعد، والمذيعة تتحدث عن الربيع والزهور والحب فقالت نوال..

ـ دائمًا يتكلمون عن الربيع رغم أنه ليس أحسن فصول السنة فى مصر.

كيف يا نوال؟ تساءلت نادية سلاّم.

ـ بسبب رياح الخماسين. إنها تفسد فصل الربيع كله..

ـ صحيح.

قال كروان مؤكدا على كلام نوال التى استطردت:

ـ أحسن فصول السنة فى مصر هو الخريف، ولكنه حزين.

ـ كيف؟

تساءلت حسنة. فقالت نوال بألم حقيقى:

ـ فيه تسقط أوراق الشجر وتذبل الزهور. ألا تسمعينهم يقولون خريف العمر. يعنى فيه تشعرين بالنهاية تقترب. لكنه جميل لأن الجو فيه صاف ونقى وأمطاره خفيفة وحرارته معتدلة..

ـ والنبى أنت كلامك يحير يا نوال، كل شىء صار محيراً هذه الأيام..

قالت نوال بصوت خفيض كأنها تحدث نفسها:

ـ صحيح..

سكت الجميع ولم يعد فى الغرفة غير الصمت والموسيقى الهادئة، حتى المذيعة سكتت الآن. تساءلت أبلة نرجس..

ـ من أول السنة لم تسهرى معنا يا نوال. كل من رآك قال إنك لست كالمعتاد. أمك تقول إنك سرحانة على طول وشايلة الهم ولا تتحدثين مع أحد فى شىء. .

ـ والله يا أبلتى أنا فى مشكلة كبيرة. . تعرفت بجماعة شغلوا وقتى وعقلى.

ـ جماعة مطربين؟

تساءلت حسنة:

ـ الشر بره وبعيد، الشر بره وبعيد. . أنت يا بنت مجنونة.

قالت ذلك حسنة بسرعة. وتأملتها ألجونى فى استغراب أما نادية فقد بدا على وجهها الخوف. كروان فقط هو الذى رفع رأسه عن الكتاب وأرهف أذنيه ليسمع. . وتساءلت أبلة نرجس بهدوء:

ـ وكيف تعرفت عليهم؟

ـ عن طريق الدكتور أحمد الذى حدثتكن عنه من قبل وفى ليلة رأس السنة الأخيرة. .

سكتن قليلاً. كن يفكرن فى شىء واحد قالت نادية:

ـ يعنى الإشاعة التى سمعناها بأنك رجعت ليلة رأس السنة سكرانة عند الفجر كانت صحيحة.

ـ سكرانة لا. . عند الفجر نعم. . أنا لم أشرب. الشرب يضر صوتى، غير أنه حرام.

ظهرت الدموع فى عينيها فقالت أبلة نرجس:

ـ تكلمى يا نوال. فضفضى. .

ـ أنا خائفة يا أبلتى . خايفة موت . . الدكتور أحمد الذى حدثتكن عنه من قبل صارحنى بحبه :

ـ وهل هذا يخيفك يا عبيطة . أنت هكذا تكون قد انفتحت لك طاقة القدر .

ـ أنا فرحت لقد صارحنى بحبه بعد تلك الليلة التى عرفنى فيها بناس محترمين جدًا . فنانين وسياسيين كما قلت . فى البداية قلت ربما لا يحبنى بقدر مايحب صوتى ، ثم قلت لنفسى ليكن . . وربما أيضًا يستطيع واحد من هؤلاء الناس المحترمين أن يساعدنى للدخول إلى الإذاعة . لقد أعجبوا بصوتى . ذهلوا ، لكن المشكلة إنه تم القبض عليهم جميعًا تلك الليلة بعد أن تركتهم بقليل .

ـ يا لهوى .

هتفن جميعًا ، وضربن صدورهن بأيديهن بينما فُتحت عينا كروان إلى أقصى مدى ، وجف ريق أبلة نرجس وتساءلت بصوت مخنوق :

ـ كيف حدث ذلك؟

ـ كانوا معظم الوقت يشتمون فى سياسة الدولة ، الوحدة بالذات . كانوا يتكلمون بإعجاب عن التمصير ، تمصير الشركات الأجنبية يعنى بيعها للمصريين ، و أحيانًا يمدحون عبد الناصر على ذلك ، ثم يعودون يشتمونه بسبب إلغاء الأحزاب وانعدام الديمقراطية . قالوا الوحدة غلط لأنها بين حكومات وليست بين شعوب حرة تملك أمر نفسها . وقالوا إن أى معارضة سياسية تنتهى إلى السجن . وقالوا إن طرد اليهود من مصر غلط لأنه أدى إلى ذهاب الكثيرين منهم إلى إسرائيل ، التى عادت تتحدث عن مأساة

اليهود وتدعو العالم إلى التبرع من أجلها. قالوا كلامًا كبيرًا كثيرًا تلك الليلة بين الأغنيات . .

كن يستمعن إليها بشغف غريب، رغم أن كثيرًا مما قالته بدا غير مفهوم لهن، لم يقاطعنها، يردن سماع ما هو أكثر، ظل كروان يستمع إليها فى شغف. وعادت هى إلى الحديث:

ـ كانوا يتكلمون كلامًا جميلاً فى الفنون والأدب والسينما والفن التشكيلى، الرسم يعنى، وكان بينهم فنانة جميلة جدًا. إيطالية من ناحية الأم اسمها بريچيت، وشاعر اسمه عصمت مفتاح . . هل تعرفه يا كروان. هل قرأت له شعرا . .

ـ لا.

انتبه كروان إلى السؤال وأجاب فى اضطراب. استمرت هى فى الكلام . .

ـ عصمت مفتاح هذا شاب صغير، يبدو فقيرًا وسط هؤلاء الناس، لكنه إذا ألقى بشعره بدا كأنه مارد عملاق، أستغفر الله العظيم، بدا كأنه إله . . أى والله. رغم أنى لم أفهم ولا كلمة من شعره. وكدت فى لحظة أنهض مثلما فعلت بريچيت الفنانة وأقبله . . لا تؤاخذونى. هؤلاء الناس بسطاء جدًا فى علاقاتهم. و بريچيت هذه قد دعتنى لأزورها فى مرسمها بقرية أبيس. ذهبت إليها فوجدتها مكتئبة جدًا وحزينة. ذهبت إليها بعد تلك الليلة بأسبوع. وجدت عندها فى المرسم لوحات كثيرة، غريبة الشكل، كلها نقط ملونة تخفى وجوهًا متعبة وتقول لى هؤلاء هم الفلاحون، وإنه لازم أقرأ بعض الشىء فى الفن التشكيلى، ضحكت وقلت لها إن الدكتور أحمد طلب منى أقرأ فى تاريخ مصر، وأن الأستاذ نادر

نعيم ـ وهو أهم شخص فيهم ـ طلب منى أقرأ قليلاً من الأدب، وضحكت وقلت لها إنى إلتحقت بمدرسة التمريض هربًا من القراءة وكذلك لأن والدى لا يستطيع الإنفاق على تعليمى. . آه. نسيت أقول لكم أنهم تلك الليلة تحدثوا كثيراً عن اليوم الذى سيأتى ويسيطر فيه الشعب، والعمال بالذات، على الحكم، وعلى الاقتصاد، وذلك اليوم هو الذى سينتهى فيه الظلم. كان كلامهم أحيانًا يبدو لى مقنعًا وجميلاً خاصة حين يتكلمون عن الشعب الذى يعيش أغلبيته تحت خط الفقر لكن كلامهم فى السياسة لم أفهمه، لكنى كنت أندهش من ملابسهم الغالية جداً والأنيقة، والبارفان الذى يعطرون أنفسهم به، والشقة التى نجلس فيها والتى لا تقل فخامة عن شقق أفلام الباشوات، وكيف يحبون الفقراء هكذا. المهم. بريچيت ذلك اليوم بدأت ترسمنى. أمضيت النهار كله معها وهى ترسمنى، وقالت لى إنه بعد لقاء طويل آخر ستنتهى من اللوحة التى حين نظرت إليها وجدتها تشبهنى الخالق الناطق لكن يتبقى مناطق تحتاج إلى تلوين ورتوش خفيفة كما قالت وفجأة وجدتها تبكى. مالك يا بريچيت. قالت: خسارة أن الزملاء لن يروا هذه اللوحة. ارتبكت أنا وأدركت أن هناك شيئًا لا أعرفه، رأتنى مرتبكة خائفة فقالت لى لا أحد يعرف متى سيعودون. تجرأت وسألتها، وأين ذهب الزملاء؟ كنت أعرف إنها تقصد أولئك الرجال العظماء الذين قابلتهم ليلة رأس السنة. قالت «إلى المعتقلات» امتقع وجهى وارتعشت بحق فسألتنى. «ألا تعرفين» قلت لها لا. اندهشت جداً كيف لم يخبرنى الدكتور أحمد بذلك. . قالت كان عليه أن يخبرك لتحتاطى لنفسك. . ولما رأتنى خائفة جداً قالت صحيح أنت لست عضوة فى الحزب ولم تقابليهم

غير مرةواحدة لكن ممكن جداً أن تتعرضى لاستجواب من أى نوع. ظهر على وجهى فيما يبدو أننى أريد أن أسألها كيف لم تتعرض هى لذلك فقالت «لا تقلقى الدولة تتردد كثيراً فى اعتقال النساء لكن لا أظن أن هذا التردد سيطول لذلك لا تتأخرى فى الحضور لتنتهى هذه اللوحة». .

ـ وهل ذهبت إليها بعد ذلك؟

تساءلت حسنة فى فزع. . فانهمرت الدموع من نوال وقالت:

ـ لم أذهب، وحتى الآن لم أذهب. حاولت فى المستشفى أن أبتعد عن الدكتور أحمد قدر المستطاع، ولكن قلبى لم يطاوعنى، ووجدت نفسى أحب الغناء فى المستشفى بالليل للمرضى أكثر من كل وقت، ولم أعد أتضايق حين يطلب منى كبير الجراحين أن أغنى فى غرفة العمليات انتظرت أن يخبرنى أحمد بشىء مما قالته لى بريچيت فلم يفعل. كان كل يوم يمر أطول من الدهر كله لأنى أخشى ألا أرى أحمد فى اليوم التالى، لكنى كنت أراه، ومازلت، وأحمد الله على ذلك، وأطلب منه الستر وأن يتزوجنى أحمد كما فعل الدكتور سمير مع الممرضة سميحة التى صارت الآن ست بيت محترمة وقعدت من الشغل، لكن أحمد لا يتحدث معى فى أمر الزواج، ولاحظت أنه هو الذى يبتعد عنى. ماذا أفعل يا أبلتى أنا محتارة. . ؟

حط الصمت ثقيلاً هذه المرة. كان فريد الأطرش قد بدأ يغنى أغنية الموسم الشهيرة «الربيع»، ووصل إلى الكوبليه الحزين.

وادى الشتا يا طول لياليه

على اللى فاته حبيبه

ينـادى طيــفــه ويناجــيــيــه

ويـشكـى للـكون تـعـــذيـبــــه

قالت حسنة :

ـ أطفئ الراديو يا كروان. الحكاية مش ناقصة غم.

انتبهن إلى أن كروان لا يزال جالسًا. قالت أبلة نرجس . .

ـ الدكـتـور أحـمـد يحبك يا نوال وبعـده عنك حـتى لا يعـرضك للخطر.

فجأة اندفعت ألچونى باكية وهى تقول :

ـ لكن الحكايات دى صعبة علينا قوى يا أبلتى . .

اندفعت نادية سلام تتساءل . .

ـ ولماذا قبضوا على هؤلاء الناس. ما هى التهمة؟

قالت نوال بهدوء . .

ـ الشيوعية.

ضربت حسنة صدرها بيدها هاتفة فى فزع . .

ـ الشيوعية. يا مصيبتى. دى مصيبة كبيرة . .

تأملتها نوال فى دهشة . .

ـ أبدًا. لكن ظاهر من اسمها . .

وهنا ضـحكن، اختـلطت الدمـوع بالضـحكات، ضـحك كـروان ونهض تاركًا البيت. يحتاج إلى بعض الهواء الطازج على المحمودية خاصة والليلة نسيمها عليل . . قالت حسنة :

ـ أحسن شيء فعلاً الآن هو أن تغنى يا نوال . .

قالت نوال وهى تجفف دموعها بقطعة قماش مهملة :

ـ لا . سامحينى الليلة . .

ـ إذن ترقص ألچونى . . هيا يا بنت . .

ووقفت ألچونى تاركة حسنة تحزمها بشريط من القماش . وقفت وسطهن كالملكة وراحت تتمايل على مهل، بلا رغبة فى الحقيقة، فقالت نادية سلام :

ـ أين أنت يا بدرية الآن؟ لقد رقصت العام الماضى رقصًا كالنار .

قالت حسنة :

ـ زمانها ماشية سارحة وراء الغنم فى الصحراء . .

ضحكن، ولم يبد أن ألچونى ستستطيع الرقص بشهية، أدركت نوال أنها لم تقل لهن كل الحكاية، وأن ما أخفته كان أعظم، بينما فكرت نادية سلام فى هذه القصص العجيبة للحب التى تنمو وسط الدمار فالچونى تحب خير الدين المعرض للموت، ونوال تحب سياسيًا معرضًا للسجن، وهى أحبت إبراهيم مرسى غير المعرض لأى شيء لكنه يختار أماكن للموت والمرض . .

كان كروان ذلك الوقت قد وقف على شاطئ المحمودية وفوجئ بسليمان يقف هناك أيضًا . لم يتحدث معه فى أى شيء مما سمعه . لقد أدرك خطورته . ووجد سليمان يأخذ نفسًا عميقًا ويطلقه بهدوء وعلى مهل وفى وقت طويل . .

ـ لماذا تفعل ذلك . ؟

ـ يوجا . أحد التمارين الجميلة فى اليوجا . يشعرك بالراحة والسعادة . .

راح كروان يقلده لكنه لم يشعر بشيء فابتسم وقال سليمان:

- هل تعرف ما هو إحساس إنسان حين يقف هنا وحده بالليل وكل شيء حوله نائم من الجماد والبشر والطير والحيوان؟

سكت كروان مرتبكًا قليلاً واستطرد سليمان.

- يشعر بالعظمة. بالألوهية. بأنه شيء أقرب إلى الآلهة.. بأنه إله حقيقى لهذا الكون الساكن حوله. ويمكن جدًا أن يشعر بالتفاهة. بأنه لا يساوى شيئًا لإنه لا يوجد من يقف حتى ليكلمه. بأنه لا أحد. فاقد الوجود والماهية معًا!

لم يعلق كروان الذى كان يعجب دائمًا بكلام سليمان. وإذا كان لهذا الكلام معان أكبر من قدرته على الفهم فسوف يكبر يومًا ويدرس الفلسفة ويفهم. لن يفعل مثل سليمان ويلتحق بأقسام العلوم؟ سيلتحق فى المدرسة الثانوية بأقسام الآداب، وسيكون هدفه فى هذه الحياة هو كلية الآداب والعلوم الإنسانية..

كانت البنات قد انصرفن بعد أن نبهت عليهن أبلة نرجس ألا يتحدثن فيما قالته نوال حتى لأهاليهن، ورأين أن وجه المرأة البسيم لم يعد كما كان من قبل أبدا. فى الحقيقة لم تكن خائفة. كانت فقط تدرك بحسها البسيط أن كارثة كبيرة ستحل بالمساكن. أن شيئًا لم يخطر ببال أحد سوف يقع. ولم يمر وقت طويل. فى الصباح التالى، يوم شم النسيم الذى يخرج فيه الناس جميعًا إلى الشواطئ والحدائق، كانت نوال بالمستشفى بالنهار، إنه أحد أيام الطوارئ الخطيرة خلال العام. حالات التسمم بالفسيخ وحوادث الطريق والمشاجرات بسبب معاكسةالبنات كلها تنتهى إلى المستشفيات. كان تعرف أن الدكتور أحمد سيشاركها العمل اليوم لكنه لم يأت. فى الساعات الأولى

للصباح يبدو كل شيء هادئًا في المستشفى. المرضى فى أسرَّتهم، والمرضات فى حجراتهن، وقسم الاستقبال لم يستقبل غير حادثة أو اثنتين. كانت هى تفكر فى اللقاء الذى لم يتكرر مع أحمد بعد ليلة رأس السنة، اللقاء الوحيد الذى تم بينهما خارج العمل منذ أسبوع فى تريانون. .

ـ لم أشأ أن أخبرك بما جرى للزملاء حتى لا أسبب لك أى ارتباك فى حياتك.

ـ كان من المفروض ألا تتركنى. لقد عرفت من بريچيت وانتظرت أن تكلمنى فى ذلك كل هذا الوقت.

ـ لقد حاولت الابتعاد عنك قدر الإمكان حتى تمر عدة أسابيع هى عادة الوقت الأكثر خطراً. لقد حدثت ضربة أخرى فى مارس الماضى لعدد آخر من الشيوعيين، ولقد مضت عدة أسابيع على ذلك أيضًا الآن، وما داموا قد أخطأونى فى الضربتين، وحتى هذا الوقت فاحتمال أن يمر الأمر بسلام يكاد يكون مائة فى المائة.

ـ لذلك طلبت مقابلتى وهنا فى العلن؟

ـ بالضبط.

ـ هل تحبنى كل هذا الحب؟

ـ وأكثر. ستكونين مغنية الثورة القادمة.

سكتت. ترتبك كثيراً أمام هذه الأحاديث. قال:

ـ فى كل حركة سرية يا نوال توجد امرأة تخفى الرفاق، كنت ومازلت أحلم أنك هذه المرأة.

تذكرت قصيدة عصمت مفتاح العجيبة، بدأت تدرك شيئًا من

معناها. هل يمكن أن تكون هي منذورة حقًا لشيء من ذلك؟ تساءلت..

- وبريچيت؟

- سافرت. استطاعت الخروج من مصر. إنهم يسهلون لمثل بريچيت الخروج. فهي من ناحية امرأة، ومن ناحية أخرى فنانة، والأهم أن لها أصولاً أجنبية وحبسها في مصر خسارة للدولة أكثر من كونه مكسبًا.

- لذلك لم يقبضوا على الرجال الأجانب الذين كانوا موجودين تلك الليلة.

- قبضوا على كل الموجودين، لقد أنقذنا خروجنا أنا وبريچيت لتوصيلك إلى المنزل قبل أن تنفض الجلسة.

في صباح اليوم التالي لهذا اللقاء خرجا معًا من المستشفى فصحبها في سيارة تاكسي إلى شارع جانبي من شارع الرصافة بمحرم بك. أعجبها شارع الرصافة بنظافته وقوة مبانيه العصرية وشرفاتها الواسعة، كذلك بدا الشارع الجانبي نظيفًا للغاية. تركها في السيارةودلف إلى إحدى العمارات الصغيرة ليعود بعد قليل ومعه كيس قماش أبيض بداخله لفة كبيرة صلبة. أعطى السائق جنيهًا كاملاً وقال له أن يعود بها إلى منزلها في كرموز.

كانت المدينة تستقيظ حولها، والشابورة تشف شيئًا فشيئًا والناس تظهر خارجة من الأزقّة في سرعة كمن انتظر سنينًا طويلة خلف الأبواب في الظلام حتى لاح له النور وفتح له الباب. ازدادت الحركة في شارع محرم بك، وسمع صوت صرير الترام، وعند ميدان الجمهورية، عند محطة مصر، كان المسافرون يهرولون داخلين إلى

المحطة، وعربجيو الحناطير يقدمون العلف لخيولهم. لماذا لا يبدو بين المسافرين الداخلين إلى المحطة نساء؟. لاحظت ذلك وتساءلت فى نفسها. كان التاكسى يمشى بطيئًا كأنما يطلعها على هذه المدينة الغريبة، ودخل بها فى شارع الخديو ثم انحرف عند المدرسة التليانية إلى شارع عامود السوارى داخلاً قلب كرموز. بسرعة كان قد عبر الكوبرى، لم يكن فى شارع عامود السوارى شىء يمكن ملاحظته غير سور المقابر المصمت والعمارات الصامتة على الناحية الأخرى ومحلات القماش التى لم تفتح أبوابها بعد. اقتربت من المساكن بعد أن قطع بها التاكسى الطريق الموازى لترعة المحمودية ورأت عدداً من الرجال يخرجون إلى أعمالهم. لقد تعوّدوا أن يروها عائدة من المستشفى فى الصباح الباكر. فى البيت كان أبوها يستعد للخروج. تساءل مشيراً إلى المخلاة القماش..

- ما هذا يانوال؟

- كتب فى الطب.

ابتسم الرجل وهز رأسه وانصرف إلى عمله. عادت أمها التى استيقظت لإعداد الشاى والفطار لأبيها إلى النوم. جلست هى فى الصالة أمام المخلاة وتذكرت أن تخلع ملابسها. ارتدت جلبابًا من القطن وعادت تجلس أمام المخلاة من جديد. فتحتها بسرعة ودلقت الكتب على «الكليم» القديم الذى فوق الأرض.. كلها كتب بالإنجليزية. يمكن لها أن تقرأ على الأقل العناوين. «ذا كابيتال». قالت لنفسها هذا عن العاصمة! لكن من هو كارل ماركس هذا مؤلف الكتاب الضخم. فتحت الكتاب فوجدت صورة المؤلف تحتل الصفحة الأولى تكاد تقفز منها إلى حجرها. رأس كبير وشعر أسود كثيف وذقن

كثيف ووجه مستدير وعينان ثاقبتان فوقهما جبهة عريضة. قالت فى نفسها مبتسمة «يا حول الله. رجل شرس!» وراحت تقلب بقية الكتب التى لم تستطع أن تفهم عناوينها أبدا، كيف حقًا لم تحافظ على الإنجليزية التى تعلمتها فى المدرسة؟ قرأت عنوانًا طويلاً لم تفهم منه غير كلمة «فاميلى» ورأت بالصفحة الأولى للكتاب رجلاً آخر يبدو أطول، ربما، وجهه أطول، كثيف الذقن والشعر مثل الأول، لكنه يبدو أكثر وداعة. اسمه فريدريك إنجلز. . ورأت صورة رجل ثالث أصلع ذقنه مقصوصة رفيعة اسمه لينين. تذكرت أنها سمعت أسماءهم تتردد فى أحاديث الزملاء ليلة رأس السنة. هل يمكن أن يكون هؤلاء الناس ذوو اللحى هم سبب المشاكل مع الحكومة؟ خافت للحظة، لكنها ابتسمت من نفسها. كانت سعادة لقاء الأمس فى تريانون لاتزال تشملها.

أعادت الكتب إلى المخلاة وصعدت على سلم خشبى ووضعتها فوق السندرة بين صفائح السردين المملح والمخلل والبقايا المنزلية ونامت ذلك الصباح سعيدة كالأطفال الذين حكت لهم الجدة حكاية جديدة جميلة مثيرة قبل النوم. .

كان لا بد من وقوع أكثر من حادثة فى المدينة ووصولها إلى قسم الاستقبال لتأخذها من هذا التفكير، لكن لم تعد تصل حوادث كأنما لم يكن اليوم شم النسيم فى الإسكندرية. لماذا حقًا لا تنهض وتتصل هى بالتليفون بأحمد الذى لم يصل حتى الآن. فعلت ذلك فلم تجد حرارة فى الخط. الخط مقطوع طول الوقت. وقبل أن تفكر كيف أحست بشىء من الرعب غير المفهوم ليلة أمس بعد أن غادرت أبلة نرجس وقبل أن تنام، وكيف دق قلبها بسرعة، دعاها مدير المستشفى لمقابلته. .

عرفتهم داخل غرفةالمدير الواسعة. ثلة من رجال المباحث الذين يرتدون زيًا مدنيًا، وجوههم حمراء وعيونهم يطل منها شرر وملابسهم نظيفة لامعة، إنهم ضباط ولا أقل، حولهم عدد من المخبرين كبير. لا تعرف لماذا وقعت عيناها على أياديهم الغليظة، الجميع، ضباطًا ومخبرين.. كان بينهم ضابط برتبة أعلى، لا بد، فهو الأطول، والأقوى بدنيًا، وهو الذى تأملها بعينيه عند دخولها. إنه طويل جدًا أكثر مما ينبغى، يكاد يصل فى طوله إلى صارى السفينة أو العلم..

يستطيع أن يمسك أى شخص بيد واحدة ويرفعه عاليًا ويلقى به من النافذة دون حتى أن يتحرك من مكانه!.. بدا لها مدير المستشفى القصير مسكينًا بينهم. ظهر فى عينيه رعب فظيع. كان فى الحجرة أيضًا عدد من الأطباء المستائين من الشباب. سمعت الضابط الطويل يقول..

ـ أعتذر لكم عن دخولنا غرفة الأطباء وتفتيشها، لكنها إجراءات ضرورية.

هذا إذن سبب استياء الأطباء. قال أحدهم للضابط..

ـ ما هى التهمة الموجهة للدكتور أحمد حتى نستطيع أن نساعدك..

ـ العمل على قلب نظام الحكم وتكوين تنظيم شيوعى متصل بجهات أجنبية..

كان يقول الكلام بهدوء وثقة متجاهلاً وجود نوال تمامًا. كان يقصد ذلك وكانت هى توشك على الانهيار.. لكنها سمعت الطبيب الشاب يقول..

ـ دكتور أحمد يفعل ذلك!؟ اسمح لى أقول لسيادتك مستحيل..

ـ نعم!؟

تساءل الضابط فى غلظة فقال الطبيب الشاب.

ـ اسمعنى ولا تحاول إرهابى. أحمد شخص خجول جداً يحب الموسيقى والغناء والشعر فكيف يقلب نظام الحكم؟ إنه بالكاد يقلب صفحة كتاب..

ضحك الأطباء الشبان وازداد رعب المدير وأحست نوال بالقدرة تدب فيها. هناك إمكانية للمواجهة إذن. اقترب الضابط من الطبيب الشاب وهمس بهدوء:

ـ يبدو أنك صديقه الحميم.

ـ أنا هنا منذ أسبوع فقط، لكن لا أعتذر عن صداقته.

ـ من أين أتيت؟

ـ من أسوان.

ـ من أسوان وتعمل فى الإسكندرية.

ـ لو أن الدولة وفرت المستشفيات فى أسوان لظللت هناك..

هزّ الضابط رأسه أكثر من مرة وعاد إلى الخلف صامتًا ثم جلس على مقعد المدير الواقف فى ذعر خلف مكتبه وقال..

ـ أعدك أنك ستجد عملاً فى أسوان، والآن نتكلم مع السستر نوال. ألا زال صوتك حلو يا سستر..؟

كان الطبيب الشاب قد بلغ غاية الضيق فاندفع يقول..

ـ إذن نستطيع الانصراف، أم لديك أسئلة أخرى. أقصد تهديداً آخر؟

اقترب منه فى غيظ عدد من المخبرين والضباط لكن الضابط الكبير الطويل الجالس الآن أشار إليهم أن يتوقفوا فى أماكنهم. اندفع الطبيب الشاب خارجاً فقال هو . .

ـ حماس شباب ، غداً يتعلم كيف يكون الحماس .

ثم أمسك بظرف كبير جداً أخرج منه اللوحة التى كانت ترسمها بريچيت لنوال وقال وهو يعرضها على الواقفين :

ـ هذه صورتك يا نوال. كانت ترسمها بريچيت . . هل تنكرين ذلك . ؟

ـ لا .

ـ إذن تعرفين بريچيت .

ـ قابلتها مرة .

ـ أين؟

ـ هنا . جاءت مع أحمد وتعرفت علىَّ. قالت إنها تستطيع أن تساعدنى للعمل بالإذاعة . .

ـ هل رأى أحد منكم بريچيت؟

كان يخاطب الأطباء الآخرين الذين لا يزالون واقفين. لم ينتظر إجاباتهم. قال :

ـ لا يعرف أحد بريچيت يا سستر نوال. فيم كنتم تتحدثون؟ . . لا تقولى لى إنكم تحدثتم عن عبد الحليم حافظ وأسمهان . .

ـ تحدثنا عن سيد درويش .

ـ وكارل ماركس والماركسية .

اتسعت عينا نوال وتذكرت صورة الرجل الشرس كارل ماركس. لم تترك للخوف فرصة فقالت على الفور:

- هل الماركسية نوع من الطبيخ مثل الشركسية مثلاً؟!

هنا انفجر الأطباء في الضحك، أوشك مدير المستشفى أن يضحك لكنه قمع رغبته وزم شفتيه واربد وجه الضابط الكبير وقال:

- واضح أن الدكتور أحمد ترك أثره عليك كثيراً، إذن سنأخذك إليه..

اقترب منها ثلاثة مخبرين. واقترب منه مدير المستشفى وقال..

- لكن يا أفندم هنا مكان عمل وهذه سابقة لم تحدث فى أى مستشفى.

صرخ فيه الضابط الطويل القوى..

- لماذا يا حضرة المدير. جامع هذا أم جامعة؟. المستشفى الذى تديره حضرتك وكر للشيوعية والشيوعيين فهل يرضيك هذا؟ أظنه يرضيك!.

سكت المدير مسقطًا في يده. أحس بقية الأطباء بخطورة الموقف توقفوا صامتين، أما نوال فقد تماسكت حتى لا تقع مغشيًا عليها وخرجت مع رجال البوليس، كلما مروا بأحد العنابر، اندفعت الممرضات تبكين، ووقف بعض المرضى يتابعون المشهد فى غيظ وبصق بعضهم فى الفناء، وعلى الأرض، وهتف واحد يسقط الظلم، لكن صوته الواهن لم يساعده فى أن يسمعه أحد، ورجال الأمن جميعًا وبينهم نوال كانوا فى فناء المستشفى الآن يصعدون إلى سياراتهم المصفحة الجديدة..

(٥)

من قبل لم تعد تعنينى قصة المغنية، وجدت أنها ستنتهى بسرعة، وشرعت فى كتابة هذا المكان! . لم أكن أدرك أننى سأكون أحد أبطاله. سأنحى الآن المكان وأفرد الصفحات لنفسى. وتقدرون فتضحك الأقدار! هكذا قال المعلم أبو العلاء. وهناك شر كبير فى الدنيا، لكن هناك دائمًا بصيصًا من أمل. لا أذكر من قال ذلك. لعله فولتير فى «كنديد» قال شيئًا قريبًا منه. إذن هناك دائمًا إمكانية للتفاؤل. لم تصلنى رسائل أخرى من چين، ولم ترد حتى على بطاقة التهنئةالتى أرسلتها مع بداية العام. إما أن رسائلها لا تصل، أو رسالتى لم تصل أيضًا.

منذ حطت الأسرة الجديدة فى البيت المقابل وأنا أتحين الفرص لأرى الفتاةالصغيرة. لماذا أفعل ذلك حقا؟ ترددت كثيراً فى أن أحدثها. لماذا أرغب فى الحديث معها ولماذا أتردد؟ إن ريقى يجف، وأشعر وكأن شعر رأسى يقف فى اللحظة التى أفكر فيها فى الحديث معها. فى النهاية نجحت. سقطت عيناى على العنبتين النابتتين فى صدرها وتشجعت! . يا إلهى. كيف حقًا لم يحدث أنى انجذبت إلى أى بنت من البنات هنا ولا فى طريقى إلى المدرسة. إننى لأدرك الآن إدراكًا صحيحًا لا تشوبه شائبة أن عواطفى نحو چين لم تدخل قط منطقة الحب.

كنت مسحوراً حقًا، لكن بالمعرفة أكثر مما هو بالجمال. چين تمثل الإمبراطورية البريطانية وليس ذلك بالقليل أن يقترب منها أحد، فما بالك إذا كان هناك إعجاب لم تسمح له الظروف بالتطور ليكون حبا. لقد وضعتنى الكتب على الطريق المستقيم، وعشت قصص حب

أبطالها أكثر مما عشت قصص حبى أنا، كما قالت لى چين مرة، الآن أدرك أن الطريق المستقيم لا يصنع كاتبًا، وإن كنت لا أعرف كيف أنحرف! . الخلاصة أن قلبى يدق اليوم فأعطوه الفرصة للطيران . يا سلام . يا لها من لغة شكسبيرية .

ـ لم أعرف اسمك .

سألتها فابتسمت مندهشة وببراءة قالت :

ـ سعيدة، ويدللونى بسعدة .

ما الذى رفعنى عن الأرض إلى الفضاء الرحيب . لقد استقبلت اسمها بشفتى وليس بأذنى، ومضغته وابتلعته وأحسست بطعمه شهيًا فى فمى، بالضبط كطعم العنب . .

كانت تلعب الهولاهوب، وكانت قد توقفت ووجدت نفسى أقول لها أن تعود إلى البيت ولا تلعب فى الشارع بالليل ولدهشتى أطاعتنى وانصرفت، لكنها وهى تعبر البوابة داخلة إلى المساكن التفتت ناحيتى وابتسمت . . هذه إذن ليست صبية فى العاشرة أو حتى الثانية عشرة . إنها إلهة يونانية صغيرة ستكبر بيننا وستفتننا جميعًا . شعرها الأصفر الملموم كذيل حصان خلف ظهرها سينحل عن الشريط الأخضر ويطير فى كل اتجاه وسنجرى خلفها ولا نلحق بها أبدًا، سعدة هذه النحيلة كالقشة المثيرة للبهجة السحرية جاءتنى بالليل، فى المنام طبعًا، وأعطتنى كوبا من الكريستال المضىء وعنقود عنب أحمر . قربت الكوب من فمى فامتلأ بعصير العنب الذى فى يدى الأخرى ورحت أشرب والكوب لا يفرغ والعنقود كلما جفت حباته عادت إلى طزاجتها حتى دارت بى الأرض وسقطت وسط الطريق الخالى الذى كان وحده يمتد بين الصحراء ورأيت عيون الناس من السماء تطل علىَّ وتضحك

والصحراء امتلأت شجراً حتى طلع الصباح فنهضت مشبعًا بالسعادة ولم أشأ أن أقص رؤيتى على إخوتى!!

صعدت إلى السطح فرحان لأراها أمامى كأنها نزلت فى التو من الشمس على حبال الضوء، كأنما أستقبل أحد ضوء النهار بمرآة محدبة فصارت هذه الفتاة، صارت هى خلاصة هذا الضوء. الضوء. الضوء. وجدتها..

الضوء هو الذى سيساعدنى فى هذه القلاقة الجميلة. علاقة!؟. أمس ظهر عيد المشعور مع المساء. تقدم مباشرة إلى سعدة ينظر فى عينيها. كان الطوق فى وسطها فتوقفت عن اللعب وسقط الطوق حول قدميها وتردد فوق الأرض أكثر من مرة حتى سكن. خافتْ. هتفتُ من فوق الرصيف «لا تخافى» تقدمت ناحية عيد الذى ابتسم لى وأخذ طريقه إلى البيت. كان مظهره اليوم يدعو للرثاء على غير العادة. بدا كأنما لا أحد يعتنى به. وربما هو الذى يهرب من الآخرين. يظهر فى معظم الأيام قادمًا من المدينة وفى صحبته واحد أو اثنان من المجاذيب. الآن يزداد عددهم معه. أسرعت سعدة خائفة ودخلت من بوابة المساكن. مضى وقت طويل عدت بعده إلى البيت. رأيتها تقف أمام باب بيتهم. قالت..

ـ أنت لم تقل لى اسمك.

ـ سليمان.

لم يبد أنها تأثرت. هل كانت تنتظر أن يكون اسمى حسن أو أحمد أو عمرو أو فتحى مثلا. قلت:

ـ أبى وأمى أسميانى هكذا.

ابتسمت وقالت:

ـ سليمان اسم جميل. إنه اسم نبى وحكيم. .

البنت إذن ليست صغيرة. إنها إلهة يونانية حقيقية ستنمو بيننا ولا أقل من ذلك. لماذا إذن لا يكون ما بيننا بداية لعلاقة. سوف يساعدنى الضوء. ! الضفادع تركب الأفيال وتضربها بألسنتها والأفيال تبكى بدموع حقيقية تنزل وتمشى فوق أسنانها التى هى من العاج. . !

هذه العبارة التى تسربت إلى الكتابة لا تناسب مقام الحب السامى، لكنه سيتركها. أغلق دفتره، وأمسك بمرآة صغيرة كان تركها فوق مكتبه وراح يتأمل صورته فيها. .

هو أسمر وإخوته بيض، هو قصير وهم بين بين، لكنه القارئ المثقف بينهم، الشهم القريب دائمًا من الناس، وسيىء الحظ الذى يشفق عليه الجميع. ظل لسنوات يحلم أن يعثر على مذكرات عمه الذى انقطعت أخباره فى إفريقيا، والذى كان يراسل المجلات الأدبية فلا تنشر له شيئًا، وترد عليه أن يقتصد من الغموض والصور السحرية. لقد ترك وراءه سيرة مجنونة يحفظها إخوته، وبينهم والد سليمان.

كيف التقى هذا العم بالشاعر فخرى أبو السعود مترجم توماس هاردى، صدفة فى التريانون أيام الحرب. قرأ عليه شيئًا من شعره وقصة قصيرة، فقال له فخرى أبو السعود «أنت تحتاج إلى بلد آخر يتحمل موهبتك يا سليمان أفندى». كان عمه يحمل اسم سليمان أيضًا، وها هو سليمان يحمل اسمه ويحمل أزمته، فهل يمكن أن ينتهى مثله؟! فليؤجل الحديث فى ذلك. هكذا فكر وراح يتذكر عمه الذى ذهب يزور فخرى أبو السعود سعيداً، فها هو شاعر مرموق وناقد ومترجم كبير يفهمه ويدعوه لزيارته. وجد فخرى هناك جالسا

فى الحديقة ينتظره لكنه كان منتحراً برصاصة أطلقها على رأسه . فيما بعد عرف عمه من الصحف أن زوجة الشاعر وابنه قتلتهما الغارات الألمانية فى لندن . عاد العم خائفًا يرتعد ، لم يعد للكتابة بعد ذلك اليوم . هكذا أعلن لأخيه والد سليمان الصغير الذى يحبه عمه لأنه يحمل اسمه ! . ذات صباح خرج فيه العم إلى البحر . عبر ميدان المنشية وترك تمثال إسماعيل باشا خلفه ووقف لحظات فوق سور الكورنيش ثم نزل إلى الصخور التى تفصل السور عن البحر وتمنع عنه نحر الماء . وقف لحظات طويلة فوق الصخور السوداء الضخمة ، ثم هوب ، ألقى بنفسه إلى الماء الصاخب . . لم يكن يعرف العوم . انتحر على طريقة إسماعيل أدهم فيلسوف الإسكندرية الذى سبق فخرى أبو السعود فى الإنتحار وإن اختلفت الأسباب . لقد عانى إسماعيل أدهم من اكتئاب وجودى غريب ، تملَّكه من قراءة شوبنهاور وكيركجارد . كتب كتابه «لماذا أنا ملحد» فلم يتحمله الناس . لم يعد العالم ذا معنى بالنسبة إليه فألقى بنفسه إلى البحر الواسع . لكن العم ، على غير ما حدث مع إسماعيل أدهم ، لم يمت . شخص ما كان يقف بعيداً ، أرسلته فيما يبدو العناية الإلهية ، رآه يضرب بذراعيه الماء بهستيرية فأدرك أنه لا يجيد السباحة ، فقفز هو الذى يجيد السباحة وأنقذه . قال العم إن هذا الشخص إنما أرسله سوء الحظ وليست العناية الإلهية . . وهكذا لم يدخل سليمان الكاتب ، عم سليمان الكاتب أيضًا ، تاريخ المنتحرين السكندريين . وحين عرف من إحدى المجلات انتحار شاعر شاب جديد هو منير رمزى لم ينشر إلا شذرات قليلة من الشعر المنثور أدرك أن المدينة المجنونة لا تريد أن تعطيه فرصة فى الموت ، كما لم يعطه الوطن فرصته فى الحياة ، ففر وراء حلم ميت . إفريقيا والإمبراطورية المصرية فى إفريقيا . النور فى قلب الظلام ! .

يا للإسكندرية. المدينة التى امتلأت بالأجانب والأديان حتى صارت كبرج بابل، ولم تفتح نوافذها لعمه. ها هم الذين فتحت لهم نوافذها وأبوابها يخرجون منها، طوعًا أو كرهًا يخرجون، يتخلون عنها، الوجهاء منهم من الإيطاليين واليونانيين، والصعاليك من القبارصة والأرمن السكارى الضائعين فى بارات الأزقة العفنة حول شارع السبع بنات. المدينة تعود لأصحابها. لا بأس، مع أنها لم تكن يومًا للمصريين، أمر بها الإسكندر، وبناها البطالمة وحسدها الرومان وأهملها العرب فأحياها محمد على باشا فتساقط عليها الأجانب من كل سماء. جاءوا مع كل سحابة يرسلها البحر المتوسط. ربما كانوا لصوصا، مع كتونهم تجاراً وأصحاب حرف وفنون، لكنهم جميعًا أحبوا المدينة. الإسكندرية مدينة يحبها الغزاة دائمًا وتحب غزاتها. الإسكندرية قلب كبير! هذه الأيام يعلوها الكدر. على الأقل هنا. لقد عاد سليمان إلى دفتره بعد أسابيع وكتب. . يبدو أن الحب لا ينمو بسهولة وكأنما الأرض لا تنبت الزهور. . ففى الوقت الذى انشغلتُ فيه بطرائف الأخبار أسجلها ليوم أحتاجها فيه سرى الخبر فى البيوت محملاً بالفزع. لقد تم القبض على نوال وعاد خير الدين مريضا وأنا أصابنى العمى ليلة الامتحان!

هأنذا أسترد بصرى آخر يوم فى الامتحان، بالضبط عند خروجى من اللجنة. كل شىء كان مرتبًا ضدى. عمى مؤقت لعين لا أعرف من الذى قذفنى به. فى العام الماضى كنت مبصراً ومريضًا فعينوا لى شخصًا مبصراً لكنه كتب غير ما أمليته عليه فرسبت. فهل هذا العام، وأنا أعمى، سيكتب من عينوه لى ما أمليته عليه؟ إن رسوبى مضمون تمامًا. ضاقت نفسى واشتد الضيق بى واستبد بعودة خير الدين من القاهرة مريضًا إلى مستشفى الصدر. لماذ جعلوا هذا المستشفى قريبًا منا

إلى هذا الحد؟ . . فلأعد أقرأ بقلبى ما كنت سجلته من الصحف من باب التسلى . إننى أعرف إننى لم أعد أنا! اثنين، واحد مجنون والآخر فى الطريق! اعترف حسنى مورو الذى قتل أمه السيدة عبيدة عوضين وكيلة الإتحاد النسائى بأنه كان فى موقف الدفاع عن النفس فقد هجمت عليه بيد الهون والسكين فانتزعها منها وقتلها فى الوقت الذى تقدمت فيه سيدة يونانية تطلب الطلاق من زوجها الذى اختفى فى شهر العسل منذ ست وعشرين سنة، لقد حكم لها القاضى بالطلاق . للأسف مر خبر هذه السيدة كأنه بالأمر العادى وكان أجدر بالصحف والهيئات النسائية أن تحتفل بها فهى الرمز النادر للوفاء، كان أجدر أن تُمنح لقب بنيلوبى اليونانية فى مصر . الحياةالعصرية لم تعد تقف عند كثير من القيم فيما يبدو . وشركة ستوديو نحاس فى الهرم يتم تحويلها إلى أول معهد للسينما تملكه الدولة، كما تم تنفيذ حكم الإعدام شنقًا فى السيد أمين محمود المحبوس فى قضية الجاسوسية الكبرى . كان جامد الأعصاب قبل تنفيذ الحكم ورفض أن يطلب شيئًا وقال إنه لا يطلب شيئًا من أحد إلا من الله الذى هو فوق الجميع . وفى قضية طريفة قالت النيابة لا مسؤولية على الطبيب إذا نسى القطن أو الشاش فى بطن المريض، إنما المسؤولية على رئيسة التمريض أثناء العملية الجراحيةوأفرجت بريطانيا عن أرصدة مصر، و رفعت مصر الحراسة عن ممتلكات بريطانيا، لكن لا چين عادت ولا رسائلهاتصل، ومضت ستة أشهر على وفاة سيسيل دى ميل الذى مات فى ٢٢ من يناير الماضى، احتفالات الثورة على قدم وساق وتزوجت مسيحية من ثلاثة أشخاص واختفت ليتم ضبطها فى الكنيسة تتزوج من الرابع . قالت إنها إعتنقت الإسلام وطلقت من الأول! وعرض فيلم بين الأطلال فى سينما ريو، وانتشرت فى رسائل العشاق جملة يوسف السباعى المكتوبة أعلى

الأفيش «أيتها الشمس لا تغربى حتى تشهدى أن حبى لها خالد كخلودك» ولا تزال الهجرة اليهودية تزداد من أوربا الشرقية إلى إسرائيل، وأخبار فندق هيلتون النيل الذى افتتح فى فبراير الماضى كل يوم فى الصحف. حفلاته وعروض الأزياء التى تقام فيه. سبقت افتتاحه ضجة كبيرة، وقيل إن عشرات الفنانين العالميين سيحضرون الافتتاح مع صاحب إمبراطورية فنادق هيلتون فى العالم، مستر هيلتون نفسه، لكن الذى حضر الافتتاح عدد قليل أشهرهم چين راسل الجميلة. ولا يزال حديث الصحف عن الممثلةالجديد «سعاد حسنى» البريئة التى ظهرت فى فيلم حسن ونعيمة. رأيت الفيلم وأحببت صوتها وعينيها وابتسامتها. إنها تفتح للمشاهد أبواب الراحة والعذوبة وستكون ممثلة الزمن القادم. وانتهى نجيب محفوظ من كتابة الفصل رقم (١٤) من قصته الطويلة ـ هكذا قالت الصحف بدلاً من كلمة رواية ـ أولاد حارتنا. وقال إنه لولا أعباء العمل فى الرقابة السينمائية لأتم الرواية هذا لعام، ونشرت مجلة المصور مقالاً لأحد القراء يعيب فيه على محفوظ محاولته كتابة تاريخ البشرية من خلال تاريخ الأنبياء، وكان من الكلام الذى قاله إن هذه محاولة عقلية أكثر منها خبرة معايشة للكاتب، وأنها تدخل به فى مناطق محرمة كان يجب ألا يتطرق محفوظ إليها. !

وعرضت السينما فيلم أحدب نوتردام فطلب منى كروان أن نراه معًا وقال إنه يبحث عن الرواية ليقرأها، وصحبته معى أيضًا لنرى فيلم «ذئاب الميناء» أو «In The Water Front» لإيليا كازان.

قلت له لا بد أن يعرف شيئًا عن الثقافة السينمائية وبالذات مدرسة ستوديو الممثل التى أنشأها كازان فى أميركا وتخرج فيها مارلون براندو بطل هذا الفيلم. . وحين غرقت الباخرة دندرة فى النيل أمام القناطر

وفوقها مائتا شخص غاص قلبى فى صدرى، وأحسست أن الأيام القادمة لن تكون سهلة. إن غرق هذه السفينة نذير شؤم كونى، لقد مات أكثر من خمسين شخصًا، وأصيب أكثر من خمسين آخرين وامتلأ الشاطئ بالجثث والنحيب وأقيمت جنازة للموتى حضرها آلاف المشيعين فى القاهرة، فى الوقت الذى تم فيه فى كنيسة الإسكندرية ترسيم بطريرك الأقباط الجديد كيرلس السادس الذى سينسى من اليوم اسم الرهبنة مينا المتوحد كما نسى من قبل اسم ما قبل الرهبنة «عازر». لقد سألت نسيم الذى عاد من المعهد الزراعى للإجازة الصيفية عن ذلك فقال إنها عملية معقدة، والحقيقة أننى أحسست إنه لا يفهم شيئًا فيها! لم أستطع مشاهدة فيلم حطمت قيودى أو «The Defiant Ones» كنت مشغولاً بالمذاكرة استعداداً للإمتحان، لكن جميع الأولاد فى المساكن، وربما فى الإسكندرية كلها ذهبوا ليشاهدوه فى سينما الهمبرا. لم يعد هناك حديث لهم إلا تونى كيرتس الأبيض وسيدنى بواتييه الأسود وأغنية سيدنى بواتييه الأخيرة بعد فشلهما فى الهروب بالقطار. لم أستطع أن أمنع نفسى وتركت المذاكرة وشاهدته فى حفلةالتاسعة مساء ولم أستطع النوم تلك الليلة، بالطبع ولا المذاكرة.. فى الصباح التالى قرأت بالصحف عن وفاة أستاذ الفلسفة يوسف كرم - كان أستاذ المسرح جورج أبيض قد مات منذ أسبوع - وچين مانسفيلد تخلع ملابسها قطعة قطعة فى مجلس الأمن وأمام كل الأعضاء..!

توقف سليمان عن القراءة، خاصة أن ما بقى لديه من أخبار سمعها لم يتم تنسيقها بعد، وأدرك أن العبارة الأخيرة لم يكتبها من قبل، ولم تكن خبراً من الأخبار، هى من نوع الكلام المرسل الذى يكتبه دون شعور، هذه المرة لم يكن يكتب، لكنها خرجت من بين شفتيه ورآها أمامه تمضى سابحة فى فضاءالعشة، بل وتتسلل خارجة من ثقب بين

الجدار الصفيح والحائط . بسرعة أمسك بالقلم وراح يكتب خوفًا من أن تستدرجه الخيالات المجنونة . يحن كثيراً هذه الأيام إلى رؤية الولد عيد لا يدرى لماذا . ركّب أمس على السطح مرآة فوق حامل من الخشب تواجه بيت سعدةوتميل بزاوية خمس وأربعين درجة على الطاقة الكبيرة فى سقف صالة البيت التى عادة ما يفتحونها أيام الصيف هذه بالنهار . ليس عل سعدة إلا أن تقف على سطح بيتها تعكس بمرآة فى يدها ضوء الشمس على مرآته المائلة التى بدورها تعكس الضوء من طاقة الصالة فتستقبله الأرض فيعرف هو أن سعدة تنتظره قرب السماء! لن يفطن أحد من أهله أو أخوته إلى هذه الحيلة . لن يفكر أحد فى مصدر هذا الضوءالذى يسقط لحظات من الطاقة إلى الصالة ثم يختفى . . سليمان يحب الضوء . . فوق السطح لن يستطيع أن يكلمها كثيراً هى التى تقف على السطح المقابل ، لكنه يستطيع أن يلقى إليها برسائل ، ويستقبل رسائلها . «قرأت فى مجلة الكواكب أن الممثل الأميركى ميكى رونى قصير جداً لكنه بالثقة فى النفس تغلب على شكله وأصبح نجمًا مشهوراً . » قالت ذلك فى رسالتها الأخيرة . من قال لها إنى لا أثق فى نفسى؟ . إنها تشجعنى على أى حال . . «لقد بدأ أهلى ينتبهون إلى صعودى المتكرر على السطح . سأتوقف بعض الأيام» . يا لها من فتاة ذكية . كان قد بدأ يكتب معجبًا بها . يمر الآن مجنون الغناء كثيراً ، ولا يكاد يمر أسبوع إلا ويمر مجنون العلم ، ولايزال عيد يأتى بالمجاذيب ينزل بهم إلى القبو ويعود بعد ذلك وحده . قال تاجر البهار إن عيد يرسلهم فوق الماء إلى الأبدية ، وأنهم لن يعودوا أبدا .

آه لو استطعت الجلوس مع عيد وحدثنى عما يرى . ذلك العالم الذى لا يراه غيره ، والذى يحتاج إلى ثمن فادح من الإنسان ليدخل فيه . عيد الذى يمشى يتأملنا ويبتسم ويوسع فى عينيه من غبطة مجهولة المصدر .

لو حدثنى عيد لكتبت أخطر رواية لكاتب عربى. لم يفعل ذلك غير دستويفسكى الذى كان الصرع يحمله إلى رؤى غريبة، حتى إنى بعد أن قرأت له رواية الأبله منعت نفسى بصعوبة من القفز من فوق السطح إلى الأرض، ومن القفز من فوق كوبرى كرموز إلى ترعة المحمودية، ومن الوقوف أمام القطارات لتدهسنى ومن خلع ملابسى فى الطرقات!. لقد دعانى عم حمزة، بالليل، والقمر عال فى السماء، والظلمة ليست عميقة، والجو حار، ولا أعرف كيف ولماذا أحسست وهو يصحبنى من بيتنا إلى بيته بأننا نمشى وسط الليل الروسى عميق الظلام، وأننا نركب عربة تمشى وسط الجليد، وأن سائق العربة قاس يضرب الحصان بالسوط بقوة، وأن البيت الذى سنصل إليه هو قصر دراكيولا، والعفاريت تقفز علينا من الفضاء على الأرض، ودخلت معه البيت شحيح الضوء. فى الصالة بنات وبنين نائمون على الأرض وعلى كنبة صغيرة لم أنظر إليهم، فى الغرفة الداخلية جلست على كنبة فى مواجهة السرير النحاس ذى الأعمدة العالية والناموسية البيضاء. سرير قديم قوى ولا أحد خلف الناموسية. الأم جالسة على الأرض جوار الدولاب حزينة أسندت رأسها بيدها. بعد ذلك أشياء كثيرة مبعثرة هنا وهناك لا تهم أحدا.. لكن على الأرض، أمامنا مباشرة ميزت مخلاة كبيرة بيضاء ومتسخة كثيراً.. أيهما أفضل جاليڤر أم روبنسون كروزو؟!

ـ لقد لجأت إليك يا أستاذ سليمان لأنك أكثر المتعلمين هنا ثقافة.

ـ أشكرك يا عم حمزة.

ـ ما سأقوله لك أرجوك لا تقله لأحد.

اندهشت جداً. قلت:

ـ لكن الناس كلها تعرف ما حدث لنوال .

ـ ليس ذلك بالضبط . انظر إلى ما فى هذه المخلاة .

دلق ما فى داخلها فإذا به كتب لا يقل عددها عن خمسة عشر كتابًا .

ـ انظر إلى هذه ا لكتب وقل لنا الحقيقة . .

كانت زوجته لا تزال صامتة تمامًا ، إلا أن عينيها اتسعتا الآن وهى ترانى أقلب الكتب بينما عم حمزة يتكلم بلا توقف . .

ـ لم يقل لى أحد بالمستشفى لماذا قبضوا على نوال . بل كانوا يهربون منى حين يعرفون أنى والدها . فى قسم شرطة كرموز لم يفيدونى بشيء ، فى المحافظة كذلك ، أكثر من شهر الآن أدوَّر فى أقسام البوليس بلا فائدة . هدانى تفكيرى إلى سماع إذاعة إسرائيل رغم أن ذلك ممنوع ، وكذلك إذاعة لندن . لقد عملت مع الأجانب أثناء الحرب العالمية الماضية وأعرف دور الإذاعات فى الحروب . وجدت تشويشًا كبيرًا على إذاعة إسرائيل لكنى استطعت التقاط إذاعة لندن . تتكلم كل يوم عن الشيوعيين الذين قبض عليهم نظام عبد الناصر للمرة الثانية خلال العام ، وكيف أنهم فى المعتقلات يتم تعذيبهم كالحيوانات الآن . هل لهذه الكتب علاقة بالشيوعية؟ .

كنت توقفت عن فحص الكتب التى قرأت عناوينها بسرعة . وقالت الزوجة :

ـ هل للشيوعية علاقة بالغناء . نوال كانت تغنى للعيانين فى المستشفى هل هذه هى الشيوعية يا أستاذ سليمان؟

وانفجرت الأم فى البكاء وهى تقول :

ـ أنا مش عارفة إيه الشيوعية دي ومالها بينا .

قلت بهدوء :

ـ هل جاءوا هنا وفتشوا البيت؟

تردد عم حمزة قليلاً ثم قال :

ـ جاءوا فى الفجر وهددونى لو قلت ذلك لأحد .

ـ ولم يجدوا هذه الكتب؟

قالت الأم :

ـ أنا رأيتها من قبل فوق السندرة فحملتها إلى السطح وألقيتها مع الكراكيب . كنت أنوى أخبر نوال بذلك عندما تعود من المستشفى ذلك اليوم . لم تعد ونسيتها أنا فوق السطح ولم أعدها إلى السندرة . .

وعادت إلى البكاء بينما قلت أنا بهدوء غير مصدق . .

ـ لقد أنقذت نوال من حبل المشنقة .

ـ يا لهوى .

صرخت المرأة ولطمت خديها . نهرها حمزة . تأملنى ممتقع الوجه مذعوراً . قلت :

ـ لا تخف . سنحرق الكتب وينتهى الأمر .

فكر عم حمزة قليلاً ثم قال :

ـ لا . لا داعى لحرقها . قد يشم أحد الدخان أويراه . الأفضل أن نلقى بها فى الترعة .

ـ سأفعل أنا ذلك . أما نوال فلا أظن أنها ستغيب ، ليس هناك أى دليل اتهام ضدها ، ولا بد أنها ستعود بسرعة .

ـ لكن أين هى يا أستاذ سليمان، لقد مضى أكثر من شهر؟ .

ـ هذا ما سأعرفه لك بسرعة من صديق صحفى بمكتب جريدة الأخبار هنا فى الإسكندرية. الصحفيون يعرفون كثيراً من الأسرار. المهم لا تخبر أحدا بأمر هذه الكتب . .

حملت المخلاة وخرجت. مشيت بالضبط مثل ريفى مطرود من أرضه فى السهول الروسيةالواسعة. رأيت السماء تمطر ثلجًا، يرتفع على الأرض جليدا، وكدت أتزحلق بحق، لما أقتربت من المحمودية اندهشت جداً من هذه الرؤى الروسية التى تتلبسنى الليلة حتى أنى رأيت سطح الترعة جليداً متجمداً لذلك لم ألق بالكتب. حملتها إلى البيت.

كيف حقًا ألقى أنا الكاتب المثقف بالكتب فى الترعة؟ وأى كتب هذه التى كنت سألقيها؟ إنها الكتب التى غيَّرت تاريخ الإنسانية إن لم تكن أربكته تمامًا. فى لحظة تملكنى الخوف، لكن عم حمزة يعرف الآن أنى ألقيت بالكتب فى الترعة وهكذا لن يعرف أحد أنها عندى . .

ابتعدت كثيراً عن قصتى الشخصية. لا بأس. لم يوجد الكاتب الذى لم تخنه القصة. هل يمكن أن أهمل المجنون الجديد الذى مر بالمنطقة اليوم. لقد ظهر عجوزاً محطمًا يمشى فى الشارع متلفتًا حوله فى رعب، يقترب من كل واحد يقابله ويسأله «ممكن سيجارة وينجز خبيبى» يداه ترتعشان وعلى وجهه لا تزال حمرة عزّ زائل. اقترب منه الأولاد وهتفوا مجنون يونانى مجنون يونانى . . انتبه الخواجة بطسو فنى ا لماكينة الحمراء الأصلع أحمر الوجه الذى نادراً ما يكلمه أحد. مصمص شفتيه وطلب من أحد الصبية أن يشترى له ثلاث بيضات بقرشين صاغ ليتغدى، ودخل إلى الماكينة لم يخرج منها كعادته إلا

الساعة الثالثة ليغلق بابها ويعود إلى البيت. أبعد محمود الملاح الأولاد عن المجنون اليونانى. أخذه من يده واقترب به من منزل القبو ليتفرج عليه الجالسون. تأملهم الرجل فى أسماله الرثة وقال «معلهش خبيبى مخالى غلط فى الحساب» كانت هذه أول مرة يرى فيها أحد يونانيًا مجنونًا. كنا نسينا أنهم بشر مثلنا. كنا نظن أنهم يونانيون!. يعنى إيه غلط فى الحساب؟ تساءل محمود، ومن هو مخالى؟ تساءل تاجر البهار بينما محمود القزعة ينظر إلى المشهد غير راض، بعد قليل ستحرقه السيجارة التى بين إصبعيه والتى سينساها. قال الرجل: أنا مخالى خبيبى. من خمستاشر سنة كان عمرى ستين سنة. مراتى ماتت وأولادى سابو مصر وأنا أخب مصر. كان عندى بار صغير فى العطارين وعمارة بعت البار والعمارة لواخد يونانى صغير، شاب يعنى، بألف جنيه ومائتين جنيه كمان. قسمت الفلوس كل سنة مائة وعشرين جنيها، يعنى كل شهر عشرة جنيهات. قلت مخالى اللى هو أنا مش ممكن يعيش كمان أكثر من عشر سنين. حطيت الفلوس فى البنك وكل شهر آخد عشرة جنيهات، الفلوس خلصت خبيبى والعشر سنين خلصت كمان خبيبى وراخ الدكان والعمارة وفضلت أنا فقير غلبان مش لاقى حتى ثمن السيجارة أو الكأس. شفت إزاى خبيبى مخالى غلط فى الحساب..

انتهى من قصته ونتر القزعة السيجارة التى أحرقت إصبعيه وتقدم ليعطى مخالى سيجارة وربع جنيه. مشى مخالى سعيدًا ناحية كرموز، زيوس كبير الآلهة يبكى على ترعة المحمودية. لا أعرف لماذا تذكرت الديب بعد أن رأيت مخالى، ولا أعرف لماذا كلما تذكرته رأيته أمامى!

من زمان لم يجلس الديب مع أحد منا كبارًا أو صغارًا، واليوم لم

يناديه الأولاد فقط، بل نهضوا يحيطون به ويحاصرونه ويرغمونه على الجلوس معهم فلقد طال اشتياقهم لحكاياته.

تقدمت منه تاركًا الجلسة مع تاجر البهار، وتبعنى محمود الملاح الذى نظر إليه الديب وقال:

ـ هذه القصة لو حولتها إلى فيلم تدفع لى حقى، أنا المؤلف.

ضحكنا جميعًا وفوجئنا بتاجر البهار ينضم إلينا. المسافة بين السلالم المؤدية للقبو جوار دكان العنيبسى، وسلالم الماكينةالحمراء لا تزيد على ثلاثين مترا، لكن لم يحدث من قبل أن انتقل تاجر البهار من الأولى إلى الثانية، كان يعرف أن الديب هو صاحب هذه الجلسة وسيدها، فلزم الصمت.

ـ كان ممكنًا جداً ألا أعود إليكم هذه المرة. أجل. كان ممكنًا جداً أن يأكلنى السائق.

ـ كيف يأكلك السائق.

أخذ الديب نفسًا طويلاً أخرجه بهدوء ثم راح يحكى..

«سائق القطار هذه المرة لم أشاهد مثله من قبل. طوله يزيد على مترين، تقريبًا مترين وربع، طول ذراعه وحدها متر كامل، وطول كفه على الأقل طول قدمه. فى قدمه حذاء تفصيل مقاس خمسين، قال لى إنه أحيانًا يسافر مشيًا من الإسكندرية إلى القاهرة فيقطع المسافة فى نهار واحد أو ليل واحد. أى نصف يوم. أى والله. هكذا قال. لم أصدق، لكنا كنا نتوقف فى بعض محطات الريف فينزل من القطار يقطف البلح من النخل بيده وهو واقف فوق الأرض، وخلال حركة القطار أراه يمد يده من النافذة يمسك بالطيور السابحة فى الفضاء. كثيراً ما أمسك

بصقور قوية باعها فى الطريق فى المدن الكبيرة، طنطا مثلاً أو دمنهور أو القاهرة.

راحوا ينظرون فى دهشة كأنما هذه أول مرة يستمعون فيها إلى حكايات الديب. نوع من المسرة الجميلة تنزل عليهم مع الديب رغم أنهم يعرفون أنه مؤلف كبير. هذه المرة كانت وحشتهم أكبر وسرورهم فى غايته. قال محمود الملاح من أين ظهر لك هذا السائق المارد؟ قال الديب لا أعرف. لقد حكى لى قصته، وكيف كان أحد أفراد عصابة أدهم الشرقاوى فى محافظة البحيرة. هل كان أدهم الشرقاوى زعيم عصابة! تساءل مصطفى ساخراً. أجل أجاب الديب. لكن الإذاعة تحكى ملحمته باعتباره رجلاً وطنيًا ضد الإنجليز والإقطاع، تساءل كروان فأجاب الديب، وهل السرقة تمنع ذلك. ثم هل تعرف أنت شيئًا عن تاريخ الزعماء والوطنيين؟ ضحكنا واستمر يتحدث. كان أدهم وعصابته يسرقون الباشوات وقطارات البضاعة. ولما تم القبض على أدهم هرب وهذا السائق، اسمه كاسر، الله يكسر دماغه، هرب إلى أسوان، هكذا حكى لى، ومن أسوان نزل عكس النيل إلى السودان. كان معه ثلاثة من العصابة أكلتهم التماسيح. أما هو فكان التمساح يقابله وما يكاد يفتح فكيه حتى يمسك هو كل فك بيد ويفشخه إلى نهايته ويترك التمساح ميتًا فى مكانه بعد أن يتلوى فى الماء من الألم. إنه أسود من بلك، فتح بلك عينيه فى غيظ فقال الديب أنا أقصد بلك الشارع ولا أقصدك فتضايق بلك أكثر لكنه سكت واستمر الديب، فى السودان لم يدرك أحد أنه مصرى، واشتغل فى تجارة سن الفيل، كان يحرس قافلة الصيادين الكبيرة. كانوا هم ينصبون الشباك للأفيال، ويصوبون إليها الإبر المملوءة بالسائل المخدر، لكنه كان يمسك الفيل من خرطومه بيديه، ويثنى الخرطوم على مهل وبقوةوالفيل يصرخ حتى

يقع على جانبه فيهجم عليه الصيادون غير مصدقين يذبحونه . يأخذون العاج ويعطون اللحم للزنوج الذين يقابلونهم فى الغابات لحم الفيل ليس حراما . هكذا قال لى ، وإذا وضعته فى الملح عدة أيام ثم طهوته تجده ذا طعَم رائع . الفيل يأكلونه فى الهند وباكستان أيضًا . هذا كلامه . كان يتوجه بحديثه إلى محمود الذى لم يعد مندهشًا وقال المهم . كيف كاد يأكلك؟ ، لا داعى للتطويل . حاضر يا سى محمود . قال الديب واستمر . كان السائق لا يخاف من الحيوانات إلا النمر . هكذا حدثنى . النمر غدار قد يقفز فوقه فجأة من أعلى الأشجار . الحيوان الذى يواجهه من الأمام مسكين محتومة نهايته حتى ولو كان الأسد نفسه أو وحيد القرن . لكن الذى حدث أنه لا حيوان من هذه هاجمه . أكل قرد أحمق أصبع قدمه اليمنى الكبير وهو نائم . قضمه قضمة واحدة وأخذه فى فمه وجرى صارخًا بينما نهض السائق فزعًا يقفز فى الهواء من الألم . وقف القرد بعيدًا يمضغ فى الأصبع والدم يتثال من شدقيه ويتأمل ضاحكًا السائق الذى تهاوى أخيرًا على الأرض هامدا ، ثم سمع القرد يقول له « هذا جزاء الظالمين . هذا جزاء الظالمين» ويدخل فى الأدغال الكثيفة .

عاد السائق إلى مصر بعد ذلك وهو على يقين أن القرد كان بنى آدم ممن فتك بهم مع أدهم الشرقاوى ، ظل يتابعه حتى عثر عليه هناك فى الأدغال . تلبسته روح القرد لينتقم ، وبعدها لم يعد يظهر إلا فى المنام . كل ليلة يظهر له ويضحك ويقول له هذا جزاء الظالمين ولم يعد السائق يرى قرودًا حقيقية فى الغابات . لقد اعتبر ما حدث جزاء أفعاله ، وأحضر سكينًا قطع بها إصبع قدمه اليسرى الكبير أيضًا وتماسك حتى كوى بالنار مكان الجرح ثم أغمى عليه بعض الوقت . هكذا عاد الاتزان إلى جسده وصار يمشى فلا تشعر أنه فقد شيئًا من أصابعه .

ـ هكذا انتهت القصة؟

ـ لقد خرجنا بالقطار أنا وهو والعطشجى، كنا فى طريقنا إلى أسوان. سفر طويل. فى عودتنا وجدته وحده. أين العطشجى؟ سألته فقال إنه تركنا فجأة بلا سبب. فى الطريق قفزت فوق العربات حتى وصلت إلى القطار ولمحته من أعلى يلقى بالفحم إلى النار بنفسه، ثم يجلس ليستريح ويأكل من فخذ من اللحم شواه على نار القطار. لقد تعلم أكل البنى آدم من الغابات. هذا ما لم يقله لى ورأيته. ما كدنا نصل إلى القاهرة حتى أيقنت أنه هكذا يكون أكل العطشجى كله، فنزلت وهربت وأتيت وحدى فى قطار عادى للركاب.. لقد بدأت أكره عملى ولا أظن أنى سأستمر فيه.

صمت وصمتنا لحظات طويلة حتى قال مصطفى بتأمل وصوت خفيف..

ـ الله يكون فى عون ربنا على الشعب..

ارتبك الديب الذى جرت العادة أن يقول هو ذلك. تلعثم ولم يجد شيئًا يقوله وانطلقنا نضحك بينما انصرف وهو يقول «عالم ولاد ديك كلب بصحيح».

توقف سليمان عن الكتابة. لم يعرف أنه فى لحظات الصمت الطويلة التى أعقبت حديث الديب قال تاجر البهار لنفسه هذا رجل فيه من أسرار العطارة الكثير. أما محمود الملاح فقد قرر أن يترك الإسكندرية نهائيًا فلم يعد له مكان فى حضرة هذا المؤلف العجيب.

فى هذا الأسبوع أعلنت مديريةالصحة أن عدد المواليد من المواطنين حتى هذا الشهر ستمائة وخمسون بينهم ثلاثون طفلاً أجنبيًا وعدد

الموتى مائة وخمسون بينهم عشرة من الأجانب، ثلاثة من الجالية اليونانية، واثنان من الإيطالية، وأرمنى، وقبرصى، ويهودى من العشرين الذين لم يتركوا الإسكندرية، ويوغسلافى وسويسرى، وبلغ عدد المهاجرين فى النصف الأول من هذا العام من الإسكندرية خمسة آلاف، ومقدار من تبقى من الأجانب الآن خمسة وأربعون ألفًا كما أعلنت الغرفة التجارية أن عدد الشركات والمؤسسات التى تم تمصيرها منذ بداية هذا العام بلغ فى الإسكندرية وحدها مائة شركة ومؤسسة وبنكا، وعدد المحلات والورش الأجنبية التى آلت للمصريين فى الإسكندرية بالبيع بلغت ثلاثمائة وأن عدد الرحلات البحرية التى أقلت الأجانب من المحطة البحرية إلى موانى البحر المتوسط بلغ خمسًا وعشرين رحلة حتى نهاية يولية بواقع رحلة كل أسبوع.

(٦)

نادية وإبراهيم مرسى كانا أكثر المهتمين بمرض خير الدين. تباعدت لقاءاتهما فى الأشهر الأخيرة، فى بعض الأحيان كادت تفتر تمامًا، لكن لا نادية استطاعت أن تسلو إبراهيم ولا هو استطاع. قال لها إنه بعد أن يدور العام الأول فى عمله فى كفر الزيات يستطيع الانتقال إلى الإسكندرية، ساعتها سيخطبها ولن يقف أمامه عائق. بدورها كانت تشعر أن هناك ما يعوقه فى أسرته، رغم أنه لا يعارضها، لكن الأمل لم يهرب منها. ما الذى فى إبراهيم يجعلها تتمسك به هكذا؟ ربما لأنه الحب الأول، هى خفقة القلب الأولى ولا سبب آخر. لذا لا تصدق الكذب الذى فى عينيه وهو يقول إنه سيخطبها! وأن أحدًا لا يمانع من أهله. إبراهيم يحبها وهى تعرف وحتى الآن لم توجد الفتاة التى

تصدق أن من يحبها سوف يعجز عن الفوز بها فى النهاية! ما ينقص إبراهيم هو أن يسكت ولا يتحدث عن المرضى وذوى العاهات، لقد ابتعد كثيراً عن ذلك، منذ اليوم الذى أغمى عليها فيه، أما بعد الزواج فلن تسمح له بالكلام إلا عما هو بهيج. قال لها من فوق السطح:

ـ لا بد أن نلتقى فى مكان آخر.

ـ أنا أيضًا أفكر فى ذلك. سيأتى ناس كثيرون من المساكن يزورون خير الدين وقد يروننا فى الحديقة. الأفضل أن نتوقف حتى يشفى خير الدين.

ـ لكنى أحتاج أن أقابلك، لقد وجدت مكانًا آخر غير بعيد.

ـ أين؟.

ـ شارع المدرسة التليانية. الشارع الصغير بين المدرسة وسور مدافن عامود السوارى.

ـ يا لهوى يا إبراهيم، من المرض إلى الموت!

ـ السور عال ولن نرى المقابر، إنه شارع هادئ جداً لا يمشى فيه أحد، لا بالليل ولا بالنهار، فقط بعض الأحياء.

سكتت. وقال هو:

ـ نلتقى مرة واحدة، إذا لم يعجبك الشارع توقفنا عن اللقاء.

ـ ومتى نلتقى.

ـ غداً الجمعة. سأنتظرك أمام المدرسة التليانية الساعة العاشرة صباحًا.

إبراهيم مرسى لا يعرف أن تجار المخدرات من جبل ناعسة وسوق عودايه بكرموز، وشارع الرحمة وجبل الطوبجية ومنطقة الغاطس

بكوم الشقافة، يلتقون فى هذا الشارع يتبادلون البضائع. تجار القطاعى يظهرون فيه أحيانًا يبيعون لعدد من الزبائن فى مواعيد محددة وبسرعة فائقة، كما أن صبيان التجار يجعلون الشارع طريقهم إلى مينا البصل حيث عمال مصانع حلج وكبس القطن والدخان ومخازن الميناء. أحمد حجازى، الولد الفاشل فى المساكن، الذى يتحاشاه الكبار قبل الصغار، والمتخصص فى سرقة القطارات القديمة فى ورش منطقة الزيتون، كان قد نقل نشاطه إلى تجارة المخدرات. كان ينقل شيئًا منها من جبل ناعسة بكرموز إلى بعض التجار بشارع الرحمة. لقد رأى إبراهيم ونادية فى ذلك الوقت من الضحى، ومع المساء، كان كل حى فى المساكن قد عرف القصة وكل بيت أيضا!!

شوهد إبراهيم يخرج من البيت مسرعًا. رآه الجميع يكاد يهرول فى طريقه على المحمودية ناحية كرموز. قال الأولاد إنه «طفش» وقال الكبار إنه لن يعود إلا بعد أن تهدأ الزوبعة. تجمع الرجال فى الجامع الصغير ساعة صلاة المغرب قبل أن تقع كارثة بين العائلتين.. سلاّم والد نادية جلس صامتا. سألوه أن يتكلم فلم ينطق. وهل ينطق أبو البنت؟. أجمع الرجال على أن ما قيل إشاعة غير صحيحة وراءها إبليس من المساكن، فإبراهيم ولد جاد ومسؤول ونادية بنت مؤدبة خجولة كالقطة المغمضة. فاجأهم والد إبراهيم قائلا..

- يا جماعة إبراهيم بالكاد انتهى من دبلوم التجارة واشتغل فى كفر الزيات، ورغم ذلك أستطيع أن أبيع القيراطين اللذين أملكهما فى البلد وأزوّج بها إبراهيم لنادية اليوم قبل الغد، بل إننى أخطبها له أمامكم من والدها وأقطع كل الألسنة.

اغتبط الرجال. ونظروا إلى سلاَّم الذى قال:

ـ لا عليك يا مرسى، الأمر كله كما قال الرجال مجرد إشاعة.

كان يكذب. لقد ضرب ابنه سلامة نادية حتى أشرفت على الموت فاعترفت. كان الرجال يعرفون أنه يكذب، فهو رجل صعيدى لا يريد أن يزوج ابنته من ولد فلاح، كما أنه لا يزوج ابنته على هذا النحو من الفضيحة!

لم تمض لحظات حتى نهض سلاَّم تاركًا المجلس كله، بينما ظهرت الحيرة على والد إبراهيم، الذى بدوره مطَّ شفتيه وهز رأسه يائسًا ونهض. أدرك الجميع أنه منذ الآن لن يستطيع أحد منهم التدخل فى الأمر، وعليهم جميعًا انتظار الخطوة القادمةالتى ستكون من عائلة سلاَّم بالتأكيد....

بالليل قال مرسى لزوجته..

ـ لا بد أن نترك المساكن ونرحل.

ـ نرحل لأن ولدنا أحب بنت الجيران؟ يرحلوا هم..

ـ من زمان أشعر بأن حظى قليل فى الإسكندرية..

ـ أين هى إسكندرية؟ إننا حتى لم نرها. مشوار أو اثنين للأنفوشى خلال عشرين سنة. ياريتنا شفنا إسكندرية أو عرفناها، لم يكن جرى ما جرى..

سكت طويلا. فكر الرجل أنه لأمر مدهش حقًا أن يفكر فى الرحيل، لكنه كان يشعر برغبة عميقة فى مغادرة الإسكندرية والعودة إلى قريته سمنود. من زمان يريد أن يقول لزوجته إنه يشعر. بدنو الأجل، وأنه يريد أن يموت بين أهله، ويدفن جوار أمه وأبيه. قال:

ـ لقد قلت لإبراهيم ألا يعود قبل أن تبرد المسألة، من الصباح سأتقدم بطلب نقل إلى سمنود. سيقولون جبانًا. موافق. المهم أن تستعدى للرحيل..

فى ذلك الوقت من الليل كان سلامة، أخو نادية، يجلس وحده على شاطئ ترعة المحمودية مختاراً أكثر نقطة مظلمة، مخفيًا تحت قميصه خنجراً كان قد شحذه كثيراً طول النهار. لقد ظل سلامة كثيراً ينتظر إبراهيم بعد ذلك، وكلما رآه الخواجة بَطْسو يشحذ الخنجر بالنهار مصمص شفتيه دهشة حتى ناداه وقال له «أنت عايز تقتل واحد حب أختك يا سلامة. أنت أكيد واحد حمار، الحب يا حبيبى مش حرام، أحسن لك تمسك إبراهيم تخليه يتجوز أختك، يعنى إيه هو فلاح وأنت صعيدى؟. أنا بنتى تحب واحد أرمنى. بعدين فلاح صعيدى كله مصرى، وأنت سلامة رجعى وأبوك متخلف ومصر مش ممكن تتقدم بسببك أنت وأبوك.. سلامة، حاجة نيلة!!

استطاع مرسى أن ينهى إجراءات نقله فى أسبوع واحد. رآه الناس محنى الظهر مهدل الأكتاف وهو ينقل مع العمال «عزال» بيته على العربة الكارو الكبيرة التى يجرها حصان. صافح الرجال كاظمًا حزنًا حقيقيا. رأى النهار حوله أبيض، لم يكن يدرك ذلك من قبل حقا.. أما أم إبراهيم فقد خرجت إلى العربة دون أن تصافح أحدا من النساء. ما كادت العربة تتحرك حتى أمرت الحوذى أن يقف. كيف حقّا يرحلون هكذا كمن لحق بهم عار لا يمحى.. نزلت من العربة. إلى أين أنت ذاهبة يا أم إبراهيم؟. تساءل مرسى فلم تجبه. كانت النساء يقفن أمام أبواب البيوت غير مصدقات ما يحدث. ارتمت فى أحضانهن واحدة واحدة، البعيدات من النساء تركن بيوتهن وأقبلن

بسرعة يقبِّلن المرأة التى عاشت بينهن عشرين عامًا لم يسمع لها أحد صوتا! . فجأة تغير كل شيء . امتلأ الفضاء خارج البوابة بالنساء والرجال يودعون مرسى وزوجته وأطفاله . عائلة واحدة لم يخرج منها أحد ، عائلة سلام ، وكان سلامة واقفًا بعيدًا على شاطئ الترعة يفكر كيف سيخرج أحشاء إبراهيم بخنجر فى أول لقاء بينهما .

كان لا بد للقاء أن ينتهى ، وللعربة أن تبتعد ، والناس بدأت تعود إلى بيوتها مندهشة من أحوال الدنيا ، وتاجر البهار الذى كان يجلس فى مكانه قال لمحمود الملاح هذا وداع يليق بالزعماء ، أنتم ناس طيبون جدًا . . ومحمد الملاح كان شاردًا بذهنه يفكر فى أن لحظة سفره إلى القاهرة يجرب حظه مرة جديدة قد حانت . لن يفكر فى الإخراج السينمائى بعد اليوم . هذه المهمة ليست منذورة له ، سيرضى بأى عمل . . قال لتاجر البهار :

ـ غدًا سوف أرحل أنا أيضًا إلى القاهرة ولن أعود .

ضحك تاجر البهار وقال :

ـ ما أكثر ما قلت ذلك ثم نراك بيننا .

ـ هذه المرة أتكلم جادًا ، لقد زهقت من الفراغ والجرى وراء النساء . عمرى يقرب من الثلاثين يا فلفل ، لا بد من نهاية لهذا العبث .

ـ هل وجدت فرصة فى الإخراج؟

ـ دعك من هذا العبث يا فلفل . أنا أدركت الحقيقة . الإخراج علم وفن كبير . سأبدأ كومبارسًا من قهوة «بعرة» وبعدها يقضى الله بما يكون .

سكت تاجر البهار قليلاً ، بدا متأثرًا بحق ، كان محمود القزعة يتناول إفطاره متأخرا كالعادة ، فول وفلافل وبصل وطماطم على

منضدة خشبية وضعها له عماله على السلالم وجلس أمامها على مقعد قديم، وبين الحين والحين يرفع عينيه يتابع النساء. قال تاجر البهار:

ـ عارف يا سى محمود، الإنسان غلبان جدًا لما تشوفه يأكل، انظر إلى أى إنسان وهو يأكل تشعر أنه مسكين جدًا، خاصة لو كان جائعًا، تراه يستحق الشفقة. أى والله.

ابتسم محمود لأنه يعرف أنه يقصد محمود القزعة، لكنه حين تأمل القزعة وجد ما يقوله تاجر البهار صحيحًا. بدا له القزعة أكثر الناس مَسْكنة واستحقاقًا للشفقة. قال تاجر البهار:

ـ أنا أيضًا فكرت فى شىء مجنون، أن أترك مصر كلها إلى الهند.

ـ الهند. وماذا تفعل هناك؟ الهند أكثر من خمسمائة مليون شخص فهل تحتاج إليك؟

ـ أنا لن أذهب للعمل. لا. أحتاج دروسًا فى العطارة.

ـ نعم؟!

ـ دروسًا فى الروح يا سى محمود. زهقت من جسمى. أنا لو رحت الهند ورجعت، سأرجع مشيًا، سآخذ طريق التوابل البرى، من الهند إلى إيران إلى العراق إلى الشام إلى فلسطين إلى مصر، وبعد عودتى سيعرف الناس كيف تخلَّصت من جسمى.

بدا محمود مرتبكًا جدًاوغير قادر على الفهم واستمر تاجر البهار يتكلم..

ـ سأجلس هناك وحياتك على شاطئ المحيط الهندى وأمسك سكينًا أقطع به قطعًا من جسدى وأرميها للقطط والكلاب..

وقف محمود غير قادر على فهم هذا الرجل العجيب. أحس

بالأسف لأنه سيتركه بعد أن قضى معه أيامًا مجنونة وراء النساء. لم يترك فرصة لذكرياته تتداعى. لا يريد أن يضعف. رأى نادية سلاَّم تمشى بسرعة فى الطريق، بجلبابها والملاءة السوداء سقطت عن رأسها إلى كتفيها وكادت تسقط إلى الأرض لولا أنها تتشبث فيها بيدها. كانت مرتبكة حتى أنها وضعت قدميها فى شبشب زنوبة من الشباشب التى ظهرت بعد الوحدة مع سوريا فى سوق المنشية. كان يبدو أنها لم تعتن بنفسها، لم يكن فى يدها غير «بوك» صغير، وكانت تحاول أن تسوى شعرها بيدها وهى تمشى بسرعة لا تلتفت إلى أحد. كان قد رأى سلامة يمشى وراء العربة التى نقلت عائلة مرسى وأثاثها منذ قليل. طيب سلامة لديه حلم أن يقتل إبراهيم فإلى أين تذهب نادية. هل ستطفش؟ هل يمكن أن تفعل هذا بنت بالمساكن؟. الدنيا تتغير بسرعة يا محمود.. لكن نادية ذهبت إلى كوم الشقافة.

جلست نادية فى ظل شجرة سدر عتيقة بين أشجار الكافور والكازورين قريب منها أقارب المرضى ينتظرون موعد الزيارة يتفرقون على المقاعد الخشبية والنجيل. نادية تثبت عينيها على نوافذ المستشفى تتأمل الوجوه المريضة من بعيد..

لماذا جاءت نادية الآن إلى المكان الذى لم تحبه؟. هل فكرت أنها قد تجد إبراهيم جالسًا فيه؟. هل جاءت تنظر إلى ذلك المريض البعيد الذى كان دائمًا ينظر إليها؟. لا تعرف نادية إلا أنها وجدت الطريق مفتوحًا إلى الخروج من البيت فانطلقت فى عزمها ألا تعود.

لم تفكر أين تذهب. المهم أن تخرج من السجن الذى تنتظر عقابها فيه. بعد أن عبرت المحمودية بالمعدية فكرت أن تذهب تبحث عن إبراهيم فى كفر الزيات.

كانت وهى تنطلق خارجة قد التقطت «البوك» الصغير على أمل أن به نقوداً فإذا بها لا تجد به غير خمسة قروش . . لتلتقط أنفاسها فى الطريق وتفكر ماذا تفعل . . حين بدأ الناس ينهضون من الحديقة فى اتجاه باب المستشفى تذكرت خير الدين . لماذا حقا لا تزور خير الدين وتتحدث قليلاً معه . هو مريض مشرف على الموت كما يقولون، وهى تنتظر القتل كما يبدو من سلوك أهلها . . نهضت من فورها وعبرت باب المستشفى . سألت عن الغرفة التى بها خير الدين ووصلت إليها . وقفت بالباب لا تصدق . خير الدين ممدَّد فوق السرير تحت البطانية والملاءة البيضاء مثل عود القصب، تبرز يداه مثل عودى الكبريت تمسكان بالجورنال . كان بالغرفة مريض آخر حوله عدد كبير من الفلاحين، نساء ورجال وأطفال، بينما لم يكن أحد مع خير الدين .

ـ غير معقول! نادية!

نهض واعتدل جالساً فوق السرير . وضع الجورنال عل الكوميدينو المجاور . أشار إلى كرسى قريب سحبته وقربته من سريره وجلست قريباً من وجهه . الآن فقط، فى هذه اللحظة فكرت أن تلتقط العدوى مباشرة من خير الدين . يا لها من طريقة جميلة للموت . لقد انطلق لحسن حظها خير الدين فى سعال طويل كاد فيه يختنق، فاقتربت منه تسقيه ماء، لكنه كان يضع المنديل يستقبل به ما يطرده صدره . لم يبدُ أبداً أنها ارتبكت . والعجيب أن أحداً من زوار المريض الآخر لم يهتم . أخذ خير الدين نفساً طويلاً و قال :

ـ آسف يا نادية .

ـ ربنا معاك يا خير الدين .

ـ لكن كيف غامرت بالخروج؟

ـ أنت تعرف القصة؟ .

ـ ومن لا يعرفها يا نادية. ثم كيف خرجت بهذه الثياب؟ أنت طفشانة؟ سكتت وتركت دموعها تنزل على خديها. ثم قالت . .

ـ هل تزورك ألچونى يا خير الدين؟

ـ زارتنى مرة. أنا طلبت منها أن تمتنع عن زيارتى حتى أشفى، أهلى يزورونني. أنا خائف على ألچونى يا نادية. أنت أيضًا لا تقتربى منى كثيراً، قولى لى ما هى أخبار نوال؟

ـ لا أحد يعرف . .

ـ مسكينة. من كان يعرف أنه فى المساكن ستخرج تشتغل فى السياسة.

ـ هل تصدق ذلك يا خير الدين؟

ـ أنا لم أعد فاهمًا لأى شيء، حتى سليمان رسب للعام الثانى بسبب العمى المؤقت العجيب الذى أصابه.

ـ ليس لأى بنت فينا ذنب فيما جرى لها، إنها مصائب تنزل علينا دون سبب مفهوم . .

ـ لا تيأسى يا نادية، إبراهيم مصيره يرجع ويخطبك.

ـ المشكلة فى أهلى . .

ـ أهلك مصيرهم إلى اللين، المهم أن تصمدى ولا تنهارى.

سكتنا لحظات ثم قالت:

ـ قل لى يا خير الدين . . أنت متعلم. هل هناك شيء اسمه الحب؟

ابتسم وقال . .

ـ طبعًا يا نادية، لن أقول لك قيس ولا ليلى، أنت نفسك، ما الذى وصل بك إلى هذه النهاية؟ أليس هو الحب؟

ـ يعنى كل حب لازم ينتهى إلى مصيبة يا خير الدين؟

تأملها وهو يهز رأسه بأسف:

ـ أبدًا يا نادية. الحب عادة ينتهى نهاية سعيدة، لكن الناس لا تتذكر إلا النهايات الغريبة والشاذة.

فكرت قليلاً وهزت رأسها كمن أدركت صحة الكلام ثم قالت:

ـ أنا عارفة أن ألچونى، هى التى لا تزورك. أمها منعتها، لكن أرجوك أن تسامحها يا خير الدين . .

تنهد وقال:

ـ طول عمرى أحب ألچونى حب أفلاطونى، حب روحى، إذن كيف لا أسامحها؟ ثم إننى أتمنى لها السعادة حتى مع غيرى، أنا عمرى قصير فى الدنيا يا نادية . .

عادت دموعها تنساب مرة أخرى على خديها:

ـ بعد الشر عنك يا خير الدين، إن شاء الله تعيش مائة سنة. من يعرف، ربما تعيش مثل سيدنا نوح ألف سنة . .

ابتسم وقال:

ـ أنا عارف كل شىء عن نفسى يا نادية، مرضى وراثى لا حل له. وتهدج صوته قليلاً:

لا يؤرقنى غير إخوتى الصغار. إخوتى الثلاثة الأصغر منى جاءوا إلى الحياة مثلى ليكبروا وقبل أن يفرحوا يصيبهم المرض اللعين ويموتون. أنا لم أكن أعرف، لكنهم يعرفون الآن ويرون أخاهم فى طريقه إلى الموت. إنه عذاب فظيع يا نادية.

قالت وهى غير قادرة على أن توقف دموعها:

ـ لكن ربنا له تصاريف أخرى يا خير الدين.

وبدأ الموجودون فى الحجرة يتنبهون إلى حالتهما وبدأت بعض النساء تتأثرن وتنتحبن.

ـ ليت أبى وأمى لم ينجبا أحدا من الأبناء.

ازداد نحيب النساء الفلاحات وعلا صوتهن وأدرك خير الدين الموقف فراح يضحك محاولاً التخفيف منه وقال:

ـ لكن لم تخبرينى هل كنت طفشانة؟

ـ لا أعرف يا خير الدين، وجدت الطريق مفتوحًا فهربت.

ـ ولم تفكرى ماذا ستفعلين؟

ـ لا. على الإطلاق.

ازداد ضحكه فبدأت تضحك بين دهشة الزوار المنتحبين.

ـ أنت هكذا تزيدين المشكلة يا نادية.

ـ ما داموا سيقتلوننى يتساوى كل شىء..

ـ هل سيقتولنك فعلاً؟ أهلك صعايدة لكن لا أظن. لا بد أن الإسكندرية غيرت من طباعهم. اقتربى من أمك. أمك تستطيع أن تنقذك. أبكى بين يديها وعلى صدرها. أمك هى ملاذك يا نادية..

ـ سمعت أنهم سيزوجوننى إلى مخبر قريب لأبى أكبر منى بعشرين سنة وسبق له الزواج .

ضحك خير الدين وقال . .

ـ ما دام مخبراً تزوجيه فوراً .

اندهشت وتأملته فقال :

ـ أجل . تعطيه سيجارة فيسكت ويتركك تفعلين ما تشائين .

ضحكت معه وطال ضحكهما الذى ارتفع وراح يسعل وقالت :

ـ لم تتغير يا خير الدين .

قال :

ـ الدنيا حلوة يا نادية . لازم نعيشها لآخر لحظة ، لن نعود إليها مرة أخرى ، ولا نعرف ماذا سيحدث لنا فى الآخرة . لازم نضحك .

قامت وصافحته وخرجت وهو يقول لها :

ـ لا تخافى يا نادية . لن يجبروك على شىء لا تحبينه .

ما كادت تغادر باب الحجرة حتى عادت بغتة وبسرعة انحنت على خير الدين وقبلته على خده . صار مندهشًا جدًا إلا أنه أحس بطعم قبلتها منعشًا ، لقد جرى الدم فى عروقه ، ولمع البرق فى عينيه .

ثبَّت عينيه مبتهجًا على عينيها ثم أشار إليها أن تقترب بوجهها منه . اقتربت فهمس فى أذنها . .

ـ لا يمكن لأحد أن يقتل هذا الجمال الربانى ، الدنيا نفسها تزعل منه . هيا عودى إلى البيت وسأراك قريبًا هناك .

ابتسمت نادية وأحست أن موجة من الفرح تحملها وتطير بها فى الفضاء الأبيض الوسيع وخرجت عائدة بخطى واسعة وتصميم وعزم ولم تلتفت إلى قلبها الذى يدق بقوة . .

(٧)

دق باب العشة رجل طويل يرتدى بدلة من الكتّان الرمادى . رجل فى حوالى الخمسين من العمر هادئ الملامح أسمر البشرة حين خرج حمزة يقابله اكتشف إنه قصير جداً بالنسبة إليه حتى إنه نظر إليه من أسفل وهويقول . .

ـ أنا حمزة ، ومستعد لكل شىء . .

ابتسم الرجل وقال فى نبرة وادعة :

ـ طيب اسمح لى أولاً بالدخول يا رجل .

دعاه حمزة إلى الدخول غير مصدق . ليس من المعقول أن يكون هذا الرجل قادماً من رئاسة الجمهورية ! !

بسرعة قطع الرجل الصالة ووقف فى الغرفة الداخلية . كانت كابية رغم الضوء . قال حمزة لزوجته التى وقفت مذعورة فى أحد الأركان :

ـ اصنعى لنا شايًا يا امرأة . .

دعا الرجل إلى الجلوس على الكنبة جواره .

ـ طبعًا تريد أن تعرف من أنا ولماذا أنا هنا ، ألم ترسل خطابًا إلى السيد الرئيس؟

ـ أرسلت .

أجاب حمزة بشجاعة استمدها من الطريقة التى يتحدث بها الرجل، والهدوء الذى على وجهه.

ـ والرئيس يا سيد حمزة رد عليك . .

ـ إذن سأتسلم ابنتى.

ـ ستتسلمها.

ـ اليوم؟

بعد قليل.

كانت الأم تقف بالباب تسمع الحوار فاندفعت داخله تقبل يد الرجل الذى سحب يده بسرعة مستغفرا الله بينما تماسك حمزة الذى يغالب دموعه وقال:

ـ أنا كنت أعرف أن الرئيس عبد الناصر لن يخذلنى.

قال الرجل باسمًا:

ـ هيا إذن غير ثيابك بسرعة وتعال معى.

وقف حمزة ينظر حواليه. قال مرتبكًا:

ـ ليس عندى غير هذا الجلباب الذى أرتديه.

كان يرتدى جلبابًا أبيض وطاقية بيضاء قطيفة.

ـ إذن هيا بنا، وسنشرب الشاى فيما بعد . .

خرجا والزوجة لا تصدق، لكن نوعًا من الطمأنينة والسلام تركهما هذا الزائر الغريب خلفه. أوشكت الأم أن تطلق زغرودة لكنها جلست تبكى فى صمت . .

كان حمزة يخب فى الطريق يكاد يرمح حتى أن الرجل الطويل جدًا

بالنسبة إليه لم يكن قادراً على اللحاق به . كان يتأمله ويبتسم . عند كوبرى كرموز أوقف حمزة تاكسيًا وسأل الرجل :

ـ الى أين؟

ـ لم يكن مع حمزة إلا جنيه واحد حتى آخر الشهر ، لكن لا بأس أن يأخذ تاكسيًا ليصل بسرعة إلى ابنته . قلبه انقبض وهو يسمع كلمة أمن الدولة ، ثم عاد واطمأن .

لا بد أنهم سينفذون ما يقوله الرئيس عبد الناصر لهم ، والرجل قال إنه سيعود بنوال .

همس الرجل فى أُذن السائق بالعنوان فبان الذعر على وجهه ، لكن ماذا يفعل . كان حمزة يعرف الطريق من كرموز إلى محطة مصر ثم الطريق إلى الشلالات ، لكن بعد ذلك دخل التاكسى فى شوارع ضيقة جميلة وارفة الأشجار فلم يعرف أين هو بالضبط . والأضواء التى كانت فى الشوارع بدأت تقل حتى وجد نفسه ينزل من التاكسى فى شارع شبه مظلم ، لكن رائحة الأشجار الجميلة تنتشر فوقه وحوله ، وأمام مبنى من ثلاثة طوابق ، هو فى الحقيقة أحد القصور القديمة قبل الثورة ، كان يقف عدد من الجنود شاكى السلاح ، وعلى البعد عدد من السيارات اللامعة . المبنى المنخفض الجميل حوله حديقة صغيرة بها مصابيح تدور مع سورها وتضىء المبنى من الخارج ، لكن ا لمبنى نفسه من الداخل يبدو شحيح الضوء .

ـ لا تخف . اتبعنى .

مشى الرجل ، ومشى حمزة خلفه . بدأ يرتبك ويتعثر وإن أعجبه للحظة أن أحدًا لا يوقف الرجل الذى صعد به إلى الدور الثانى ، ومن

ثم لم يوقفه هو أيضًا . في صالة يجلس بها خمسة أفراد في صمت رهيب أشار الرجل إلى حمزة أن يجلس ثم دلف من باب لا يكاد يظهر لم يغب خلفه أكثر من دقيقة ثم عاد ينحني هامسًا في أذن حمزة :

ـ لا تذكر شيئًا مما قلته لك .

ثم أشار إليه أن يدخل بعد أن فتح الباب الخفي . تردد حمزة للحظة . دخل ليصبح الباب خلفه وليجد نفسه وحده في مواجهة غرفة واسعة طويلة في آخرها يجلس رجل مهيب ، إلى مكتب فخيم . كان الرجل مشغولاً في كتابة شيء ما لكنه أشار إلى حمزة أن يتقدم . حين وصل إليه وقف الرجل الطويل جدًا ، وصافح حمزة بقوة . لقد أحس حمزة بيده كأنما صُنعت من فولاذ . أشار إليه الرجل أن يجلس أمامه فجلس . كان الرجل الفولاذي الطويل قد خلع چاكت البدلة وظل بالقميص اللينوه الفاخر والحمّالة اللامعة والكرافتة الأكثر لمعانًا . أخرج علبة سجائر كنت أميركية قدم واحدة منها إلى حمزة الذي اعتذر عنها قائلاً «آسف . ما با غيرش» وأخرج علبة سجائره «الجولدن ويست» فلم يتمالك الرجل نفسه وابتسم مندهشًا ، لكنه لم يتردد في إشعال سيجارة حمزة بولاّعته الذهبية .

ـ هيه ، قل لي يا سيد حمزة ، لماذا أرسلت خطابًا إلى السيد الرئيس؟

ارتبك حمزة ، تذكر ما قاله له الرجل الوديع فتشجع :

ـ يا فندم ما المسؤول بأعلم من السائل .

ـ صحيح . عندك حق . لكن لا أحد هنا يعرف شيئًا عن ابنتك . .

بدأ حمزة يرتبك أكثر ، بل لقد اهتز بالمقعد ، لكنه سرعان ما تماسك وأطفأ السيجارة في المنفضة التي أمامه وقال . .

ـ طيب ما دمتم لا تعرفون شيئًا عن ابنتى اسمح لى أعود إلى البيت.

ووقف يهم بالانصراف فبان غيظ شديد على وجه الرجل الفولاذى ثم صرخ فيه:

ـ اجلس مكانك يا روح أمك. هل تعرف ماذا فعلت يا رجل يا تافه أنت؟ أزعجت رئيس البلاد من أجل بنتك التافهة الشرموطة.

كان الرجل الفولاذى قد وقف، وارتفع صوته فدخل عدد من المخبرين من أبواب لم يرها حمزة بل لم يرهم وهم يدخلون، انشقت عنهم أرض الغرفة. وجد حمزة نفسه يقف مرعوبًا يكاد يتلاشى.

صرخ الرجل الفولاذى وهو يشير إلى المخبرين أن يظلوا بعيدًا..

ـ تريد ابنتك؟ ليس قبل أن تقول لى من نصحك بإرسال خطاب للرئيس، ومن هم الشيوعيون الذين يعملون فى السكةالحديد، والشيوعيون الذين يعيشون فى المساكن؟

ضاعت صورة الرجل الوديع الذى صحب حمزة إلى هنا من ذهنه. ضاع كل شىء يربطه بالحياة. أدرك أنه فى محنة حقيقية. غريق يضرب بذراعيه فى بحر متلاطم. لكنه تكلم بصوت لا يكاد يخرج من فمه:

ـ يا سعادة البيه الناس فى المساكن غلابة وربما لا يعرفون حتى الآن أن الإنجليز خرجوا من البلاد..

هنا كاد الضابط يضحك. حقًا لقد كاد جسمه يهتز، لكنه تماسك وتحدث وإن بصراخ أقل بعد لحظات من الدهشة والصمت:

ـ وحياة أمك؟. طيب. الآن سترى ماذا سنفعل بابنتك أمامك..

فتح باب ظهرت منه نوال ممسوكة بيدى اثنين من المخبرين فى حالة

إعياء تام. تقدمت نحو أبيها لكنها سقطت على الأرض وجرى هو إلى قدمى الرجل الفولاذى.

ـ أبوس رجلك كله إلا بنتى. أقتلنى أنا؟؟.

أمسكه الرجل من ياقته من عند قفاه وكاد يحمله عن الأرض.

ـ قل لى من نصحك بإرسال الخطاب؟

كانت نوال قد استطاعت الوقوف فى ركن من الغرفة الواسعة.

ـ لا أحد، والله العظيم لا أحد غير غبائى..

بدا لحمزة أن الموقف لن ينتهى أبدًا، لكن الرجل الفولاذى أشار لرجاله على نحو مفاجئ.

ـ خذوا أولاد القحبة ارموهم فى الشارع..

هكذا انتهى كل شىء. وفى التاكسى الذى استقله حمزة مع نوال كانت ذراعه حول كتفيها بينما نامت هى على صدره.

ترك هو دموعه تنزل على وجهه بغزارة، والسائق الذى كان يراهما فى المرآة بدا مندهشًا جدًا يهز رأسه فى استغراب وتأثر، أوشك أن يسأل حمزة عما به لكنه فكر أن يحترم الموقف بالصمت الجليل..

فى البيت كانت الأم قد استعدت لاستقبال نوال بذبح دجاجة وشراء زجاجة كوكاكولا من دكان العنيبسى لتقدمها لها مع الأكل. حول الطبلية.

عادت دموع حمزة تنزل وهو يتأمل ابنته التى تأكل فى حزن لا مثيل له. ثقيل كأنه جبل.

تكلمت نوال لأول مرة..

ـ لاتبك يا أبى

تأملها مليا وقال . .

ـ أنت سليمة يا نوال؟

ـ سليمة مائة فى المائة .

اضطربت الأم وقالت .

ـ هل كانوا ممكن أن . . ؟

سكتوا جميعا للحظات ثم قال حمزة .

ـ دول كلاب ممكن يعملوا أى شىء . . لكن ربنا لطف .

ثم خاطب نوال . .

ـ انسى يا بنتى كل شىء والتفتى إلى عملك .

هزت رأسها فى أسف . لم ترد للحظات . ثم قالت . .

ـ كيف أنسى يا أبى . . ؟

ضربوكى يا نوال . .

ـ صفعة أو صفعتين . لكن الضرب كان فى الغرف حولى طول النهار والليل . أصوات التعذيب لم تنقطع لا بالنهار ولا بالليل . تخيلت أنهم لم يتركوا شخصا فى الإسكندرية إلا ضربوه . تمنيت الموت لأنى فى كل لحظة كنت خائفة يعذبونى . .

عاد حمزة وقال . .

ـ حمدا لله على سلامتك يا بنتى . . انسى ما مضى .

قالت أمها فى أسف . .

ـ سامحينا يا نوال . لقد ألقينا الكتب التى وضعتيها فوق السندرة فى

ترعة المحمودية. لقد جاءوا وفتشوا البيت ولحسن الحظ كنت نقلتها إلى السطح.

هزت نوال رأسها فى أسف ثم قالت . .

ـ رغم أنى لا أعرف الإنجليزية لكنى أتمنى الآن لو قرأت هذه الكتب التى تسببت فى هذا كله.

ثم فجأة ابتسمت وسألت أباها . .

ـ لكن هل صحيح أنت أرسلت برقية للرئيس؟.

تراجع إلى الخلف فى زهو وقال . .

ـ أرسلت خطابا كاملا . .

ـ من الذى كتبه لك؟.

ـ أنا. بخطى. لكن الفكرة كانت فكرة سليمان عبد الباسط. قلت للرئيس من حمزة بن عبد الله إلى جمال عبد الناصر رئيس البلاد. أعرفكم أنه تم القبض على ابنتى الحكيمة نوال من قسم العمليات بالمستشفى الأميرى بالإسكندرية بتهمة الشيوعية التى لا نعرفها. ابنتى لا تعرف إلا الغناء لأن صوتها جميل، وهى تغنى للمرضى فى المستشفى، وأنا رجل عامل دريسة فى السكة الحديد لكنى علمت ابنتى فهل يكون جزائى أن تقبضوا عليها وبدلا من أن تزف إلى عريس تزف إلى السجن ـ وضحكت نوال وارتفع صوتها وضحك أخواتها حولها وبانت السعادة على الوجوه واستمر حمزة ـ وهل هذا جزائى أنا الذى تطوعت أيام العدوان الثلاثى فى الحرس الوطنى لأفدى الوطن بروحى. من ظلمنى وظلم ابنتى وحياتها وحياتى الآن بين يديك والسلام . . انطلق

يضحك ملء شدقيه، وارتفعت أصواتهم، وقالت الأم «أبوكى طول عمره زكى ونبيه» ثم أطلقت زغرودة عالية تقاطر بعدها السكان من البيوت جميعها يهنئون نوال بسلامة العودة، حتى الدجاج ارتفعت قوقأته فى العشش وارتفعت أصوات المعز والغنم وأذَّن أكثر من ديك والليل بعد لم ينتصف.

كان عدد من الأولاد لا يزالون فى الشارع. دخلوا إلى المساكن متجهين إلى بيت عم حمزة ليروا نوال التى كان مقبوضا عليها بسبب السياسة!! وصل الخبر إلى بيت سليمان فذهب بسرعة ليهنئها. الوحيد الذى ظل فى مكانه هو حبشى ومعه بدرة ومراكبى غريب يحتسون الشاى. خرج حبشى ووقف على الشاطئ يستطلع وعرف من الأولاد أن نوال التى كان مقبوضا عليها عادت. نظر إلى المساكن الرابضة فى الظلام وهز رأسه دهشة. من يصدق أنه فى هذا المكان النائم على بعضه تقع كل هذه الأحداث. عاد إلى زوجته والضيف. كان عدد من الأولاد لا يزال جالسا يغالب النوم، وعدد آخر نائمًا. لم يعد حبشى يعرف أبناءه من صلبه من اللقطاء.. لاحظ أن بصر بدرة لا ينزل عن وجه المراكبى. لم تكن هذه أول مرة يتردد هذا المراكبى عليهم.

لم يدرك حبشى منذ اللقاء الأول وحتى الليلة أن شيئًا ما سيحدثه هذا المراكبى فى حياته. وبالطبع لم يفكر أبدا أن الليلة ستنتهى القصة التى بدأت ولم يدر. لقد سأله حبشى:

ـ هل ستغيب المركب كثيراً فى كفر عشرى؟

أجاب المراكبى:

ـ حمولتنا قليلة من القمح. سنفرغها بسرعة ونعود. لن نحمل شيئًا من الإسكندرية. ربما نحمل بضاعة من القاهرة إلى قنا.

سكت حبشى وراح يسحب أنفاسا هادئة من «الجوزة». صار معتادا أن يأتى هذا الرجل مع «الصندل» مرة كل ثلاثة أشهر. فى كل مرة يحمل إليه شيئا من حمولة الصندل. قصب. قمح. بصل. عسل. قطن، وغير ذلك مما تحمله بدرة وتبيعه إلى العنيبسى أو السيد خليل باستثناء القطن الذى يحمله حبشى إلى محل قطن فى كرموز. دعاه حبشى إلى شرب الشاى أول مرة منذ حوالى العام، وكانت المراكب قد اضطرت للانتظار كثيراً فى المحمودية لزيادتها المفاجئة، كان الصندل الذى يعمل عليه هذا المراكبى يقف أمام كشك حبشى مباشرة. الرجل أسمر مستدير الوجه صغير العينين بشكل لافت بحيث تتخيله ضعيف النظر من كثرة ما يرف أهدابه، على رأسه عمة كبيرة، لكنه دائمًا نظيف حليق اللحية ترك شاربًا صغيرا خفيفا لا يكاد يبين. للرجل صدر عريض وذراعان قويتان وجلبابه الصوف نظيف على غير عادة المراكبية فوق المحمودية ومن فتحة جلبابه يظهر على صدره صديرى أبيض نظيف، وفى قدميه حذاء لامع، أسود، وليس حافيا كمعظم المراكبية!

سأله حبشى حين التقى به أول مرة..

ـ هل أتيت إلى الإسكندرية من قبل؟

ـ هذه أول رحلة لى.

ـ الصندل ملكك؟

ـ ملكنا نحن جماعة من أولاد العم..

ـ مبروك.

يبارك فيك لكن قل لى، هل تعيش هنا دائمًا؟

ـ طبعا. أين نذهب يا ابن العم!؟

كان الجو شتويا، وحبشى قد وضع بينهم «قصعة» بها فحم مشتعل، لاحظ أن الرجل بين الحين والحين يمد يده يسوى قطع الفحم المشتعل جوار بعضها بأصابعه! أو يضغط عليها عميقا داخل النار دون أن تصاب أصابعه بحروق من أى نوع، أو يبدو عليه أنه يتألم . . بل كان يتكلم مع حبشى وهو يفعل ذلك. ولاحظ حبشى أن بدره تتأمله بدهشة طول الوقت، وبعد أن غادر الرجل الكشك رأى حبشى بدرة تنتفض.

ـ مالك يا امرأة؟

ـ جسمى يا حبشى ماسكة فيه الكهرباء . .

ـ ثلاثة بالله العظيم أنت مرة لبوة!

لكن بدرة كانت بالفعل تشعر بنار تسرى فى جسدها، نار تتردد كتيار كهربى من قدمها إلى رأسها تكاد تهزها كلها وتحرقها. لقد احمر وجهها بشكل غريب، وتمددت فوق الأرض وقالت «غطينى يا حبشى» غطاها بكل الأغطية الممكنة لكنها لم تكف عن الارتعاش حتى راحت فى نوم عميق . .

لأيام وبدرة ذاهلة بعد ذلك. الصندل بعد أن أفرغ حمولته عند كفر عشرى عاد من أمام الكشك، ووقف حبشى يرسل تحيته بذراعه إلى الرجل الذى كان بدوره يحييه من فوق الصندل. رأى حبشى بدره تقف جواره حزينة مذهولة وهى تتأمل الرجل السابح مع الصندل فوق الماء. عافت بدرة الطعام بعد ذلك حتى أوشكت تموت. لكنها أكلت وعادت إليها عافيتها شيئًا فشيئًا. بعد ثلاثة أشهر عاد الصندل والرجل وسهر مع حبشى وبدرة التى جرى الدم فى وجهها وانطلقت منه البهجة. حكى لهم الرجل كيف تخرج للنوتية بالليل عرائس النيل بين البلاد ترقص

على حواف الصندل وأحيانًا تغنى بصوت جميل آسر غير مفهوم. وكيف ينزل وراءها بعض المراكبية إلى الماء فلا يعودون! فى كل رحلة «تنده» عرائس البحر واحدًا أو اثنين من النوتية. للعرائس دائما جسم السمكة ووجوه البنات الصغيرات اللاتى كن يلُقى بهن قديما ليفيض النيل وهن بعد عذارى لم يمسسهن بشر ولا جان.. وكيف حين يكون الريح شماليا يعاكس نزول المراكب من الجنوب، تخرج عرائس النيل خلف الصندل تدفعه برؤوسها فيزول خوف المراكبية وينطلقون فى الغناء والهتاف بالمواويل وأكثرهم يبكى حين تنصرف بنات النيل ويغبن فى الماء بعد أن تعتدل الريح. كلما اقترب المركب من المدن قلت العرائس يا حبشى. إنها تخشى المدن وزحام الناس. النيل أسرار يا حبشى. تعرف طبعا قصة عمرو بن العاص لما فتح مصر مع النيل حين وجد المصريون يلقون إليه كل عام بفتاة جميلة ليفيض على البلاد. تعرف القصة أم لا يا عربى؟ أنا والله لا أعرف القصة يا ربانى. أنا أتعلم منك! تسمينى بالربانى يا حبشى؟ والله أنا أراك تمسك بالنار يا سيدنا! أنت مبروك. اسمع يا حبشى القصة العجيبة. لقد تحير عمرو بن العاص فأرسل إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، هناك فى المدينة المنورة يطلب منه المشورة. عمر كان «واعر!» أرسل ورقة إلى عمرو وقال له أن يلقى بها فى الليل الورقة كان فيها الآتى يا حبشى. من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر. إذا كنت تجرى من عندك فلا تجر، وإذا كنت تجرى من عند الله فأهلا ومرحبا.. من يومها يجرى النيل دون بنات. تعرف لو لم يرسل إليه عمر بن الخطاب بالرسالة كان الماء امتلأ بالعرائس ولم يكن هناك مكان للسفن تمشى على الماء.. يا سلام يا ربانى. حكايتك تسلب العقل، يعنى لولا الورقة دى يمكن ما كان تفضل فى بر مصر بنت بنوت. لكن رحمة ربك كبيرة. ونظر حبشى

إلى بدرة وقال ضاحكا؟ ليته ما أرسل الورقة عمر بن الخطاب كنا ارتحنا من بدرة! ضحكوا، قال الربانى، تعرف أن الناس فى قنا يسموننى أيضًا بالربانى. حسبت أنك تعرف لكنك قلت لى سببا لم يخطر ببالى. الناس فى قنا يسموننى بالربانى لأنى أول ما اشتغلت كان على غليون كبير، للسياحة، ويمكن أيضًا لأنى يوم ولدت ولد جاموس البلد كله، العُشر وغير العُشر. . وكان إعجاب بدرة بالرجل يزداد. حبشى يرى ذلك فى عينيها فى كل زيارة للرجل ويراه فى الشحوب الذى يعتورها بعد رحيله وحتى يعود ليتحدث عن اللصوص الذين يهاجمون الصندل بالليل على طول النيل. وكيف أنه تقريبا لا ينام منذ خروجه من قنا حتى عودته، وبدرة كلما غاب الرجل قل إقبالها على الطعام وزاد على الماء من كثرة النار التى فى صدرها. تقول أنا لا أعرف ماذا جرى يا حبشى. يخيل إلىّ أنى سأشرب الترعة والبحر، وحبشى يأخذ الماء بالمجان من دكان العنيبسى، ومنذ أيام ذهب يملأ «چركن» فمنعه العنيبسى وطالبه بدفع جنيه كامل. كيف يا رجل، لقد تعودت تعطينى الماء بالمجان.

- أجل، لكنك الآن تستهلك أكثر من چركن فى اليوم الواحد ولم تكن تفعل ذلك من قبل، وسعر المياه ارتفع. وجنيه ليس كثيراً عليك. يا رجل يا عنيبسى أنا طول عمرى أسرق لك بلاليص العسل وأبيعها لك برخص التراب، وحزم القصب وأجولة البصل والعدس والفول وحتى فول السودانى وغيره ولا تكرمنى فى الماء الذى خلقه الله للناس جميعا. صرخ فيه العنيبسى. أنا أسامحك فى صفيحة، لكنك تستهلك أكثر من ستين صفيحة فى الشهر؟ ماذا تفعل؟ إرحم شبابك وزوجتك؟ ضحك حبشى وأدرك سر غيظ الرجل. قال: يا رجل يا عجوز أنا أستحم مع

زوجتى فى الترعة بالليل. نحن نستعمل الماء فى الشرب فقط تشرب صفيحتين وثلاثا فى اليوم؟ أنا لا أشرب حتى زجاجة ولكنها بدرة يا عنيبسى. بدرة! أنت تستغفلنى. والله العظيم بدرة يا عنيبسى السبب، العفريت الذى ركبها عطشان لا يرتوى فماذا أفعل أنا يا عنيبسى؟.

عفريت هو الذى يركبها يا حبشى أم أنت لا تعطى نفسك راحة؟ غريب أمرك يا عنيبسى يا ابن ديك الكلب، طيب ما ذنبى أنا إذا كان أنت لا تركب وبتاعك نشف وصار مثل جلدة الحنفية. امشى يا حبشى يا بن الكلب. الله يسامحك، بس سيبنى أخد ميَّه الولية حتموت. خذ ولا ترينى وجهك. وظهر الربانى هذه المرة كما يظهر كل مرة فعادت الروح إلى بدرة وتفتحت بشرتها وازدهرت عيناها.

هذه الليلة، حدثهما الربانى عن مصر الواسعة الكبيرة. فهو كل ليلة، والمركب نازل من الصعيد إلى بحرى، يصعد أعلى الصارى فيرى جنة الله لا تنتهى على الجانبين. والهواء فوق الصارى له طعم ماء زمزم وحين ينزل من فوق الصارى، تكون الشمس صاعدة فى الدنيا، فيتعجب من هذه الجنة الهادية كيف تتحول إلى جحيم يتقاتل فيه أبناء آدم بالنهار. هذه المرة أمضى الربانى معهم ثلاث جلسات عبر ثلاث ليال وهذا شىء لم يفعله من قبل تألقت بدرة حتى كادت تتفجر من الابتهاج! كل ليلة لا تنزل عينيها عن الربانى، وحينما خرج حبشى يستطلع أمر الصياح والجلبة التى يسمعها فى المساكن وعرف من الأولاد بعودة نوال، عاد هو إلى الكشك فوجد الربانى يمد يديه يمسح بهما دموعا فى عينى بدرة. لم يشعر بغيرة من أى نوع، فالرجل مبروك، لكنه اندهش من بكاء بدرة. بعد أن أنصرف الربانى إلى سفينته سأل بدرة عن سبب بكائها فدخلت فى حضنه وأخذته إليها بشدة. ما الذى

جرى يا امرأة؟ إخلعى إذن ملابسك! لا أنا لا أريد ذلك، لا تبتعد عنى الليلة يا حبشى، اتركنى فى حضنك حتى الصباح. وفى الصباح نهض حبشى على بكاء الأطفال لماذا تبكون؟ أين بدرة؟ أنهم ينادونها باسمها مثله تمامًا. خرج مسرعا فلم يجدها على الشاطئ. ولم يجد الصندل ولا الربانى. سمع صوت أحد أبنائه يقول له، لقد باستنى فى الفجر وقالت لى سأعود بسرعة يا طرزان. كان حبشى فى غاية الضيق يقول بصوت غير مسموع «بنت ديك الكلب».

تذكر الليلة كلها، الليالى التى أمضاها الربانى المجهول هذا معهم، حين عاد بالليل ليراه يمسح عن بدرة دموعها. كيف حقًا نسى اختفاء زوجته السابقة. كيف اطمأن للأيام والسنين؟ ثم، ثم من الذى نظم هذه الدنيا على هذا النحو العجيب؟ عادت نوال بالليل وغابت بدرة فى الصباح. يا رب، يا قادر لماذا يكون على حبشى من دون الناس أن يدفع ثمن الغياب. حبشى الذى جعل من قلبه للقطاء، أبنائك، مأوى ومسكنا. وترك حبشى الطريق مفتوحا لدموعه الساخنة المريرة. لقد استيقظ الأطفال جميعا ووقفوا أمامه واجمين، فلم يميز اللقطاء من غيرهم، بل بدوا جميعا أمامه لقطاء حقيقيين.

(٨)

وجدت أبلة نرجس نفسها وحدها. دون اتفاق لم تحضر ألچونى ولا نادية سلام ولا حسنة ولا نوال. هل لأن الإسكندرية دخلت فى الخريف انكمش الجميع؟ أجمل السهرات كانت فى الخريف دائما والشتاء. ذلك الدفء الذى لا يعوض من الصحبة والألفة والأحاديث البريئة. هو طائر الحزن الذى حط على البنات..

انفرد كروان بركن من الغرفة يذاكر دروسه. لا يزعجه صوت ماكينة الخياطة. لقد تعود عليه بينما نام أبوه متعبًا. عاد اليوم من رحلة عمل طويلة فى الصحراء الغربية.

توقفت أبلة نرجس عن الخياطة، شرعت فى زخرفة قطعة من الثياب بخيط ملون. وضعت أكثر من «كستبان» فى أصابعها التى راحت تتحرك بالإبرة والخيط بخفة لافتة للنظر حتى إن كروان كان يرفع رأسه عن المذاكرة بين لحظة وأخرى يتأمل هذه الأصابع المدربة. توقف عن القراءة ثم شرع يكتب ويفكر..

ـ عندك واجب كثير يا كروان؟

تساءلت أبلة نرجس فأجاب:

ـ لا. أنا فقط أكتب خطابا لخير الدين.

سكتت. اسم خير الدين مثير للشجن فى كل البيوت. لقد خرج من المستشفى بعد فترة طويلة هذه المرة؛ لكن أحدا لم يصدق. صار واضحا أن خطبته للچونى لن تستمر طويلا، ويتمنى له الجميع النجاة وطول العمر.

ـ هل طلب منك أن تراسله؟

ـ أبدا. لكنى أحببت ذلك.

ـ مسكين خير الدين يعيش وحيدا فى القاهرة، لابد أنه سيفرح كثيرا بخطابك.

لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر بين لحظة وأخرى إلى ابنها معجبة حتى قالت..

ـ حدثنى يا كروان عن القصص التى أراك تقرؤها كثيرا هذه الأيام. هل تحب القصص إلى هذا الحد؟

ـ أحبها جدا. فى المدرسة يخصصون لنا حصتين فى الأسبوع للمطالعة الحرة فى المكتبة. اكتشفت بالمكتبة قصصًا جميلة، واشتركت فى جماعة الموسيقى.

ـ الموسيقى؟! لم تقل لى. ماذا تعزف؟

ـ ناى.

فتحت أبلة نرجس عينيها إلى غايتهما سعادة ودهشة واستمر هو فى الكلام.

ـ فى العام الماضى، وأنا فى سنة أولى، قرأت قصة جميلة للأطفال اسمها «الصياد التائه». قصة ولد صغير تاه فى الصحراء فى رحلة صيد وراح أهله يبحثون عنه. جلست أبكى لأنهم تعبوا فى البحث عنه ولم يجدوه. سألنى المدرس عن سبب بكائى فأخبرته فسألنى أى صياد هذا الذى تاه وتبكى من أجله؟ قلت له هذا الذى فى الكتاب، اندهش وضحك ثم قال إنهم سيجدونه فى النهاية. المهم أن أصل إلى نهاية القصة، ثم إن ما حدث ليس حقيقة إنما هو خيال فليس هناك فى الحقيقة صياد تاه. كنت أنا أحسب أن القصص التى أقرؤها حقيقية. أى والله. كنت أنسى نفسى وأندمج فيها تماما.

وضحك وابتسمت وهى تتأمله بإعجاب ممزوج بالدهشة والسعادة معا. لقد أخذت الكتب كروان من الشارع وهذا يكفى ومن يدرى ربما تصنع منه الكتب شخصا عظيما.. لكن كروان كان قد بدأ يتثاءب فقام وانحنى يقبلها على رأسها ودخل لينام لتبقى هى وحدها ويوغل المكان فى الصمت أكثر.

أبلة نرجس لا تشعل الراديو حين تكون وحدها، هى فى الحقيقة لا

تهتم به كثيراً، ولولا حضور البنات وحبهن للأغانى لنسيت أبلة نرجس أمر الراديو تمامًا. . البنات هن اللاتى يجرين وراء الموسيقى ويشغفن بالأغنيات. هى تحب الصمت. ولو استطاعت لنشرته فى العالم. فقط تهفو نفسها من زمان إلى سيجارة تدخنها وحدها رغم أنها لم تفعل ذلك من قبل قط، ولا كان أبوها أو أحد من أخوتها مدخنا، كذلك زوجها لا يطيق التدخين. أنها حقا تندهش من هذه الرغبة العجيبة حتى أنها تغمض عينيها لحظات تتخيل فيها أنها تأخذ نفسا طويلا من سيجارة وهمية وتنفث دخانا أبيض كثيفا مشوبا بالزرقة الهادئة فى الفضاء النسيم! . إنها تنهض الآن واقفة وسط الصمت والفراغ ونسمة الخريف السكندرية الطرية المنذرة بالشتاء تدفعها دفعا إلى النوم الجميل. النوم على سرير من الزئبق، أو فوق بحيرة من القطيفة، يحملها ويهدهدها. يفتح طريق أحلام الطفولة. يا إلهى. ما هى هذه الرغبة العابثة فى أن تصعد إلى السطح. . السطح وحدها الآن والليل يكاد ينتصف؟ السطح يا نرجس؟! أجل. السطح الذى فوقه الليل الساجى والسماء ذات ملايين العيون! إنها حتى لم تفعل ذلك بالنهار، ربما مرة أو مرتين خلال العام. الآن تشعر بأنها رغبة جسدها كله وروحها معًا. ماذا يحدث لو رآك أحد يا نرجس؟ لا يهم. . هذا جنون! أعرف، ولو! وكانت تصعد السلم الخشبى الموجود فى العشة الخارجية والذى يُفضى إلى فتحة تسلم إلى السطح مباشرة. هناك رجال يحبون بالليل أن يصعدوا إلى السطح ويدخنوا سجائرهم تحت السماء. لا فائدة فى الكلام، لقد بدأت تصعد السلم بالفعل! والرجال هنا ينامون مبكرين من التعب، شىء ما يساعدها على الصعود ويدفعها من أسفل، إنها تشعر به يرفع عجيزتها لكنها لا تدرك ملمسه بالضبط! .

قمر كبير فى السماء هذه الليلة. . كيف حقا لم تر القمر كثيرا من

فوق الأرض. يا الله! كأننا وسط النهار من الضوء. لكنه ضوء حان، والسطح ممتد أمامها طويلا عريضا مثل طريق خال مهجور المساكن صفوف متعامدة ومتوازية تصنع بينها شوارع ضيقة. كل صف عشرة بيوت. كلها ستون بيتا وبيت. لا تعرف فى أى صف يوجد البيت الأخير كل سطح يمتد فوق البيوت العشرة بلا حواجز. السطح مغسول بمطر سحرى سقط ولم يشعر به أحد. السطح بارد ومنعش. هى حافية والبرد المنعش يصعد من قدميها إلى فخديها وينزل من أعلى وجهها وعنقها إلى صدرها وبطنها. البرد المنعش يسرى فى عظامها. انتشاء فائق يكاد يحملها عن أرض السطح. تترك المحمودية خلفها وتتجه إلى نهاية السطح المطلة على السكك الحديدية. على المساحة الواسعة من القضبان والقطارات التى تسلم إلى الميناء وإلى الأرصفة وإلى ورش منطقة الزيتون. كل ذلك سمعته ولم تره. يا إلهى. أكثر من عشرين سنة وهى تسكن هنا ولم يسبق لها رؤية هذا المشهد المهيب. اتساع غامض. فضاء أسود إلا من مصابيح متباعدة على الأعمدة والسيمافورات، أرض أشد سوادا لكنها تلمع تحت ضوء القمر. أرض مغطاة بالمازوت. قضبان تمتد إلى مالا نهاية، تتشابك وتنحنى وتتباعد. قطارات متوقفة وعربات بضاعة متناثرة وسيمافورات تلمع ألوان أذرعها البيضاء والقناديل الحمراء فوقها. أين الرجل الذى يشعل القناديل. ذلك الذى استمعت إلى قصته العام الماضى. كانت ليلة منعشة كليلتها هذه، صعد هو القناديلجى الذى لا يعمل إلا بالليل، بعد أن أشعل القنديل لم ينزل من فوق السيمافور. لمس خده سطح القنديل وهو ينزل فاستراح إلى برودته وسرى الانتعاش إلى جسمه كله فاحتضن السيمافور، ثم صعد وجلس فوقه رافضا العودة مرة أخرى إلى الأرض. وجدوه معلقا فى الصباح. تركوه فلم ينزل حتى اليوم

الثالث فصعدوا إليه قبل أن يموت من الجوع والعطش. ظل رافضا الكلام بعد ذلك مع الناس. وبعده فعل ذلك أكثر من قناديلجى حتى بات الناس لا يندهشون إذا رأوا فى الصباح أحدهم جالسا فوق السيمافور.. ماذا دهى الرجال ليفعلوا ذلك؟. سمعت صوت عربات بضاعة يدفعها قطار على مهل. إنه قطار طويل يتقدم فى بطء صوته ثقيل يمشى فى اتجاه الأرصفة ويتلوى مع القضبان التى تنحنى كدودة بحجم الدنيا. يقولون إن الديب يحرس هذه القطارات بالليل والنهار.. كروان يحدثها ويحدث البنات كثيراً عن حكايات الديب. إن ما يحكيه قليل بالنسبة لرجل يعيش معلقا فى الفضاء ويرمح به القطار فى أنحاء الدنيا. هؤلاء التعساء الذين ينامون تحتها الآن، بمن فيهم زوجها، هم الذين يمدّون هذه القضبان لتجرى فوقها القطارات مع الرياح إلى أنحاء العالم. القطارات تجرى بالبضائع ليزداد العمران فى الدنيا ولا أحد يعرف أن القضبان أنشأها رجال كالفئران تخرج من جحورها كل يوم فى الصباح لتعود فى المساء ولا تخرج إلا فى الصباح التالى، السور الطويل الذى لا ينتهى بعيداً أمامها هو الذى يفصل منطقة السكك الحديدية عن بحيرة مريوط. يقول كروان إن المحافظة تبنى جسرا الآن وسط البحيرة يربط منطقة محرم بك بمنطقة القبارى. جسر كبير يدور خلف الإسكندرية يذهب كروان والأولاد يجلسون فوقه فى الإجازات يصطادون السمك. دنيا يا نرجس لا آخر لها. هذا هو البلوك الأصفر اللون الذى ينظم حركة مرور القطارات فوق القضبان، هو المضاء أمامها الآن، ولابد أن بداخله عبد الباسط والد سليمان أو الرجل الأسود الجديد الذى نزل بالمساكن الذى اسمه غريب.. رجل واحد فى البلوك وسط هذا الليل والفضاء الواسع والصمت الراسخ. إنه أهم رجل فى الكون الآن. كل شىء فوق

القضبان يخضع ليديه . . يالقوة الرجال الذين لا يخافون الليل ولا الوحشة ولا الفراغ . . لكنها أيضا قوية وإلا ما خرجت الآن وحدها إلى السطح . . هذا العالم الكبير الصامت هو الذى تفرقت فيه البنات، وستتفرق فيه الباقيات، وهى دائما لن تترك غرفتها ربما بعد ثلاثين سنة تطويها الأرض، وربما بعد خمسين إذا عمّرت، والمؤكد أنه بعد مائة سنة لن يوجد أحد ممن تعرفهم على وجه الأرض . . يا لله! كيف حقا تصبح الدنيا خالية من الناس؟ اهتز جسمها للحظة وسرعان ما أدركت أن الدنيا سيملؤها كروان وأصحابه وأنها لن تفرغ أبدا من الناس . من كان يصدق أنها وهى ابنة حى محرم بك والرصافة وجرين وشارع منشة تحبس نفسها فى هذا المكان الضيق . من شوارع نظيفة واسعة ترشها عربات البلدية كل ليلة ولا تنقطع فيها الإضاءة طول العام، وبيوت كبيرة ذات شرفات عالية وأشجار على جانبى الشوارع، من هذا كله إلى بيوت تتزاحم بالشجار وأزقة قصيرة جدا متربة بينها . من روائح الكافور والياسمين والتمرحنة فى الشوارع وعلى واجهات الفلل والبيوت إلى روائح الطير والحيوان والرجال المتعبين . من البنات الجريئات اللاتى يتسللن مع الأصيل إلى حديقة الشلالات وكازينو الشجرة والسيدات المتأنقات اللاتى يتجمعن فى الحفلة الصباحية لسينما محرم بك إلى سيدات ذاهلات عن الدنيا لا يرين فيها شيئا أبعد من أزواجهن وأطفالهن، وبنات مكسورات الجناح، يرين الدنيا وهن جالسات لا يتعرفن إليها، ومن تفكر فى الخروج إلى الدنيا تقابلها بالقسوة . إنه سوء الحظ ترفرف رايته فوق البنات . . لكنهن اللاتى يؤنسن وحشتها، كن ومازلن، رغم اختفاء من بقى منهن فى بعض الليالى، ولا شك أنها ستسمح للبنات الأصغر أن يأتين إليها يتعلمن الخياطة على يديها، ويشغلن لياليها كالسابقات والدنيا لن تتوقف .

لكنها الليلة تريد أن ترى حكمت وعينيها المراوغتين، وشوقية ابنتها وضحكتها التى هربت منها فى الفراغ الحزين. كما تشتاق إلى بدرية الحمراء كالدجاجة التى دونها الآن صحراء وراء صحراء كما تتوق أن تخرج مشيرة من سجن حزنها على خطيبها، ونادية التى حبسها أهلها انتظاراً لمصير تعس، وألچونى التى تتحدث عيناها دائما بالحزن المزوج بالخجل. ماذا تفعل البنت الجميلة مع الفارس العليل. أنت معذورة يا چونى فيما لو تركت خير الدين.. قالت لها ذلك وكانت هى بدورها تنتظر أن يقول لها أحد ذلك لكنها حتى الآن لم تتخل عنه. نوال لم يعد يراها أحد، لم تعد تتكلم إلى أحد فيما يبدو. مسكينة ابنتى المطربة ذات الصوت الشجى. بدأت بالغناء للمرضى والذين بين الموت والحياة وانتهت إلى تهمة لا يعرفها أحد هنا. هل كان العالم ضيقا إلى هذا الحد الذى جعل أبوها تاجر المانيفاتورة ببوالينو يوافق على زواجها من على زين العابدين التاجر الشاب الصغير ذلك الوقت. ما الذى ألقى فى قلب أبيها بالحب لذلك التاجر الشاب ليهبها له؟ لا يستطيع أحد أن يرد طلبا لعلى، حتى الآن ينتصر فى كل بيع أو شراء بالهدوء والاتزان. لا يعرف أحد أبدا مشاعره الحقيقية. لا يكفى أبدا أن يكون فى الأصل من بلدة أبيها الذى هاجر من الصعيد إلى الإسكندرية منذ خمسين سنة. لقد أحبت هى على زين العابدين من أول نظرة. أسرها هدوءه واتزانه وقلة كلامه، أسرها صمته الذى لم يوغل فيه بقدر ما يوغل منذ «العلقة» التى أخذها مع الرجال على كوبرى كفر عشرى. لكنها تفتح صدرها للهواء النقى، وتفتح فمها تكاد تشربه، وتعود إلى بداية السطح لتطل على ترعة المحمودية، وتهز ذراعيها القصيرتين أمامها وخلفها فى سعادة طفولية، ثم، ثم فجأة تجلس على أرض السطح الباردة. تريد أن تشمل البرودة المنعشة كل نقطة فى جسمها. فكرت أن

تتمدد نائمة على ظهرها، ونامت بالفعل. ضحكت. كيف يكون شكلها الآن هى القصيرة البدينة. هل يمكن أن تقف وترى نفسها نائمة؟ ماذا يحدث لو رأت على زين العابدين يقف أمامها فجأة الآن؟ ليس مهما أى شيء فى العالم. لقد عادت تقف بعد أن تشبعت بالبرودة المنعشة، وبدت المحمودية أمامها ممتدة على الناحيتين مظلمة وسط شاطئين مضيئين بنور القمر. كيف حقا يعجز هذا النور عن إضاءة الماء. حتى مصابيح الشارع حطمها الأولاد. ليس ثمة شيء يضيء الماكينة الحمراء المبنية من القرميد الأحمر، التى ترك الخواجة بطسو فيها النور مضاء قبل أن يعود إلى بيته. على الشاطئ الآخر الظلام كثيف، وليس من شيء مضيء غير ترام نسى سائقها أنوارها بينما تقف مركونة حتى الصباح. لكن شيئا يمشى وسط ظلام الماء شيء يلمع بسرعة ويختفى وسط البحر الأبيض الخفيف فوق الماء حوت يا نرجس أم تمساح أم سمكة كبيرة؟ ليس بالمحمودية غير أسماك البلطى والقراميط التى لا يأكلها أحد. إنه حبشى هذا الذى يسبح بين الماء. يقولون إنه يسبح كل ليلة وسط الترعة هذه الأيام، وأحيانا يصرخ، ويهذى بكلام غير مفهوم منذ اختفت بدرة، إنه يضرب الماء بذراعيه فينفتح أمامه ويسبح مسافة طويلة متمددا فوق الماء كثعبان لا ينتهى طوله.

شخص عجيب حبشى هذا. تتركه النساء اللاتى تظهرن فى حياته فجأة، ويزداد الأطفال الذين يدخلون فى رعايته. يقولون إنه كثيرا فى الصباح الباكر ما يمشى بطول المحمودية ويعود حاملا طفلا جديدا، لقيطا. كان يجد الأطفال قريبا من عشته كأن هناك اتفاقا بين الجناة وبينه، الآن لا يرسلون إليه أطفالا فيمشى هو باحثا عنهم. نوع عجيب من البشر حقا. لكن ما الذى يمنع أن يكون هذا الذى يسبح شيئًا آخر غير حبشى؟ تتراجع فى ذعر. أحست به يجذبها من جلبابها من

الخلف. التفتت فرأته يمر من أمامها أبيض خاطفا، شيء كالأثير سرعان ما يعود ليقف أمامها هي التي صارت بعيدة الآن عن سور السطح ولم تعد ترى شيئا في الدنيا غير هذا الواقف أمامها، خطوط ودوائر بيضاء غير متصلة أقرب إلى النقط تتحرك أمامها يمينا ويسارا وإلى الأمام وإلى الخلف، إنها تبتسم ثم تضحك، ما الذي يدغدغها فوق أعطافها. الخيوط والنقط تقترب وتستطيل عالية وهي تنزل إلى الأرض ضاحكة والذي يدغدغها لا يتوقف وجسدها كله يهتز ويستسلم وينادي وعلى زين العابدين لم يعد على زين العابدين من العلقة وشمل الصمت كل أعضائه، ولا تفلح مساعدتها له بالغنج والحركة والأداء المبالغ فيه للشهوة والمواء والتنهدات والبارفان الشانيل خمسة! الآن المارد الدري الذي يقف أمامها يتضاءل نازلا إليها وتمتد أصابعه إلى عنقها، لقد بات فوقها تماما، ثم تمشي أصابعه الباردة إلى صدرها الذي يتسع عند طوق جلبابها وتشتعل فيها النار وتسري فيها كهرباء اللذة وينفرط عقدها متمددة. لا يتماسك فيها عضو بآخر من جسدها، ومن عجب أن جلبابها تمزق في لحظة وانشق إلى نصفين، وتمزق تحته «الكومبين» واتسعت بطنها كواحة استراح عليها الشعاع المسحور وصارت تبتسم وتتأوه وهو يعمل فيها بلا انقطاع. شملتها اللذة العجيبة الصاعدة من برودة السطح إلى مؤخرتها والصاعدة من الدفء المركز المصوَّب بين فخذيها. إنها تفقد الوعي للحظات. أين كنت حقا يا نرجس. تقول لنفسها وهي تقف تلملم ثوبها فوقها. لقد رأته يبتعد إلى نهاية السطح من ناحية السكك الحديدية ثم يختفي في ظلام الفضاء، لكنها سمعته يقول لها من بعيد إنه سيعود ولن يخذلها في الليالي القادمة. راحت تبكي ويهتز جسدها ويكاد صوتها الذي تحاول جاهدة أن تكتمه أن ينفجر وسط الصمت الذي أوغل فيه الليل. من هذا الكائن الذي

أشعلها بهذه اللذة السرمدية؟ وكيف لها أن تعرف وسط هذا الكون الواسع الذى لا يبدو أن هناك له نهاية . .

(٩)

«الدنيا ما لها يا زعبلاوى، شقلبوا حالها فين المداوى» الواحد غرقان فى الحيرة غير قادر على فهم أى شىء قال العربى لنفسه وهو يستمع للأغنية القديمة التى يبثها الراديو . .

ـ هل سنمضى رأس السنة وحدنا هذا العام أيضًا؟

سأل كاتينا التى كانت فى أبهى زينة الليلة . أجابت . .

ـ ستأتى أسمهان وچورچيت . . ستجلس بين ثلاث نساء يا عربى الليلة .

قال لنفسه بصوت مسموع «ولا هارون الرشيد» فسمعته وتساءلت .

ـ من الرشيد هذا . .

ـ واحد صاحبى .

قال وهو يصب لها قدحا من النبيذ، ثم استطرد .

ـ أنا غير قادر على تحمل العطر الذى تضعينه الليلة كاتينا . .

ابتسمت وهى تقترب منه وتنام برأسها على صدره :

ـ لازم تتحمل كل شىء عربى من الآن حتى أترك مصر .

ـ قرار نهائى كاتينا؟

ـ أسابيع قليلة وأسافر عربى .

هذا هو اليوم الذى يخشاه . ماذا سيفعل بعد كاتينا؟ لن تترك له

الأتيلية، حتى لو فعلت فلن يستطيع إدارته. لم يحاول أن يتعلم شيئًا ستحضر الليلة چورچيت التى يبدو أنها ستفوز بكل شىء. أنها على أى حال سيدة متدينة تذهب إلى الكنيسة المرقسية كل أسبوع وتعيش مع زوجها التاجر فى سوق الخيط، ولديها طفل وطفلة تصحبهما معها إلى الكنيسة دائما لتلقى دروس الأحد. سمعها تقول ذلك أكثر من مرة، وهو يشك فى كون زوجها تاجرا بسوق الخيط لابد أنه مجرد عامل عند أحد التجار. هذا كله لا يهم. إنه حتى لا يسأل كاتينا لماذا تأتى چورچيت تسهر معهما وحدها، ويكاد يقص علي كاتينا مغامرته مع أسمهان منذ شم النسيم الماضى، لكنه يتراجع، فبرغم أنها هى التى لفتت انتباهه إلى نزوات أسمهان لا يحب أن يجرح شعورها.. يا له من خائب. لن يجرح شعورها ولن تتأثر، أنها لا تحبه أكثر من نزوة أيضًا كأسمهان وإن تكررت، وهؤلاء الأجانب بهم ميزة الوضوح والصراحة وبرغم أنهم عاشوا طويلا بين أولاد العرب إلا أنهم لم يتخلوا عن ذلك، ولم يصابوا بالمجاملة الكاذبة أو الخجل المجانى، وكاتينا إذا كانت تحبه ستقول له ذلك، وهى وضعته فى مرتبة بين بين، بين الحبيب والصديق، لذلك لن يهمها إذا كانت أسمهان فازت به مرة أو أكثر، أو حتى وقعت فى غرامه بحق وحقيق! كاتينا منذ بداية الشتاء تغدق عليه فى النقود، وهو صار ضيفا دائما على البارات والملاهى على الكورنيش، ولا تمر ليلة دون أن يخرج فى الثالثة صباحا صافقا باب الملهى أوالبار خلفه ضابطا ياقة المعطف على رقبته وهو يواجه الريح ورذاذ الأمواج التى تصطدم بصخور الشاطئ وفى كل ليلة يتقدم إلى الشاطئ ويقف عند أقرب نقطة إلى الماء غير مبال أن تطول المياه ثيابه أو حذاءه، ويشعل سيجارة، ويقف ينفث دخانها فى هدوء، يفكر فى شىء يفكر فيه فلا يجد! همًا يطرحه بعيدا عنه فلا يجد، فرحا يسعد

به فلا يجد. لا يتحرك ذهنه ولا يدق قلبه ويمشى مندهشا من نفسه، لكنه يشعر بمذاق دخان السيجارة «البحارى» كأفضل ما يمكن تذوقه من تبغ. إن جسمه ليهدأ وروحه تنتشى، ولا يفكر أبدا أن ذلك قد يكون بتأثير الخمر التى شربها فى البار أوالملهى. لماذا تغدق عليه كاتينا الأموال؟ ليس أبدا لأنها تستثمر جسده، المؤكد لأنها ستترك مصر. الأتيلية بحق يوشك على الخراب أعداد النساء والفتيات فى تناقص شديد، ربما يمر الأسبوع فلا تأتى غير امرأة أو فتاة أو اثنتين على الأكثر لتفصيل ثوب واحد أو فستان واحد. نساء الطبقة الراقية السكندرية اللاتى كن يترددن على الأتيليه انقطعن.

بعض نساء الطبقة الوسطى بدأن يترددن على الأتيليه لكنهن يجدن الأسعار غالية فلا يعدن مرة أخرى. كاتينا لا تخفض أسعارها. والنساء المصريات من الطبقة الوسطى بدأن يخرجن إلى الملتقيات الأجنبية، لكن بعد أن شح الأجانب. لم يعد العربى يستمع إلى قصص الحب النارية الغريبة تحكيها النساء باللغات المختلفة، الأرمنية والمالطية واليونانية والتركية والسويسوية والنمساوية والروسية أيضًا والعبرية. الأتيلية كان مثل برج بابل تتطاير من حوله وفوق رأسه الحروف العجيبة للغات الغربية، ويبتسم هو، وتقول له كاتينا فيما بعد أو أسمهان «كلها قصص نسوان عن الرجال الخونة والغدارين». كل هذه الدنيا انكمشت، كان هو بينها مثل الفرس لكن غير جامح، ركز عينيه وروحه على كاتينا، كمهرة وحيدة كانت نعمًا إلهية يا عربى يا حمار! الآن ستتركك كاتينا وما أنت إلا نزوة طائشة لأسمهان. كيف حقا لا تحب أسمهان صوت أسمهان؟ كلما استمعت إليه أشاحت بيدها ووجهها ثم هزت كتفها وابتسمت. ليس الأتيليه وحده هو الذى تغير. الملاهى والبارات قل روادها من الأجانب، يشاع أن عطيات حسين

ستحول ملهاها إلى مطعم وصالة أفراح، أما السفينة فقد أغلق أبوابه تمامًا ولا يعرف أحد إلام سيصير، والكاب دور تحول بالفعل إلى مقهى. تلك أماكن فتحتها له راشيل بالخمسين جنيهًا وأغرقته فيها كاتينا فرآها وهى تأفل. لم تعد فرق الباليه الأرمنية ولا الإيطالية تتنقل بينها. على أى حال لقد أكل السمان وشرب الويسكى وفتح مرة زجاجة چونى ووكر بخمسة جنيهات كاملة. الأسبوع الماضى سأل أسمهان هل يمكن أن تصحبه إلى السينما. قالت له إن هذه هى رغبتها أيضًا. كان هو يحاول أن يوصل ما انقطع بينهما بعد اللقاء الوحيد الذى سمحت له به معها بعد شم النسيم أو كانت هى تحاول أن ترضيه قبل أن تترك البلاد!

خرجا من الأتيليه معا تحت بصر كاتينا، انحرفا معا إلى شارع مسجد العطارين والهواء يقابلهما ورذاذ خفيف يتطاير فوقهما. دخلا إلى شارع عبد المنعم، وأمام سينما ستار توقفا. ميدان المحطة خال تقريبا بسبب المطر والأشجار المتفرقة غير لامعة الخضرة. سيارات حنطور قليلة تقف بعيدا أمام المحطة، وبضع سيارات تاكسى صفراء. نظرت أسمهان فى ساعتها وقالت الساعة الآن السادسة ووضعت ذراعها فى ذراعة والتصقت به بشدة وهطل مطر متوسط ففتحت شمسيتها الصغيرة الملونة فوقهما. دخلا شارع النبى دانيال يمشيان تحت البلكونات وانحرفا إلى شارع فؤاد فى طريقهما إلى سينما أمير.

ـ أنت تحب سينما أمير؟

سألته. أجاب:

ـ دخلتها مرة. كان فيلم أوليس.

ـ ها ها. إنه فيلم مغامرات رائع.

ـ لقد ضحك أوليس على الوحش إن اسمه لا أحد . .

ضحكت، والتصقت به أكثر . . قالت . .

ـ أنا أحب الأفلام العاطفية . هل تعرف أى فيلم تعرض سينما أمير الآن؟

ـ لا . . نتركها للحظ . .

ـ حين نذهب إلى سينما أمير نخرج من الفيلم نتعشى فى بسترودس . سأعزمك الليلة على العشاء . .

لم يعارض . إنه يعرف كيف يتعامل الأجانب . ليس عارا أن تعزم المرأة الرجل .

عدد قليل من الرواد أمام السينما التى ستفتح بابها بعد دقائق، يرتدون المعاطف الثقيلة، ومعاطف المطر، وقفازات جلدية ملونة فى أيدى النساء اللاتى يرتدين المعاطف الوثيرة . رائحة البارفانات تشع فى الفضاء أمام السينما التى فتحت أبوابها الزجاجية ليدخل الرواد يتوقفون من الردهة الداخلية لاتقاء المطر . السينما تعرض فيلما عن ملوك الكوميديا، قرأت أسمهان الأفيش وقالت إنه مقتطفات من أفلام شارلى شابلن ولوريل وهاردى وغيرهم من رواد السينما الصامتة فى الكوميديا . قالت إنها مبسوطة وإنها بالفعل فى حاجة إلى المرح الليلة . .

جعله دفء المكيف، وأسمهان، يشعر بالراحة والانسجام . لم يتعود على السينمات المكيفة . الهمبرا وبلازا وماچيستيك وكونكورديا وبارك وريتس وركس والشرق كلها غير مكيفة . هى سينمات الدرجة الثانية التى يدخلها مبتعدا عن سينما الدرجة الثالثة فى الأحياء الشعبية . فى سينما الهمبرا يظل يفكر حتى يبدأ الفيلم كيف حقا تقيم

أم كلثوم حفلاتها الغنائية فى هذه السينما ذات المقاعد الخشبية . قال له خير الدين مرة إنهم يضعون «شلت» صغيرة فوق المقاعد أثناء الحفلة، وقال محمود الملاح إن سينما الهمبرا تتميز بمساحتها الكبيرة وبأنها مستطيلة وليست عريضة لذلك لا يتشتت الصوت . كذلك تكون رؤية الجمهور لأم كلثوم أفضل . لكن العربى لم يكف أبدا عن التفكير فى هذا السؤال الذى يعرف أنه لا يهم فى شىء، فهو ليس من رواد حفلات أم كلثوم، وليس من مدخنى الحشيش الذين يجتمعون حولها فى المقاهى والبيوت، وأدهشه أنه لا يستطيع أن يتوقف عن هذا التساؤل فى كل مرة يدخل فيها سينما الهمبرا حتى يبدأ الشعاع يسقط من خلفه إلى الشاشة البيضاء التى تنفرج عنها الستائر الحمراء الثقيلة إلى الجانبين وتدق أجراس شركة فوكس أو يتثاءب أسد مترو جولد وين ماير !

فى سينما بلازا لا يرتاح كثيرا . يرى الفيلم الأول ويخرج فى الاستراحة غير منتظر للفيلم الثانى . لا ينسى عند خروجه أن يلقى بنظرة على الفتاة الجميلة داخل شباك التذاكر ! فى الحقيقة هو لا يذهب إلى سينما بلازا إلا ليرى هذه الفتاة، ولا يعرف أين اختفت منذ سنوات ولم يعد يذهب إلى سينما بلازا . كذلك فعل مع سينما ماچيستيك . فوجئ أول مرة يدخلها بامرأة تجلس جواره فى الظلام . إنها سينما كبيرة جدا جمهورها قليل جدا لا يعرف لماذا . وبدون مقدمات مدت المرأة التى لا يراها يدها إلى سرواله تفك أزراره وتتوغل فيه . تركها مسلوب الروح من الصدمة والدهشة، والرغبة بعد لحظات، لاحظ أنها تفعل ذلك بيد وبالأخرى تقضم سندوتش فول اشترته من محل بنيامين المقابل للسينما فى الغالب . شعر بالسائل الساخن ينزل على فخذيه، وأدرك حجم الكارثة التى سببتها له هذه المرأة التى لابد لوثت سرواله

تماما، وسمع صوتها الخشن وهى تطلب الأجرة قرش صاغ قدمه لها ولا يصدق ما جرى. رآها بعد ذلك فى الظلام تمشى كشبح بين المقاعد تجلس هنا ثم هناك. ترك الفيلم وراح يبحث عنها بعينيه فى الظلام. قبل النهاية بقليل رآها تمشى متجهة إلى باب الخروج. أزاحت الستارة لتخرج فسقط عليها الضوء. امرأة مهوشة الشعر جلبابها رث، وحافية أيضًا. تذكر الرائحة الزنخة التى تركتها فى المكان، وانتهى الفيلم وهو يكاد يتقيأ ويفكر ما الذى يمنع أن تكون رجلا!؟ إن يدها خشنة وصوتها خشن وشعرها المنكوش الذى رآه وهى تخرج قصيرة ويمكن أن يكون مجرد باروكة. لقد خرج يبحث عنها أمام السينما. لماذا فعل ذلك حقًا؟ مما كان يريد أن يستوثق؟ رأى شابا قذرا يجلس على الرصيف المقابل أمام صندوق مسح أحذية ويقف أمامه شخص يضع حذاءه فوق الصندوق لتلميعه. اقترب العربى حتى ارتفعت إليه الرائحة الزنخة التى تعجب كيف لا يدركها الشخص صاحب الحذاء. لم تكن امرأة إذن. ترك الشارع كله ترك الشارع كله ولم يعد إلى سينما ماچيستيك أبدا بعد ذلك. فى الحقيقة هو لا يحب من سينمات الدرجة الثانية غير سينما الهمبرا. لكن لماذا يتذكر ذلك كله الآن. وهو يقف فى هذا الجو الأثيرى الجميل. هكذا نحن أبناء الأحياء الفقيرة يعز علينا الفوز بلحظات من الجمال. قال لنفسه وتهادى ماشيا الخطوات القليلة حتى الباب الداخلى للسينما الذى فتح الآن للرواد.. لقد ضحكا كثيرا تلك الليلة خلال الفيلم..

فى مطعم «بسترودس» خلف السينما سألها..

ـ ما رأيك فى النبيذ قبل العشاء؟

ابتسمت. تدرك أن العربى على دراية بالتقاليد الأوربية من معاشرته لكاتينا. قالت:

ـ موافقة لكن لا تنس إننى صاحبة العزومة.

تعشيا من فواكه البحر مع النبيذ الأبيض. لقد أعطى العربى البالطو إلى الرجل الواقف بالباب مثل أى بيه حقيقى، كذلك فعلت أسمهان مثل أى ليدى. إنه يتذكر ذلك الآن وهو يأكل. قال:

ـ بسترودس فى الصيف يفرش مقاعده فى الخارج. جلسة جميلة جدا.

قالت:

ـ أعرف. نحن كثيراً ما نأتى لنجلس فيه.

كان بالمطعم عدد كبير من الأجانب، يونانيون وطليان، شباب ورجال ونساء، لكن كان هناك ثلاثة من أبناء البلد مع أحدهم امرأة بدينه جدا وجهها ملئ بالأصباغ بينما يجلس الآخران كل منهما منفردا ويشرب الخمر بإمعان. كانت موسيقى شتراوس تحول المكان إلى حديقة مليئة بالفراشات..

ـ ما رأيك أن نرقص عربى؟

ـ ما رأيك أن أمضى معك ليلة أخرى أسمهان؟

ـ عربى، أنا أحب وحبيبى فى مصر الآن..

سكت قليلا وقال..

ـ إذن لن ترحلى..

ـ لقد جاء ليعود بى.

سكت من جديد بشكل أعمق وقال:

ـ كل الناس ترحل..

ـ أنت عربى لازم تعرف ماذا يحدث فى مصر .

ـ ليس مهما أن أعرف أسمهان، هل سيمنع ذلك أن أحزن؟ هل معقول أن تخلو إسكندرية من الأجانب . . ؟

ـ إنها بلدكم عربى وممكن لكم أن تجعلوها أفضل . .

كانت تأخذ يده بين يديها . ثم وقفت وجذبته نحو الراقصين ليرقص معها ولو دقيقة واحدة . وجد نفسه بين الرجال والنساء السعداء فراح يتقافز معها بلا نظام وهى تضحك وانشغلا بالأكل من جديد، مضت ثلاث ساعات كأنها من زمن مسحور رغم ما غشى العربى أكثر من مرة من ألم وهو يدرك أن عالمة القديم ينهار .

لقد وقفا تلك الليلة، الأسبوع الماضى، أمام بسترودس، يبتسمان، والعربى يقاوم الرغبة فى أن يحتوى أسمهان فى صدره وقالت له :

ـ ستتركنى الآن؟

ـ سأوصلك إلى البيت فى الأزاريطة .

ـ أريد أن أمشى على البحر .

ـ الآن فى هذا البرد .

ـ يا رب نموت من البرد . .

هذه البنت تشبه چينا لولو بريچيدا . هكذا فكر وهما يسرعان بشارع صفية زغلول فى اتجاه البحر . كل المحلات فى الشارع مغلقة باستثناء الكافيتريات التى يتسلل الضوء شحيحا من خلف أبوابها الزجاجية . إيليت وسانتا لوتشيا وبتسيريا وتاڤرنا وقهوة البلياردو . صوت الكعب العالى لأسمهان يدوى بين الصمت وأضواء الشارع الخافتة . هذه البنت تشبه تماما چينا لولو بريچيدا! أنفها الصغير وفمها الصغير أيضا وعيناها

الواسعتان وسرعتها فى الكلام وصدرها الناهد ودقة خصرها . . ياللعذاب الذى يتعذبه عربى . لم يستطع أن يتزوج واحدة ممن رآهن فى الأتيليه . مرت عليه النساء كأنه مجرد إشارة مرور!

فى محطة الرمل كان عدد قليل ينتظر الترام . هواء البحر القادم عريضا يملأ الفضاء باردا جدا . لا يزال أثر النبيذ أما أثر البالطو وأسمهان التى تتأبط ذراعه فلا ينتهى . على الكورنيش أدرك كم هى مجنونة وكم هو مجنون ليطاوعها . الموج يرتفع على الشاطئ ويعبره إلى منتصف الشارع ، لكنهما أسرعا على الرصيف تحت الشرفات ، بين حين وحين تفاجئهما موسيقى أحد الملاهى أو البارات ، أمام ميرامار عند السلسلة تسمَّر العربى وهو يرى المرأة الصغيرة الجميلة الخارجة من الباب تقف أمامه مباشرة .

ـ إزيك يا عربى .

قالت دون تردد . رغم أنه كان واضحا سكرها فلا تكاد تقف ، ويسندها شاب صغير ليس هو صفوت الجعفرى .

ـ إزيك يا حكمت . .

قال ذلك وأسرع لا يترك ذراع أسمهان ولا يصدق . لابد أنها أيضا لا تصدق . وهو يتأبط ذراعًا أجنبية وهى تستند على ذراع شاب غير زوجها فكيف يصدقان؟ . .

ما كاد يبتعد حتى توقف ضاحكا . .

ـ زمان يا أسمهان ، فكرت مرة أرمى نفسى فى البحر .

ـ أنا أيضًا يا عربى . .

ـ طيب أنا عندى أسباب فقر وعدم تعليم وقلة خبرة بأى عمل وفشل فى الحب على طول الخط .

ـ أنا أيضا يا عربى عندى أسبابى. بيت عشت فيه خمسًا وعشرين سنة هى عمرى، وجيران شوام أحبونى وأحببتهم، وجيران طلاينة أصحاب لنا نسهر سوا كل يوم سبت، ونخرج سوا كل يوم أحد طول الزمن وفى كل حفلة وكل مناسبة حلوة أو وحشة وكل كريسماس، أكثرهم سافر والباقى كلامهم كله فى السياسة. حتى الشوام سافروا أمريكا اللاتينية ـ وسكتت قليلا ثم استطردت ـ وولد مصرى كان ساكن فى شارع طيبة ويدرس فى كلية الهندسة تعرفت عليه فى حديقة الشلالات وكان عمرى أربع عشرة سنة.

ـ أحببته؟

ـ أكثر. أعطيته نفسى. كان أول رجل. بعد الامتحان اختفى ولم يعد إلى الإسكندرية.

ـ شىء ولا الخيال..

ـ كان صعيدى، من الصعيد يعنى كان آخر سنة فى الكلية، وضحك علىَّ وقال لى أنه فى سنة أولى..

ـ شىء عجيب حقًا..

ـ كيف أنسى هذا كله وأسافر؟ لكن الحياة أيضًا حلوة ولازم نعيشها عربى..

ـ إلى هذا الحد تحبين مصر أسمهان؟

ـ عائلة بابا هنا منذ مائة سنة. أسمع المطر شديد، هيا نجرى، أو نقف حتى يأتى تاكسى..

وقفا وفردت من جديد مظلتها فوقهما. عبرت أمامهما سيارة فورد كبيرة محملة بالسكارى، عبرت بسرعة فتطاير الماء المتجمع على أرض

الشارع ناحيتهما فتراجعا إلى الخلف بسرعة، ثم توقف تاكسى قديم بدا مثل شيخ عجوز قادم من بلاد لا اسم لها.

وجد نفسه وحيدا عند نهاية شارع السلطان حسين، أو بدايته فهو لا يعرف، أمامه كلية الطب وخلفه حدائق الشلالات المظلمة، وكل شيء من حوله صامت. لقد ترك أسمهان منذ لحظات وترك التاكسى ليقف ويقبِّلها على الرصيف قبل أن تدلف إلى العمارة. لقد عاد بسرعة ناحية الترام، فى نيته أن يعبر الشارع إلى الكورنيش ليلقى بنفسه فى أول بار. ضاق بأحاديث السفر، وأحاديث الهجرة من مصر، وأحاديث السياسة. لماذا حقا يجهد نفسه فى علاقات لا معنى لها مع الأجنبيات؟ الليلة لن يسمح لواحدة منهن بالحديث عن السفر أو فى السياسة.

جاءت چورچيت أولا. بدت امرأة جميلة حقا الليلة. خلعت البالطو ليظهر الفستان الأسود الذى يخرج منه جيدها اللامع محاطا بعقد من اللؤلؤ الأبيض الساحر. كيف حقا لم يلفت انتباهه جمال هذه المرأة من قبل لقد بدت بشرتها أكثر بياضًا مما رآها من قبل خلال السنين الطويلة التى عملا فيها معا بالأتيليه. إنه يرى كل شيء أفضل هذه الليلة. لقد وقف يقابل چورچيت وأخذ منها المعطف ليعلقه على المشجب البعيد ولم تنهض كاتينا من مكانها. انحنت چورچيت وقبلتها ورأى العربى مؤخرتها وهى تنحنى «محرودة كويس». . أحس برغبة غريبة أن يتحسس ردفيها بيديه. أخّر ذلك إلى آخر الليل!! لقد جاءت چورچيت دون زوجها. هى فى الحقيقة امرأة غير طبيعية، تذهب إلى الكنيسة وتحافظ على دروس الأحد وتأتى لتحتفل برأس السنة دون زوج. . عندما انتهت من تقبيل كاتينا التفتت وفاجأته بتقبيله على

خديه. لاحظ أنها بين القبلة الأولى والثانية نظرت إليه بعينين واسعتين حادتين. ماذا تريد منه النسوان الليلة؟ إنه يعرف أن الليلة آخر احتفال بآخر العام سيحضره هنا، فهل يردن به شيئا لا ينسى؟ احتفال جنسى جماعى؟ لقد قالت له چورچيت بعد تقبيله:

ـ نفسى أبوسك من زمان يا عربى!!

انتعش وانفرجت أساريره كما يقال ومشى كالطاووس إلى دورة المياه ليتبول ثم عاد ليجد المرأتين تنظر كل منهما إلى الأخرى تضحكان.. نسى أن يغلق باب دورة المياه وكان يوجه البول الكثيف إلى منتصف قاعدة التواليت فأحدث عند اصطدامه بالماء المترسب بالقاعدة صوتا قويا متصلا لا شك أنهما سمعتاه ولذلك يضحكان. سمع چورچيت تقول لكاتينا:

ـ إذن ارتحت..

ـ ارتحت تمامًا.

تأمل العربى كاتينا مندهشا. ما الذى كان يتعبها ولم يعرفه. وجدته حائرا فقالت:

ـ عارف عربى أنا من الأسبوع الماضى سخنت جدا ومسكتنى حمى أرعشتنى كثيرا. ذهبت إلى المستشفى اليونانى فأخبرنى الطبيب أنها أعراض انقطاع الدورة الشهرية. لا تفهم ذلك أنت عربى يعنى لم أعد قادرة على الإنجاب.

أدهشه ذلك. هل كانت تنجب أطفالا ولا يدرى؟ وعادت تقول له:

ـ أنت عربى واحد حمار. أى ست تزعل لما تنقطع الدورة حتى لو لم تكن متزوجة. انقطاع الدورة معناه انقطاع الأنوثة. سن اليأس

يعنى يا عربى. لكن رغم هذا أنا مبسوطة لأنى هكذا أستطيع أن أفعل ما أريد دون خوف من الحمل، أنا كنت أعمل طرقا جهنمية لأمنع الحمل. دلوقت خلاص! أنا لا يمكن أتخلى عن الرجال. كل النسوان هكذا. أليس كذلك چورچيت ؟.

- من تستطيع أن تتخلى عن الرجال كاتينا؟

أجابت چورچيت فقالت كاتينا للعربى. .

- چورچيت مسكينة. زوجها أحب واحدة مسلمة. . أشهر إسلامه وتزوجها. لا يريد تطليق چورچيت. الإسلام يعنى أربع زوجات چورچيت تصر على الطلاق.

وضع العربى رأسه منكسا على كفه، ليس من صداع، ولا من تعب، لكن من عدم فهم ما يحدث حوله فى هذا العالم. ودق جرس الباب فنهض يفتح فى تباطؤ. يعرف أنها أسمهان. لكنه فوجئ بفتاة أخرى معها. كان يتوقعها وحدها، أو مع خطيبها الذى جاء من إيطاليا. دارت أسمهان بالقبلات على الجميع وقدمت لهم الفتاة الإيطالية.

- چولييت حبيبة أنطونيو لم تعرف أنه مسافر إلى إيطاليا، جاءت لتراه. . مسكينة لم يتصل بها منذ سفره. لا بد أنه انشغل بفتاة أخرى.

كانت تتحدث بالعربية فوقفت چولييت ذاهلة ومتحيرة وابتسمت لأنهم ابتسموا. شربوا وأكلوا وتحدثوا عن العائلات التى تركت مصر»، وعن الضباط، من الجيش والبوليس، الذين استولوا على فلل وقصور بأسعار لا تذكر، وأحيانا مجانا، من الأجانب الذين رحلوا،

وعن أساليب الأجانب فى تهريب أموالهم، بشراء أنتيكات ثمينة وتحف فنية، وعن حى العطارين حولهم وكيف آلت أكثر محلات الموبيليا لمصريين من الصعيد أكثرهم مسيحيون فى الحقيقة فهم الأشطر دائما فى التجارة، وأكثرهم كان يعمل عند الأجانب أصحاب المحلات من اليهود والإيطاليين والشوام، ووجد العربى أن الأفضل له أن يطلق لذهنه العنان ليفكر فى حكمت التى رآها خارجة من بار ميرامار أسبوع بالليل، وفى مصيربنات المساكن، الچونى ونادية سلاَّم وحسنة أخته العانس، ولما دقت الساعة الثانية عشرة فى الراديو وأعلن المذيع عن بدء عام جديد، وسمعت أصوات المقذوفات من النوافذ على أراضى الشوارع، هرع كل منهم يلقى بما يجده فى طريقه مما يبدو لا حاجة لكاتينا به. تسابقوا فى إلقاء الزجاجات والصحون، وچولييت أيضا تحمست معهم وانطلقت فى ضحك عال متهتك، وفى لحظة ظن العربى أنهم سيلقون بكل ما فى البيت من القديم والجديد، وكان ينظر إلى كاتينا التى سكرت تماما فتقول له «ارمى أنت كمان عربى. عربى ممكن ترمينى لو حبيت. ياللا يا نسوان نرمى العربى» ضحكن واندفعن يحملنه، كن قد ثملن تمامًا، لكنه كان لا يزال واعيا، قاومهن وهو يضحك، لم يجدن أمامهن إلا أن يدغدغنه لتنهار مقارمته من الضحك، لكنهن كن يضحكن أيضا، فانهارت مقاومتهن قبله، ومعهن چولييت كذلك، وتساقطن على السجاد، وأصبح الصباح وهم متناثرون على الأرض. كل منهم بملابسه كما هى لا يشعر بالآخر، لكن كاتينا كانت فى حضن چورچيت ، وأسمهان فى حضن چولييت، بينما العربى كان قد تدحرج من فوق السجادة ونام وحده على البلاط البارد. .

(١٠)

وصلني هذا الأسبوع خطابان من چين معًا. رغم أن الفارق الزمني بين تاريخ كتابة كل منهما وخروجه من سيدني بأستراليا ستة أشهر. كيف اجتمعا إذن في الطريق؟ تسألني في الخطاب الثاني لماذا لم أرد على خطابها الأولى الذي كانت كتبته ردا على خطابي الذي حمل لها التهنئة بالعام الجديد، تقصد العام الذي ينتهي الليلة! قالت في الرسالة الأولى إن خطابي وصلها في أبريل مما أدهشني جدا، وقالت إنها تكتب لي في الشهر نفسه. وفي الرسالة الثانية، التي كتبتها في أكتوبر كانت تسأل عن الأولى وهل وصلتني أم لا؟ وإذا كانت وصلتني فلماذا لم أرد عليها؟ خطابي تأخر في الوصول أربعة أشهر، وخطاباها تأخرا حتى نهاية العام، وظننت أنا أنها كفت عن الكتابة لي. خطاباها وصلا إليّ معا مما يشي أنهما كانا محجوزين في مكان واحد. مكان واحد هو أيضًا الذي حجز رسالتي قبل رسالتيها. لكن.. يبدو أن القائم بهذه المهمة ينقصه الذكاء. وصول رسالتيها إليّ معا أمر يثير الريبة. تذكرت ما جرى لنوال. توقعت أن تطلب جهة أمنية ما استجوابي. دققت النظر في ظرف كل رسالة. آثار الفتح ظاهرة. شيء من التدقيق يوضح كيف تم فتح الظرف. الأفضل ألا أكتب إلى چين مرة أخرى. إن چين تسألني عن الأحوال السياسية والاقتصادية في الرسالة الثانية. لعل ذلك ما جعلهم يطلقون سراح الرسالة الأولى. إن ردي لن يصل إلى چين، وأي كلام في السياسة أو الاقتصاد يمكن اعتباره نوعا من التجسس الأفضل أن أصمت. شيئا فشيئا ستيأس چين ولا ترسل إليَّ. اضطربتُ بعض الوقت، لكني ظللت أجمع الأخبار التي أراها هامة لروايتي التي أكتبها. إنها أكثر من رواية في الحقيقة. أحيانًا أكتب

عن نفسى. أحيانا عن الناس حولى. . لابد من صياغة أخرى للرواية، من إعادة بنائها. الوقت أمامى متسع. لا أظن أن البيت سينهدم فوق رأسى كما انهدم البيت الذى كان يسكنه الفيلسوف يوسف كرم فى طنطا. لقد مات كماكتبت من قبل، لكنه مات حزينا بسبب انهيار بيته السابق على كتبه التى نشرها والتى لم ينشرها. كان يعيش مع أخته، ولم يتزوج، ويعانى من صداع مزمن لعله كان وراء كتابته لمؤلفاته الصعبة مثل «الطبيعة وما بعد الطبيعة» و«العقل والوجود». إنه أفضل من كتب عن تاريخ الفلسفة اليونانية، وتاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط. وهو نموذج للمفكر العصامى، فلم يكن حاصلا على شهادات عالية، مجرد البكالوريا التى سافر بعدها على نفقته إلى فرنسا، ودرس الفلسفة وعاد ليعينه طه حسين مدرسا بالجامعة، ليتخرج على يديه كتاب وفلاسفة، كان متشائما يرى المدنية الحديثة عقيمة، وكان زاهدا، لكنه مات وفى قلبه حسرة من الأوساط الثقافية التى لم توله حقه من التقدير. .

هكذا كتبت الصحف فى رثائه كأنما تعتذر له. هكذا كل العقول الكبيرة فى بلادنا. ربما فى الشرق كله. لكن الحياة لم تخل من طرائف فى الأشهر الأخيرة لهذا العام. ففى مطار القاهرة صرخت إحدى المضيفات بسبب لدغة عقرب، وبدأ البيع بالتقسيط للأراضى والشقق فى أجمل مصايف الإسكندرية، والمعمورة، وتقرر إقامة تمثال لشاعرنا أحمد شوقى فى روما فى حديقة بورجيزى مع تماثيل شعراء العالم فيكتور هوجو وبايرون وجوته والفردوسى، وعرضت سينما مترو فيلم سجين زندا وخلعت فرنسية شابة ملابسها قطعة قطعة فى مطار القاهرة لتأخذ حماما شمسيا، عمرها ثمانية عشرة عاما وكانت فى طريقها إلى الهند ورأت شمسًا نادرة فى بلادنا، وعرض فيلم «شبح

فرانكشتين» وظهر الراديو الترانزستور فى مصر، وأول سيارة مصرية اسمها رمسيس بينما أقام الشيوعيون المذابح للعراقيين فى كركوك، واكتشف الصحفيون مكمن بديعة مصابنى فى لبنان. إنها فى بلدة شتورة تبيع الجبن والزبد والكتاكيت فى محل كبير تملكه هناك بعد أن تركت مصر بسبب الضرائب وتخلت عن الرقص. لقد هرَّبها طيار إنجليزى سنة ١٩٥٠ من صحراء بلبيس إلى فلسطين ثم الأردن ومن هناك سافرت إلى بلدتها بلبنان. وأكد عبد الناصر فى خطاباته أنه لن تمر إسرائيل من قناة السويس ولن تفرض إرادتها علينا، وصرح وزير الصناعة عزيز صدقى أمام الرئيس بأن الخطة الجديدة تستهدف افتتاح مصنع جديد كل أسبوع. وصدرت رواية قصة حب ليوسف إدريس، والتهمتُها فى ساعات. لغة يوسف إدريس متدفقة مثل نبض القلب، ومشاعر أبطاله فياضة، وبطل هذه الرواية اسمه حمزة وأبوه يعمل عسكرى دريسة فى السكةالحديد، مجنون كأنه خرج من بيننا. وتمت سرقة عصى توت عنخ آمون من متحف الآثار المصرية. العصا مكتوب عليها بالهيروغليفية «من يحمل العصا تحصل له بركة الإله آمون ويمشى فى ركابه» وبدأ مشروع كبير لاستئصال مرض الملاريا من مصر فى الوقت الذى فجع فيه شيخ الملحنين المصريين زكريا أحمد فى أكبر أولاده بينما لم يعد الابن الأصغر الذى اختفى منذ ثلاثة أعوام كما أصيبت ابنته فى حادث سقوط أوتوبيس بسوريا!

شىء لا يصدقه عقل تفوق حتى على الدراما اليونانية.. لقد مات ابنه الكبير يعقوب فى بيته بأثر الحبوب المنومة والخمر وقد ترك جواره ورقة كتب فيها بخطه (لعل الدار الآخرة هى التى فيها الشفاء) وكان بعد شابا فى السادسة والثلاثين له محاولات فى التلحين ورشح نفسه فى الانتخابات الشعبية بمصر الجديدة ونجح إلا أنه فجأة انتحر!. وعادت

فتيات البالية الإنجليزيات للرقص فى مصر بعد أن كن ممنوعات من الدخول بعد العدوان الثلاثى، وكتبت الصحف عن حب المليونير أوناسيس لمغنية الأوبرا ماريا كالاس، وبدأ عرض أضخم إنتاج سينمائى مصرى، وهو فيلم «المرأة المجهولة» المأخوذ عن الميلودراما العالمية «مدام إكس» وما انتهى العام إلا بوفاة أدهم وانلى فنان الإسكندرية العظيم أخوسيف وانلى الفنان الأكثر شهرة. لقد كان أدهم شديد التأثر بالمدرسة التأثيرية، بديجا بصفة خاصة فى رسمه لراقصات البالية. وتزوج شاه إيران من فرح ديبا فى ليلة من ليالى ألف وليلة بإيران، وسيبدأ العام الجديد بتفجير ثلاثين طنا من الديناميت بداية للعمل فى مشروع السد العالى.

فى المساكن وقعت أحداث لم نتوقعها. عاد الديب من إحدى سفراته صامتا جهما رفض كل توسلات الأولاد والشباب أن يحكى لهم شيئا، ولما سألته بعيدا عنهم قال «لقد زهقت من حياتى معلقا فى الفضاء» وسكت قليلا ثم قال «إن ما رأيته خلال العشرين عاما الماضية منذ بداية هذا العمل العجيب، ما رأيته يا سليمان يملأ مجلدات. إننى رجل النصف الثانى من الكون. النصف الأعلى. وأنتم رجال النصف الأسفل، لكم الأرض ولى السما ولقد تعبت أريد أن تلمس قدماى الأرض مثلكم». أدهشنى للغاية، وتركنه تقديرا لرغبته أن يظل صامتا مع نفسه لا يكلمه أحد، على الأقل لعدة أيام. قال إنه يفكر فى أمر سيفيد حياته تماما وبعدها يمكن له أن يحكى لى عن الذى رآه وحده دون العالمين» كان اليوم التالى هو بداية الشهر الجديد، موعد صرف المرتبات ودفع الديون للعنيبسى أو للسيد خليل فالجميع هنا تقريبا، باستثناء على زين العابدين وغبريال والد نسيم ومريم وأسرتى، يشترون بالأجل، «شكك»، من الدكانين. لا يخصص كل محل نوته

لكل شخص كما يحدث فى الأرياف، لكن لدى كل محل كراس ضخم جعل لكل زبون صفحة فيه. الناس منقسمون بين الدكانتين، كل ورغبته أو مزاجه، الديب ضمن الذين يشترون بالأجل من دكانة السيد خليل.

ـ أنت حرامى أضفت إلى حسابى الكثير مما لا تستحق.

ـ أنت نصاب تشترى وتأكل أنت وأولادك ووقت الدفع تدعى علينا بالباطل.

ـ أنا لا يمكن أبدا أن آكل أنا وأولادى بعشرة جنيهات فى الشهر. لماذا؟ هل نأكل فلوسًا؟ غايته نصرف ثلاثة جنيهات! . .

هنا تدخّل خليل بن السيد خليل، وهو أطول من أبيه الطويل، له عين مقلوبة، هو الذى قلبها فى الحقيقة فلقد تعود أن يغلقها وينظر للبنات والنسوان بالأخرى بإمعان حتى جاء اليوم الذى لم يستطع فيه أن يعود إلى فتحها كاملة! وخليل مصارع حصل على بطولة شركة الزيوت والصابون التى يعمل فيها، وأشيع عنه أنه قبل أى مصارعة يدهن جسمه بالزيت فلا يكون هناك سبيل لخصمه لإمساكه، وبالطبع يتعذر الإيقاع به! تدخل خليل وأمسك بخناق ليرفعه عن الأرض عاليا ثم يتركه ليسقط على مؤخرته بين ضحكات الأولاد والرجال الذين تجمعوا حول الشجار. . نظر إليه الديب من أسفل بغيظ، الحقيقة أنه لم يكن ينظر إليه، كان يمعن النظر فى «كشكول» الشكك الموضوع على منضدة بعيدة، فى لحظة قفز إلى الكشكول وأمسك به ثم أطلق ساقيه للريح. جرى وراءه خليل وأبوه السيد خليل وأخوه القصير السيد سيد خليل، وكان الديب وهو يجرى يمزق فى صفحات الكشكول وينثرها فى الفضاء قطعا وارتبك السيد خليل وولداه بين محاولة جمع الأوراق

الممزقة واللحاق بالديب. فى النهاية لحق به خليل، وجمع أبوه وأخوه ما يمكن جمعه من الأوراق «وعجنوا» الديب. تركوه على أرض شارع قنال المحمودية غير قادر على الحركة مصابا بكسور فى ذراعيه وكدمات لا نهاية لها فى وجهه وكل جسمه.

فى مفكرة صغيرة كتبت يومها أن هذا يوم من أيام العرب، يؤرخ به هنا. لقد أضاع الديب أموالا كثيرة على السيد خليل الذى ترك عملاءه يدفعون ما يرونه مناسبا. كاد قلبه يحترق وهو يرى ما يدفعه كل رجل أقل مما يعرفه عن قدرته الشرائية.

ذلك اليوم نقلت الإسعاف الديب الذى لم يتهم سيد خليل ولا أولاده بشىء، قال إن عصابة مجهولة خرجت عليه فى الطريق وضربته، وعاد من المستشفى أبيض اللون من فرط الشاش والجبس الذى يحيط بأعضائه. ما كاد الديب يفك الجبس عن ذراعيه حتى لجأ إليه مرعى العامل فى محل العنيبسى ليكتب له خطابا إلى أهله فى الصعيد كتب له الديب الخطاب وأغلق عليه الظرف وكتب فوقه العنوان. بعد أسبوع جاءت عربة كارو محملة بالرجال المسلحين بالهراوات الذين تركوا العربة وهرولوا ناحية مرعى الذى بدوره هرول ليحتضن أباه وأخوته وأبناء عمومته ولا يصدق أنهم قبلوا دعوته بهذه السرعة لزيارة الإسكندرية قابلت مرعى الهراوات والصفعات والركلات وكان يطير بين أقدامهم وأذرعهم وجرينا كلنا نصرخ ونحاول إنقاذه. كانوا يرتدون جلابيب سوداء، وعممًا ضخمة تهدلت على أكتافهم وعيونهم حمراء من الغيظ، وأمسك كبيرهم مرعى من قفاه يسنده حتى لا يقع على الأرض. كان واضحا أنه أبو مرعى. .

ـ هذا ولدنا ولا دخل لأحد فيما نفعله به، سنقتله هنا أمامكم. .

كان كل مكان فى جسم مرعى يشخب دما. لم يكن من السهل رؤية وجه تحت الدم المتفجر من كل ناحية فى رأسه، كان مشهدا محزنا حقا لم ينهه غير فلفل تاجر البهار الذى اندفع مرتميا على ساق والد مرعى . .

- أبوس رجلك يا عم الحاج أن تعطينا فرصة لنعرف الحكاية، لو كان ابنك يستحق القتل سنقتله معكم . .

- أعطوه الخطاب

أمر والد مرعى أحد أبنائه الذى أخرج من صداره خطابا ناوله لفلفل وصرخ فيه:

- اقرأ ماذا كتب ولدنا.

راح فلفل يقرأ فى صمت ونحن حوله، وكل رجال المساكن الذين تواجدوا بالشارع والأولاد وحبشى وبدرة وكل النساء الخارجات من الملاحة تجمعن أيضا حول الرجال يتفرجن على ما يجرى.

لا صوت لفلفل غير أن وجهه يتغير من الأحمر إلى الأصفر إلى الأخضر إلى الأسود ثم صرخ «مرعى لا يعرف الكتابة يا رجال، مرعى مظلوم لا يعرف الكتابة يا حاج».

نظر والد مرعى للرجال الذين معه لكن الأسف لم يصعد إلى وجوههم، وإن صعدت الحيرة. وقال فلفل:

- الآن اتركوا مرعى وتعال نجلس فى الدكان نعرف الحكاية بهدوء . .

دخلوا دكان العنيبسى التى اتسعت لعدد قليل، وانفض الزحام. بعد قليل صار الناس يضربون كفا بكف. لقد أملى مرعى على الديب

كلاما وكتب الديب كلاما آخر . . مرعى يمُلى «والدى الحبيب» وكتب الديب «والدى الحمار» مرعى يملى «أتمنى أن تكون بخير أنت وأمى وإخوتى والعائلة كبيرها وصغيرها» وكتب الديب «أتمنى أن يدهسك قطار وتغرق أمى فى الترعة أما إخوتى وعائلتى فتأكلهم الديابة فى الصحراء» مرعى يملى «وجدت عملا فى الإسكندرية مرتاح فيه وياليتكم تزورونى» وكتب الديب «وجدت عملا ولا أريد رؤية أحدكم لأنى لا أتشرف بكم فأنتم عار على المجتمع والثورة كما قال الرئيس جمال عبد الناصر!!».

لم ينم أحد تلك الليلة. اختفى الديب ولم يعد للظهور بعدها حتى اليوم. رأى الناس زوجته وطفليه يتركون المساكن بالليل. . ظل أهل مرعى فى الإسكندرية أسبوعا يبحثون عن الديب لقتله. . قيل إنهم أوصوا أقاربهم فى الوكالة ليقتلوه بعد رحيلهم. مرعى لا يزال يعمل فى دكان العنيبسى متيقظا لكل كلمة تقال عن الديب علّها تهديه إلى مكانه ليقتله. يا إلهى!

إذا عدت إلى نفسى، فى محاولة أن أضع نفسى فى قلب المكان، فلم تتطور قصتى مع سعدة. حبسها المطر والبرد، فى الأيام المشمسة القليلة كانت تصعد إلى السطح لترسل إلىَّ الإشارة الضوئية. صار إخوتى يتعجبون وأبى وأمى معهم، لأمرى وأنا أفتح طاقة سقف الصالة فى صباحات كثيرة فتدخل منها الريح وأحيانا يفاجئنا المطر. لم يفطن أحد حتى الآن لحيلتى. كلامنا وكل منا على السطح المقابل للآخر يكون همسا، أحيانا بالإشارة، أكثر الوقت نبتسم بلا سبب. لعله الفرح الذى يجتاحنى حين أراها، ولابد أنها تفرح أيضا، فهى لا تكف عن إرسال الرسائل فى كل مرة رسالة تقريبا، ورقة صغيرة تطويها على زلطة أصغر ثم تقذفها إلىّ. إنها لا تجيد الكتابة عن الحب،

ما زالت طفلة، وأنا حتى الآن لا أرسل إليها أى رسالة، فلن تفهمنى، لكنى أحثها على قراءة أى شيء يقع فى يدها، صحيفة أو كتاب، تفعل ذلك وتكتب لى عنه بضعة أسطر فى كل مرة. الأسبوع الماضى قذفت الرسالة. طوت الورقة على نفسها دون «الزلطة» حملت الريح الرسالة إلى منور البيت المجاور فسقطت داخله. بان الذعر على وجهها. خافت حتى كادت تتلاشى البيت المجاور يسكنه عم كيرلس وابنه إسحق، وعم كيرلس يخرج من العمل إلى البار كل يوم ولا يعود إلا فى منتصف الليل وكذلك يفعل إسحق فيما يبدو فهو يعود سكرانا بالليل مع أبيه. قلت لها ألا تقلق. أننى سأعالج الأمر، إن عليها أن تنزل إلى البيت. ونزلت أنا إلى الشارع أفكر فى العمل. قد يرى كيرلس الخطاب ويقرؤه بصوت عال وربما يدفعه السكر إلى إيقاظ الناس جميعا فى المساكن وتلاوة الخطاب عليهم. ستكون فضيحة حقيقية. كانت الماكينة الحمراء أمامى مغسولة ناضحة بالرطوبة والأرض الترابية على الشاطئ طرية ندية وجدران المساكن من الخارج مبتلة أيضا بفعل مطر الليلة السابقة، ولا أحد يبرز من دكانىّ العنيبسى والسيد خليل، ولم يظهر تاجر البهار، وبالطبع لم يظهر محمود الملاح الذى سافر منذ شهور إلى القاهرة ولم يعد ولا أعرف من هو مصدر الإشاعة التى تقول إن محمود الملاح سافر إلى إيطاليا مع كومبارس إيطالية وهناك سيجرب حظه فى السينما العالمية. .

كذلك لم يظهر محمود القزعة على الدرج المؤدى إلى القبو اليوم. تواطأ الجميع على الغياب. لكن الولد الصغير رمضان مرَّ من أمامى فجأه ليشترى من دكان العنيبسى. بعد قليل عاد يحمل فى يده باكو شاى ماركة «الكوباية».

ـ تعال يا رمضان.

ـ نعم يا أستاذ سليمان .

كان حافيا ويرتدى شورتًا فى هذا الشتاء . والده مشهور بالقسوة .

ـ سأعطيك ثلاثة قروش تدخل السينما وتشترى طيارة ورق أيضا .

اتسعت عينا الولد الذى لم يتجاوز السادسة من العمر بعد .

ـ ستصعد معى إلى السطح وتنزل بحبل من منور بيت عم كيرلس تحضر لى ورقة طارت منى وأنا فوق السطح .

ـ ولو رآنى عم كيرلس . .

ـ يا رمضان لو عم كيرلس موجود كنت طرقت الباب!

ـ حاضر يا أستاذ سليمان ، لكن أمسك الحبل بقوة .

ـ لا تخف يا رمضان .

أحضرت حبلا ، وصعدنا إلى السطح معا ، ربطت رمضان من وسطه بالحبل ورحت أدليه من المنور .

ـ أنا خائف يا أستاذ سليمان .

ـ لا تخف أنا معك .

كان باكو الشاى فى يده لا يتركه وأنا أراه نازلا معلقا فى الفضاء حتى وصل الأرض بسلام . بسرعة أمسك بالورقة المطوية ورحت أجذب الحبل أرفعه إلى أعلى . لقد كان رمضان ثقيلا بأكثر مما يبدو من جسده . ثقيلا فى النزول وفى الصعود . أرهقنى للغاية وأنا أرفعه شبرا شبرا . عدت قليلا إلى الخلف وصار الحبل يحتك بجانب المنور وأنا أسحبه على مهل . وصلت رأس كروان إلى السطح وهوب ، انقطع الحبل وهوى رمضان بسرعة وسمعت صوت ارتطام جسمه بالأرض .

آه يا أستاذ سليمان. سمعت صوته يتألم وشملني الرعب أن يكون أصابه كسر ما.

ـ رمضان. حاول تتحرك.

ـ ظهري يا أستاذ سليمان. لا أستطيع.

ـ حاول أرجوك. حاول.

وسكتَ لحظات وقفت متحيرا، لكني سمعت صوته يقول:

ـ خلاص يا أستاذ سليمان أنا وقفت.

ـ حاول تمشي.

ـ مشيت. أنا سليم يا أستاذ سليمان.

ـ طيب يا رمضان سأنزل لك الحبل مرة أخرى.

ـ لا. أرجوك. سأظل هنا حتى يأتي عم كيرلس وأخرج من الباب.

ـ لكن كيرلس سيأتي في منتصف الليل.

ـ مش مهم!

رأيته يجلس على الأرض ويبدأ في البكاء. ظل لوقت طويل يبكي وأنا في حيرة على السطح، ثم تركته وجلست بالشارع حتى منتصف الليل أنتظر كيرلس الذي جاء وفتح الباب وأنا معه أشرح له كيف سقطت إحدى الورقات المهمة من أحد الكتب وأنا أذاكر فوق السطح وكيف حاولت إخراجها بالحبل ورمضان، ولاحظت أن عم كيرلس لا يهتم بما أقول، بل بدا لا يسمع فسكتُ، وفتح الباب فخرج رمضان مسرعا لا يكلم أحداً. رمضان. رمضان. ناديت عليه فوقف بالشارع وألقى لي الورقة على الأرض وأطلق ساقيه للريح. الفلوس يا رمضان. الثلاثة قروش. لا أريد يا أستاذ سليمان. كان والده طوال

هذا الوقت يبحث عنه وكلما مر من أمامى هو أو أحد أخوته أشيح بوجهى عنه، اسمعه يقول يائسا الولد خرج يشترى لنا باكو شاى فلم يعد، يكون اتخطف!؟ وأظل أشيح بوجهى عنه. ترى ماذا سيفعل أبوه معى إذا عرف القصة. لكن رمضان فيما يبدو لم يتكلم. ولا أعرف أى نوع من المعلومات وصلت إلى أسرة سعدة جعلتها تخفيها عن المكان تماما. قالت لى أختها الصغرى أنهم أرسلوها عند خالها فى الحضرة. فى أى مكان فى الحضرة؟ لا تعرف. هل تم ذلك لإبعادها عنى؟ هل يعرفون بالقصة؟ الأيام هى التى ستكشف لى الحقيقة. لكن ما هى هذه القصة العجيبة من الحب التى انفجرت بينى وبين هذه الطفلة. وكيف لا أستطيع أن أتحدث مع أحد عنها؟ هل يمكن؟ وهل سأتحمل غياب وجهها الصبوح الذى كنت أراه فوق السطح فيخيل إلىَّ إنه هو الذى يضيء الدنيا من حولى. أمس رآنى تاجر البهار شارد اللب فقال لى يا أستاذ سليمان عليك بلبان جاوة قلت له ما هو لبان جاوة اللادن، يحميك من الشر، وتطيَّب بالكافور فهو ينعش الدنيا حولك، وأشرب الدارصين، أى القرفة، أى خشب الصين، فهى تشرح صدرك، وقبل النوم اندغ ثلاث حبات من الحبهان وتنفس يتعطر فمك وتخرج كل روائح أكل النهار ولا تحرم طعامك من القرنفل، فالبيت الخالى من القرنفل ينمو فيه الفقر، وزامله بالزنجبيل وانتبه إلى السعادة التى تمشى فى دمك، وليتك تترك هذه البلاد وتأتى معى إلى سومطرة والهند والصين نبنى قصرا من أشجار البخور واللبان، قصرا مليئا بالبركة، ونصطاد أيائل المسك الذكور على هضبة التبت، فأيائل التبت تحمل أفضل المسك لا يتعطر به إلا الملوك والأمراء.. يا أستاذ سليمان لقد تركنى محمود الملاح بعد أن كنت جذبته إلى عام المتعة السحرية، كنت أتمنى أن يسافر معى على طريق التوابل لنصل إلى أرض الله المسحورة

فى آسيا. الآن أريدك معى. أم لعلك توافقنى على أن أقاضى الدولة مطالبا بأراضى جدى عمر بن سليمان نجم الدين القاضى الدمامينى، صاحب الوكالة التى كانت أكبر من شارع فرنسا قبل شارع فرنسا وقبل فرنسا ذاتها!.

بدا لى تاجر البهار فى موقف عجيب، فكرت للحظة أن مسًّا أصاب عقله. تذكرت أن أحدا منا لا يعرف من أين جاء ولا متى ظهر فى المكان، وكيف قبلناه كحقيقة كونية، كشئ أنزله الله من السماء علينا. فكرت أى نوع من هذا العذاب يمكن أن يحمله هذا الرجل الغامض لكننى رأيت عيد قادما من بعيد فى ثياب نظيفة ومعه خمسة من المجاذيب وعدد من أولاد المساكن يقابلونه ضاحكين.. بسرعة أحاطوا به ومن معه من المجاذيب الذين كانوا قد اقتربوا منا فى طريقهم إلى الملاحة. كنا نعرف أن عيد قد اختفى لأسابيع طويلة، وأنه صار ملازما لحارس المشرحة العمومية بكوم الدكة لا يتحرك إلا حين يتم نقل إحدى الجثث المجهولة للدفن بمدافن عامود السوارى أو المنارة. يقف عيد ويساهم مع عدد من الذين يعملون بالمشرحة فى حمل النعش الذى يمشون به حتى المدافن. كيف انتهى إلى هذا العمل؟ لا أحد يعرف. لكن كان واضحًا أن عيد يتقاضى عليه أجرا. الذين رأوه قالوا إنه أحيانا يتعطف عليه بعض المشاركين فى الجنازة من المارة بفرش أو قطعة بخمسة قروش، لكنه يعطى الفلوس لأول امرأة تقابله وينظر فى عينيها فى الطريق. كان دائما يحمل النعش وعيناه تنظران إلى جانب الطريق حيث الرجال والنساء. وبدا دائما قويا، يدخل تحت ذراع النعش عند المشرحة فلا يخرج من تحتها إلا عند المقبرة بينما يتغير الثلاثة الآخرون كثيرا فى الطريق من طالبى الثواب والأجر من الله.. كان عيد أحيانا يشرع فى الهرولة الخفيفة، حتى بالميت الثقيل، فيهرول الآخرون

ويجرى فيجرون بالنعش فتتهلل الناس وتكّبر فرحة بهذا الميت الخفيف المبارك من الله الذاهب طائرا إلى جنة الخلد، وعيد وهو يجرى لا يكف عن الابتسامة وتطل البهجة من عينيه وعلى وجهه. باغته مصطفى . .

ـ إلى أين يا عيد مع هؤلاء المجاذيب؟

ـ إلى ربنا.

ـ نعم؟!

ـ إلى الملاحة نرى ربنا.

ضحك الأولاد ووقفت أنا أتأمل. قال بلَكْ:

ـ ربنا مرة واحدة يا عيد؟

ـ تعال وأنت تشوف.

سكت الأولاد قليلا ثم هتف مصطفى على طريقة أنور وجدى فى الأفلام:

ـ يا للابينا . .

أسرعوا جميعا ينزلون السلالم إلى القبو المؤدى إلى الملاحة ولمحت دمعا فى عين تاجر البهار ودهشة على وجه محمود القزعة جعلت السيجارة تحرقه فيتركها هذه المرة بهدوء غير مبتعد عن شروده. مشيت خلفهم. خرجنا من القبو يسبقنا عيد بقفطانه الكستور الأخضر حافيا يسرع بيقين عجيب فى الفضاء ونحن وبيننا المجاذيب الذين اختلطوا بنا نحاول جميعا أن نلحق به. كان عيد يأخذ طريقه إلى بيت خميس الجمال، ثم تجاوزه إلى مقلب القمامة العمومى للمدينة هناك عند دوران بحيرة مريوط أمام الصحراء. الأرض على يميننا بيضاء من آثار الحجر الجيرى ومنخفقة تتناثر فيها مخلفات المدينة، وعلى يسارنا طينية

زلقة هى بدايات البحيرة بينهما طرق جافة محاطة بالهيش والبوص والحلفاء. الأرض أمامنا ملحية وطينية يختلط فيها بياض الملح بسواد الطين وبعدها تبدو مياه البحيرة صافية ممتدة حتى الأفق البعيد وليس هناك صياد واحد الآن فى المساء.

وقف عيد ونحن خلفه وهتف :

ـ ها هو ربنا هناك أمامكم . .

تأمله الأولاد لحظة ، تأملوا أنفسهم لحظات . قال هو :

ـ انظروا بقوة إلى السماء هناك عند آخر المياه .

انفجروا ضاحكين يضربون كفا بكف وتقدم منه مصطفى وأمسك بقفطانه من عند كتفه وجذبه إليه صارخا فيه :

ـ فين ربنا ياله . . أنت بتستعبط ؟

سكت عيد وإن صوب عينيه إلى مصطفى . كانت الشمس الذهبية تختلط أشعتها الأخيرة بسحب رمادية تتدافع إلى الأفق قادمة من الغرب والشمال ، كانت فى الفضاء تشكيلات بصرية عديدة كأنها كائنات مبهمة ، وحولهم نسمة باردة منعشة تبعث على الراحة . قال إبراهيم بلك :

ـ أنا شايف حاجات غريبة فعلا فى السماء .

هتف عيد :

ـ شفتم ؟ انظروا بقوة مثل بلك .

وقفوا ينظرون بقوة ، وأنا معهم ، بعيدا عنهم قليلا ، أتابع بسمة المجاذيب وعيونهم المشدوهة ، والصمت الذى ران على الدنيا ، والنهار

الذاهب والليل القادم وشيئا فشيئا ظهرت خطوط حمراء شفافة لوجه مستدير كبير. قال عيد:

ـ كل مساء بالصيف والشتاء، يظهر هذا الوجه. كل مساء في الصيف والشتاء يبتسم لي. انتظروا.

بدأت تظهر وسط الوجه نقط هلامية سمراء أشبه بالأنف والعيون.

قال مصطفى:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، عيد اتجنن فعلا يا جماعة.

واستمر عيد يتكلم:

ـ إنه وجه لا يتغير لا بالصيف ولا بالشتاء. انظروا إنه يبتسم لكم.

بدأ صوت يتهادى قادما من الفضاء. صوت غير واضح كأنه سنابك خيل بعيدة، تزداد شيئا فشيئا من كل اتجاه. اقترب مني كروان وقال:

ـ شيء عجيب، هيا بنا من هنا يا سليمان.

قلت له:

ـ لا تخف.

الحقيقة إنني شعرت بعدم القدرة على الحركة. صرخ كروان:

ـ لا أستطيع رفع قدمي.

ـ اسكت.

هتف فيه عيد زاجرا وابتسم فابتسم المجاذيب وارتفعت أصوات سنابك الخيل وبان الذعر على وجوه الأولاد جميعا، وبدأ الوجه البعيد عند الأفق يبتسم بوضوح ويكاد يشتعل ومرت قافلة من الطيور فوق

رؤوسنا تبعتها قافلة أخرى ثم عدة قوافل راحت تدور فوقنا بعيدا وتصرخ غاق غاق غاق! إنها نوارس وطيور سوداء أيضا كالغربان والصوت الذى كان لسنابك الخيل بدأ يتركز فى نقطة واحدة فى الفضاء ويزداد ويزداد والأولاد فى ذعر لا يستطيعون الحركة ولا الصراخ وعيد مبتسم سعيد ينظر إلى الأفق والمجاذيب الخمسة اقتربوا منه وراحوا يندهشون مثله سعداء ثم ابتعد صوت سنابك الخيل فى الفضاء بسرعة حتى تلاشى وتفرقت الطيور مرفرفة فى الاتجاهات الأربعة. كان عرق كثير قد تفصد على وجهى ووجوه الأولاد وبدأ الوجه الكبير الأحمر الباسم عند الأفق يتلاشى مع سقوط الشمس فى الماء ودخل الظلام ثقيلا فصفق عيد بقوة وبعده صفق المجاذيب الخمسة ولم يستطع مصطفى أو غيره أن يعلق بكلمة وقال عيد:

ـ ربنا يحبنى ويحبكم، شفتوه وما حدش جرى له حاجة.

وهنا صرخ عبده:

ـ هيا يا أولاد ديك الكلب نجرى من هنا قبل أن يسخطنا ربنا خنازيز يبيعها خميس الجمال.

أطلق ساقيه للريح فتبعه الجميع بينما مشى عيد ضاحكا بهدوء وحوله المجاذيب الخمسة وأنا خلفهم لا يفطنون لوجودى ولا يشعرون بى. بدأ مطر خفيف يتساقط فأسرعت وتجاوزتهم بينما ظلوا هم يمشون على مهل فى صمت عجيب. شعرت للحظة وأنا أمشى تحت المطر إننى قد انفصلت عن الدنيا، إننى تلاشيت، ثم فطنت إلى أننى فى الطريق إلى البيت!!

أعاد سليمان قراءة ما كتبه فاكتشف أنه لم تتسرب إليه أى جملة من الجمل غير المفهومة، المجنونة التى تسربت من قبل فى كل ما كتب. هذا

تغير له معنى يا سيلمان. إما أنك على الطريق الصحيح وإما أنك ذاهب إلى التلاشى. . قال لنفسه وتذكر أن هناك شيئا كان عليه أن يضيفه فأمسك بالقلم وعاد إلى الكراسة. .

من المهم جدا أن أسجل أنه قد خرج من الإسكندرية فى النصف الأخير من هذا العام خمسة عشر ألف أجنبى، أكثرهم من التجار الصغار، وتم تمصير خمسين شركة ومؤسسة، وسجلت الشركة الخديوية للنقل البحرى أربعين رحلة بحرية إلى اليونان وإيطاليا، بزيادة على ما تم فى النصف الأول من العام، لكن فى الوقت نفسه ازدادت مواليد المواطنين المصريين فبلغوا ألفى طفل، وازدادت وفياتهم فبلغت مائتى ميت، وظل مواليد الأجانب فى انكماش فسجلت وزارة الصحة عشرين مولودا وقلَّت أيضا وفياتهم فقد مات عشرة أشخاص فى ستة أشهر بينهم خمسة ماتوا بالتسمم الكحولى. لقد ظهر لأول مرة الغش فى الكحول، وتم القبض على الشركة الوهمية التى تصنع البراندى فى إحدى الخرابات من الكحول الميثيلى. . لقد شاع الذعر من المشروبات الروحية المحلية، مثل زوتوس وبولاناكى، وارتفعت أسعار الويسكى فبلغ سعر الزجاجة من القات أو الچونى ووكر سبعة جنيهات بعد أن كان خمسة». .

(١١)

أخى وصديقى الأديب الفيلسوف سليمان

أدامك الله وبعد.

مع بداية هذا العام أرجو لك دوام الصحة وأن يكون عام خير وسعادة لك ولأسرتك ولكل أهالينا فى المساكن. اقرأ عن أمطار غزيرة

هطلت على الإسكندرية الجميلة. المطر خير على أى حال، تعودنا عليه مع نهاية وبداية كل عام، نوّة الميلاد، وإن كان يبدو غير عادى هذا العام. حلوان خالية من المطر وجافة، رغم أنها ملائمة تمامًا لصحتى إلا إنى شديد الحنين لمطر الإسكندرية، للدنيا حين تطلع الشمس بعد المطر وتصعد النساء على الأسطح، خاصة الچونى، فيتلألأ ضوء النهار، ويملأ الأولاد الطرقات . .

فى اشتياق إلى رسائلك.

المخلص

خير الدين خير الدين خير.

أخى خير الدين

تحياتى القلبية وبعد

أشكرك على تهنئتك الرقيقة بالعام الجديد. حقا إن الأمطار هذا العام غير عادية، أغلق بوغاز الميناء وبلغت سرعة الرياح أكثر من ستين كيلو مترا فى الساعة. وقعت حوادث تصادم كثيرة لعلك قرأت عن بعضها فى الصحف، لكن الكارثة الحقيقية كانت ذوبان بعض البيوت القديمة فى المنشية وبحرى. ما ت خلق كثير، لكن الصحف لم تذكر ذلك. كنت سعيدًا لأن العام بدأ بداية قوية بالنسبة إلى الأمة المصرية، فلقد أعلنت الصحف أن مصر تدخل عصر الذرة ببدء العمل فى مفاعل «أنشاص» النووى للأعمال السلمية، كما تم إدخال أول ستة أجهزة طبية تعمل بالطاقة الذرية إلى مستشفياتنا لعلاج الأنواع المستعصية من الأمراض. إنها بداية قوية للأمة المصرية كما قلت لك، لكن بالنسبة لى شخصيا بدأ العام بالحزن لمصرع الكاتب الفرنسى الوجودى ألبير كامى فى الرابع من يناير هذا فى حادث سيارة جنوب فرنسا. إن ألبير كامى

صغير، فى السابعة والأربعين من عمره، وحصل منذ ثلاث سنوات على جائزة نوبل فى الآداب فهو أصغر من حصل عليها حتى الآن، ولقد قرأت له رواية «الغريب» بالإنجليزية وكذلك مسرحية «سوء تفاهم»، ومنذ ذلك الوقت لم أعد كما كنت، تغيرت نظرتى إلى الدنيا يا خير الدين. هذا موضوع يطول شرحه.

على أى حال، لقد كان من غرائب الأمطار أيضًا نفاذها إلى غرفة العرش الملكية بقصر رأس التين. ساء حظ الملكية حتى فى الأثاث والمبانى! دار الزمن دورة عنيفة حقا على الملوك، ولعلك سمعت كيف رفضت المحكمة الابتدائية والاستئنافية فى الإسكندرية حكم النفقة الذى كانت الملكة ناريمان قد حصلت عليه فى محاكم بيروت ضد زوجها الدكتور أدهم النقيب الذى تزوجها بعد طلاقها من الملك فاروق.

ناريمان الملكة لا تجد نفقة تعيش بها! لقد تأثر تاجر البهار جدا وكاد يبكى حين قرأ الخبر معى فى الجريدة، أما محمود القزعة فقد ظل ساهما لا ينطق حتى حرقت السيجارة إصبعيه، ثم لعن الدنيا وثورة يوليـة التى لم تكتف بإذلال الملك، بل تركت ناريمان المصرية للذل أيضا. محمود القزعة على وشك الجنون، أمس ظل يتكلم طول النهار بكلام غير مفهوم، معظمه لعنات لوزير التموين بسبب قرار إلغاء وحدة الأقة والرطل كمقياس فى الوزن واستخدام الكيلو جرام والجرام رأيه أن هذه سرقة علنية للشعب لأن الكيلو نصف أقة لكن سعر الكيلو هو سعر الأقة، حاولنا أن نفهمه أن الكيلو ثلاثة أرباع الأقة وليس نصفها وأن السعر سيتغير إلى الأقل لكنه يعتبر أن كلامنا كذب وتدليس. الثورة التى أذلت الملوك والباشوات ستتفرغ لإذلال الشعب.

هكذا يقول القزعة . . ما علينا . أردت فقط أن أنقل إليك صورة مما هو جار فى المساكن أو حولها . وإلى أن نلتقى لك أجمل أمنياتى .

المخلص

سليمان

صديقى كروان .

أهديك كل سلامى .

أشتاق إليكم جدا . لنسمة العصارى والجلوس على شاطئ ترعة المحمودية . أنا هنا مبسوط والحمد لله . زاد مرتبى جنيهين فصار عشرة جنيهات أسكن فى شقة مع اثنين من زملائى وندفع جميعا ثلاثة جنيهات فى الشهر ، أى أننى أدفع جنيها واحدًا . الشقة قريبة من محطة حلوان ، جوار فندق جلانز . مرضى للمرة الثانية أخافنى جدا ، لا أصدق أنى نجوت . لايضايقنى هنا غير الوقت . طويل يا كروان . يبدو لى أطول مما هو فى الاسكندرية . ربما لأن القاهرة مدينة واسعة بالنسبة لشاب مريض نحيل مثلى . أمضى معظم الوقت آخر النهار فى الحديقة اليابانية حيث تماثيل كثيرة للإله بوذا . حديقة جميلة فى حلوان . وأنا لا أعرف هل بوذا هذا إله حقا أم نبى؟ يخيل إلىّ أنه واحد عادى مثلنا! زرت الجمعة الماضية متحف الشمع . التماثيل الخالق الناطق أصحابها . شىء معجزة . أزور العيون الكبريتية أحيانا . يسمونها الكابريتاج أظن الكلمة فرنسية . صحتى تتحسن فيما يبدو . لن أستطيع الحضور قبل العيد الصغير . هل لا يزال محمود القزعة يتفرج على سيقان النساء . النساء فى القاهرة شىء آخر . لو حضر القزعة هنا سيجن . تحياتى للجميع . .

أخوك

خير الدين خير الدين خير .

أخي الكبير خير الدين

أهديك أجمل التحيات .

أنت أيضا أوحشني فراقك . أوحشنا كلنا . نتذكرك دائمًا . لازلنا نتعجب كيف تعيش وحدك في القاهرة . لقد صرت قدوة لنا نحن الأصغر سنا ، صرت مثلنا الأعلى في التحدى والقوة . وما دمت أنت سعيد فنحن جميعا سعداء . قرأت قصصا قصيرة جميلة لمحمود تيمور ، قرأت مسرحية عطيل لشكسبير مترجمة إلى العربية ، وكذلك مسرحية تاجر البندقية . أخذتنى القراءة من كل شيء في انتظار رسائلك التى تطمئننى دائما عليك .

أخوك الصغير

كروان .

أخي خير الدين

تحياتى القلبية وبعد .

الليلة نفتقدك بشدة ، فغدا يبدأ الشهر الكريم ، شهر رمضان المبارك ، الناس كلها سهرانة رغم البرد حتى أن الأولاد يملأون الشارع تحت أعمدة النور . لكنى أشعر بالوحشة الشديدة ، وكأننى وحدى في ظلام واسع لأسباب قد أشرحها لك يوما . كنت أتمنى لو سهرت معنا هذه الليلة ، ربما بددت وحشتى التى أزادها أنى شاهدت أمس فيلم أريد أن أعيش لسوزان هيوارد . فيلم إنسانى مؤلم عن إعدام امرأة جميلة مظلومة . فيلم عن قوة الرغبة في الحياة وبؤس الإنسان أمام الموت .

قرأت خبرا عجيبا عن سيدة شابة في أسيوط صدر عليها حكم بالإعدام فصرخت بأنها بريئة وأن القاتل هو زوجها الذى تحبه . لقد

خدعها وقال لها إن المحكمة لا تصدر حكما بإعدام النساء لذلك تقدمت واعترفت بأنها القاتلة. هذه امرأة أكثر بؤسا من سوزان هيوارد لأنها جاهلة، لكن الموت المرعب جعلها تصرخ بالحقيقة. لا أعرف كيف تقع ثلاث كوارث جوية فى يوم واحد، هو يوم أمس، حيث انفجرت طائرة ركاب فوق إيطاليا، وانفجرت طائرة عسكرية برتغالية فوق لشبونة، لكن المأساة العبثية هى اصطدام طائرة كانت تقل فرقة موسيقى عسكرية أمريكية بطائرة أخرى فوق خليج ريو بالبرازيل. كان فريق الموسيقى فى طريقة إلى السفارة الأميركية بريودى چانيرو ليعزف هناك بمناسبة زيارة إيزنهاور للبرازيل.

هذا العبث يقابله عبث مصرى، مضحك مبكى، يتمثل فى هذه القضية التى تنظرها المحكمة غدا بعد تداولها فى المحاكم لأكثر من ثلاثين سنة. كانت وزارة الأوقاف قد طالبت صاحب قطعة أرض فى ماسبيرو بالقاهرة بإيجار ثمانية جنيهات فماطل فى الدفع فرفعت الوزارة عليه دعوى ظل يعارض فيها والوزارة تقدم مستنداتها حتى مات الرجل، فانتقل حق الوزارة إلى الورثة، الذين بدورهم طعنوا فى مستندات الوزارة واستمر الأمر حتى مات الورثة. ثم انتقل للأحفاد وغدا تصدر المحكمة حكمها فى أمر الثمانية جنيهات التى صرفت الوزارة من أجلها أكثر من الألف جنيه حتى الآن. أليس هذا هو سوء التفاهم بأجلى معانيه. أى عبث! لا تلمنى على هذا المزاج السوداوى هذه المرة. على أى حال فى إيطاليا تجرى محاكمة لأنيتا إيكبرج الممثلة الجميلة ذات الصدر العالى لأنها رقصت عارية فى ملهى ليلى. لقد دعتها راقصة الملهى التركية التى كانت تخلع ملابسها قطعة قطعة أمام الرواد فقامت أيضًا وفعلت الشيء نفسه فدخل البوليس وتم توجيه تهمة الخروج على الآداب إليها وإلى الراقصة التركية. كان ذلك عام

١٩٥٨ ، والقضية مستمرة حتى الآن ، ولا شك أن هذه يسعد قراء الصحف في إيطاليا ، فى الإسكندرية يعرض أيضا فيلم جميل هو «البعض يفضلونها ساخنة» ، سأجد الفرصة لمشاهدته لينشلنى من هذا المزاج . لقدوضعت بريچيت باردو مولودها الأول الشهر الماضى ولا زالت الصحف تتحدث عن ذلك لكن أعجبتنى زيارة يول برينر لمعسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان باعتباره سفيرا متجولا للأمم المتحدة ، كذلك أعجبتنى زيارة عبد الحليم حافظ إلى ليمان طرة وغنائه للمساجين . دعنى أحاول التخفيف عنك وعن نفسى . يقولون إن هذا العام هو عام إفريقيا بسبب حركات الاستقلال . منذ ثمانين سنة كانت الصيحة تدفقوا إلى إفريقيا ، أما الآن فهى أخرجوا من إفريقيا . أدهشنى أن حسنى مورو قاتل أمه تبرع بعينيه لبنك العيون بعد أن يتم إعدامه بشرط عدم تركيبها لامرأة ، طبعا . لكن خذ هذه الإحصائية المدهشة التى نشرتها الصحف عن الخضار الذى استهلكته الإسكندرية العام الماضى :

١٤ مليون أقة بطاطس و٥ , ٤ مليون أقة باذنجانًا و ٢ , ٥ مليون أقة كوسة ومليون أقة بامية و٦ , ١ مليون أقة ملوخية ، و٣ , ١ مليون أقة فاصوليا و٤ , ١ مليون أقة قلقاسًا ، ومليون أقة بسلة و٤ , ١ مليون كرنبة و٢ , ١ مليون قرنبيطة و٥ , ٤ مليون خرشوفة ، و٥ , ٣٣ مليون أقة طماطمًا و٢ , ٥ مليون أقة خيارًا . .

الإحصائية طويلة لم تترك صنفا من الخضر إلا وذكرته ، ولا أعرف معنى لنشرها ونحن على أبواب رمضان ، هل هى تحذير من الإسراف فى الخضر؟ وما معنى قولهم إن أهل الإسكندرية أكثر الناس أكلا للخضر؟ ما معنى هذا الحسد الأحمق؟ طيب لماذا لا يتحدثون عن الأراضى الزراعية جنوب خط الرمل التى بدأت تتآكل ويغزوها الغرباء

من شمال وجنوب مصر؟ أنها مراكز صغيرة جدا الآن لكنها ستكبر وستقضى على الخضرة وستصبح مناطق عشوائية نموذجية وأوكارا للإجرام، واللى يعيش ياما يشوف! لماذا لا يتحدثون عن عمليات تهريب النقد التى تتم على قدم وساق من قبل الأجانب الذين يستعدون لمغادرة البلاد، ولماذا لا يتحدثون عن الدعارة التى لا تزال تمارس علنا فى الشوارع القريبة من الكورنيش ولماذا لا يتحدثون عن مئات الأطفال الذين يتسولون فى الطرقات أو يجمعون أعقاب السجائر؟

لا أريد أن أثقل عليك، أردت أن أغير مزاجى الاكتئابى بذكر بعض الطرائف فلم أفلح. يكفى هذا الآن. لعلك لو كنت بيننا هذ الليلة المباركة لكانت أفضل. إن شاء الله نراك فى العيد فى أحسن حال.

أخوك

سليمان

أخى الكبير خير الدين

أهديك أجمل التحيات

أمس كانت ألچونى سهرانة عندنا مع أمى ونوال وحُسنة. فى رمضان يحلو السهر كما تعرف. قرأت لهن خطابك الأسبق. سامحنى. ما عدا، طبعا، حديثك عن محمود القزعة وسيقان النساء! تأثرت ألچونى وقالت إنها ستراسلك فى أسرع وقت، إنه لا يؤخرها عن ذلك غير أنها لا تعرف كيف تكتب الرسائل، وإنها اشترت كتاب أشهر الرسائل الغرامية كى تحل هذه المشكلة! كنَّ فى حزن شديد بسبب رحيل نادية سلام. زوَّجها أهلها بالعافية لقريب لهم فى الصعيد. رأتها أمى قبل سفرها. أخبرتها نادية أنها حاولت الانتحار أكثر من مرة وفشلت. لم تطاوعها نفسها على قتل روحها. أمسكت صفيحة

الدى . دى . تى ولم تستطع أن تشربه . سكبت على نفسها الجاز ولم تستطع إشعال عود الكبريت . انتهت الليلة ببكاء جماعى من البنات وأمى أيضًا! نوال التى لم تعد تتكلم كثيرًا كانت أكثرهن بكاء، وأخرجت من شنطة يدها علبة سجائر سحبت سيجارة وأشعلتها ثم راحت تدخن كأحسن مدخن بين دهشة الجميع . قالت إنها منذ القبض عليها وهى تدخن السجائر وتشرب القهوة السادة، وأن الضابط الذى قبض عليها لا يريد أن ينساها، أرسل واستدعاها أكثر من مرة وطلب منها أن تكتب تقارير عن زملائها الممرضات والأطباء والمرضى أيضًا إن أمكن، وأن هذه هى الطريقة الوحيدة المضمونة لدخولها إلى الإذاعة . نوال قالت أيضًا إنها لم تعد قادرة على الغناء . ولم تعد تحبه وصوتها صار خشنا لكن الضابط لا يرحمها ويهددها .

تقول إنها حتى الآن لا تنفذ رغباته، وإنها بالليل تغنى للمرضى فيصفو صوتها ويصير كالبللور . نوال قالت فجأة «لازم أعمل أى حاجة» وبدت شاردة . خافت عليها أمى والچونى وحسنة وأنا أيضًا شعرت بالخوف عليها . لكن لماذا أنقل لك هذه الصورة الصعبة؟ سميرة خرجت من حزنها على خطيبها وصارت تسهر عندنا رغم عدم حضورها أمس . تقول إن مدرسًا زميلا للطفى أخيها سيتقدم لخطبتها، المشكلة أن لطفى وهو يجلس معه بالمقهى سقط من فوق المقعد فانكسرت فخذه مرة أخرى

المخلص

كروان

حبيبى خير الدين

ربنا معاك وقلبى معاك . لم يعجبنى كتاب الخطابات الغرامية . كلامه حلو لكنه ليس كلامى . سامحنى يا خير الدين إذا كان أسلوبى

مش ولا بد! أنا والله أحبك أكثر من عدد نجوم السماء، وأحب أسمع عبد الحليم حافظ وهو يغنى على قد الشوق اللى فى عيونى يا جميل سلِّم، وأحب دائمًا أهديها إليك خصوصًا لمّا يقول«دمعى شهودى جَرّح خدودى فى ليل سهادى» خذ بالك من صحتك يا خير الدين، الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يدركه إلا المرضى. بعد الشر عنك يا. ح. ب. ي. ب. ي.

المخلصة إلى الأبد

ألچونى..

لك من قلبى أرق الأمنيات وأحلى الهمسات..

إذا كان هناك شىء واحد حلو بقى من الإنجليز فى مصر فهو اسمك الذى صار عنوانًا على الجمال. أشتاق إليك با لليل والنهار، وخطابك أعطانى قوة تهد جبال. وجهك لا يفارق خيالى. أعمل وقتا إضافيا أتقاضى عنه ثلاثة جنيهات شهريًا. أوفر الآن ستة جنيهات كل شهر بعد مصاريف السكن والمأكل والملبس، لذلك سيكون معى خلال عام ونصف على الأكثر المائة جنيه التى التزمت بدفعها مهرًا لك. بعد ذلك سيكون أمامنا عام آخر حتى نتزوج. ما رأيك فى فستان فرح ديبا التى تزوجها شاه إيران آخر العام الماضى؟ فستان من محلات كريستيان ديور فى باريس. يا خسارة. قبل العدوان الثلاثى الغاشم كانت منتجات كريستيان ديور موجودة فى مصر. السياسة ضيعت علينا فرصة شراء الفستان! ما رأيك فى هذه النكتة؟.. والله أنت عندى أجمل من فرح ديبا، والفستان الذى ستعده لك أبلة نرجس أحسن من كريستيان ديور. ثم اسمعى الجورنال كتب إيه عن فستان فرح ديبا:

«فستان مخيب للآمال الذى ارتدته فرح ديبا فى فرحها. لقد ظل

الفستان الذى صممه كريستيان ديور سراً حتى يوم الزفاف فكان مفاجأة لكل بيوت الأزياء. لقد أعاد موضة «الأمبير» التى انتهت من سنتين، وهو يشبه قميص النوم، وعبارة عن فستان بسفرة مرصعة بفصوص من اللولى والمجوهرات ينزل عنها چيب بكُسَر بسيطة، والچيب ليست واسعة وليست ضيقة، أما الديكولتيه فهو مدور وبدون أكمام يلبس فوقه بالطو بأكمام طويلة ومطرز يشبه «الليزوز» ينتهى بذيل طويل مرصع كصدر الفستان تماماً» وأنا طبعا مش فاهم يعنى إيه «الأمبير» والليزوز، لكن ربما تعرفينه أنت أو أبلة نرجس. قالت الصحيفة فى النهاية إن الفستان جاء مخيبا للآمال.. رغم أى شىء أريدك أن تقرئى هذه التفاصيل لأبلة نرجس حتى تصنع فى الوقت المناسب فستاناً أجمل لك. المهم يا حبيبتى بمناسبة عبد الحليم حافظ أحب أهديكى أغنيته الجديدة «باحلم بيك» اسمحى لى أغنيها لك رغم صوتى الخشن!!

المحب المخلص الولهان

خير الدين خير الدين خير

صديقى كروان

أهديك كل سلامى

هل تعرف كيف كان الوقت الذى أمضيته بينكم فى العيد الصغير؟ كان كأنه فى الجنة. هى ثلاثة أيام فقط لكنها كانت أجمل ثلاثة أيام فى عمرى يا كروان. صحيح أنى لم أرك غير دقائق ولا سليمان، ولا أحد غير ألچونى، لكنك ستعذرنى. هل سيعطينى الله فرصة مرة أخرى فى قضاء ثلاثة أيام جديدة فى هذه الجنة؟ ياليت!.

لقد عدت فرحانا جدا ونشيطًا جدا إلى حلوان. أخذت من ألچونى

طاقة كبيرة على الحياة. . هل تعرف إنى ذهبت إلى نوال فى المستشفى؟ فاجأتها فى العيد فاندهشت جدا. حدثتها عن كلامك لى فى خطابك الأخير وطلبت منها أن تتماسك وألا تخشى شيئا، قلت لها إننى أعيش فى حلوان لكن الطريق سهل جدا بالمترو إلى باب اللوق، ثم من على الكورنيش يمكن أن أركب المترو إلى منشية البكرى حيث يسكن الرئيس جمال عبد الناصر، والمشوار كله لا يستغرق أكثر من ساعة ونصف وأستطيع أن أقدم إليه شكوى بالحاصل معها. قالت نوال إن عم حمزة سبق له وقدم شكوى للرئيس حين قبضوا عليها وأنه لذلك أفرجوا عنها وهى لا تظن أن الرئيس متفرغ لها. كفاية عليه مشاكل البلد مع الاستعمار! وقالت لى إنها قوية وستنتصر. والحقيقة يا كروان أننى وجدتها كذلك. بل إنها هى التى اعطتنى شيئًا من القوة. قالت لى ألا أتحدث فى هذا الموضوع مع أحد حتى لا يصيبنى أذى، قلت لها أنا لا يهمنى شىء، العمر واحد والرب واحد. يا سلام يا كروان. لقد أحسست هذه المرة أن ربنا خلقنا كلنا، سكان المساكن، من أم واحدة وأب واحد، وهذا سر الألفة والمحبة التى بيننا جميعا، بنات وصبيان. اقرأ الآن كتابا جميلا عنوانه «دع القلق وابدأ الحياة». سامحنى سأغيب عنك برسائلى قليلا حتى أعطيك فرصة للمذاكرة فالامتحانات على الأبواب. هل نسيت يا كروان؟

أخـوك

خير الدين خير الدين خير

(١٢)

اندفع العربى يبكى فى حضن كاتينا بصوت مقهور. قالت فى ألم:

ـ لا فائدة يا عربى. انتهى كل شىء.

حقا انتهى كل شىء وعليه أن يدرك ذلك. هذه هى الحقيقة التى عليه مواجهتها. غدا سترحل كاتينا وستتركه وحيدا فى الهواء. منذ بداية العام وهى تستعد للرحيل وهو يكذّب ما يرى بعينيه. الآن آل الأتيليه إلى چورچيت من الغد هى السيدة الأولى، من الغد سيترك الأتيليه سيتلقفه الفراغ لكن لن يبقى فى مكان لم تعد فيه كاتينا.

كانت چورچيت تنتحب فى ركن من الصالة، وهو لا يصدق دموع چورچيت، أما أسمهان فقد سافرت بعد بداية العام ولم يتأثر بغيابها. سفر كاتينا هو الغياب الفاجع. جذبته كاتينا إلى صدرها وراحت تمشى بأصابعها فى شعره بحنان وتتكلم:

ـ عارف عربى أنا زعلانة أكثر منك. أنا حاسة أنى شجرة يخلعونها من الأرض بالقوة، جذورها تتقطع وهى ماسكة فى الأرض لا تريد أن تتركها. . أنا حزنى أكثر منك عربى. أرجوك لا تبك أمامى. ثم أنت رجل عربى والرجال مثل الجبال لا يبكون. أنا واحدة ست كبيرة. أكتر من خمسين سنة عربى. من زمان أقول لك أنا خمسين سنة. الحقيقة إن أنا دلوقت أكتر. شوف عربى. أنا جربت رجال كتير لكن لم أنس زوجى. يا ناكيس عربى. يا ناكيس كان عظيم لا يعوض. كان شيوعى عربى. أنت تعرف يعنى إيه شيوعى طبعا دلوقت. تعرف يعنى إيه يسارى عربى يعنى يكره ملك فى كل مكان. ملك مصر ملك يونان ملك إنجليز. كان يكره الرأسمالية والاحتلال النازى. يكره الاستعمار. مات فى جبال اليونان عربى. كان وطنى كبير. تمام زى جمال عبد الناصر. عارف رغم إن كتير من الأجانب يمشى من مصر لكن الحقيقة إن جمال هذا يحب بلدكم عربى. لازم حد يدفع ثمن هذا الحب. نحن الأجانب ندفع الثمن. غير مهم. نحن عندنا بلاد نسافر

إليـها . المشكلة عربى أن هناك أجانب غـير فـاهمين ، ومصـريين يكرهون كل حاجة من الأجانب ، حتى النظام حتى النظافة حتى الحرية . هذا غلط عربى . لذلك لازم تحصل مشاكل كتير فى مصر مع الدول الأجنبية .

المهم الآن عـربى أن تحافظوا على بلدكم . على إسكندرية الجـميلة عربى . أنا أمشى غيرى يمشى لكن إسكندرية لا تمشى . ثم إنه ممكن جداً أرجع حتى وأنا عـجوزة كركوبة أزور إسكندرية وأمشى فى الشـوارع وأقـابلك تانى لكن لا نتكلم فى الحب أو فى الجـواز . أنا وكل الأجـانب غير زعلانين من إسكندرية . إسكندرية بلد تحب الأجانب من أول يوم . إسكندرية يعنى أجانب عربى . لكن المصريين لازم يتمتعوا بإسكندرية .

عـارف عـربى كـيف بنى الإسكندر إسكندرية . فتح محـارة كبيرة طلعت منهـا إسكندرية . إسكندرية بلد مسـحـور عـربى . الأجـانب حـافظوا كـتيـر على اللؤلؤة التى طلعت من المحـارة . على إسكندرية يعنى . المهم أنتم أيضاً تحافظوا عليها . إياكم أن ترجعوا اللؤلؤة للمحارة وترموها فى البحر !

لازم إسكندرية تفضل واسعة جميلة بيضاء نظيفة . الإسكندرية الآن تبكى على أصدقائها الأجانب . أنا أعرف إسكندرية جيدا عربى . أنت مسكين عربى لا تعرفها . لم تجلس فى كلوب محمد على ولا فى نادى سبـورتنج ولا فى أى كلوب للأجانب . أنت لم ترقص فلامنكو ولا سامبا ولا رومبا ولا روك آند رول ولا شفت رقصة الكان كان عربى . أنت لا يجب يخاف لما كاتينا تمشى . تقدر تشتغل أشغال كتير . أنا عارفة إنك لا يمكن تنبسط مع چورچيت ـ رفعت چورچيت إليـها عينيها تعاتبها فقالت لها معلهش چورچيت أنا أعرف عربى كويس

واستمرت تتحدث إليه - إنت إسكندرانى، يعنى شجاع عربى لا يخاف. هيا قم نشرب ميتاكسا. هيا نسكر عربى. هذه آخر ليلة.

قام العربى ثقيلا وأحضر زجاجة البراندى والكؤوس. قالت چورچيت إنها ستشاركهما بكأس واحد. قامت كاتينا وأحضرت حقيبة صغيرة وأخرجت ما فيها وقالت:

- شايف عربى أنا واخدة إيه من إسكندرية. عُملات مئة جنيه، عشرين جنيه، عشرة جنيه، خمسة جنيه، جنيه، نص جنيه، ربع جنيه. بريزة، شلن. عملات معدنية كمان. نصف فرنك، قرش صاغ، قرش تعريفة، مليم أحمر. هذا جنيه السلطان حسين الفضى، شوف ثقيل قد إيه، وهذا جنيه الملك فؤاد، وهذا جنيه الملك فاروق، وهذا جنيه جمال عبد الناصر عليه صورة نسر، جنيه السلطان حسين كان يشترى دولاب وجنيه الملك فؤاد أيضًا، جنيه الملك فاروق كان يشترى تايير، جنيه عبد الناصر يشترى بلوزة عربى. الدنيا تغيرت كتير. تعرف أنا سأترك كل ما فى الشقة لچورچيت، وأنت لك خمسين جنيه.. خمسين جنيه كاتينا أحسن من خمسين جنيه راشيل عربى. لازم تبدأ بها حياتك. تعمل أى مشروع. أنا سوف آخذ من إسكندرية اللوحة هذه الملفوفة فى ورق لوحة غير أصلية طبعا لفنان كبير إسكندرانى اسمه محمود سعيد، لوحة فيها بنات بحرى. اسمها بنات بحرى. لوحة تفكرك طول العمر بإسكندرية، أيضا اشتريت صورة كبيرة لميدان المنشية وتمثال محمد علىّ فى وسط الميدان وطبعا صورى التى تصورتها فى إسكندرية طول عمرى مع ياناكيس ومع أصحابى ومعك أنت أيضًا، لكن أهم شىء أخذته عربى هو هذه.

وأخرجت من الحقيبة زجاجة صغيرة بها رمل وقالت وهى تنتحب :

ـ زجاجة رمل من شاطئ ستانلى سأحتفظ بها طول عمرى عربى .

هنا انتحب الجميع ، وارتفعت حرارة أجسادهم ولما كاد العربى ينفجر من الحزن وقف وفي يده كأس البراندى وهتف وهو يغمغم :

ـ الليلة آخر ليلة لكاتينا الجميلة فى الإسكندرية عروس البحر المتوسط . الليلة لازم تكون أحلى ليلة ، رغم إن إسكندرية كلها زعلانة علشان كاتينا . كرموز وبحرى والسيَّالة وخط الرمل كله والمنشية وحارة اليهود وسوق الخيط والميدان . إسكندرية الماء والهواء . إسكندرية محمود الملاح وسليمان وفلفل مطحون والبنت الحلوة حكمت والتى هى أحلى وأحلى الچونى وحتى حُسنة أختى . إسكندرية محمد على باشا وإسماعيل باشا والملك فاروق باشا وجمال عبد الناصر باشا !

وأمسك بزجاجة الرمل ورفعها إلى أنفه يشمها ويهتف ويغمغم :

ـ إسكندرية ماريا وترابها زعفران . إسكندرية كاتينا الجميلة التى لبّست أجمل النسوان والبنات . أعظم خياطة ، ملكة العطارين وأميرة السمّان والميتاكسا والشقاوة . الليلة لازم تكون أحلى ليلة . يعنى ننزل كلنا نأكل سمان ونطلع على البحر نركب حناطير لحد الصبح ، وياريت نستحم فى البحر . نعوم لحد اليونان . أى الله اليونان . .

وسكت الجميع . جلسوا فى صمت عجيب يشربون ويأكلون .

ـ حط لى أسطوانة الآهات لأم كلثوم عربى .

نهض العربى على مهل ووضع الأسطوانة على البيك أب .

ـ دلوقت تمشى، أنت وچورچيت.

ـ من يوصلك المطار كاتينا بكره الصبح؟

ـ أنا مسافرة مع ثلاثين واحد وواحدة من الجالية اليونانية، ثم أننا سنسافر بالمركب.

ـ طيب أسهر آخر ليلة معك كاتينا.

ـ لا حبيبى عربى. أرجوك. أنا عايزه أكون لوحدى.

ـ لماذا كاتينا؟

ـ لأنى عايزة أقعد أبكى لوحدى طول الليل. أرجوك عربى..

لم يستطع حتى أن يكمل الليلة فى بار اللؤلؤة الزرقاء، دمَّر عشرين جنيهًا من الخمسين فى أقل من ساعة. فتح ثلاث زجاجات ويسكى لثلاث نساء ونهض يبصق على كل شىء. منذ قليل أخذ كاتينا فى حضنه لآخر مرة. ضمّها بشدة كأنه يريد إخفاءها فى صدره. قبَّل رأسها ووجهها وعينيها وأنفها ويديها، وهى أيضا فعلت ذلك، ثم خرج جاريًا تاركا چورچيت تودع كاتينا على مهلها.

لن يرى چورچيت مرة أخرى ولا يريد. لن يمر من هنا.

أخذ طريقه إلى محطة الرمل، والتقطه التاكسى إلى اللؤلؤة الزرقاء. لم يستطع البقاء كان يشرب الويسكى من الزجاجة ويسمع صوت زخات المطر الخفيفة فى الخارج ولا يغيب عن باله صوت كاتينا جالسة وحدها فى البيت تشرب الميتاكسا وتسمع آهات أم كلثوم وتبكى، كاتينا التى لا علاقة لها بالتمصير ولا تخشى التأميم الذى يتحدث عنه الأجانب كخطوة قادمة بعد عام أو اثنين على الأكثر، كاتينا الآن اكتشفت إنها منذ مات ياناكيس كان عليها أن ترحل، أو على الأكثر منذ سافرت فيدرا مع زوجها إلى أثينا واستقرا هناك.. لا تزال

هناك يونانيات ويونانيون في الإسكندرية، فلماذا دون الجميع وجد عملا عند كاتينا التي كانت أسرع من الجميع في الرحيل؟ . . كيف حقا بدأ العمل عند كاتينا؟ هذا تاريخ قديم ما فائدة أن يتذكره؟ لقد كانت سنوات العمل عندها أجمل سنين عمره على أي حال ماذا يمكن أن يعمل الآن؟ لا شيء. لا شيء لا أحد أيضًا!

أجل الإسكندرية الآن نائمة، اللمبات واهنة في الطرقات. لا أحد يمشي إلا هو والريح الباردة، وهو ليس صاحب المدينة. لا شيء ولا أحد. عليه أن يفكر كيف يجد عملا جديدا. عليه أيضًا أن ينفق الثلاثين جنيهًا الباقية في البارات. كما جاءت تضيع. حقا هي أهم من نقود راشيل، لكن لم يكن من المناسب أن يترك حياته تمضي على هذا الشكل فليبحث عن عمل دائم، عمل مصري، مع مصريين ووسط مصريين ولا بد أنه سينجح في ذلك.

لكن العربي أنفق عدة أسابيع جالسا بجانب دكان العنيبسي مع تاجر البهار ومحمود القزعة وسليمان في بعض الأحيان والآخرين من الصيَّع الذين لا يعرف مصدرهم أحد! كان حزينا لا يكلم أحدًا، يبدو شاردا في أكثر الوقت حتى جلس معهم لطفي السائح لعدة دقائق على غير عادته وهو في طريقه إلى البيت. كانت ذراعه اليسرى في الجبس هذه المرة وسأل العربي:

ـ أراك دائما هنا يا عربي على غير العادة.

ـ كاتينا سافرت، تركت مصر.

قال العربي ذلك بصوت خفيض دون أن ينظر إلى لطفي الذي قال:

ـ الناس كلها تسافر هذه الأيام. أنا لا أعرف ما هذا الهلع الذي أصاب الأجانب؟

ارتفع صوت لطفى فدخل محمود القرعة فى الحديث :

ـ ألا تعرف يا سى لطفى؟ السياسة يا حبيبى . بكرة نشوف ماذا سيفعل أولاد البلد، سيخربون كل شىء . .

قال تاجر البهار :

ـ ما هذا يا معلم محمود؟ هل أنت ضد السياسة الاقتصادية للبلد؟

ـ لا يا حبيبى أنا لست ضد أى شىء، أنا فقط أسأل نفسى لما بلد مليانة ناس عواطلية مثلك كيف تتقدم؟

ضحك الجميع . لم يزد العربى عن ابتسامة . قال سليمان :

ـ الهلع يا لطفى من الإشاعات عن التأميم . الأجنبى الآن لا يعرف ماذا سيحدث غدا لمصنعه أو ورشته .

قال لطفى :

ـ أنا على أى حال تارك البلد أيضا لكن إلى الصومال .

ـ نعم؟

تساءل سليمان فقال لطفى :

ـ إعارة للتدريس فى الصومال العام القادم .

قال تاجر البهار :

ـ بلاش الصومال يا سى لطفى . لا مؤاخذة الصومال حَرّ، والحر ضار لصحتك . أجل ممكن جدا عظامك كلها تفرقع مرة واحدة . .

سكتوا قليلا يتأملون تاجر البهار ثم انطلقوا يضحكون وضحك العربى معهم وفاجأهم محمود القزعة قائلا :

ـ اسمع يا سى عربى أنا عندى شغل لك، ليس عندى أنا، لكن ما رأيك أن تذهب غدا إلى المحافظة وتقدم طلبا تشتغل فى البلدية، سمعت أنهم يطلبون عمالا الآن.

قال تاجر البهار محتجًا:

ـ ماذا يفعل فى البلدية يا معلم محمود؟ يشتغل كنَّاس؟ العربى يشتغل كناس!؟

تضايق محمود القزعة ونفخ السيجارة التى فى فمه على الأرض وقال..

ـ الفرجة على النسوان أحسن وأفيد من الكلام معكم.

نهض العربى شاعرا بالمهانة. أحمر وجهه ومشى حزينا. ظل يمشى ناحية كوبرى كرموز لا يشعر بأى شىء حوله. أخيرا يا عربى أدركت أنك ضيعت حياتك فى عمل لا معنى له. حتى لو كنت بدأت كناسا منذ عشر سنوات كنت الآن مراقبًا كبيرًا. على أول مقهى قابله جلس. شرب شايا ودخن سيجارة ونهض يقول لنفسه لا بأس.

لدهشته فى اليوم التالى وجد عملا فى البلدية، عاملا فى إدارة التخطيط! ثلاثة أيام فقط قضاها فى إعداد الأوراق المطلوبة ثم تسلم العمل.

ـ هل تعرف قيادة الموتوسيكل؟

سأله الملاحظ:

ـ أجل..

كان يفعل ذلك فى بعض الأحيان فى أول سنى شبابه.

ـ ستأخذ هذه اللافتات الجديدة وتقوم بوضعها بدلا من القديمة.

نحن بصدد تغيير معظم أسماء شوارع مدينة إسكندرية. سنعطيك خارطة بالشوارع وكشفًا بأسمائها القديمة والجديدة.

كان للموتوسيكل جزء ملحق، صندوق على جانبه مثل موتوسيكلات عمال البريد. وضع فيه عشرات اللافتات الجديدة وأخذ الخارطة واتجه إلى الشوارع المطلوب تغييرها فى المدينة القديمة. كرموز وراغب. والعطارين والعمرى واللبَّان.. راح يؤدى عمله بهمة ونشاط وسرعة فائقة. نريد تغيير شوارع المدينة كلها فى أسرع وقت. هناك مكافأة على السرعة. هكذا قال له الملاحظ صباح أول يوم عمل.

شارع هيلين وشارع أثينا وشارع مينرڤا وشارع ڤينوس تحل محلها لافتات تحمل أسماء شارع الياسمين وشارع الفُل وشارع الزنبق. شارع كفافيس وشارع بابا دوبلو وشارع هيرودوت يحل محلها شارع عمرو بن العاص وشارع أبوعبيدة بن الجراح وشارع بن أبى قّص. شارع أجاممنون وشارع أخيل وشارع رومولوس وشارع فيلوكتيتس يحل محلها شارع خالد بن الوليد وشارع المثنى بن حارثة الشيبانى وشارع موسى بن نصير وشارع بن زياد. شارع شيفاليه دور ڤيتى يحل محله شارع الأحرار، شارع الموسيَّات وشارع ألكترا يحل محلهما الفنون وشارع الرشاقة. شارع.. شارع.. شوارع كثيرة راح يغيرها العربى كل يوم. شرق وغرب ووسط المدينة. كان يعرف أن هناك عددا آخر من زملائه يفعلون ذلك فى كل مكان.

الإسكندرية مدينة كبيرة رغم أنه يراها دائما عكس ذلك، ومهمة تغيير أسماء الشوارع تبدو لا تنتهى.. كثيرة من هذه الشوارع التى يغير العربى أسماءها سمع بها تتردد فى حوارات كاتينا مع أصدقائها من اليونانيين والإيطاليين كفافيس اسم شاعر يونانى كبير كان يعيش

بالإسكندرية ومات منذ عشرين سنة. شارع هيلين هو شارع البنت الجميلة التى قامت من أجلها الحرب. لقد شاهد الفيلم المثير عن هذه الحرب ومعه كاتينا ذاتها. شارع جوبيتر شارع باسم إله، أصبح اسمه شارع بطرس الآن. أسماء شوارع كثيرة سمعها من قبل فى أتيليه كاتينا كان يتصور أن أصحابها جميعا أحياء. اليوم فقط أدرك إنها أسماء لأبطال أموات، اليوم تأكد له موتهم إلى الأبد! لكن العربى كان كلما غيَّر لافتة أحسن بالضوء ينكسر فى الشارع ويسرى فيه شىء من الغبش. بل يصبح الشارع أكثر ضيقا من ذى قبل وأقل هواء. كل يوم ينتهى العربى من العمل وهو يشعر بالاختناق. تصير شوارع المدينة كلها ضيقة باردة رغم أنه كل صباح يسمع الملاحظ يقول له وهو يسلمه اللافتات الجديدة، هذه أسماء أهلك وبلادك، الحقيقة أنه لا يكره الأسماء الجديدة، ولا حتى يحب الأسماء القديمة، إنه فقط يحب كاتينا ولا يبدو إنه سينساها يوما ما. العربى اليوم، ومنذ الصباح الباكر يتلكأ فى العمل، قرر بالفعل أن يطلب من الملاحظ إعفاءه من هذا العمل، وتحويله إلى عمل آخر، حتى لو صار كناسا، هذه اللافتة الأخيرة للشارع الأخير، شارع عنتر بن شداد التى ستحل محل لافته شارع هرقليز.. هرقليز؟ إنه يعرفه. شاهد الفيلم فى سينما الهمبرا سمع اسمه كثيرا يتردد فى بيت كاتينا بين الرجال فى الحفلات، لعله أكثر الأسماء التى سمعها. لا يريد أن يغير هذه اللافتة. ماذا يحدث لو تركها كما هى. لا يظن أن أحدا يراقبه بدقة. المراقب يدور بسرعة على عدد من الشوارع يراها كعينات على الإنجاز، لكنه لا يدور على كل الشوارع، وقد لا يمر أبدا بشارع هرقليز هذا، ثم إن هرقليز كان بطلاً لا يقل عن عنترة بن شداد، فما معنى أن ينزع اسم بطل ليضع محله اسم بطل آخر؟. لكنه لا يستطيع حقيقة أن يترك اللافتة. قد يكون

سيىء الحظ فلا يأتى المراقب إلا إلى هذا الشارع. لا بد من حيلة. لا بد من تمويه.

اتجه إلى محل دهان وجده قريبا واشترى دهانا أبيض بلون اسم الشارع المكتوب على اللافتة، ودهانا أزرق بلون أرضية اللافتة واشترى فرشاة صغيرة وطمس حرف الزاى الأخير فى اسم هرقليز باللون الأزرق ثم ألحق بالياء حرف الشين فصار اسم الشارع «شارع هرقليش» وقال لنفسه هكذا صار الشارع عربيا!

ترك اللافتة مكانها وأخذ طريقه إلى البيت فوق الموتوسيكل. كان الطريق غائما أمام عينيه، للحظة فكر أن النهار قد مضى بسرعة، وليل الشتاء سيعود يهجم على المدينة، لكنه أدرك أن دموعا تترقرق فى عينيه..

(١٣)

أدمنت نوال تدخين السجائر، وأدمنت الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية. كلما وجدت نفسها فى البيت أخذت الراديو جوارها وراحت تبحث عن الإذاعات التى تشوش عليها الحكومة المصرية، صوت إسرائيل، لندن، صوت مصر الحرة، التى لا تعرف من أى البلاد تأتى. لندن كثيرا، وصوت مصر الحرة بعض الأوقات، ونوال لم تستطع النوم أمس رغم أن لديها اليوم اختبار أصوات بالإذاعة، وتحتاج إلى راحة تامة وهدوء أعصاب.. لم تكن قلقة من الامتحان، لكنها سمعت إذاعة لندن تعلن أن السلطات المصرية الديكتاتورية قد قتلت عددا من اليساريين المحبوسين فى سجون مصر من جراء التعذيب الوحشى، وإنها تتكتم أخبار هذا القتل، لكنها لن تستطيع أبدا أن

تخفى نبأ مقتل الشاعر الشاب المناضل عصمت مفتاح، فصوت الشاعر سيصحو ويعلو فى الفضاء فى كل الدنيا، وأبدًا فصوت الشاعر لن يموت. وراح صوت قوى يبث قصيدة المرأة الثورة. .

إن ديلاكروا الذى انتهى للتو

من رسم الحرية وهى تقود الشعب

قد خرج يجرى فى الحدائق

فرأى المرأة التى انتهت لتوها من صنع الثورة

فبكى بين يديها أن تنتظر.

فالحرية الحقة لم يرسمها بعد.

ازداد التشويش فلم تعد تسمع، ولم تعد مكانها، راحت تمشى فى الحجرة غير مصدقة، انفتح الطريق من عينيها لدموع حرَّى وبكاء مكتوم. ستذهب إذن للإذاعة غدا، انطلاق صوتها هو الذى سيعطيها القوة على المقاومة رغم أنها تعرف أن دعوتها للإذاعة لن تزيد عن فخ منصوب. لقد دق جرس التليفون فى حجرة الممرضات بالمستشفى منذ ثلاثة أيام. كان هناك شخص على الطرف الآخر يطلبها:

ـ لكن يا أفندم أنا لم أتقدم بطلب للإذاعة هذه الأيام

ـ ليس مهما أن تقدميه بنفسك، شخص يقدرك فعل ذلك، هذا السبت القادم موعد مناسب للاختبار؟

ـ مناسب جدا. إنه يوم إجازتى؟

انتهت المكالمة ولم تفكر نوال كثيرا، أدركت على الفور أن الضابط السياسى الكبير هو الذى وراء هذه الدعوة. أسلوب آخر جديد بعد أن

رفضت تماما كتابة أى تقرير عن أى أحد. رشوة من الصعب أن ترفضها. ستذهب، وسينطلق صوتها من الإذاعة، ولن تكتب تقريرا عن أحد. ستنتصر إذا سمع الناس صوتها. هذا الضوء الواهن للفجر يعطيها القوة، جافاها النوم ثم طردته بعد أن سمعت نبأ مقتل عصمت مفتاح، الشاعر النحيل الوجه الذى كان يشبه المسيح، ومقاطع من القصيدة تعود إلى ذاكرتها بقوة وترددها فى صمت. . . لكن النوم غلبها فى النهاية. نامت لساعة أيقظتها بعدها أمها وأبوها. لا يعرفان أنها لم تنم معظم الليل. يريدانها أن تستعد للإذاعة أحسن استعداد.

فى الساعة العاشرة كانت أمام باب محطة إذاعة الإسكندرية فى باكوس.

كان الواقف على الباب فى انتظارها. أخذها إلى حجرة صغيرة مبطنة بالفلين الرمادى فى وسطها منضدة صغيرة يتوسطها ميكروفون.

هذه حجرة اختبار الأصوات يا نوال. يبدو أن الأمر حقيقى.

جلست على مقعد من المقاعد الثلاثة حول المنضدة. فُتح الباب الثقيل ودخل منه رجل مهيب الطلعة والثياب وسيدة فى حوالى الخمسين يبدو عليها التعب.

ـ أهلا آنسة نوال، أنا عبد الفتاح سليم مدير البرامج ومعى ماما لطيفة كبيرة المذيعين.

كانت نوال قد وقفت مرتبكة. أشار إليها بالجلوس. جلست لكن ازداد ارتباكها. ما هذه الفرصة المفاجئة. إنها لم تتدرب منذ وقت طويل، ولا بد أن التدخين ترك أثره السيىء على حنجرتها. هى إذن زيارة فشنك!

ـ هل تغنى شيئًا لأم كلثوم؟

ـ يا ريت أبدأ بسيد درويش .

تطلع مدير البرامج إلى كبيرة المذيعين رافعا حاجبيه فى دهشة، ونوال بدورها لم تعرف لماذا قالت ذلك. تذكرت الدكتور أحمد منذ قليل بل تذكرته طول الليل بعد سماع نبأ مقتل عصمت مفتاح .

ـ وهو كذلك. تفضلى .

بدأت نوال بيا عشاق النبى صلوا على جماله، ثم الحلوة دى قامت تعجن فى البدرية، ثم أنا هويت وانتهيت، وبدا عليها شىء من التعب، تساءلت . .

ـ هل يكفى ذلك؟

أجاب الرجل الذى لمس بالفعل جمال صوتها رغم مظاهر التعب .

ـ لا يا بنتى نحب أن نسمعك أكثر .

بدت الطيبة فى نبرات صوته، أحست نوال أن صوتها قد سلك وزالت عنها الرهبة والتعب. غنت لعبد الوهاب «أخى جاوز الظالمون المدى» والرجل فى غاية الدهشة، فوجئت بالسيدة كبيرة المذيعين تخرج من حقيبة يدها قطعة من السكر النبات تقدمها إليها، فوقفت نوال وغنت لأم كلثوم وتسلطنت :

أنا فى انتظارك خلّيت

نارى فى ضلوعى وحطيت

إيدى على خدى وعدّيت

بالثانية غيابك ولا جيت

يا ريت يا ريت يا ريت يا ريت

يا ريتنى عمرى ما حبيت .

بكت وأبكت المرأة والرجل قاوم الشجن وحين انتهت قبَّلتها المرأة بينما بدا الغم على وجه الرجل الذى قال :

ـ يكفى هذا اليوم .

ـ هل أصلح للإذاعة؟

تساءلت نوال فى قلق .

ـ سأخبرك بكل شىء فى حينه .

أمام باب الإذاعة كان النهار مضيئا أكثر من كل يوم . أخذت طريقها فى الشارع الخالى فى اتجاه طريق الحرية ، التى قررت أن تعبره إلى الكورنيش . تريد أن تقف قليلا على شاطئ البحر . تريد أن تستنشق هواء الدنيا كلها .

كانت تشعر بالقوة والزهو والفخر رغم أن ما سمعته من الرجل قد يشى بغير ذلك . أنها على يقين من وصول صوتها للناس .

وبدأت مقاطع من قصيدة عصمت مفتاح تقفز إلى ذاكرتها وهى تنظر إلى الموج القوى .

هنا . هنا فى الإسكندرية

التى ينزل عليها المطر يغسلها

لترى السماء وجهها فى الأرض

أى مدينتى العبقرية

مدينة النزق والجنون والاستشهاد

كيف دخلتك الخيول العجوز

محملة بكل هذا الغباء والتراب

كيف فتحت أبوابك للبرابرة

وتبعثرت فيك النساء

هبينا مدينتى القدرة على الثورة

أطلقى مدينتى أسْر المرأة الذكية

دعيها تصنع الثورات

وتشوى بصلا على الفحم

ظلت نوال لعدة أيام تطير كفراشة مليئة بالقوة والرشاقة والتفاؤل. للحظة تقفز إلى وعيها صورة عصمت مفتاح يصرخ تحت الضرب بالشوم والكرابيج، وقد ترفع يدها أمام عينيها حتى لا ترى المشهد، لكنها سرعان ما تعود إلى حالتها العجيبة هذه من القوة والأمل.

للحظة أيضا ترى الدكتور أحمد جالسا حزينًا فى ركن من السجن، تكاد تقفز من عينها دمعة، وسرعان ما تعود إلى تفاؤلها. سينطلق صوتها من الإذاعة، وسيملأ الأثير فى كل البلاد وستغنى فى كل المدن المصرية مدينة بعد مدينة ويخرج لها الشعب فى كل مكان يصفق طربا لأغانيها. إنها المرأة التى ستصنع الثورة، التى ستوزع الخبز على جنود النهار. ولقد كان سلوكها فى المستشفى مدهشا للجميع. تساءلوا عن سر السعادة التى انسكبت فى روحها بهذه السرعة وإقلاعها عن التدخين وارتفاع ضحكاتها طول الوردية وتشجيعها للمرضى وغنائها لهم فى أى وقت، والنكت العجيبة التى صارت ترويها أيضا، واحد أعور دخل السينما اشترى كحكاية أكلها للى جنبه، واحد صعيدى

أتعلم إنجليزى ودخل السينما سمع بياع البوفية فى الاستراحه ماشى بين الكراسى ينادى شيبسى شيبسى قاله تعالى هنا يا بتاع المراكب! واحد أطرش قابل واحد أطرش سأله أنت رايح فين قال رايح البيت قال له ياه أنا كنت فاكرك رايح البيت، واحد دخل السينما ظهرت صورة جمال عبد الناصر على الشاشة فى فيلم تسجيلى السينما كلها صقفت إلا هو، قام اللى جانبه قال له صقف ليمسكوك، السينما كلها مباحث. هاهاها. . ولم يفهم أحد هذا السلوك الجديد من التحرر والانطلاق لنوال حتى إن بعض زميلاتها قلن إن مخها فيما يبدو ضرب!.

عشرة أيام على الأكثر وبدأت نوال تعود إلى هدوئها القديم. عادت إلى التدخين والصمت، فى يوم إجازتها توقفت سيارة ملاكى فيات فى شارع قنال المحمودية أمام المساكن ونزل منها عبد الفتاح سليم الرجل المهيب. مدير البرامج بإذاعة الاسكندرية، فوجد نفسه محاطا بعشرات من الأطفال الحفاة شبه العراة يتفرجون عليه كما كان يتفرج سكان الليليبوت على جاليفر حين رأوه لأول مرة.

كانوا يضحكون حوله ولا يعرف السبب فاضطر أن يبتسم إليهم الصدفة جعلت سليمان خارجًا من المساكن فرآه مرتبكا. أبعد عنه الأطفال وعرف إنه يريد الآنسة نوال حمزة فصحبه إلى بيتها. تردد الرجل قليلا لكن سليمان قال:

ـ لا تخف السيارة فى أمان.

كان الرجل لا يشعر بالأمان على نفسه هو لكنه مشى خلف سليمان الذى دخل به إلى زقاق معتم ضيق بين العشش وتوقف أمام بيت نوال ودق الباب.

ـ أستاذ عبد الفتاح!

كانت نوال هي التي فتحت الباب. أدهشها مرأى مدير البرامج وارتبكت. كانت ترتدي جلبابا منزليا بسيطا، لكن لحسن الحظ أنها كانت قد أخذت للتو حمامًا لذلك بدت يانعة نشيطة. صحبت الرجل إلى الحجرة الداخلية واعتذر سليمان عن الدخول لكن أم نوال صممت على دخوله فحمزة غير موجود ولابد من رجل يجلس مع هذا الغريب.

جلس عبد الفتاح سليم على طرف الكنبة مثل طفل مطيع بينما ارتبكت نوال من رقة الحال. فوجئت به يقول:

ـ أنا أتذكر الآن حياتي. كان أبي مجرد مزارع بسيط في وسية الخواجة إيفانچيلوس بمحافظة الغربية. وبالمناسبة يا نوال كل العظماء بدءوا من الصفر. عبد الحليم حافظ تربى في ملجأ، وأم كلثوم كانت تطوف تغني في الأفراح والموالد في طفولتها مع أبيها وأخيها.

تشجعت نوال وقال سليمان:

ـ ومحمد عبد الوهاب بدأ حياته مطربًا غلبانًا في ملاهي روض الفرج حتى أخذه أمير الشعراء أحمد شوقي فتغيرت حالته

تأمله الرجل سعيدًا بمعلوماته وقالت نوال:

ـ الأستاذ سليمان يعتبر كأخي تماما، وهو أديب ومثقف كبير..

ـ هذا واضح.

قال الرجل وسكت. كانت الأم قد أقبلت بصينية الشاي الذي رفضه الرجل تمامًا وبطريقة بدت فجأة استفزازية مما جعل نوال تشير إلى أمها أن تعود بالشاي لكن سليمان الذي فكر أن الرجل قد يكون خائفا من شرب الشاي في مكان فقير كهذا مدَّ يده وأمسك بكوب راح يتلذذ

بالاحتساء منها مما جعل عبد الفتاح سليم يبتسم مخففا من أثر الموقف كله ثم بدأ يتكلم . .

ـ نوال يا بنتى لقد جئت هنا لأنى مؤمن جدا بموهبتك . .

تهللت أسارير نوال وسليمان معا . كانت الأم قد خرجت إلى الصالة وجلست وحدها .

ـ أنا لم أسمع مثل صوتك من قبل وأرى أنك لابد أن تتركى الإسكندرية .

ـ أتركها إلى أين؟

تساءلت نوال بصوت مختنق .

ـ إلى القاهرة . القاهرة هى مكانك وهى التى تليق بصوتك . تحدثت مع أحد زملائى هناك وسوف يسهل لك الطريق :

اندفع سليمان فى الحديث :

ـ أنا رأيى من رأى الأستاذ ، الإسكندرية مدينة منسية . القاهرة هى المجد الحقيقى لأى كاتب أو فنان .

قالت نوال :

ـ انتظر يا سليمان ، المسألة ليست هكذا بالضبط . أستاذ عبد الفتاح يخفى سراً ، أرجوك صارحنى ، أنا أعرف من يطاردنى . .

قال الرجل . .

ـ يا بنتى اسمعى كلام الأستاذ سليمان وهو مثقف كما تقولين ، إذاعة إسكندرية إذاعة محلية لكن القاهرة شيء آخر .

تأملته نوال للحظات ثم قالت . .

ـ هل ترى أن الذى يطاردنى هنا يطاردنى هناك؟

بدا سليمان مندهشًا ومرتبكا من هذا الكلام عن المطاردة فى الغناء.

وبدا أن الرجل مشغول الفكر للحظات. ما الذى جعله حقا يأتى إلى هنا؟ هذا الحماس للحق الذى لا يستطيع أن يتخلص منه. كيف حقا فإن الذى يطاردها هنا سيطاردها هناك. قال بصوت هادىء:

ـ لقد حاولت إنقاذك يا ابنتى. الاختبار الذى أجريناه لك كان بأوامر من جهة أمنية الغرض منه وضعك على حافة السكين. هل تعرفين معنى ذلك؟ ترين المجد كم هو قريب ثم لا يعطيك أحد فرصة الوصول إليه. لقد وافقت فى البداية كعمل روتينى. لم أتوقع حلاوة صوتك. قلت لنفسى ماذا يحدث لو جاءت واحدة هاوية غنت ومشت؟ نرى مثل ذلك كل يوم، لكن صوتك أشعرنى بالذنب. صوتك هدية من السماء ولا يجب أبدا حبسه. لقد أخبرت مسؤول الأمن الكبير بأن صوتك يستحق أن يكون هدية لشعب مصر فنظر إلىّ باستخفاف. قال لى انس الموضوع. لكنى يا ابنتى لا أستطيع فدعينى أساعدك.

خيم طائر الصمت على الحجرة، كانت الأم تسمع فى الصالة فيما يبدو فارتفع صوت بكائها ليصل خفيضا إليهم. قال سليمان فى غيظ مكتوم:

ـ وهل البلد سابت إلى هذه الدرجة؟ أنا أستطيع أن أكتب للصحف عن هذا الظلم.

ـ يا أستاذ سليمان، دعنا ننقذ الموقف بهدوء. إذا تسرب صوت نوال من الإذاعة لن يستطيع أحد أن يتعرض لها فى شىء ـ وأخرج كارتا من جيبه ـ هذا تليفونى يمكن أن تتصلى بى حين تقررين..

قام وصافحها . كانت صامتة تفكر فى هذا الرجل الشجاع .

أمسكت بيده لحظات طويلة ثم قالت .

ـ أشكرك جدا يا أستاذ عبد الفتاح . أشكرك من كل قلبى ، يكفينى موقفك النبيل .

خرج الرجل مسرعا لا يستطيع سليمان أن يلحق به . ما كاد يخرج من باب المساكن المعتمة إلى شارع قنال المحمودية الباهر الضوء وإلى الفضاء الواسع الأبيض أمامه حتى وقف فى حالة من الذهول .

ـ ما هذا ؟

هتف غير مصدق ما يرى . كان سليمان الذى لحق به الآن يقف جواره مغتاظا غير مصدق .

ـ يا أولاد الكلب .

هتف سليمان بينما كان الصبية الصغار جدا والأطفال يقفون على الناحية الأخرى من الشارع ظهورهم إلى الترعة ووجوههم إلى بوابة المساكن يضحكون بلا توقف . لقد أفرغوا العجلات الأربع لسيارة عبد الفتاح سليم من الهواء .

بعد لحظات لم يتمالك سليمان نفسه من الابتسام وقال :

ـ سأساعدك يا أستاذ ، سأنقل العجلات واحدة بعد أخرى على عربة كارو بيننا . ستزيدنا شرفا على أى حال . .

كان الرجل فى حالة يأس بالغ ، بل بدأ الخوف يتسرب إلى قلبه ، وكاد يفقد السيطرة على أعصابه . فى الحقيقة لم يكن يريد أن يستمع إلى أحد .

(١٤)

أخى خير الدين

تحياتي القلبية وبعد

أسعدنى خطابك الجميل الذي كتبته من قلبك تهنئنى بالنجاح. تهنئتك لي أفضل من النجاح ذاته. للأسف لم أحصل على غير خمسين بالمائة من درجة النجاح، وهذا يعني أننى لن التحق بالجامعة كما تمنيت لى، وكما كنت أتمنى أنا فى الحقيقة.

لكن لا بأس. المهم أننى نجحت. الأدب والفلسفة لا يحتاجان إلى شهادة من الجامعة أو غيرها. إن ما حدث لى فى العامين السابقين وهذا العام يؤكد أنه كانت هناك مؤامرة ضدى، مرة يتم تسريب الامتحانات وفى الموعد الجديد للامتحان تصيبنى الحمى، وفي المرة الثانية يصيبنى عَمى مؤقت للعين، وهذا العام تم تسريب امتحانات الرياضة كما تعلم، وكدت أيأس ولا أدخل الامتحان في الموعد الجديد، لكنني صممت علي مواجهة المؤامرة اللعينة. بل لقد كدت من البداية لا أدخل الامتحان بعد أن مات بوريس باسترناك فى آخر مايو الماضى. لقد مات قبل الامتحانات بأيام قليلة، وكان حزنى عليه شديدا رغم أنى لم أقرأ له شيئا، ولا حتى روايته التي فازت بجائزة نوبل «دكتور چيفاجو» إنها لم تترجم ولم أعثر على نسخة بالإنجليزية لها في مصر. يخيل إلىَّ أن الدولة لا تسمح بدخولها إرضاء للاتحاد السوفيتى فالرواية كما قرأت عنها تسيىء إلى الشيوعية. هل رأيت أو قرأت حديث الصحف عن الاستقبالات الكبيرة للرئيس عبد الناصر فى اليونان. اليونانيون شعب طيب، رغم أنهم يغادرون بلادنا يوما بعد يوم فهم يحبون بلادنا جدا،

وبحبون الإسكندرية أكثر، بل يعتبرونها مدينة يونانية. الإشاعات تسرى بأن التمصير سيتحول إلى تأميم وأن تهريب النقد يزداد يوما بعد يوم من مصر. إذا تحقق التأميم لن يبقى فى مصر أحد، لا يونانى ولا إيطالى ولا حتى شامى. ربما يبقى العدد القليل المسكين من اليوغسلاف الذين هربوا من جحيم الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية وفتحوا محلات فول وطعمية فى الإسكندرية. هل تعرف أنهم فى الزيارة الأخيرة لتيتو تم القبض عليهم عدة أيام في مديرية الأمن ثم أطلق سراحهم بعد رحيله؟! ما علينا من السياسة. يقولون إن مارلين مونرو أفسدت الريچيم القاسي الذى تتبعه وأكلت قطعة بقلاوة، وأن آرثر ميلر، زوجها، غضب منها جدا، آرثر ميللر هذا مؤلف مسرحى مشهور في أميركا وينام مع أجمل امرأة العالم.. هل يتكرر ذلك معنا؟! لقد ظهرت نتيجة جوائز الدولة فى الفنون والآداب وفاز العقاد بالجائزة التقديرية فى الأدب، وفاز فنان الإسكندرية الكبير محمود سعيد بالجائزة التقديرية فى الفنون.

رأيت فيلم شرخ فى المرآة، تمثيل أورسون ويلز وچولييت جريكو. هذه أول مرة أرى فيها أورسون ويلز وكذلك چولييت جريكو التى قرأت عنها أنها مطربة الوجوديين فى فرنسا. ربما لذلك ذهبت لأرى الفيلم. شاهدت أيضًا فيلم آلة الزمن. الفيلم أجمل من الرواية. يا له من شعور بالضياع حين يجد الإنسان نفسه فى عصر آخر لا يعرفه ولا يجد لغة للتخاطب مع الآخرين فما بالك لو حدث ذلك للإنسان وهو يعيش فى عصره الطبيعى. إذن ذلك يحدث كثيراً فى الحقيقة، وإن روحى حزينة رغم أننى عثرت على سعدة أخيرا. لقد كتبت لك من قبل كيف أحببتها، وشرحت لك كيف أخفوها عنى شهورا طويلة. عثرت

عليها عند عمها فى الحضرة. رحنا نتقابل سراً مرة كل أسبوع فى حديقة الحيوان. الأسبوع الماضى رآنا جدها. تصور جدها وليس أحد آخر! طلب منى الابتعاد عن البنت الصغيرة التى كانت واقفة لا تبالى.

قالى لى إننى سأعلمها أشياء أكبر من عمرها. فى الحقيقة لم أجد ما أقوله للرجل المسن كما لم ألم نفسى على هذا الاندفاع فى حب بنت لم تبلغ بعد. إذا سألتنى أقول لك إننى لازلت أحبها. لكن يمكن أن يكون سلوكى غير طبيعى. الأدباء شخصيات جانحة فى كثير من الأحيان. لقد رأيت نجيب محفوظ يمشى في شارع صفية زغلول على عينيه نظارة سوداء وينظر إلى الأمام ولا يكلم أحداً ولا يقف.. لكن عمى كان الأكثر غرابة بين كل أدباء العالم. هيمنجواى أكثر من قام برحلات خارج أميركا كان يعود. عمى لم يعد من أواسط إفريقيا. لم يرسل حتى رسالة واحدة. هل أكلته الأسود؟ أنا لن أترك الإسكندرية فى أى يوم. هنا نبتت موهبتى وفى هذا المكان نشأت. هذا المكان هو سر موهبتى، موهبتنا جميعا. ربما أكتب إليك يوما عن لماذا نحن موهبون. انتبه إلى صحتك يا خير الدين.

المخلص

سليمان

أخى الكبير خير الدين

أهديك أجمل التحيات

استقبل خطاباتك كما استقبل ماء الحياة. تعطينى دائما القوة والأمل خاصة هذه الأيام التى أرى فيها أبى حزيناً حزنا لا يفسره لى، ولا أمى أيضا تعطينى تفسيرا لذلك. عافت نفس أبى التجارة حتي الديون التى له عند الناس لم يعد يطالب بها. تحدث منذ أيام عن خروجه إلى

المعاش العام القادم فهل ذلك هوالسبب؟ إننى قلق جدا على أبى هذه الأيام.

المخلص

كروان

حبيبى خير الدين

حاسة بيك مش قادر تكتب. حاسة بيك تعبان. أوعى تكسفنى يا خير الدين وتمرض تانى. ابعث لى جواب اطمئن عليك. كروان كان يطمئننى عليك دائما. كروان يقول إنك لم تعد تراسله منذ فترة أنا حيرانة خالص. أسأل أمك وأخوتك ولا يعطونى جواب. إيه اللى جرى لك يا حبيبى خير الدين.

المخلصة للأبد

ألچوني

أخى خير الدين

تحية من القلب وبعد..

تأخرت رسائلك فى الفترة الأخيرة، لعل المانع خيراً. اسمح لى يا صديقى أن أكتب إليك دون انتظار لرسالة منك. فأنا أعرف مشاعرك الجميلة نحوى وأنه لا يمنعك إلا شىء قوى. ثم إن كتابتى إليك تعوضنى عن التأليف الذى توقفت عنه. أجل، فى البداية أردت أن أكتب قصة عن مغنية تمر عليها أحداث النصف الأول من هذا القرن، لكن المغنية من الفصل الأول وقفت عاجزة عن الغناء وانتهت القصة. بعد ذلك شرعت أكتب قصة المكان الذي نعيش فيه والمدينة من حولنا، لكن سرعان ما اقتحمتنى قصة الحب المجنون من البنت الصغيرة سعدة

التى انتهت من حيث لا أتوقع أبدًا. أيقظنى الجد القادم من الماضى البعيد على حقيقة طفولة البنت ورجولتى، والذي أخفيته عنكم جميعًا هو علاقة كان يمكن أن تكون عميقة مع فتاة إنجليزية فرقت بيني وبينها السياسة، كل ذلك لم يعد يهمنى الآن، ولا أحب أن أتذكره لأنه يعنى شيئًا واحدًا هو أنى فاشل تمامًا.

دعنى يا صديقى أحدثك عن حبشى ذلك الساكن على شاطئ ترعة المحمودية لا يكاد الزمان يشعر به. صارت له زوجة جديدة بعد اختفاء بدرة، وكثر أولاده من اللقطاء. إن حبشى الآن لا يجدهم بالصدفة. فى كل صباح يخرج يمشى علي الشاطئ يبحث عنهم. إنه يبتعد كثيراً على الشاطئ، ويتجاوز منطقة محرم بك وأحيانا كوبرى الناموس، وكثيراً ما أقابله عائدًا حاملا طفلا لقيطا بين يديه. الغريب أن حبشي أيضًا صار يقطع المدينة باحثًا عن اللقطاء فى شمالها. أحيانًا علي شاطئ البحر، وغالبًا بجوار المساجد الكبرى. يترك عشته كل ليلة فى منتصف الليل، وقبل أن تنسكب على الدنيا أضواء الفجر يكون هو عند مسجد المرسى أبو العباس، أو سيدى تمراز، أو سيدى جابر أو أبو الدرداء. يدخل يصلى الفجر فى المسجد الذي يتواجد عنده ثم يعود. في كثير من الأحيان يعود بلقيط، غلام أو فتاة، ضجرت زوجته الجديدة من هذا الزحام، فبدأ يبنى كشكا آخر، منذ أيام عثر على لقيط جميل، غلام أشقر، فى عنقه سلسلة ذهبية عليها حرفان، سين ونون، ومعه «بوك» صغير به خمسون جنيهًا وورقة مكتوب فيها «سيأتى يوم ونلتقى». شيء ولا الأفلام. أطلعنى حبشى بنفسه على السلسلة والخمسين جنيهًا والورقة والغلام. لكن حبشى صار كهلا فجأة بان عليه التعب، ولم يعد يقوم برياضته المفضلة، السباحة،

وكثيراً فى الترعة، وإن لم ينقطع عن متابعة أولاده وهو جالس على الشاطئ فى زهو . .

ألا تلاحظ أننا لم نتطرق بالحديث أبداً عن محمود الملاح . لقد انقطعنا حتى عن سيرته فى جلساتنا على السلالم عند مدخل القبو . آخر الأخبار أنه سافر إلى إيطاليا ليجرب حظه فى السينما هناك . إن أحداً لا يصدق ذلك . أما تاجر البهار فقد وجد طريق المحاكم مسدوداً . كان يود أن يسترد شارع فرنسا باعتباره من أملاك أسرته . قال إنه عثر على كنز ولن يعود إلينا مرة أخرى . لقد انقطعت أيضًا أخباره .

لكن عيد المشعور لا يزال يأتى كل مساء بالمجاذيب والمعتوهين وينزل بهم القبو ويأخذهم إلى البحيرة خلف بيت خميس الجمال يجلسون يتفرجون على «ربنا» الذى يرونه عند الأفق كما يقول عيد . المدهش أن عيد لا يزال يعود دونهم، لكنه فى اليوم التالى يظهر قادمًا وهم معه . متى عادوا وكيف التقى بهم ومن أى طريق؟ لا أحد يعرف .

خميس الجمال اشترى تليفزيون عشرين بوصة ولما رآهم يجلسون جماعات يحملقون فى الأفق ركبه الرعب . فكر أن يتجنب أى أذى متوقع منهم فأخرج لهم التليفزيون أمام البيت وراحوا يتفرجون عليه . ذهبت بنفسى ورأيت ذلك . يظلون مبتسمين طول الوقت، لكنهم فجأة قاموا يضحكون وحملوا التليفزيون ومشوا به وخميس الجمال يصرخ لإيقافهم فانخلع التليفزيون من الأسلاك الموصلة به، واقتربوا من الماء وألقوا به ثم جلسوا يبتسمون ويبحلقون فى خط الأفق يتفرجون على «ربنا» .

آخر الأخبار هو حلول مُسفَّر جديد محل الديب الذى اختفى،

وللمسفر الجديد زوجة جميلة جداً. بدأ الأولاد، مصطفى وعيد وبلك وحتى كروان، يتابعونها. إنهم يجلسون الآن كثيراً على شاطئ الترعة يعطون وجوههم إلى البيوت لا إلي الترعة حتى إذا فتحت زوجة المسفر الجديد النافذة رأوا وجهها الجميل. أنا شخصيا لا أعرف من أين حصلت هذه المرأة الصغيرة على كل هذا الجمال. عينان واسعتان سوداوان مكحولتان دائمًا، ووجه خمرى مستدير وشفتان مكتنزتان مدهونتان دائمًا بالروج الثقيل، ولها أنف صغير بشكل غريب يا أخى وتلبس دائمًا جلبابا مفتوحًا عند الصدر عارى الذراعين وشعرها الأسود الغزير ينسدل على كتفيها، إنها كتلة من نار حطت فى المساكن، يقال إن المسفَّر الجديد حين يخرج فى مأمورية يأتى بأمه العجوز لتبقى مع زوجته ويأمرها ألا تفتح النافذة أبدًا حتى يعود. هذه قصة جديدة، وهذه المرأة لو طال بها الوقت هنا ستشعل النار فى الجميع. إلى أن أتلقى منك رسالة . . . لك خالص أمنياتى الطيبة.

المخلص

سليمان

أخى الحبيب سليمان

أدامك الله وبعد . .

أرجو ألا تفشى هذا السر إلى أحد، أنا غير قادر على كتابة الرسائل. بالكاد أرسلت إلى ألچونى حتى لا تقلق. أنا الآن فى مستشفى الصدر بحلوان. تستطيع أن ترسل إلىَّ على المستشفى. سأغيب فيها عامًا كاملاً كما قرر الأطباء. العنوان سهل. مستشفى الصدر بحلوان عنبر رقم ستة الدور الثانى. المصنع يدفع تكاليف علاجى. لم أستطع الكتابة إلى كروان. لا تخبره بشىء، أرى دموعه

أمامى لكنى متفائل يا أخى، ليس من المعقول أن ينتهى كل شىء بهذه السرعة. أنا لم أخطئ فى حق أحد.

المخلص

خير الدين

الأخ الحبيب سليمان

بعد التحية العطرة وأزكى السلام

حاجات كتير بتحصل يا سليمان ولا تكن في الحسبان. طبعا أكيد عرفت بسفرى إلى إيطاليا . لازم يكون الخبر انتشر من بيتنا من زمان. أنا فعلاً فى إيطاليا. تعرفت قبل السفر فى القاهرة فى ستوديو نحاس على كومبارس إيطالية عايشة فى إسكندرية! شوف العجب يا سليمان. لم أتعرف عليها فى الإسكندرية التي نعيش فيها معًا، السينما جمعتنا فى القاهرة، ويمكن الفقر . . أكيد الفقر . رجعت معاها إسكندرية وعشت معاها فى شارع تانيس في شقة واسعة وهاوية ونظيفة. عشت معاها شهر جميل لغاية ما تركنا إسكندرية دلوقت عايش معاها فى روما أكلمك عن إيه ولا إيه يا سليمان!

من ساعة ما جئت وأنات بامشى أبص حواليا علي المتاحف والبيوت والميادين والنسوان. طبعا تلاقيك لا تصدقنى وعايز تتأكد كيف هى إيطالية وكانت عايشة فى إسكندرية لوحدها. . شوف يا سيدى، هى كانت متجوزة راجل فحَّام على مركب. كان قويا جدًا لدرجة أنه لما كان يحب ينام معاها كان يمسكها من وسطها بيديه ويقف وسط الصالة ويرفعها ويفضل طالع نازل من غير ما يتحرك سنتيمتر واحد من مكانه. تخيل أنت كان فحل أد إيه! المهم صاحبك الفحل هذا كان غبى، وريحته «كوك» على طول! وفى يوم وقع من مدخنة

المركب واتخنق. ساب لها بنت جميلة وفقر كتير! اضطرت تشتغل كومبارس لحد ما حوشت قرشين وسافرت معايا ومع بنتها. بنتها عندها عشر سنين، وكانت تروح معاها الأستوديو دائمًا وتنام معاها في اللوكاندة فى شارع كلوت بك. لما عرفتها قلت لها أنا مش قد الفحام، ضحكت وسكتت. فى شقتها فى شارع تانيس شفت العجب نسوان مالها أول من آخر تشتغل فى الملاهى على الكورنيش بالليل وبالنهار تيجى الشارع وتدخل الشقق علشان تنام. ساعات من كتر النسوان كان يتهيأ لى أن إسكندرية كلها تشتغل فى الملاهى والبارات. لكن الحمد لله معظمهن من الأجانب. دا اللى شفته على الأقل! أنا أكتب لك هذا الكلام حتى تبلغه لفلفل مطحون. لو قعد هناك عند أى مكوجى فى شارع تانيس سيعيش عيشة الملوك مع النسوان. يا ترى ما هى أخبار ه فلفل مطحون؟ وحشنى جداً. وحشتونى كلكم يا سليمان رغم أنى زعلان منك من زمان. من ساعة ما جئت أحكى لك قصة فيلم عن بورسعيد فكلمتنى عن وجود الإنسان وعدم وجوده! على أى حال أنت عقلك كبير يا سليمان. أكبر عقل فى الحتة. ودلوقت أحب أقول لك إنى تقدمت جداً فى العمل فى السينما. أخذت دوراً صغيراً فى فيلم اسمه «السبعة ضد طيبة» قصة قديمة لكاتب يونانى. سمعتهم بيقولوا كده! أنا طالع بدور واحد من آلهة اليونان، أكبر إله، اسمه زيوس. لبسونى لبس آلهة، فروة مقطعة على صدرى ومايوه مش باين، وأعطونى فخذ خروف وقعدت أكله قدام النار على جبل ومراتى اللى اسمها هيرا تشوى قدامى فخذة الخروف الثانية. الفيلم سيعرض فى مصر هذه السنة أكيد. لا تنسى اسم الفيلم، عايزكم تشوفوني وأنا إله. حاجة ثانية خالص غيرى وأنا بهدومى. والله عايز أعيط يا سليمان. أجمل أيام عمرى كانت فى مصر. مش عارف إيه اللى لحس مخى

كده! الله يخرب بيت يوسف شاهين وبيت أم اللى يشتغل مع يوسف شاهين. لكن مين عارف. يمكن مصيرى أرجع نجم كبير يا سليمان وأوعى ما تشوفش الفيلم. سلم لى على محمود القزعة وعلى النسوان اللى طالعة ونازلة إلى الملاحة، وأهم سلام للديب الذى لو حضر هنا سيخطفونه خطف وكل يوم يؤلف لهم فيلم جديد. سلم لى حتى على الولد عيد المشعور أطيب ولد فى الحتة، وعلى جَدْى خميس الجمال! يعنى سلم لى على الحيوان والإنسان والجماد والطير السابح فى الفضاء.

هذا باختصار يا سليمان وإلى اللقاء..

صاحبك الذي لن ينساك،

محمود الملاح

(١٥)

استيقظ الجيران على صوت الصراخ والعويل. لقد وصلت إلى المساكن سيارة عند الفجر تحمل جثة خير الدين، فى اللحظة التى كانت فيها سفينة كبيرة تشق المحمودية قادمة من ناحية الميناء، يرتفع صاريها وشراعها الكبير الأبيض مفرود إلى نهايته، والريح الصباحية تدفعها فى تصميم غريب خارج المدينة.

خرج الرجال من البيوت كالجرذان، قصار القامة مهدلى الأكتاف، يبسملون ويحوقلون ويضربون كفا بكف فى إثرهم النساء تسبقهن دموعهن إلى بيت خير الدين. كثير من الأولاد والبنات لم يذهبوا إلى المدرسة اليوم، وفى بيت ألچونى انشغلت الأم بابنتها التى فقدت

الوعى بينما خرج الأب مكسور القلب لينضم إلى الرجال المواسين لوالد خير الدين.

سرعان ما صعدت الشمس. بدأ الجميع يفكرون جديا فى سرعة إجراءات الدفن. كان كروان بين مصطفى وعبده وبلك وبقية الصبية والشباب يبكى بلا انقطاع، بينما الآخرون الذين فاجأهم هذا الموت لا يعرفون لماذا حقا لا تنزل من عيونهم دموع. صعد سليمان وحده فوق السطح ينظر ناحية سطح سعدة التى لا تزال عند أقاربها، وترك دمعة تنزل على خده وهو ينظر إلى السماء، وبعض عصافير صباحية تطير تحتها فى الكون الواسع، وقليل من السحب البيض تمشى على مهل وقال مختنقا بالأسى «الوداع يا خير الدين».

شوهد بعض الرجال يمشون ناحية كرموز لإنهاء إجراءات الدفن والاتفاق مع متعهد فراشة ليقيم سرادق عزاء بالشارع، والآخرون مشوا إلى أعمالهم التى لهم لا يستطيعون أن يتأخروا عنها، تاركين والد ألچونى مع والد خير الدين عازمين على العودة بسرعة قبل الظهيرة للمشاركة فى الجنازة.

فتح العنيبسى دكانه مبكرا كالعادة، حامداً شاكراً لله علي كل ما يأتى به، متذكراً تقدم سنه وقرب نهايته، مستسلما لقضاء الله، وأشعل الراديو يستمع إلى قرآن الصباح ثم بعد ذلك أطفأه. كذلك فعل السيد خليل بينما خرج حبشى من عشته على سفح شاطئ الترعة ووقف وسط الشارع لا يصدق موت خير الدين. لقد صرخ حين علم بالنبأ هاتفا يا رب، يا رب خير الدين طيب وجدع، والدنيا مليانة ناس مالهاش لازمة. يا رب كنت خلى لنا خير الدين..

اندهش الأولاد جدا حين رأوه يصرخ بكل هذا الألم، تراجعوا

قليلا إلى الخلف ليتقدم هو ويقف وسط الشارع رافعا يديه إلى السماء مستمرا فى الهتاف . .

يا رب يا مرسل الطير فى السماء، يا منبت الشجر فى الأرض الخراب، يا ربنا الذى نعبدك ونخطئ كثيرا فى حقك وتسامحنا، نهمل فى الصلاة والصوم وتغفر لنا، نسرق وننهب ونأكل بعضنا وتسامحنا، يا رب واضع اللقطاء فى طريقى كل صباح لأكون سببا فى حياتهم التى سوف يكرهونها بعد ذلك حين يكبرون ويعرفون أنهم أولاد حرام! لكنها حكمتك، يا رازق من تشاء، يا معزّ من تشاء يا مذل من تشاء يا من خلقت العنيبسى والسيد خليل والسيد الأعرج والديب وتاجر البهار ومحمود القزعة والولد عيد المشعور يا رب يا ربنا الذى أراه كثيرا بالليل فوق مياه المحمودية ناراً ونوراً، يا منجى من المهالك، صبَّر أم خير الدين، ووالد خير الدين، وإخوة خير الدين، وخطيبة خير الدين، على موت خير الدين الذى كنت أحترمه غاية الاحترام، وكان يحيينى كلما مَرّ أمامى فى الصباح أو فى المساء، ويناديني دائما وهو مبتسم صباح الخير يا طرزان، مساء الخير يا طرزان!!

دخلت المنطقة فى صمت طول النهار حتى العويل فى بيت خير الدين كان جليلا من فرط الألم! كان عويلا مخلوطًا باليأس، أما البكاء فى البيوت الأخرى فكان أشبه بالعجز الشديد. لقد أحس الجميع بالفاجعة كأمر غير واضح وغير مفهوم وشديد القسوة. إلى جانب الصمت كانت هناك دائما حركة. انتشر الخبر بين عمال وموظفى السكة الحديد فى المناطق الأخرى بالقبارى والمكس ومحرم بك فحضروا فى الظهيرة زرافات للمشاركة فى تشييع الجنازة، وظهر أقارب خير الدين قادمين من الريف ولا يعرف أحد كيف وصل الخبر إلى حكمت فحضرت من كامب شيزار، وإلى فاطمة فحضرت من

الحضرة مع رشاد، وإلى شوقية فحضرت من كفر الدوار. لكن الأكثر إدهاشا كان حضور بدرية من ليبيا فى اليوم نفسه لزيارة أهلها فكانت صدفة عجيبة يندر أن تحدث فى الزمان.

بسرعة أقيم سرادق العزاء، جلس فيه الرجال والشباب قبل التحرك بالنعش إلى المدافن. لقد تم نقل الجثمان من السيارة إلى النعش منذ قليل وعادت السيارة إلى القاهرة. مرافقو السيارة قالوا إنه تم فى القاهرة غسل الجثة وتكفينها على نفقة الشركة، وتركوا مائة جنيه مصاريف للجنازة تدفعها الشركة فى مثل هذه الحالات. قرأ المقرئ ربع قرآن فقط وعلى عجل مرجئًا القراءة الكبيرة إلى المساء، وحمل الرجال النعش وأسرعوا إلى مقابر عامود السوارى طابورا طويلا من الحزن. أول الطابور الرجال مستغرقون فى الصمت، بعدهم نساء يبكين بحرقة دون أن تعلو أصواتهن فيكدن ينفجرن حقا من الألم. آخر الطابور كانت ألچونى وقد اشتعل وجهها الأبيض من البكاء وحولها شوقية وحكمت وفاطمة وحسنة وبدرية ومنيرة اللاتى لم يكنَّ أقل منها بكاء على خير الدين لكن الهلع والذهول كله كان على وجه الچونى. من الشرفات، فى شارع عمود السوارى بكرموز، كانت نساء يتطلعن إلى الموكب الحزين، تقع عيونهن على الچونى المشتعل وجهها بالألم العميق فتنسال دموعهن ويتمتمن بكلمات لا يسمعها أحد. ألچونى طول الطريق تقول جملة واحدة، مع السلامة يا خير الدين، وتصل الدموع إلى شفتيها وتدخل إلى فمها وتبلعها حارقة مالحة . . .

كان مصطفى وعبده يسرعان أحيانا لحمل النعش مع الآخرين، كذلك فعل سليمان أكثر من مرة. لم تكن هناك إجازة بالمدارس ولا بالجامعات، لكن نسيم ظهر قادما من المعهد الزراعى بمشتهر وتناوب معهم حمل النعش، كان لطفى السائح يتمنى لو يحمل النعش معهم

لكن كان ذلك مستحيلا فمشى مضاعف الحزن يحذر أن يصطدم بأحد، بينما كان تاجر البهار الذى ظهر بعد انقطاع قد حمل النعش من البداية ولا يريد أن يتركه، وبالفعل لم يتركه لأحد. كانت فيه قوة مسحورة. لقد سبق حبشى الجميع إلى المقابر لتجهيز المقبرة مع اللحاد، فتحها ورشها بماء الورد، وحرق فيها البخور، بينما كان محمود القزعة متأخرا عن الجميع يمشى وراء الجنازة يشعل سيجارة من سيجارة ويأخذ من كل واحدة نفسا أو اثنين على الأكثر ثم يلقى بها. كان مذهولا من هذا الموت الذى ظهر فجأة فى المنطقة التى لم تعرف غير البهجة واللعب والفرجة على النسوان. . كانت الجنازة بعد أن عبرت كوبرى كرموز قد انضم إليها خلق كثير من المقاهى، فالجنازة لشاب صغير كما هو واضح من تجهيز النعش، ووضع الطربوش الأحمر أعلى النعش من الأمام، والجنازة تجرى بهم لأن النعش يجرى بهم والنهار أبيض وكلما اقتربوا من باب المقابر أسرعوا أكثر وارتفعت الصيحات الله أكبر الله أكبر غير مصدقين خفة النعش الطائر إلى الجنة، ما كادوا يدخلون من باب المقابر، وترى النساء مئات المقابر المتناثرة على كل ناحية حتى ارتفع عويلهن وبكاؤهن وأغمى على ألچونى للمرة الثانية اليوم فانشغلت بها البنات وبعض النساء، لكن الرجال قد وصلوا إلى المقبرة فأخرجوا الجثة فى هدوء من النعش. ما إن راتفعت بين أيديهم حتى صرخ حبشى «وحدوه» وأسرع الرجال يوارون الجثة فى المقبرة، زاد النحيب فملأ الفضاء، وقف تاجر البهار قبل أن يغلق باب المقبرة يلقى بالكلام على رأس الميت اللهم أدخله فسيح جناتك، اللهم اجعله شفيعا لأهله وأخوته يوم القيامة، اللهم اغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم صبّر أهله وعشيرته، اللهم أوقد له فى قبره شمعة، ونجّه من عذاب القبر، من كل ثعبان وشيطان، من كل ناكر ونكير، خير الدين بن خير

الدين خير الأمير الجميل الوسيم اللطيف . . وخنقته العبارات فلم يستطع أن يكمل فراح ينثر المسك من زجاجة صغيرة معه على المقبرة وعلى القريبين من الناس، ثم ناول اللحاد زجاجة عطر أخرى قائلا :

ـ من فضلك ضع هذه الزجاجة من العطر مع المرحوم. إنه عطر البلسم الذى سيجمع حوله الحور العين فى الجنة بإذن الله .

تناولها اللحاد مندهشا، وضعها فى طية من طيات كفن خير الدين وخرج من المقبرة قافزا. قبل أن يغلقوا بابها ظهر خمسة رجال وامرأة قادمين بسرعة ناحيتهم ينادونهم أن ينتظروا. انتظروهم فى دهشة. كان أحد الرجال يحمل طفلا صغيرا ميتا بين ذراعيه، ملفوفًا فى كفن أبيض.

ـ أرجوكم ادفنوا ابننا هذا مع ابنكم، إنه طفل برىء ونحن ناس فقراء لا مقابر لنا فى الإسكندرية . .

ازداد نحيب النساء من هذه المفاجأة. خير الدين مع الأبرار أيها الناس. هتف حبشى فى الجميع. لا يبك أحد فخير الدين مع هذا الطفل ضمن مكانه فى الجنة مع الأبرار. لا يبك أحد. اطلبوا الرحمة لموتانا.

ثقل الموقف على الأولاد والشباب الذين لم يكونوا يعرفون كيف يبكون فاندفعوا فى البكاء. لم يكونوا من قبل حقا يعرفون الموت، ولم يعلموا بوجوده إلا اليوم. ثقيل هو الموت كليل لا ينتهى، حجر لا ينزاح عن الصدر، ودهر لا يمر. وقف والد خير الدين وبعض أقاربه فى طريق الخروج يأخذون عزاء المشاركين فى الجنازة ورأى الجميع قريبا منهم عيد المشعور يقف وحوله عدد كبير من المجاذيب، بينهم مجنون الغناء، ومجنون العلم الذى صار يرتدى الآن شورتًا وفانلة رياضية،

ومخالى اليونانى الذى غلط فى الحساب وآخرون لا يعرفون من أين جاء بهم عيد، كانوا جميعا ينظرون نظرة لا نهائية إلى الناس، وبينهم عيد وقف ينتحب ويتمتم «خير الدين مشى، خير الدين راح، حبيبى خير الدين».

ارتفعت الشمس فوق الدنيا، اتسع الفضاء، عاد الناس متعبين، وأغلقت النوافذ والشرفات فى الطريق. أخذت حكمت الچونى فى تاكسى ومعها شوقية وعدن بسرعة إلى المساكن. ظهرت سحابة سوداء كبيرة دخلت فضاء الإسكندرية فغامت الدنيا لحظات تخيل فيها الناس أن السحابة قد استوت فوق المدينة لا تتحرك وأن المدينة دخلت فى الليل فى عز النهار فهتف البعض باسم الجلالة وانفرطت دموع النساء من جديد، وسجد بعض الرجال يصلى ركعتين فوق الأرض وكانت السحابة تبتعد على مهل عن المدينة والشمس تتسيد الفضاء من جديد فيزداد بياضًا وإشراقا والناس تتساءل فى دهشة، كل هذا حدث من أجلك يا خير الدين اليوم؟ أيقنوا إنه ذاهب إلى الجنة دون حساب، وتمنى كبار السن لو يكون يومهم مثل يومه فى الخفة والمفاجآت الطيبة. اكتشفت النساء والبنات أن نوال لم تشارك فى الجنازة. لم تظهر قط اليوم. «مسكينة نوال اللى فيها مكفيها» قالت بعضهن، ودخل الجميع البيوت التى جثم عليها الصمت..

على جانب السلالم المؤدية إلى القبو جلس سليمان وتاجر البهار وعدد قليل من الصِّيّع الذين يظهرون كل يوم ممن شاركوا فى الجنازة كانوا صامتين، بينما راح، محمود القزعة وعماله يجهزون فى صمت أيضًا طاولات السمك بالثلج المناسب لشحنها فى العربات إلى المحلات البعيدة.

ـ كنت نويت اليوم أن أبدأ فى الصباح رحلتى إلى أسيا، لكن هاتفا أسر إلىّ بموت خير الدين فأجلت الرحلة إلى الغد.

كان تاجر البهار يتكلم مفاجئا سليمان الذى لم يجد شيئا يقوله. كان شاردا يفكر كيف حقا لن يرى خير الدين أو يكتب إليه أو يتلقى منه رسائل، لكن تاجر البهار ظل يتكلم.

الكنز الذى عثرت عليه حقيقى يا أستاذ سليمان، لكنه ليس كنزا من النقود أو الذهب.

هنا وجد سليمان نفسه يرفع إليه عينيه.

ـ إنها مجموعة من الوثائق، أوراق أكلت الأرضة كثيرا من أطرافها، عثرت عليها فى بدروم بيت قديم أقيم محل أحد الفنادق التى كان يملكها آل الدمامينى، أهلى فى شارع فرنسا. أوراق فيها كلام واضح عن ساحل ملبار فى الهند، الساحل الغربى، بلاد الفلفل، وعن ميناء قاليقوط وعن قصر من الرخام غرفه جميعا مطلية بالذهب، عليها رسوم لصور حيوانات وطيور وإنسان وكلام الله فى القرآن، وحول القصر حديقة بها أشجار وزهور وجداول سحرية من ماء رقراق، حديقة تزيد مساحتها على عشرة أميال، تتوزع فيها النافورات وأقفاص الحيوانات البرية التى كان يجمعها الدمامينى الكبير يغذى بها الصقور والسناقر التى كان يزهو بها، فى الأوراق رسوم رسمها فارسى يدعى ميرزا للدمامينى، إنه يشبهنى والله يا أستاذ سليمان، رسم القصر وأعمدته الرخامية المطلية بالذهب والمرسوم عليها أفيال تضحك، والحريم تتفرق فى الحديقة تلهو وتعزف على الأعواد، إن رسوم الحريم تكادتكون مرسومة بالأمس فقط، فالنعمة الإلهية تكاد

تنسكب من وجوههن وأذرعهن الغضة اللامعة تحت الملابس الشفافة. كان الدماميني يختار من يشاء من الحريم، وترك هناك في الهند أطفالا كثيرين لا بد أنهم باعوا القصر، لكن الجزء الطلسم من الأوراق يتحدث عن كنوز من العاج والذهب والفضة واليشم مدفونة في قبو لا يصل إليه غير الدماميني، ومن دخله لم يستطع الخروج.. لقد فهمت الطلسم، ولم يبق لي إلا فهم طريق القبو، وأنا من زمان روحي تهفو إلى السفر إلى الهند بلاد الروح فما بالك إذا كان هناك كنز قد أفوز به. في ساحل ملبار، في ميناء قاليقوط، سأجد من يعاونني بالتأكيد، ومن يدري ربما أجد هناك من يمتلك مخطوطا عن عائلة الدماميني. تصور أنت يا أستاذ سليمان حين يظهر لك أخوة أو أقارب في الهند فجأة. يا له من حلم هذا الذي يراودني ويحفزني في اكتشاف كنوز طريق التوابل القديم، الكنوز الخفية التي هي مختوم عليها بأختام من صنع الجان.

كان سليمان قد انتبه إليه، بعد لحظات لم يعد مندهشا من كلامه. هذا رجل منذور إلى الريح، لذلك لم يندهش حين رأى الرجل يرتعش بشدة بعد أن انتهى من الكلام ثم ينهض لينصرف في صمت. صافحه سليمان وضمه الرجل إلى صدره بقوة لكنه لم يتكلم، كذلك فعل مع محمود القزعة ومشى ناحية كرموز في عزم، بدا الرجل لسليمان شخصًا لا يمكن أن يعود إلى الوراء.

مشى سليمان بدوره إلى البيت صامتا. لمح عيد المشعور قادما من ناحية كرموز وحوله رهط من المجاذيب بينهم مجنون الغناء ومجنون العلم ومخالي أيضا، أدرك أنهم في طريقهم إلى الملاحة لرؤية «ربنا» كما يفعلون كل يوم. قال لنفسه «الله في خلقه شئون» وأصابه حزن

يكاد يفجره فأخذ طريقه بسرعة إلى البيت فى ضيق، جلس إلى مكتبه فى الجزء الخاص الذى اقتطعه من العشة وأمسك بالقلم وكتب فى كراسته:

«قصة سوريالية»

«الأفيال تخرج صامتة من القبو، فى طابور طويل يقوده الممثل الهندى سابو، الجالسون على جانب السلالم يصيبهم الفزع، يجرون إلى كل ناحية، النساء القادمات لشراء السمك تعدن مهرولات لا ينقطع صراخهن. سابو يضحك مفرقعا بالسوط الطويل الذى فى يده فى الهواء. الأفيال تصعد السلالم، محمود القزعة يجرى أمامها وعمَّاله، الأفيال تدوس على طاولات الثلج والسمك فيتطاير ما فيها وينطحن تحت أقدامها، الأفيال تصطف على رصيف الشارع، ترفع خراطيمها عاليا، وتحرك آذانها العريضة، وتصرخ كلها، سابو يتقدمها ويشير إليها أن تتبعه إلى شاطئ الترعة. الأفيال تقف على الشاطئ، تمد خراطيمها فى الترعة، تشرب الماء كله، ترتوى وتنتعش وتنفض أجسادها وتعود للصراخ، فى سعادة هذه المرة. الترعة الآن صارت خالية من الماء، السفن تسقط إلى قاع الترعة. النوتية يقفزون يخوضون فى وحل القاع ويصعدون إلى سفح الشاطئ الآخر، يجرون كخيل قذرة صارخين رافعين أذرعهم إلى السماء من الرعب. فى قاع الترعة تظهر نساء عجائز قابعات ينظرن إلى الفضاء الأبيض، إنهن عرائس النيل اللاتى ألقى بهن قديما إلى النهر استقرت أجسادهن أخيرا فى الترعة. صرن عجائز الآن. يقفن فى الطين، يتحولن إلى عصافير، تكبر وتصير غربانًا، تطير مرفرفة فوق رؤوس الأفيال، وفوق

البيوت، تنتهى إلى الملاحة فوق رؤوس عيد والمجاذيب الذين ينتظرون رؤية وجه ربنا. سابو يأخذ الأفيال ويعود إلى القبو. الماء يعلو وتعلو السفن فوقه فى ترعة المحمودية. الرجال يعودون إلى الجلوس على حافة السلم المؤدى إلى القبو، النساء تعدن لشراء السمك ضاحكات منتعشات، محمود القزعة يتابع أردافهن الصاعدة الهابطة، الأسماك تحمل الثلج على رؤوسها وتعود تقفز داخل الطاولات، العمال يقومون بتحميل الطاولات على العربة التى ستحملها إلى دكاكين المدينة. الرجال فى مقاهي المدينة يتركونها إلى محطة الرمل، فى شارع سعد زغلول ظهرت كيلوتات حريمى ممتلئة بأعضاء النساء الجنسية. فى شارع صفية زغلول ظهرت سراويل الرجال تباع ممتلئة بأعضاء الرجال. . الرجال يذهبون إلى شارع سعد زغلول يشترون كيلوتات النساء، والنساء تذهبن إلى شارع صفية زغلول يشترين سراويل الرجال، المدينة انقسمت نصفين، فى الشرق عاش الرجال مع الكيلوتات الممتلئة وهجروا النساء، فى الغرب عاشت النساء مع السراويل الممتلئة وهجرن الرجال، المدينة ظهرت لعماراتها عيون وتدلت من نهاياتها ضفائر وشعر منسدل، ظهرت تحت العمارات والبيوت أقدام حملتها ومشت بها جميعا لتقابل كل واحدة الأخرى وتبكى وتشد شعرها أمامها. العمارات أمضت اليوم كله فى النحيب ثم عادت إلى مكانها. فى الليل جاءت الرياح الأربع حملت المدينة وطارت بها، راح الرجال يلقون من فوق الريح بكيلوتات النساء، والنساء يلقين بسراويلات الرجال. أخذت الرياح الأربع الرجال والنساء والبيوت والعمارات وغيبتهم فى الكون الواسع، دخلت بهم مجرّة بعد أن عبرت بهم عشر مجرات. على الأرض ظلت الكيلوتات والسراويلات لكنها صارت ممتلئة بالفئران تخرج منها وتدخل ضاحكة

وترتفع صأصأتها حتى امتلأ الفضاء باللهو والصخب . . حملت الفئران السراويل والكيلوتات على ذيولها وجرت بها إلى الميناء تختبئ فى الغرف السفلى للسفن حيث الأفران والأجهزة والمسافرون الفقراء . دب الهلع فى السفن وراح الركاب يلقون بأنفسهم إلى الماء . . ! ! »

توقف سليمان الذى لم يستطع أن يجد مخرجا جميلا لما يكتب . أدرك إنه لن يصل إلى نهاية سعيدة لهذه القصة التى لم يهيئ نفسه لكتابتها . تذكر أنه كان قد انقطع على غير إرادة عن كتابة الجمل التى لا يعرف لها معنى أيضا حين يكتب . لابد أنها تجمعت فى مكان ما فى قلبه لتقفز فى هذا اليوم الصعب ، وتمنحه هذه القصة التى لا يعرف أى معنى لها . أغلق الكراسة وجلس صامتا لا يعرف ماذا يفعل حتى يحل موعد العزاء فى السرادق فى المساء .

فى المساء ارتفع صوت المقرئ بالقرآن وجلس الرجال والشباب والصبية جميعا فى صمت . ظهر المسفَّر الجديد الذى حل محل الديب الذى اختفى بعد الخطاب العجيب الذى كتبه لمرعى ، عرف الناس أنه استقال من العمل فى السكة الحديد كلها ، وعمل تبَّاعا فوق عربات نقل «حمَّاد» الثرى المعروف بالقبارى . الديب منذور للريح . الصدفة جعلت المسفر الجديد يجلس جوار مصطفى الذى كان قد بدأ يتماسك مدركا إنه لا حيلة لأحد أمام الموت الذى هو أقوى شيء فى الدنيا . بدا المسفر الجديد حزينا جدا على موت خير الدين وبشكل كبير .

ـ أهلا وسهلا . كنت هنا فى الصباح؟

تساءل مصطفى وهو يميل ناحيته .

ـ لا . كنت مسافر .

ـ مسافر؟ وكيف عرفت؟

ـ انتشر الخبر فى السكة الحديد ووصل إلىَّ، كنت فى قطار متجه إلى أسوان، كنا بالكاد غادرنا الأقصر، أى والله.

سكت مصطفى ثم فتح عينيه فى دهشة بعد أن أدرك البعد الشديد للمسافة، أكثر من ألف كيلومتر، قال . .

ـ كنت قرب أسوان وحضرت هنا فى نفس اليوم! ركبت طيارة ولا إيه؟!

أوشك مصطفى أن يضحك بحق. كتم ضحكته بصعوبة فاهتز جسده. قال المسفر الجديد:

ـ كنت فوق القطار فقفزت على أقرب سحابة متجهة إلى الشمال فحملتنى إلى هنا، أى والله، هناك تعرف سحب تجرى من الشمال إلى الجنوب، وسحب تجرى من الجنوب إلى الشمال. ركبت واحدة منها، وكله بإذن الله سبحانه وتعالى هو الذى سخر لنا الخيل والأنعام والسحاب لنركبها وزينة!

أخذ مصطفى نفساعميقا حتى لا ينفجر بالضحك. قام ومشى تاركا السرادق وصوت المقرئ المستغرق فى القراءة يملأ الفضاء بالألم! . مشى مصطفى حتى وصل إلى الماكينة الحمراء فاستند على جدراها ونظر إلى مياه الترعة وترك نفسه يضحك ويهتز. أخرجه المسفر الجديد من رهبة الحزن. ابن ديك الكلب حضر على سحابة من أسوان!؟ ويختارنى أنا من دون الناس ليجلس جوارى ويقول لى ذلك، يريد أن يجننى. شىء ما فوق القطارات يذهب بعقول الناس. الله يرحمك يا خير الدين ارتحت من هؤلاء المجانين، والله يكون فى عون ثورة يولية ويكون كمان فى عون ربنا على الشعب!

(١٦)

ـ ياه يا بنات، كنت أشتاق إليكن كثيرا. كنت أشتاق لليلة تجمعنا مثل ليالى زمان. يرحمك الله يا خير الدين جمعت بين الأحباب.

كان قد مضى أسبوع على موت خير الدين، وكانت حكمت قد عادت مرة أخرى لتطمئن على ألچونى وعلى نوال التى لم تجد فرصة يوم الجنازة لتراها. كانت بدرية لا تزال فى زيارة أهلها، كذلك شوقية لم تعد إلى بيتها فى كفر الدوار، كن منذ موت خير الدين يجتمعن كل ليلة عند أبلة نرجس، الساعة الآن تقترب من العاشرة، قالت حسنة:

ـ أنا خائفة على ألچونى يا أبلتى.

كانت حكمت قد أمضت مع ألچونى جزءا كبيرا من النهار تقريبا ومعها شوقية التى قالت:

ـ ألچونى عادت إلى الأكل والشراب المهم المسكينة نوال.

لكن حسنة اندفعت وقالت:

ـ اسمعوا. اسمعوا آخر خبر. أنا تقدم لى عريس.

ابتسمت أبلة نرجس. تهللت وجوه الأخريات. قالت بدرية:

ـ صحيح يا حسنة؟

ـ صحيح والله، زميل أخى العربى، أرمل وعنده ولد وبنت.

ـ معقول يا حسنة، هل أنت عانس حتى تتزوجى من أرمل؟

تساءلت حكمت فقالت حسنة بهدوء:

- حتى لو لم أعنس كثيرا، لم أعد أستطيع الحياة هنا، زهقت من الظلام، عايزه مكان فيه نور، العربى أخى أيضا سيتزوج.

- لا بد أنه سيتزوج قريبة لخطيبك أو أخته حتى يسهل له زواجه منك.

- أبدا. العربى طول عمره يشتغل مع الأجانب، سيتزوج واحدة يونانية اسمها چورچيت.

- چورچيت!

تساءلت شوقية مستغربة الاسم فقالت حسنة:

- هو يقول ذلك، لكن أنا قلبى حاسس أنها مصرية، وقبطية أيضا. كنت أسمعه أحيانا يتكلم عن اليونانية التى كان يعمل عندما وفى الظلام يأتى ذكر واحدة قبطية اسمها چورچيت. العربى لئيم لا يبوح بأسراره بسهولة.

تساءلت بدرية فى دهشة:

- وهل ينفع يتزوج قبطية؟

قالت الست نرجس:

- طبعا، الرسول تزوج من ماريا القبطية وخلف منها ولد..

سكتن للحظات طويلة حتى قالت حكمت:

- ربنا يوفقك يا حسنة. هيا بنا نزور نوال، المرة الماضية لم أجد الوقت، لازم نوال ترجع لصحتها.

قبل أن يتحركن قصت عليهن حسنة ما جرى لنوال فى الأيام الأخيرة. كيف اقتنعت بكلام مدير البرامج بالإذاعة وسافرت إلى القاهرة للرجل الذى حدثها عنه، والذى قابلته بسهولة حيث وجدت

تصريحا باسمها على باب الإذاعة، فدخلت إليه فرحانة، وطلب لها كوبا من الليمون، واستمع إلى صوتها بالمكتب، ثم قال لها «دائما عبد الحميد بيه يتحمس فى غير مناسبة، يا مدموازيل نوال أنت صوتك لا يصلح أبدا للغناء»، وتركها فى المكتب وخرج. عادت نوال إلى التدخين من جديد، أكثر من ذى قبل، أهملت فى عملها لكن مدير المستشفى الذى أشفق عليها أعطاها سنة أجازة بدون مرتب حتى لا تتعرض للفصل من كثرة الغياب.

قالت حكمت بثقة:

ـ كل هذا يمكن حله، أنا الآن أعرف ناس كبار فى البلد وأستطيع أن أساعدها. هيا نراها بسرعة. الساعة تقترب من الحادية عشرة.
خرجن جميعا وظلت أبلة نرجس وحدها. كان كروان قد نام مبكرا فى الحجرة الداخلية. فوجئت به أمامها يقول إنه لا يستطيع النوم وسيخرج يشم قليلا من الهواء على المحمودية. كان يمسك بالناى الصغير فى يده كانت تعرف مدى حزنه على خير الدين. رقَّت له وتركته يخرج كانت فى حاجة إلى الصعود إلى السطح. هذه الليلة عليلة النسيم تتفتح فيها مسام جسدها للنشوة رغم الألم الذى يسكن البيوت. كانت فى حاجة إلى ذلك الأثيرى الغامض وتلك اللذة السرمدية. كان كروان للتو قد أغفى لحظات رأى فيها خير الدين يقف على ناصية الشارع يناديه مشيرا إليه بذراعيه، كروان، كروان، تعالى معايا يا كروان، فقام مفزوعا من النوم خائفا لكنه لم يقص رؤيته على أمه. على الشاطئ وجد سليمان جالسا على حجر يتأمل الماء الساكن والبخر الأبيض الخفيف السابح فوق الماء. هل رأى سليمان رؤياه أيضا؟ جلس جواره، وراح سليمان يتكلم..

- أسبوع الآن منذ موت خير الدين وأنا أفكر فى مغادرة الإسكندرية، مغادرة مصر كلها، والسفر إلى إنجلترا أو أستراليا. فكرت أسافر إلى أواسط إفريقيا أبحث عن عمى وأكتب معه حكاية الإمبراطورية المصرية، فكرت ألحق بتاجر البهار وأكتب قصة طريق التوابل، فى آسيا، انتهيت للسفر إلى أوربا بمساعدة چين بانكروفت!

لم يكن كروان يفهم تفاصيل ما قاله سليمان، الذى راح بدوره يشرح له كل شىء، وكروان فى دهشة كبيرة مما يسمع، فى الوقت الذى كانت فيه حكمت وبدرية وشوقية وحسنة جالسات حول وأمام نوال الصامتة. كان مشهدها مخيفا فى جلستها الجامدة فوق الكنبة، وشحوبها الشديد والسيجارة التى تهتز بين أصبعيها وبين شفتيها. انحنت كل منهن تقبلها ونوال لا تتحرك، ولا تبادلهن القبلات أو التحية، تنظر بعيدا فى الحائط المقابل ولا تحرك عينيها.

- نوال. أنا بدرية حبيبتك. أنا شايلة العقد الكهرمان فى رقبتى حتى الآن. شايفاه؟ دائما أفتكرك يا نوال. أحضرت لك فستان فرح إيطالى، احتفظى به ليوم فرحك يا نوال.

- نوال بصّى لى. أنا حكمت. قولى لى من ضايقك وأنا أقدر أضربه لك بالشبشب. أنا أعرف ناس كثير مهمة فى البلد يا نوال. صدقينى.

- نوال أنا شوقية. أنا خلفت ولد جميل اسمه على باسم أبى، ياريت تقومى معى تشوفى على عند ماما يا نوال.

لكن نوال لا تتحرك. أطفأت سيجارتها وبدت لا تسمعهن ولا أمل فى أن تسمعهن.

- بصّى لأ صحابك يا نوال. تكلمى يا بنتى أنا خائفة يجرى لك حاجة. ارحمينى وارحمى أباك وأخواتك.

قالت الأم باكية لكن لا فائدة. طال الصمت وانتحبت الأم أكثر فأخذن فى تهدئتها، لما هدأت ثقل الصمت أكثر. من يقطع هذا الصمت الآن؟ لا أحد. على شاطئ ترعة المحمودية كان كروان مذهولا من المعلومات التى أخبره بها سليمان، من الرواية التى كان قد شرع فى كتابتها ولم يتمها، من رسالة محمود الملاح إليه وقال سليمان:

- غدا فى الصباح سأعطيك كل الرسائل، حتى رسائل خير الدين لى، وسأعطيك ما كتبته من الرواية، من يدرى ربما تظهر لك ميول فى الكتابة، ساعتها أرجو لك حظا أحسن، وأرجو أن تذكرنى إذا استفدت مما أعطيته لك.

راح كروان ينفخ فى الناى بهدوء، وسرى فى الصمت والظلام الصوت الشجى للناى.

لقد تقدم كروان فى دروس الموسيقى كثيرا فهو يعزف بتمكن وتلقائية. تأثر سليمان حتى إنه لم يعد يشعر بأى شىء حولهما حتى رأيا شيئا يسبح فى الماء على مهل. لم يكن حبشى كما ظن كل منهما. كانت زوجته الجديدة، كانت عارية تماما تقترب من الشاطئ وتضحك لهما ثم تعود وتغطس ضاربة الماء بذراعيها لتختفى لحظات ثم تظهر بعيدا حمراء بين البخار الأبيض ثم من جديد تقترب منهما وتضحك.. لم يكن هناك صوت فى كشك حبشى ولا كشك الأولاد المجاور، الجميع نيام، والمرأة وحدها، اقتربت منهما كثيرا هذه المرة ثم أشارت لهما أن يبتعدا فهى تريد أن تخرج من الماء. كان الوقت

منتصف الليل تقريبا، تركا مكانهما عائدين كل منهما إلى بيته لا يصدقان ما رأياه. فى بيت نوال قامت البنات يائسات ورحن يقبلنها مودعات. أنسالت دموع هادئة من عيونهن وغادرن الحجرة ونوال جامدة فى مكانها. فى منتصف الصالة الخارجية جاءهن الصوت الملائكى العذب الجميل حزينا واهنا محملا بالعذاب.

دخلت مـــــرة فى جنينة
أشم ريحـــــة الزهور
وأهنى نفـــسى الحـــزينة
واسمع نشـــيد الطيـــور

وقفن وقد علا وجوههن الفرح. عدن بهدوء. كانت نوال لا تزال جالسة جامدة فى مكانها تنظر إلى الحائط ولا تشعر بهن:

بصيت لقيت على الغصون
بلبل وياه وليفـــتـــه
واقف مـــعـــاها فى سكون
أنا فـــرحت أمـــا شـفـتـه

قامت واقفة وراحت تفرد ذراعيها كجناحين وتحركهما بهدوء كما لو كانت راقصة باليه تطير فى الفضاء وتغنى ذاهلة عنهن لا تزال ويعلو صوتها الجميل:

وقـــال لهـــا يا مـــلاكى
اللى تعـــوزيه أطلبـــيه
روحى وعـــقلى فـــداكى
حبـيبك أوعى تسيبيه

وانكمشت وخبأت رأسها بين ذراعيها ورق صوتها وازداد ألما:

وبعـــــد مـــــــدة طـويـلـة
فى شـــرب كـــأس الوصـــال
لقـيت حـبـيـبـتـه الجـمـيلة
ســـاقـت علـيــــه الـدلال
طارت مــاســألتش فـيــــه
وخـلّت الـكـون عــــــذاب

اقتربت من حكمت، نظرت إليها نظرة مهزومة، انشرخ صوتها وامتزج بالغناء البكاء، هن تركن دموعهن تنزل هادئة على خدودهن وعادت نوال تجلس إلى الكنبة وهن يقتربن منها وهى تحاول أن يصفو صوتها :

واللـى كـــمــــان زاد عـــذابه
وليـــفــتــه لافت بـغـيـــره
وزودت لـه مــــصـــــابـه
وداق يا روحـى مــصـيـــره

لكنها لم تنجح أن تتخلص من البكاء، بل زاد صوتها نشيجا :

خـــرجت صـــعـــبـــان علىّ
حـــالتـــه تبـكّى الجـــمـــاد
حـــــــــــفـظ ودادهـــا وهـى
خـــانـت عـــهـــود الـوداد.

انفرط عقدها فلم تعد قادرة على كبح البكاء، نوال. نوال يا حبيبتى رحن يقبلنها من كل ناحية وبكت الأم وفرحت معا وهى تقول :

ـ الحمد لله يا بنات، البكاء أول الشفاء.

فى الصباح الباكر خرجت نوال إلى العمل قوية، تشعر أن العالم كله

حقل واسع وهى المهرة الوحيدة التى ترمح فيه فى كل الاتجاهات. صار العالم الآن ملك يديها بهذه القوة التى دبت فيها. كان النهار صاعدا أبيض من كل يوم، الفضاء أوسع من كل يوم، وما إن خرجت من باب المساكن إلى شارع قنال المحمودية الخالى فى مثل هذا الوقت من كل صباح حتى وقفت قليلا ليراها الرجال الخارجون إلى أعمالهم والتلاميذ الذاهبون إلى مدارسهم، بدا لها الكون بهذه الحركة الهادئة حولها جميلا وديعا فمشت فى عزم إلى المعدية، رأت على الشاطئ حبشى واقفا جوار الكشك يلقى بتعليماته لعدد كبير من الأولاد والبنات العراة إلا من السراويل عن فائدة الاستحمام فى الترعة فى الصباح الباكر، وكيف يساعد الأكبر الأصغر منهم على تعلّم السباحة. بدا لها حبشى مثل ملك فى مملكة صغيرة، شعبه هو أطفاله، وأرضه هى أرض ربنا، قالت له ضاحكة «صباح الخير يا طرزان» ولم تكن من قبل قد قالت له ذلك، هو أيضا فوجئ واستولت عليه الدهشة فقال مرتبكا صباح النور، صباح النور يا سستر نوال، وسبحت بها المعدية يدفعها المعداوى الصامت وحبشى يتابعها بعينيه معجبا بجمال جسمها ولا تزال بسمتها وهى تتكلم معلقة أمامه فى الفضاء، قفزت نوال إلى الترام الواقف التى ما إن بدأت تتحرك حتى تنهدت نوال بعمق وأغمضت عينيها، وجدت نفسها ترتل مع إيقاع صوت عجلات الترام.

من أنت أيتها المرأة اللغز؟

قالت أنا التى اعتصر جويا حليبى

وقام مجنونا ليرسم فريق الإعدام

ويجرى فى الشوارع مع الثيران

يا رفاق..

الثيران عرفت جويا وأوسعت له الطريق

ووصل جويا إلى حافة النهر فرحان

هيا نصلى جميعا وراء جويا

هيا نصلى جميعا وراء جويا

فى الوقت نفسه كان سليمان قد صعد إلى السطح حزينا يلقى نظرة على الفضاء الذى يعشقه لآخر مرة لدهشته وجد سعدة جالسة فوق السطح المقابل تنتظره. رأته فوقفت فرحانة تبتسم ومن وجهها تشع البسمة والفرحة تنتقل إليه، ولدهشته قذفت إليه بورقة صغيرة ملفوفة حول زلطة التقطها وفتحها يقرؤها غير مصدق «أنا مش صغيرة يا سليمان. أنا كبيرة وباحبك وما فيش أى حاجة فى الدنيا حتمنعنى عنك المهم أنك أنت يا سليمان لا تتراجع».

وضع الورقة فى الجيب الأيسر لجاكت البيجامة فأحس بقلبه ينبض.

ـ هل ستبقين هنا دائما؟

سألها فقالت:

ـ حتى لو أخفونى مرة ثانية سأعود، المهم تنجح أنت فى الحياة، ساعتها لن يستطيع أحد أن يخفينى..

ولتكمل سعادته أرسلت إليه قبلة نفختها على راحة يدها فقفز فى الفضاء يتلقاها بفمه فضحكت وسرى صوتها المبهج وسط الضوء فاشتعل سليمان من السعادة الغامرة وهتف:

ـ لن أذهب إلى أى مكان. سأبقى هنا وسأكتب قصتى وسأنجح.

قالت:

ـ أنت كنت نويت تسافر؟

قال:

ـ هذه حكاية صارت قديمة الآن .

ـ إذن أنزل أنا بسرعة حتى ألحق بالمدرسة .

نزلت وظل هو واقفا سكرانا من النشوة . كان الحامل الذى أقامه وركَّب عليه المرآة قد سقط من زمان فشرع فى إصلاحه وإعادته إلى مكانه . قرر بعد أن ينتهى من ذلك أن يخرج يمشى فى المدينة على غير هدى ، يقطعها كلها من كرموز إلى محطة الرمل ثم من محطة الرمل إلى محطة قصر المنتزه ويعود بعد ذلك إلى الأنفوشى ، ثم يركب الترام حتى الحضرة ويعود مشيًا على شاطئ المحمودية حتى يعبر المساكن إلى كفر عشرى والقبارى والورديان والمكس ثم يعود بالترام إلى المدرسة التليانية عابرا مينا البصل ، ثم يدخل في كرموز من جديد . الإسكندرية مدينة سهلة ، طويلة حقا لكنها مستسلمة للمشاة وللركاب ، لسكانها وللمهاجرين من كل الدنيا ، ومن شمال وجنوب البلاد كانت مديرية الصحة قد أعلنت اليوم أن المواليد زادت من المصريين بنسبة ١٠٪ بينما قلت مواليد الأجانب بنسبة خمسين فى المائة ، وفى الوقت الذى تجاوز فيه سكان الإسكندرية الخمسمائة وخمسين ألف مواطن تناقص الأجانب إلى ثلاثين ألف مواطن ، وأعلنت إدارة الميناء أن الرحلات البحرية قد زادت فصارت هناك خمس رحلات شهرية بدلا من أربع إلى صقلية وأثينا ورودس واللاذقية وبيروت ، وأعلنت الغرفة التجارية أن مصر شهدت أكبر حركة تمصير منذ بداية هذا العام بحيث لو استمر الأمر على هذا النحو سيتم تمصير كل المؤسسات والشركات والورش والبنوك والمحلات الأجنبية خلال أربعة أعوام على أقصى تقدير ، وفى المساء عرف كروان أن سليمان لن يبرح البلاد ، ومن ثم لن يعطيه شيئا مما كتب أو احتفظ به من رسائل لخير الدين ومحمود الملاح ، ولم يندهش كروان ، بل اندهش من نفسه كيف صدق حقا أن سليمان يمكن

أن يرحل إلى أى مكان آخر وفى منتصف الليل وجد نفسه يخرج إلى شاطئ ترعة المحمودية دون سبب. لكنه حين رأى زوجة حبشى الجديدة تسبح أمامه عارية وتقترب منه وتضحك اهتز جسده وأدرك أن هذا هو السبب. فى اليوم التالى خرج كروان مرة أخرى فى منتصف الليل، وكانت المرأة فى انتظاره. فى اليوم الثالث فعل ذلك أيضا، وظل يفعل ذلك كل يوم ويندهش من هذه الرعشة اللذيذة التى تسرى فى جسده وهو يرى المرأة تسبح أمامه فى الماء عارية ولما شعرت أمه وأبوه بخروجه راح يتظاهر بالنوم حتى إذا ناما خرج متسللا وحده حافيا كيلا يصدر صوتا، وحتى بعد أن ينتصف الليل بكثير كان يجد المرأة فى انتظاره فى الترعة وحدها دائما، لم يجد حبشى معها مرة واحدة، صارت ما إن تراه حتى يتهلل وجهها وتقفز فى الماء تغطس وتطفو كسمكة حقيقية سعيدة، دعته أكثر من مرة أن ينزل معها فكان يشير بأصبعه السبابة رافضا فراحت تسبح ناحية كوبرى كرموز وهو يمشى جوارها على الشاطئ شاعراً بملمس الأرض البارد ينعش قدميه، ورغم دخول الخريف، كان بخر الماء الأبيض لا ينقطع، وهى تسبح فوق الماء وبينه عارية بلحمها الوردى وهو يمشى على الشاطئ لا يرفع عينيه عنها، حتى تعود إلى الكشك فيعود هو إلى البيت. احتفظ بسره فهذه الحلاوة التى تنطلق فى روحه لو عرف سرها أحد لتبخرت وراحت بلا رجعة، ولم يعد قادراً أن تمر به ليلة دون أن يتسلل إليها خارجا فيجدها تنتظره، لم يدرك أنها وهى تسبح ناحية كوبرى كرموز كانت تزيد المسافة ليلة بعد ليلة، وهو يمشى معها غير شاعر بالتعب ولا بالجوع ولا بالعطش..

«انتهت»

تنويه

• اعتمدت هذه الرواية فى عدد من المعلومات السياسية والاقتصادية والتاريخية على كتب عديدة وبحوث متنوعة وصحف ومقالات من أبرزها.

١ـ تجارة التوابل فى مصر فى العصر المملوكى

تأليف: د. محمد عبد الغنى الأشقر

سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ١٣٧

٢ ـ الرأسمالية الصناعية فى مصر

تأليف: د. عبد السلام عبد الحليم عامر

من التمصير إلى التأميم سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ٥٩

٣ ـ وجوه سكندرية

تأليف: حسن المناويشى

الناشر: الملتقى المصرى للإبداع والتنمية

٤ ـ تاريخنا القومى فى سبع سنوات

تأليف: عبد الرحمن الرافعى

الناشر: دار المعارف المصرية

٥ ـ أربعون عاما على العدوان   تأليف : كمال القلش

بورسعيد أيام المقاومة   كتاب الأهالى رقم ٥٩

٦ ـ مصر . ولع فرنسى   تأليف : روبير سوليه

ترجمة : لطيف فرج

الناشر : دار المستقبل العربى

٧ ـ صحيفة الأهرام ، وصحيفة الأخبار ،

ومجلة المصور ، ومجلة آخر ساعة

سنوات ١٩٥٦ ـ ١٩٦٠ .

٨ ـ الاقتباس الأول من بودلير من قصيدة

«شجن Spleen» من ديوان أزهار الشر .

٩ ـ الاقتباس الثانى لهارى تزالاس

من فصل "'Am Ahmed était Concierge

المنشورفى مجلة Méditerranéennes

عدد ٨/ ٩ / خريف ١٩٩٦ .

طيور العنبر

«طيور العنبر» هي الجزء الثاني من مشروع «ثلاثية الإسكندرية» لإبراهيم عبد المجيد. وبينما تناولت «لا أحد ينام في الإسكندرية» (جائزة أحسن رواية في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٩٦) تاريخ المدينة خلال الحرب العالمية الثانية، تتناولها «طيور العنبر» غداة إعلان تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وخروج الأجانب بالآلاف، وما أحدثه هذا التغيير المفاجئ في التحول شبه الكامل لهذه المدينة الكوزموبوليتانية التي كان يعيش فيها المصريون واليونانيون والإيطاليون والفرنسيون والإنجليز واليهود وغيرهم في تجانس وسلام تام، ولتتحول أسماء شوارعها فجأة من كفافيس وبابادوبلو وهيرودوت إلى عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص، وشوارع أغاممنون وأخيل ورمولوس وفيلوكتيتس إلى خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وموسى بن نصير وطارق بن زياد.

إبراهيم عبد المجيد يرصد لحظة تحول كبرى لا رجعة فيها لواحدة من أعظم مدن الشرق، فيها لا يكتب عن الجغرافيا أو التاريخ ولكنه يكشف روح المكان، روح الإسكندرية، روح التحرر وعدم الاستقرار والنزق وروح الحزن والجنون.



إبراهيم عبد المجيد كاتب سكندري ولد عام ١٩٤٦ ودرس الفلسفة ... ى
«في الصيف السابع والستين» عام ١٩٧٩، وصدر له حتى الآن ١٢ ... س
مجموعات قصصية ومسرحية وترجمة وكتاب رحلات. ترجمت ... نه
للإنجليزية والفرنسية والألمانية. حصل في عام ١٩٩٦ على جائ... ي
الرواية من الجامعة الأمريكية في القاهرة عن روايته «البلدة ا... ته
«لا أحد ينام في الإسكندرية» بجائزة أحسن رواية في معرض ا... ب
عام ١٩٩٦. كما حصل عام ٢٠٠٤ على جائزة الدولة للتفوق في الآ...



دار الشروق
www.shorouk.com